من أجل استعمال ملائم للدراسات المستقبلية

المهدي المنجرة

أستاذ بجامعة محمد الخامس بالرباط ،
عضو أكاديمية المملكة المغربية ونادي روما ، رئيس
الجمعية الدولية للمستقبلية

تمهيد

تستلزم الدراسات المستقبلية أن يتسم تحليل معطيات الواقع واتجاهات الأحداث من جهة ، والطريقة المنهجية المتبعة من جهة أخرى ، بطابع الدقة والموضوعية . إلا أن الغاية من هذه الأداة تكتسي صبغة معيارية في جوهرها إذ هي استجلاء للمرامي والأغراض .

وتتأتى الجدة في الدراسات المستقبلية من صياغة تلك الأغراض في إطار ابتكار وإبداع أنساق قيم اجتماعية ثقافية ، وترجمة تلك الأغراض إلى مخطط عملي في شكل اختيارات بديلة وسيناريوهات ممكنة .

هل كانت الدراسات المستقبلية دائما في مستوى مهمتها ؟ سؤال في الصميم ، إذا ما اعتبرنا أن نجاح الدراسات المستقبلية لم يعد موضعا لأدنى تشكك . لقد قمنا منذ عشرين سنة خلت بتجربة التحليل المستقبلي حول مسار الدراسات المستقبلية ذاتها ، ولكن ظهر أنه من الصعب التكهن بدرجة نجاحها وأهميته ، إنه نجاح يستحق أن نفحصه عن كثب حتى تنجلي لنا التطورات المقبلة .

إن تقدم المناهج والتقنيات في الدراسات المستقبلية أصبح أمراً غير متنازع فيه ، وإذا حدثت أحيانا مبالغات في استعمال بعضها ، كالنمذجة الرياضية مثلا ، فالخطأ لا يرجع إلى المنهج ، بل إلى كيفية استخدامه بدون مراعاة حدوده .

إن الانشغال الحثيث بالتحليل الكمي يبقى مرحلة ضرورية ليس فقط لضبط صلاحية المؤشرات بل أيضا لتجسيم الرؤى .

إن الدراسات المستقبلية كانت ومازالت تؤتي أكلها في بعض المجالات كالمجال العسكري عند الدول العظمى ـ ونشاط الشركات المتعددة الجنسية بدون أن تفشي أمرها . ويقل النجاح حينها يتعلق الأمر بأهداف تامة الضبط ، موحدة الملامح ، مع نظام لسلالم القرارات قويّ الهيكلة ، بالاضافة إلى وفرة هائلة في الوسائل وتقليص بالغ للمراقبة السياسية .

لكن التحدي إنما يكمن في إثبات فائدة وصلاحية الدراسات المستقبلية بتأكيد أولوية مشاركة السكان ، وتوريط مسؤولية الدوائر السياسية ، وبإصلاح المؤسسات ، وأخيرا بتطوير البنيات العقلية مع احترام تام لنظام القيم القائمة ولحرية اختيار الأشخاص المعنيين .

ذاك نموذج مازلنا بعيدين عنه . وكثيرا ما نلجأ حاليا إلى الدراسات المستقبلية لكون « أزمات » معينة ترغمنا على ذلك ـ ويتعلق الأمر ذاك بـ « مستقبلية تفاعلية » تقاوم الحاضر بتبرير الماضي عوضا عن ابتكار المستقبل .

تطلب النجدة كذلك من الدراسات المستقبلية حينها يصبح الواقع لا يطاق ، لتبرير هروب إلى الأمام إخلاء للحاضر . تلك « مستقبلية تخديرية » قريبة من الديماغوجية في بعض الأحيان .

تستعمل الدراسات المستقبلية أيضا للتأثير على الحركات الفكرية ، وذلك بحصر الأولوية لفائدة التصورات المستقبلية دون أخذ رأي المعنيين بالأمر . في هذه الحالة ، نكون أمام « مستقبلية الانتهاز » على المستوى الوطني ، أو « مستقبلية الاحتكار » على المستوى الدولي .

على الرغم من هذه السحب السوداء ، قطعت الدراسات المستقبلية أشواطا كبيرة نحو الأمام بفضل إخلاص عدد متزايد من باحثين متحمسين للمشروع ، ومن مسؤولين واعين بخطورة الرهان ، ولو أن تلك الدراسات لم تزل بعيدة كل البعد عن التمكن من إيجاد حلول للتحديات التي ستواجهها إنسانية الغد .

إن السلطات العمومية وكذا الهيئات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، في كثير من البلدان ، تُبدي ـ في التفتح إزاء ضرورة اعتبار البعد الزمني في أنشطتها ـ ما يفوق بكثير ما كانت عليه قبل ٢٠ سنة . إلا أن العقبات عديدة جدا .

إن المختصين في الدراسات المستقبلية لا يتوفقون دائما في استعمال خطاب في متناول الفهم ، إذ غالبا ما يتسترون وراء منهجيات تقتضي صعوبة تقنياتها إلى حجب الغايات في نهاية المطاف ، كما أنهم باستخدامهم مفاهيم مغلقة وعبارات غريبة ينفرون المتقين عن المستقبليات .

لكي يقود التوقع ، بمعنى سبق الأحداث ، إلى التجديد الاجتماعي ، لابد أن يمر عبر المشاركة . لقد تحسنت تقنيات الاستطلاع بقدر جليّ وأسهمت في تزايد معرفتنا بتطلعات الجمهور ، وإن كانت مزاولة هذه التقنيات مازالت محتكرة لفائدة انشغالات تجارية وسياسية قصيرة المدى . أما الاستطلاعات والدراسات التي تعالج التحولات السارية في النظم الثقافية الاجتماعية فما تزال نادرة ، ولابد أن نشير هنا إلى الدراسة القيمة التي أنجزتها الجمعية الدولية للمستقبلية سنة ١٩٨٥ حول « اتجاهات النمو الثقافي الاجتماعي في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OCDE) الى غاية ٢٠٠٠ » ، وكذا الدراسة الجارية حاليا حول تطور نظم القيم لدى الشباب الافريقي .

على المستوى العالمي ، يجب الاعتراف بأنه توجد الآن هيمنة فكرية ومنهجية على مستوى الدراسات المستقبلية ، وأنه ، عندما تحاول أوروبا ردعها وتتوفق أحيانا في محاولتها لبراعة ، فإن تلك الهيمنة تزداد حدتها من جراء الأنانية العرقية للبلدان الغربية ، تلك الأنانية التي تشكل ، وبكيفية غير واعية ، ربما حاجزا من الاستغلال لا يسهل معه التعاون الدولي . إن البلدان المستعمرة سابقا تعاني صعوبة كبرى في إعادة اكتشاف ماضيها الذي انتابه تشويه فظيع ، في الوقت الذي تكافح حاضرا وتصارع فيه عدم تكافؤ القوى في العلاقات السياسية والاقتصادية . فمن اللازم أساسا ، إصدار مدونة للأحوال المستقبلية للعالم الثالث ، لأن مصير الإنسانية مرهون بهذا الأمر . إن إزاحة بصمات الاستعمار عن المستقبل لأكثر عبثاً وصعوبةً من نزعه عن الماضي أو الحاضر .

إن هذا لا يعني البتة « تأميم » الدراسات المستقبلية ، إذ سيؤدي الأمر إلى عكس ما ترمي إليه ، إلى التناقض مع اتجاهات العصر التي تدل على تداخل متزايد لمشاكل ومصالح الشعوب . والهدنة المقترحة هنا إنما تهم استخدام الدراسات المستقبلية كمنهج عملي يعطي الأسبقية لاختيارات الشعوب فيما يتعلق بنموذج الحياة في المستقبل . فالأمر إذن لا يعني سوى نداء لصالح دمقرطة الدراسات المستقبلية داخل الدول وفيما بينها .

ولابد من التأكيد أيضا أن الخطأ متبادل ، إذ من المؤسف أن من أخطر علامات التخلف الاستخفاف في تقدير الأهمية الاستراتيجية للمستقبل . وأنه دائما يصعب التفسير والإقناع بقاعدة بسيطة ، تقضي أنه كلما ازداد خطرُ وحِدّةُ مُشكل مصيري (الجوع ، البؤس ، الجهل ، المرض ، الصناعة ، التجارة . . .) ازداد تعلق الحل الحقيقي المناسب للحاضر بنظرة شمولية للمستقبل .

إن الانطلاق الحقيقي نحو النمو يبدأ عندما ينهض المسؤولون والمواطنون لتخطيط نظم ومعاملات من شأنها أن تُحدِّد ، في حرية وتضامن ، رؤيةً واضحة لمستقبل البلاد . في هذا الباب أيضا تلمح بعض بشارات الأمل في بعض بلدان العالم الثالث ، ومن ثم أهمية ترك حرية اختيار الطريق وابتكار الحلول من داخل الواقع ، وذلك مع احترام الكرامة والقيم الثقافية الاجتماعية لتلك البلدان ، إنما الإيثار ، في بعض الأحيان ، يكمن بالضبط وقبل كل شيء في فسح مجال الإفصاح لإيثار الآخرين .

وهكذا ، إذا تم احترام بعض القواعد البديهية ، لا مندوحة من أن تتوفر لدينا جميع الأسباب للاقتناع بأن الدراسات المستقبلية ستصبح أحد المجالات المفضلة لتعاون الغد ، تعاون سيتمحور حول الأفكار والابتكار ، أكثر بكثير منه حول المنتوجات والضغوط .

المهدي المنجرة

❊ ❊ ❊

الدراسات المستقبلية *الاشكاليات والآفاق

عواطف عبدالرحمن

إن حياة البشر وتاريخ كل مجتمع عبارة عن جوهر تتداخل في إطاره الأحداث ، وتمتد الظواهر وتتشابك وتتفاعل عبر علاقة الانسان بالزمن الذى يتميز بخاصية الاندفاع الدائم نحو مستقبل غير منظور وغير متناه يحكمه قانون أساسى هو قانون التغير أو الصيرورة ، ذلك القانون الذى يلف كل شيء في هذا الكون بإيقاعاته المطّردة وتأثيراته المستمرة . ويقضى هذا القانون بكل حسم بأن الماضى يستحيل أن يكون حاضرا أو مستقبلا وذلك خلافا للمستقبل الذى يتحول بطبيعته الى حاضر ثم ماض . ومن المعروف أن الزمن يكتسب صفة النسبية من واقع صلته بالمكان والحركة . أما في التاريخ البشرى فإن نسبية الزمن ترجع الى صلته بالحياة المتغيرة دوما وبالانسان وقدراته الادراكية المتميزة على وجه الخصوص . فالإنسان سواء في خصوصيته كفرد ، أو عموميته كجماعة ، قادر على تقليص الزمن وتكثيفه وتحويل مساره في لحظات الابداع الكبرى أو الخلق أو العطاء الفذ مثل لحظات التوحد النادرة في حياة الشعوب التى تحدث في فترات الثورات أو الحروب الوطنية ، حيث تتحول اللحظة الزمنية وتصبح مساوية لمدى الدهر وتبدو كأنها تعادل مئات الحقب الزمنية الأخرى .

والواقع أن مسيرة الزمن متصلة لا تعرف الانقطاع غير أن اتصال مسيرة الزمن لا يعنى تكرار أحداثه ، فمن المسلم به أن التاريخ لا يكرر نفسه ولكن التغير المستمر لا يعنى انبتات الحاضر عن الماضى ، أو المستقبل عن الحاضر . فالمستقبل هو الحصيلة التراكمية للأحداث والتغيرات النابعة من المجتمع أو الوافدة عليه .

ويرجع تاريخ الاهتمام بالمستقبل الى البدايات الأولى للتطلع البشرى الى المعرفة الشاملة بالكون واستكناه غوامضه وأسراره وفى مقدمتها الزمن ، وذلك بهدف السيطرة على حركته والتحكم في مساره . ويمكن تبين

ذلك بوضوح في التراث الأسطوري والديني للبشرية حيث توجد الجذور الأولى لعلم المستقبل في صور وأشكال متباينة . وحقيقة الأمر أن إقبال المفكرين والمؤرخين على دراسة التاريخ كان يحمل دوما الرغبة الخفية في محاولة استشفاف المستقبل . ولم ينفرد العلماء أو الفلاسفة والمؤرخون بالعمل على الاقتراب من خفايا المستقبل بهدف الكشف عن إرهاصاتها وتكوين رؤ ية معينة لهذا المستقبل بل كان للشعراء والأنبياء دور خاص في هذا المضمار ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نشير الى شعراء الملاحم كهوميروس وجلجامش ، ومؤلفي اليوتوبيات كأفلاطون وتوماس مور ، وأنبياء العهد القديم كأرميا وأشعيا وحزقيال .[1]

ويضاف الى ذلك رؤ ى الأديان للمستقبل كحقيقة حتمية يتحرك إليها (المؤمن) دون أن يملك إمكانية تعديلها أو تحويل مسارها وليس للمؤمن سوى التسليم بها كما أنزلت . ورغم أن الفكر البشرى قد عمد منذ القدم الى دراسة وتأمل البعدين المعروفين للزمن والمقصود بهما الماضي والحاضر ، إلا أن الاهتمام باستطلاع المستقبل لم يغب مطلقا عن ذهن قدماء الفلاسفة والمؤرخين والأنبياء . فظواهر العرافة والكهانة والتنجيم التي تميزت بها الحضارات القديمة في مصر وبابل واليونان والهند تدل على الاهتمام المبكر الذى أولته البشرية منذ أقدم العصور لمحاولة استطلاع المستقبل وفهم مساراته .

إلا أن المستقبل لم يسبق له أن اعتبر (علما) إلا في العصور الحديثة ، وفي بدايات القرن العشرين على وجه التحديد حيث برز الى الوجود شكل جديد من الجهد الانساني يختلف اختلافا نوعيا عما سبقه من محاولات في مجال البحث عن المستقبل . وعلى الرغم من أن لعلم المستقبل جذورا في تراث العصور السابقة الفكرى والأدبي والعلمي والديني فإنه أصبح يحمل سمات عامة جديدة تجعله يختلف اختلافات أساسية عن الاستطلاعات السابقة للمستقبل . ومن سمات علم المستقبل اعتماده بصورة أساسية على العقل مقترنا بالخيال والعاطفة والحدس ، ومعنى ذلك أن الأرض الأساسية للتفكير المستقبلي هي أرض الوقائع والمعطيات لا أرض الأوهام والتخيلات . ومن سمات التفكير المستقبلي وعي المشتغلين به وعيا تاما بأهمية الزمن ، فهم يدركون أن لمشكلات اليوم جذورا في الماضي وأن تلك المشكلات لا تنشأ بين يوم وليلة وإنما تتكون تدريجيا وبصورة لا يلحظها غالبا الانسان العادى .[2]

وهكذا نرى أن المستقبل ليس منبت الصلة بالحاضر أو بالماضي ، ولا يمثل فصلا جديدا في كتاب التاريخ يبدأ من فراغ بل هو حصيلة تراكمية لما يتتابع من الأحداث وعمليات التغير النابعة من داخل المجتمع أو الوافدة عليه من الخارج .

ومادام المستقبل ليس قدرا محتوما فإنه لا يمكن أن يكون في صورة فريدة غيرمتوقعة بل إن أمام كل مجتمع في لحظة معينة من تاريخه احتمالات متعددة للمستقبل ، وعليه أن يحاول الكشف عنها وتبين مساراتها وتحديد معالمها . وإذا كان من الممكن أن تتعدد صور المستقبل أمام أى مجتمع فإن ذلك يرتبط بحدود الحرية التي يحققها هذا المجتمع نفسه في محاولة

(١) انظر : ماجد فخري : تطور فكرة المستقبل في العصور القديمة والحديثة ـ مجلة الفكر العربي ـ العدد العاشر ـ ابريل ١٩٧٩ ـ بيروت . ص ١٠ ـ ١٢ ، ٢١ .

(٢) انظر : محمود زايد : علم المستقبل في وقتنا الحاضر ـ مجلة الفكر العربي ـ العدد العاشر ـ أبريل ١٩٧٩ ـ بيروت . ص ٢٦ ـ ٢٨ .

رسم صورة مستقبله بنفسه . وحين يقرر المجتمع أهدافا مستقبلية فإن صورة المستقبل لن تكون بالضرورة مطابقة لتلك الأهداف : فالارادة الجماعية على كل المستويات تحد من اطلاقها قيود كثيرة بعضها طبيعي مثل حجم الموارد الطبيعية المتاحة للمجتمع ، وبعضها اجتماعي مثل البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية السائدة في ذلك المجتمع ، وبعض هذه القيود داخل في الأساس في حين أن البعض الآخر وافد على المجتمع نتيجة علاقاته المتعددة بمجتمعات أخرى . كذلك هناك بعض القيود التي يتعذر تجاوزها في المستقبل المنظور ، والبعض الآخر يمكن من خلال الدراسة التوصل الى امكانية تجاوزه . كذلك يتوقف الأمر على صانع القرار الذي اتخذه باسم المجتمع ، والمصالح التي يمثلها ودرجة وعيه بها ، ونتائج قراره المتشابكة وآثرها في المدى البعيد على الداخل والخارج[٣] . كل هذه الاعتبارات توضح أن الوعي بقضية المستقبل لم يعد من أمور الغيب التي ينفرد بها الكهان مثلما كان يحدث قديما في معبد دلفي باليونان ، بل أصبح المستقبل يندرج في عداد المباحث العلمية القابلة للتنسيق والتعليل اللذين تتصف بهاسائر العلوم لاسيا علم التاريخ الذي ينفرد بدراسة الماضي ويتميز بقواعده ومناهجه وأهدافه الواضحة المحددة ، فلماذا لا يكون لدراسة المستقبل علم له قواعده ومناهجه وأهدافه . . ؟

وقد يكون من الضروري قبل أن نعرض بشيء من التفصيل لتاريخ علم المستقبل أو الدراسات المستقبلية والأطر النظرية والمنهجية التي تنظم هذه الدراسات ، والمدارس العلمية المعاصرة وموقفها من البحوث المستقبلية ثم النماذج العالمية لهذه البحوث ، يجدر بنا أن نشير الى مجموعة العوامل الموضوعية التي ساعدت على تحقيق هذه النقلة الكيفية في مسيرة الدراسات المستقبلية أو ما يسمى بعلم المستقبل . ويتصدر هذه العوامل جميعها ذلك الرصيد المعرفي الهائل الذي أصبح متوافرا لدى الباحثين وعلى الأخص المعنيين بالدراسات المستقبلية ، وذلك كنتاج طبيعي للثورة الكمية والكيفية التي حدثت في نطاق المعرفة العلمية في القرن العشرين . فلو نظرنا للأمر من الزاوية الكمية المحضة لتبين لنا أن كم المعرفة البشرية يتضاعف في الوقت الراهن خلال فترة تتراوح من ١٠ ـ ١٥ سنة ، وهو ماكان يستغرق في الماضي مئات السنين ، ويتزايد هذا المعدل بصورة مستمرة الى الحد الذي يتوقع أن يبلغ خمس سنوات فحسب عند نهاية القرن العشرين . وقد انعكس ذلك في عدد المجلات العلمية الذي أخذ يتضاعف منذ نهاية القرن التاسع عشر ، كما انعكس أيضا في عدد العلماء الذين يبلغون اليوم ثلاثة أرباع مجموع العلماء الذين عرفتهم البشرية منذ بدء تاريخها[٤] . ثاني هذه العوامل يتعلق بالتغيرات الكيفية الملحوظة التي طرأت على أساليب معالجة المعلومات التي تجسدت في التطور الهائل الذي شهدته صناعة أو تكنولوجيا المعلومات متمثلا في ذلك التلاقي بين تكنولوجيات الحاسبات الألكترونية من ناحية ، والاتصالات من ناحية أخرى ، مما ترتب عليه ازدياد الدور الذي يقوم به الكومبيوتر في مجال البحوث والادارة وتخزين المعلومات مما لم يكن متوافرا من قبل . وهو يتميز ليس بقدرته على انجاز العمليات الحسابية المعقدة التي يعجز عنها الانسان فحسب ، وإنما يتميز فوق ذلك بقدرته على تخزين هذه المعلومات واستعادتها في وقت قصير واستخلاص النتائج المنطقية المعقدة الناتجة عن تفاعل العوامل والمتغيرات المختلفة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو بيئية أو تكنولوجية ، مما يفوق بكثير قدرة الانسان على أدائها وإنجازها بنفس الكفاءة والسرعة .

(٣) انظر : إبراهيم سعدالدين وآخرون : صور المستقبل العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية وجامعة الأمم المتحدة ـ بيروت ـ ١٩٨٢ . ص ١٢ ـ ١٣ .

(٤) انظر : فؤاد زكريا : التفكير العلمي ـ سلسلة عالم المعرفة رقم ٣ الكويت ـ مارس ١٩٧٣ ـ ص ١٩٣ ـ ٢٠٠ .

أما العامل الثالث : فهو يتعلق ببروز علم رياضي جديد هو علم تحليل النظم ، وهو فرع من فروع الرياضيات ظهرت بداياته الأولى خلال الحرب العالمية الثانية ، وإن كان قد أحرز تقدما ملموسا خصوصا بعد استخدام الكومبيوتر الذى أسهم في تطور هذا العلم ، وشجع على استخدامه في مجال العلوم الاجتماعية وخصوصا فروع الاقتصاد والسياسة والادارة . وقد أسهم ذلك في دفع الدراسات المستقبلية خطوات كبيرة الى الأمام خصوصا على المستوى النظرى والمنهجى . ففى حين اعتمد الباحثون في الماضى على نظريات كنظرية التطور والدورات التاريخية في معالجاتهم لقضايا المستقبل ، مما أسفر عن الخروج بتعميمات شبه فضفاضة يعوزها الرصد العلمى الدقيق للجزئيات ، فإن هذا التطور النوعى الذى طرأ على البنيان النظرى والمنهجى للمعرفة العلمية متمثلا في ظهور علم تحليل النظم ، قد أتاح للعلماء والدارسين في مجال المستقبليات إمكانية الاستفادة الكاملة بكل ما يتيحه هذا العلم من الاستعانة بأحدث أساليب التحليل الاحصائى للجزئيات في إطار تكامل مترابط(*) .

●●●

البدايات والتطور :

تختلف الأراء حول تحديد البداية العلمية للدراسات المستقبلية ، إذ يرى البعض أنها ترجع الى نهاية القرن الخامس عشر الذى شهد ظهور كتاب توماس مور المعروف باسم اليوتوبيا الذى يطرح فيه تصورا مستقبليا للمجتمع المثالى الذى يخلو من كافة أشكال الاضطهاد والظلم والأنانية . ثم تلاه في نهاية القرن السادس عشر حتى الربع الأول من القرن السابع عشر كتاب الفيلسوف الانجليزى الشهير فرانسيس بيكون المعروف باسم (أطلنطا الجديدة) وهو يطرح رؤية مستقبلية للعالم من خلال تصوره لمجتمع جديد يعتمد على العلم كوسيلة أساسية لتغيير العالم والسيطرة على الطبيعة وتحقيق مستويات حياتية أفضل للبشرية .(٦)

هذا ، بينما يعزو البعض الأخر أول محاولة لاستطلاع مستقبل الجنس البشرى على أسس علمية الى القرن التاسع عشر الذى شهد النبوءة الذائعة الصيت الخاصة بالسكان للاقتصادى الانجليزى توماس مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٤٣) ، الذى عرض في دراسته المشهورة عن (نمو السكان) رؤية مستقبلية تتسم بالتشاؤم لحل التناقض الاجتماعى الناتج عن الثورة الصناعية ، الذى تمثل في تزايد أعداد الفقراء وتصاعد احتمالات الصراع الطبقى في ظل سيطرة الطبقة الرأسمالية في المجتمع البريطانى آنذاك . وتوقع مالتوس أن يتم التغلب على هذا التناقض من خلال الأوبئة والمجاعات والحروب التى تتولى تصفية الفقراء ، وايقاف تزايدهم الذى يهدد مصالح الفئات التى تتحكم في مصادر الانتاج والثروة والنفوذ السياسى . ولكن لم تتحقق توقعات مالتوس وتم حل هذا التناقض عن طريق آخر هو الاستعمار ، إذ بدأت

(*) انظر : عبدالعظيم أنيس : مستقبل البشرية والنماذج العالمية - مجلة الهلال عدد يناير ١٩٨٥ ، القاهرة ، ص ٣٩ - ٢٥ .

(٦) لمزيد من التفاصيل انظر :

E. Cornish: The Study of the Future. Washington D.C. 1977 PP. 58-59

نقلا عن ماجد الخرى - مصدر سابق ، ص ١٧ .

بريطانيا تتوسع في انتزاع مناطق شاسعة من قارتي آسيا وأفريقيا . وقد ترتب على استغلال الموارد الطبيعية والبشرية لهذه المستعمرات تحسنا ملحوظا في أحوال الطبقة العاملة خصوصا فقرائها في بريطانيا ، مما ساعد على حل الصراع بصورة سلمية على حساب شعوب المستعمرات في العالم الثالث . والواقع أن مالتوس قد طرح توقعاته التي لم تتحقق في حدود ما أتيح له من معلومات في إطار عصره .

ومن أبرز إضافات القرن التاسع عشر لعلم المستقبل ظهور الروائي جول فيرن (١٨٢٨ - ١٩٠٣) الذي استطاع في كثير من أعماله الروائية أن ينفذ ببصيرة حادة الى مجاهل المستقبل ، ويطرح العديد من التوقعات المثيرة للعقل والوجدان التي تضمنتها مؤلفاته وأشهرها (حول العالم في ثمانين يوما) ، (عشرون فرسخا تحت سطح الماء)(٧) .

وهناك إجماع بين مؤرخي علم المستقبل على أن الكاتب البريطاني هـ . ج . ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) قد قدم إضافات بارزة في تأصيل الاهتمام العلمي بالدراسات المستقبلية ، وذلك من خلال العديد من دراساته ذات الطابع المستقبلي مثل التوقعات (١٩٠١) ، واليوتوبيا الجديدة (١٩٠٥) ، وشكل الأشياء المستقبلية (١٩٣٣) ، وجميعها تدور حول استكشاف حياة وهموم الأجيال المقبلة . وبمجيء هـ . ج . ويلز واسهاماته السابقة تكتمل سلسلة المفكرين والعلماء البريطانيين المستقبليين الذين أولوا اهتماما مبكرا للدراسات المستقبلية منذ نهاية القرن السادس عشر على يد الفيلسوف والعالم فرنسيس بيكون ، ثم الاقتصادي توماس مالتوس في بداية القرن التاسع عشر ، وأخيرا هـ . ج . ويلز الذي جسد روح التشاؤم التي طغت على أوربا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وتصاعدت بفعل الأزمات الاقتصادية والسياسية خلال العشرينيات والثلاثينيات ، وانتهت بالحرب العالمية الثانية ، بما كان له أسوأ الأثر على رؤية هـ . ج . ويلز لمستقبل البشرية ، وقد انعكس ذلك في كتابيه : (مختصر التاريخ) و (معالم تاريخ الانسانية) إذ أعرب عن قناعته بأن البشرية قد خسرت السباق بين الكارثة والتعليم ، فقد ربحت الكارثة السباق بصورة نهائية .(٨)

وبقدر ما أسهمت المحاولات السابقة في تشكيل الرصيد العريق للدراسات المستقبلية في إطار يتميز بالطابع العلمي ، فإن الدراسات المستقبلية لم تكتسب معناها الاصطلاحي علميا إلا في أوائل القرن العشرين على يد عالم الاجتماع س . كولم جيلفان الذي اقترح عام ١٩٠٧ اطلاق اسم (ميلونتولوجي) على حقل الدراسات المستقبلية ، وهي كلمة ذات أصل يوناني معناها أحداث المستقبل لكنها لم تحظ بالانتشار أو القبول في الأوساط العلمية ، ولذلك طواها النسيان . إلا أن المؤلف الألماني أوسيب فلنختهايم (وهو من أصل روسي وقد تعرض للاعتقال والتعذيب على يدي النازي عام ١٩٣٥ ، ثم تمكن من الهجرة الى الولايات المتحدة) قد توصل الى اصطلاح بديل (Futurology) وهو الاسم الشائع لهذا المجال باللغة الانجليزية . أما الاصطلاح الفرنسي لعلم المستقبل فهو (Prospective) الذي ابتكره جاستون برجيه عالم المستقبليات الفرنسي . وقد شهدت الأربعينيات إقبالا ملحوظا على الدراسات المستقبلية خصوصا في الدول الصناعية المتقدمة . وقد تمثل هذا الاقبال في ازدياد عدد العلماء المشتغلين بالدراسات المستقبلية من

---

(٧) انظر : قسطنطين زريق : نحن والمستقبل - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٧ - ص ٦٧ - ٨١ .

(٨) انظر : E. Cornish: OP. Cit., PP 69-71.

جانب ، وفي إنشاء العديد من مراكز البحوث المستقبلية ثم في صدور الكثير من المؤلفات المنتمية الى هذا الميدان من جانب آخر . ومن أبرز هذه المؤلفات كتاب هيرمان كاهان (عام ٢٠٠٠) ، وكتاب شارلز داروين (المليون سنة التالية) ، وكتاب جورج سول (صورة الغد) .(٩)

ومن الجدير بالذكر أن الدراسات المستقبلية بدأت تحظى بالاهتمام والانتشار وتتجه بعيدا عن الجزئية في تصورها للمستقبل مع بدء الستينيات ، حيث شهدت هذه الحقبة ظهور العديد من الدراسات المستقبلية في الدول الغربية . كما أبدت أجهزة التخطيط في الدول الاشتراكية اهتماما ملحوظا بهذه الدراسات من خلال الحرص على توفير قاعدة أعرض للمعلومات وخلفية أطول في النشاط التخطيطي .

وقد توالت بعد ذلك موجات متتابعة من الأعمال المتخصصة في ميدان الدراسات المستقبلية ، وظهرت أجيال جديدة في مختلف التخصصات مثل التعليم والمواصلات والطاقة الى جانب المتخصصين في الدراسات المستقبلية المتصلة بالاستراتيجية العسكرية .

وشهدت هذه الفترة ظهور سلسلة ألفين توفلر عن المستقبليات التي بدأت بكتاب (صدمة المستقبل) ، (فالتعليم من أجل المستقبل) ، وأعقبها (الرجال المستقبليون) ثم (الموجه الثالث)(١٠) .

ومع مرور الوقت أصبح إستشراف المستقبل مما يشغل بال المنظمات الدولية والمعاهد العلمية والشركات المتعددة الجنسية علاوة على الحكومات منفردة أو بصورة جماعية . وقد تميزت الدراسات المستقبلية خلال حقبتي الستينيات والسبعينيات بثلاث سمات رئيسية :

أولها : الاعتماد على الجهد الجماعي وما يسمى بفرق البحث المتكاملة التي تستند الى تمويل حكومي أو دولي أو مؤسسات رأسمالية محلية أو عابرة القومية .

ثانيا : عالمية هذه الدراسات وظهور ما يسمى بالنماذج العالمية في بحوث المستقبل . وقد تولى العالمان الأمريكيان فورستر وميدوز مهمة بناء أول نموذج عالمي في هذا الصدد ثم نشرا تقريرهما النهائي عام ١٩٧٢ تحت عنوان (حدود النمو) ، وقد تم ذلك في إطار النشاط الذي يقوم به نادي روما في حقل الدراسات المستقبلية .

ومما تجدر الاشارة اليه أن نشاط النماذج الدولية قد ازداد كثافة في تلك الفترة عقب ظهور العديد من الأعمال الفكرية من العالم الثالث حول التنمية البديلة ، وضرورة الاعتماد على الذات بالنسبة للدول النامية ، وبروز تكتلات دولية جديدة للدول النامية مثل مجموعة السبعة والسبعين التي بدأت تطرح مطالب شعوب العالم الثالث في ضرورة تعديل الخلل القائم في العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب ، وهنا نلحظ أن هدف المشرفين على هذه النماذج العالمية لم

(٩) انظر : علي عبدالمنعم خلاف : المستقبلية والمجتمع المصري ـ كتاب الهلال ، العدد ٤٢٤ ـ القاهرة ، أبريل ١٩٨٦ ـ ص ١٠ ـ ١٢ .
(١٠) انظر : علي خلاف : مصدر سابق ، ص ١٢ ـ ١٣ .

يعد مقصورا على مجرد التأثير في الرأى العام بل تجاوز ذلك الى العمل على صياغة سياسات المستقبل على المستوى العالمي من خلال تقديم نماذج انساق كلية للعالم وظواهره الاقتصادية والاجتماعية .

كما ظهرت بعض الدراسات المستقبلية في المجال الاستراتيجي واتخذت طابعا عالميا رغم صدورها من هيئات محلية مثال بعض الدراسات الأمريكية عن (مستقبل الطاقة في العالم العربي) ، والدراسات الاسرائيلية عن (مستقبل اقتصاديات الشرق الأوسط) ، ودراسات فرنسية عن (مستقبل الذاتية الثقافية في العالم المعاصر)[١١] .

ثالثا : الاهتمام بتأصيل الأسس المنهجية للدراسات المستقبلية من خلال توظيف التراث المنهجي للمعرفة العلمية في شتى ميادينها الطبيعية والانسانية والاجتماعية والرياضية ، والاستعانة بالمنهج التكامل والأدوات البحثية التي تكفل أكبر قدر من الموضوعية والدقة في تحديد أطر ومستويات التحليل في البحوث المستقبلية ، وقد شهدت السبعينيات بالتحديد طفرة في هذا المجال تمثلت في عقد العديد من المؤتمرات الدولية ، كما برزت في الاهتمام بإقامة العديد من المراكز والهيئات العلمية التخصصة في الدراسات المستقبلية ، مثال : الاتحاد الدولى للدراسات المستقبلية في روما ، ومعهد علوم المستقبل (نيويورك) ، والجمعية العالمية لدراسة المستقبل (واشنطن) ، ومركز الدراسات المستقبلية (باريس) .

وقد بلغ عدد المؤسسات المهتمة بالدراسات المستقبلية في الولايات المتحدة فقط ستمائة مؤسسة في عام ١٩٦٧ ، كما انفردت السويد في عام ١٩٧٣ بإنشاء وزارة للمستقبل تابعة لرئاسة الوزراء . كذلك بدأت الدراسات المستقبلية تقتحم المناهج الدراسية المتخصصة في المدارس والجامعات إذ أصبحت تدرس في العديد من المعاهد والمدارس الأمريكية*

الإطار النظرى والمنهجى للدراسات المستقبلية

إشكالية المفاهيم والمصطلحات :

تتباين المفاهيم والمسميات التي ترتبط بالدراسات المستقبلية ، ويرجع ذلك في الأساس الى طبيعة علم المستقبل الذى ينتمى الى دائرة العلوم الاجتماعية حيث يندر الاتفاق على المفاهيم والمصطلحات . فمن الملاحظ أن أوسيب فلتخهايم يميل الى اعتبار علم المستقبل فرعا من علم الاجتماع ، وشبيها بعلم الاجتماع التاريخى ، وذلك رغم الاختلاف الأساسى بينهما الذى يتمثل في تركيز علم الاجتماع التاريخى على أحداث الماضى ، في حين أن علم المستقبل يستشرف أحداث الزمن الآتى مستهدفا تحديد مدى احتمال وقوعها[١٢] .

---

(١١) E. Corinsh: OP. Cit. PP 44-46.

* أشار الأستاذ هانى خلاف في كتابه (المستقبلية والمجتمع المصرى) إلى أن الدراسات المستقبلية تشكل حاليا حوالى ٤١٥ مقررا دراسيا موزعا على ثماني عشرة ولاية أمريكية . ص١٣ .

(١٢) محمود زايد : مصدر سابق . ص٢٦ .

وبهذا يتحدد موقع علم المستقبل خارج دائرة العلوم البحتة كالرياضيات التى ينتظر منها أن توصلنا الى نتائج يقينية . فهو فى الواقع علم يتناول الأحداث التى لم تقع بعد ، ويشير الى الفترات الزمنية التى لم تحل بعد ، وعندما تحل سوف تصبح حاضرا ، ولذلك يختلف علم المستقبل اختلافا جذريا عن علم التاريخ الذى يترك لنا شواهد عليه ، أما المستقبل فهو لا يوجد إلا فى الذهن والخيال والخطط التى ترسمها له ، وإن كان هناك إرهاصات له فهى غير مؤكدة .

ومع تعقد مجمل النسق السياسى الاجتماعى الاقتصادى وزيادة عدم اليقين المستقبل ، تبرز مجموعة من الاختلافات تتعلق بالمصطلحات والمفاهيم التى يدور حولها علم المستقبل مثل التخطيط طويل المدى - النبؤات - الاسقاط - الاستشراف . فالمقصود بالتخطيط هو التدخل الواعى لاعادة صياغة الهياكل الاقتصادية والاجتماعية من خلال مجموعة من السياسات المتكاملة والمتاحة لسلطة مركزية تملك امكانيات التطبيق الفعل من متابعة وادارة وتنفيذ . ولذلك فإن التخطيط طويل المدى لا يوجد إلا فى النظم أو الدول الاشتراكية التى تمارس قدرا من الاشراف المركزى على الحياة الاقتصادية ، يسمح لها برسم السياسات والبرامج ذات التخطيط الطويل أو المتوسط المدى[١٣] .

أما النبوءات فهى تستند الى الفكرة القائلة بأن المستقبل أمر محدد مسبقا والمطلوب هو الكشف عنه فقط ، وهنا نلحظ أن النبوءات أقرب الى مجال الممارسات الفردية منها الى مجال التجمعات البشرية الكبرى مثل الدولة أو مجموعة الدول . ويفضل البعض استخدام مفهوم التنبؤ للاشارة الى المحاولات الأكثر واقعية والتى تهتم برسم صورة تفصيلية للمستقبل مع عدم إغفال التشابكات المختلفة وردود الأفعال داخل النسق الكلى التى تخضع للدراسة المستقبلية[١٤] .

وبالنسبة لمفهوم الاسقاط Projection فهو يستخدم للاشارة الى الدراسات التى تركز على المدى الزمنى القصير لاستخلاص الاتجاهات العامة والعلاقات الكمية المستقاة من متابعة ماضى الظاهرة المدروسة .

أما استشراف المستقبل فهو يعنى أنه اجتهاد علمى منظم يرمى الى صوغ مجموعة من (التنبؤات المشروطة) التى تشمل المعالم الرئيسية لمجتمع ما أو مجموعة من المجتمعات وعبر فترة زمنية لا تزيد عن عشرين عاما . واستشراف أبعاد المستقبل أمر لا علاقة له بالرجم او التكهن فهو يعتمد على أساليب الاستشراف العلمى التى تقوم على فهم للماضى والحاضر والعوامل المختلفة التى أدت إليها . ولذلك فإن الاستشراف العلمى لأبعاد المستقبل يتوقف على كم ونوع المعرفة العلمية المتوافرة عن الواقع .

وفى ضوء المعلومات المتاحة يمكن استكشاف نوعية وحجم التغيرات الأساسية المحتمل أو الواجب حدوثها فى مجتمع ما كى يتشكل مستقبله بصورة معينة[١٥] ومن المصطلحات الشائعة اصطلاح Futurology الذى انتشر فى الدول الغربية وفى معظم الكتابات المستقبلية فى العالم الثالث . وقد ارتبط تاريخيا بالتبشير بمستقبل التكنولوجيا وتأثيرها الحاسم

---

(١٣) انظر : إبراهيم سعدالدين وآخرون : صور المستقبل العربى - مصدر سابق - ص ٢٢ .

(١٤) انظر : المصدر السابق - ص ٢٣ .

(١٥) انظر : نادر الفرجانى : حول استشراف المستقبل العربى - رؤية نقدية للجهود المحلية والخارجية . المستقبل العربى - بيروت - مايو ١٩٨٠ - ص ٦٨ .

في تحديد صورة المستقبل بالنسبة للعالم ككل . وهو يعنى التبشير الجزئى ببعض جوانب المستقبل . أما اصطلاح Prognosis ، فقد ذاع استخدامه في الدول الاشتراكية التى تعتمد على التخطيط المركزى المقصود به توفير خلفية عريضة للمعلومات المستقبلية اللازمة للتخطيط الطويل المدى[١٦] .

إشكالية المنهج في الدراسات المستقبلية

من الملاحظ ان الاهتمام الواسع الذى حظيت به الدراسات المستقبلية في السنوات الأخيرة لم يواكبه اهتمام مماثل على المستوى المنهجى والنظرى ، إذ لم يحصل هذا الجانب إلا على قدر ضئيل من اهتمام الباحثين والعلماء قياسا الى الجهد والاهتمام الذى حظيت به الدراسات المستقبلية ذاتها . وقد يرجع ذلك الى ان الدراسات المستقبلية لم تزل بعد مسعى علميا حديث العهد ، فلم تستكمل بعد أطرها النظرية والمنهجية ، كذلك لم تزل منهجيتها وأدواتها البحثية موضع جدل وخلاف بين شتى المدارس والتيارات العلمية وخصوصا في إطار العلوم الاجتماعية . غير أن غياب أو ندرة هذا النوع من الدراسات لمناهج استشراف المستقبل لا يعنى استحالة رصد أبرز السمات التى تميزت بها المعالجات المنهجية للقضايا المستقبلية سواء تلك التى اتسمت بالطابع الجزئى أو التى اتخذت سمة النماذج الكلية ، والواقع أن اختلاف المعالجات المنهجية للبحوث المستقبلية قد حكمته مجموعة من المحددات والعوامل نوجزها على النحو التالى :

١ ـ مجال الدراسة المستقبلية .
٢ ـ التراكم المعرفى في مجال التخصص أو الفرع الذى أخضع للدراسة .
٣ ـ البعد الزمنى للدراسة .
٤ ـ الاطار النظرى للدراسة .
٥ ـ الانتماء القومى والأيديولوجى للباحث .

أولا : مجال الدراسة المستقبلية :

تبرز الشروط التى تتوافر في الدراسات المستقبلية على النحو التالى :
أ ـ مضمون محدد .
ب ـ منهج واضح المعالم .
جـ ـ قوانين واحكام كلية قادرة على تفسير جزئيات الظاهرة المدروسة .

وفيما يتعلق بالمضمون أو ما يمكن ان نطلق عليه مجالات الدراسة ، فمن الملاحظ أن الدراسات المستقبلية تركز على دراسة الواقع الراهن وكيفية نشوئه وتطوره التاريخى ، وتركز بصفة خاصة على دراسة البنى والأنساق الفرعية والعلاقات

---

(١٦) انظر : صور المستقبل العربى ـ مصدر سابق ـ ص ٢٤ .

والعمليات التي يتم خلالها التغير والتطور في إطار النسق الكلي للمجتمع . وإذا كان تاريخ الدراسات المستقبلية يدلنا على أن الظواهر الطبيعية كانت تمثل المجال الشائع والميسور لهذه الدراسات بحكم ما تتسم به هذه الظواهر من ثبات نسبي في اطراد علاقاتها الداخلية ، ووضوح القوانين العامة التي تتحكم في حركتها وصيرورتها . غير ان الظواهر الانسانية والاجتماعية قد شغلت ولم تزل تشغل الجانب الأهم في الدراسات المستقبلية . وهنا تبرز قضايا السكان والموارد البشرية والموارد الاقتصادية وقضايا الانتاج والتنمية وتطوير المجتمع والتقدم التكنولوجي كاهتمامات أساسية على خريطة الدراسات المستقبلية . وفي داخل هذا الاطار ينصب الاهتمام بصورة أكثر بروزا على الجوانب الاقتصادية ثم التكنولوجية بينما لا تحظى الجوانب الثقافية والاجتماعية مثل الصحة والتعليم والقانون والاعلام والفن والقيم إلا باهتمام ثانوي . ونظرا لما تتسم به الظواهر الاجتماعية من تعقد وتشابك مما يستلزم لدراستها استخدام مناهج وأدوات بحثية تتميز بالتداخل والتركيب فضلا عن ضرورة توافر قاعدة عريضة من المعلومات المتطورة . لذلك يمكن القول بأن مجالات الدراسة في كل من علم النفس والاجتماع والسياسة والاعلام وسائر الميادين الثقافية والأيديولوجية لم تنل بعد ما تستحقه من جهود الباحثين المستقبليين ، وإن كانت النظرة الكلية التي يتبناها الكثير من هؤلاء الباحثين قد ألزمتهم بضرورة التناول الشامل للقضايا الجزئية التي يتم إخضاعها للدراسة المستقبلية . هذا وترتبط القدرة على تصور بدائل المستقبل بمدى فهم هؤلاء الباحثين للنسق الاجتماعي - الاقتصادي الحضاري بمكوناته الرئيسية من بنى وأنساق فرعية وعلاقات ، ومعرفة الكيفية التي تتفاعل بها الأحداث في إطار النسق الكلي[١٧] ، هذا ، وقد لوحظ أن معظم الدراسات المستقبلية تنحصر في محاولة فهم واستكشاف الظروف المحيطة بالانسان بهدف السيطرة عليها وتوجيهها لصالحه ، ولا تعنى كثيرا بدراسة طبائعه وسلوكياته أو أفكاره وقيمه .

ثانيا : التراكم المعرفي في مجال التخصص :

إذا كان الحاضر قد انبثق من الماضي فإن المستقبل يتحدد بصورة أو بأخرى بالواقع الراهن وينبعث منه . كذلك تتحدد الاختيارات المتاحة للانسان طبقا للظروف الموضوعية التي تحيط به ، والتي يتكون منها المجتمع ورصيد المعرفة العلمية المتوافرة عن القوانين التي تتحكم في الظواهر الانسانية والاجتماعية تاريخيا وآنيا ، والكيفية التي تعمل بها وإمكان توظيفها لخدمة الانسان . ولا شك أن كافة هذه العوامل عرضة للتغير والتطور سواء تم ذلك بصورة تدريجية أو اتخذ شكلا جذريا أو ثوريا . ومن هنا فإن الدراسات المستقبلية التي تتم على أساس مستوى المعارف المتاحة لابد أن تكون هي نفسها عرضة دائمة للتغير في ضوء ما يتراكم لدينا من معرفة بالواقع . وعلى ذلك فإن هذه الدراسات لا بد من أن تصبح عملية مستمرة تستفيد من هذا التراكم المعرفي كي تطرح رؤى مستقبلية جديدة في ضوء ما يستجد من أحداث واتجاهات . ويقدر أهمية توافر هذا الشرط بالنسبة للدراسات المستقبلية ونعني به شرط التراكم المعرفي في مجال الظاهرة أو الظواهر التي يتم إخضاعها للدراسة ، فإن هذا التراكم يجب أن يشمل الاتجاهين الرأسي والأفقي ، والمقصود به اتجاه التعمق في بحث الظواهر نفسها واتجاه التوسع والامتداد الى بحث ظواهر جديدة . ويتفاوت التراكم

---

(١٧) انظر : إبراهيم سعدالدين وآخرون : صور المستقبل العربي - مصدر سابق - ص ١٧٨ ، ناهد صالح : المنهج في البحوث المستقبلية - مجلة عالم الفكر - مارس ١٩٨٤ - الكويت - ص ٢٠٣ .

المعرفى من ظواهر الى اخرى . ذلك أن العلم قد بدأ بنطاق محدود من الظواهر هى وحدها التى كان يعتقد أنها خاضعة لقواعد البحث العلمى ، على حين أن ميادين كثيرة كانت تعد أعقد أو أقدس من أن يتناولها العلم مثال علم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الاعلام[١٨] . وقد ترتب على ذلك وجود قدر ملحوظ من التباين فى التراكم المعرفى المتوافر لدى كل فرع من هذه الفروع قياسا الى سائر فروع المعرفة العلمية مثل الاقتصاد والعلوم العسكرية والتكنولوجيا .. الخ . ولا شك أن لهذا التباين فى نوع وكم التراكم المعرفى فى المجالات السالفة الذكر آثاره الحاسمة فى تحديد اتجاه الدراسات المستقبلية وحدودها وآفاقها علاوة على مناهجها وأساليبها البحثية .

ثالثا : البعد الزمنى للدراسة المستقبلية :

لعل أبرز ما يميز الدراسات المستقبلية وعى المشتغلين بها وعيا تاما بأهمية البعد الزمنى للظواهر التى يتصدون لدراستها ، فهم يدركون أنها لم تتشكل دفعة واحدة بل مرت بمراحل عديدة من النشأة فالتطور ثم النضج والاكتمال ، وأنه مهما كانت الصورة الآنية التى تبدو بها هذه الظواهر فلابد أنها تنتمى الى جذور ماضية . وإذا كان تحديد العمر الزمنى للظاهرة المدروسة يعد من الشروط الجوهرية لأى دراسة علمية تتناول تاريخ الظاهرة أو أوضاعها الحالية ، فإن هذا الشرط بالنسبة للدراسات المستقبلية يعد شرطا مشددا حيث ينظر الى عنصر الزمن كبعد قائم بذاته . فالدراسات المستقبلية سواء كانت استكشافية أو معيارية أو مختلطة تحرص على تحديد مدى زمنى لتنبؤاتها[١٩] .

ومن أبرز السمات المنهجية التى تتميز بها الدراسات المستقبلية تعدد الآماد الزمنية موضع الرصد واختلاف المعالجات الخاصة بما يسمى المستقبل القريب عن تلك المعالجات الخاصة بما يفيد مستقبلا متوسطا أو بعيدا . ويختلف المدى الزمنى لمراحل المستقبل طبقا لاختلاف الظواهر وتباينها سواء كانت ظواهر طبيعية أو انسانية أو اجتماعية . فما قد يعتبر مستقبلا منظورا بالنسبة لحالة المناخ أو الصحة لا يعتبر كذلك بالنسبة للتعليم أو القيم أو الفن . ويؤثر المدى الزمنى للتنبؤ بمستقبل الظاهرة المدروسة على الاطار المنهجى والاجرائى للدراسة المستقبلية .

وتتفاوت تصنيفات المدى الزمنى للدراسات المستقبلية من مدرسة الى أخرى ، وإن كان هناك شبه اتفاق بين أغلب الباحثين فى هذا الميدان على عدم الاكتراث بما سوف يجرى فى المستقبل غير المنظور أى الذى يمتد أبعد من خمسين عاما أو أكثر .

ويعد (تصنيف مينسوتا) الذى قام بوضعه مجموعة العلماء المنتمين لجمعية المستقبليات الدولية بولاية مينسوتا الأمريكية من أشهر التصنيفات التى تهتدى بها مختلف المدارس فى الدراسات المستقبلية سواء هؤلاء الذين ينحون منحى استطلاعيا أو أولئك الذين يلتزمون بالنمط الاستهدافى أو المعيارى أو الذين يمزجون بين النمطين[٢٠] .

---

(١٨) انظر : فؤاد زكريا : التفكير العلمى ـ مصدر سابق ـ ص ١٧ ـ ٢٠ .

(١٩) انظر : ناهد صالح : المنهج فى البحوث المستقبلية ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠٨ .

(٢٠) انظر : E. Cornish: The study of future. Op. cit PP 88-90.

قسطنطين زريق : نحن والمستقبل ـ مصدر سابق ـ ص ٤٠ ـ ٤٣ .

وتتحدد ملامح تصنيف مينسوتا في ضوء تقسيم المستقبل الى خمس فترات يمكن تفصيلها على النحو التالي :[٢١]

١ ـ المستقبل المباشر ويمتد من عام الى عامين منذ اللحظة الراهنة .
٢ ـ المستقبل القريب ويمتد من عام الى خمسة أعوام .
٣ ـ المستقبل المتوسط ويمتد من خمسة أعوام الى عشرين عاما .
٤ ـ المستقبل البعيد ويمتد من عشرين عاما من الآن الى خمسين عاما .
٥ ـ المستقبل غير المنظور ويمتد من الآن الى ما بعد خمسين عاما أو أكثر .

رابعا : الاطار النظرى للدراسة :

يحتم العرف البحثى ضرورة التزام الباحث بتوضيح الاطار المنهجى والاجرائى سواء من ناحية المناهج المستخدمة او اساليب جمع البيانات وتحليلها وسائر الخطوات التى اتبعها الباحث من أجل التوصل الى تحديد الصورة المستقبلية للظاهرة المدروسة . وهذا يستلزم في نظر الكثير من علماء المناهج أن يبدأ الباحث بتحديد الاطار النظرى للدراسة المستقبلية موضحا شتى المتغيرات التى سيقوم بالتركيز عليها ، فقد يكون التركيز على الأبعاد الدينامية للظاهرة التى يفيد فيها التحليل الكيفى كما يتطلب ذلك اطار المادية التاريخية ، وقد يكون التركيز على الأبعاد الكمية القابلة للعزل والتجزئة اذا كانت الدراسة تتم في ضوء البنائية الوظيفية التى تهتم بالثبات والتوازن[٢٢] .

كذلك على الباحث أن يضع في اعتباره المتغيرات العشوائية أو ما يسمى العوامل غير المنظورة آنيا ، هذا بجانب اهتمامه بالمتغيرات المحددة . وكلما اتضحت ملامح الاطار النظرى للدراسة المستقبلية ساعد ذلك على استيعاب قدرا أكبر من المتغيرات ذات الطبيعة الاحتمالية أو غير المنظورة آنيا ، كذلك لا بد أن يتضمن الاطار النظرى للدراسة المستقبلية تمييزا واضحا بين المتغيرات العضوية التى تتشكل منها بنية الظاهرة ذاتها ، والتى تتعرض لشتى أشكال التفاعل بحكم خضوعها لقانون الصيرورة والتغير ، وبين المتغيرات الأخرى المصنوعة بفعل إرادة خارجية أى خارج الظاهرة ، أى بفعل خطط مرسومة أو سياسات منهجية[٢٣] .

خامسا : الاتجاه القومى والأيديولوجى للباحث :

بقدر تعدد وتنوع الفروع العلمية التى تعتبر أرضا مشتركة للدراسات المستقبلية ، فإن هناك تنوعا مماثلا في اتجاهات الباحثين المستقبليين واتجاهاتهم القومية والأيديولوجية ، مما يلقى بظلاله وانعكاساته على الدراسات المستقبلية بصورة مباشرة .

(٢١) انظر التفاصيل : Earle Joseph: The trends of future. Minnesota. Feb. 1976. PP 25-30.
(٢٢) انظر : محمد عارف عثمان : المنهج في علم الاجتماع جـ ١ ـ دار الثقافة ـ القاهرة ١٩٧٢ .
(٢٣) انظر : على علاف : المستقبلية والمجتمع المصرى ـ مصدر سابق ـ ص ٢٢ ، ٢٣ .

ولا شك ان الانتماء الأيديولوجي للباحث في إطار التخصص الواحد أو انتماؤه الى دولة متقدمة صناعيا أو دولة نامية يلعب دورا لا يمكن إغفاله في تحديد مدخله في الدراسة المستقبلية التي يقوم بإجرائها ـ وقد سبق أن رأينا ان الاختلافات الأيديولوجية والاتجاهات القومية لكل من الباحثين الفرنسيين والأمريكيين والسوفيت قد أسهمت في تشكيل الملامح العامة والفروق الجذرية بين كل من المدرسة الفرنسية والأمريكية والسوفيتية في مجال الدراسات المستقبلية . وقد برز هذا الاختلاف في كافة الجوانب بدءا بالأولويات ومجالات الدراسة والمناهج والأساليب البحثية وأنماط البحوث المستقبلية التي تميزت بها كل مدرسة على حدة . فإذا كانت المدرسة الفرنسية قد اهتمت بالتركيز على القضايا الفكرية والأيديولوجية وسائر المسائل ذات الطابع النظرى ، فإن المدرسة الأمريكية قد ركزت على المسائل العسكرية وقضايا التكنولوجيا والاقتصاد ، بينما اهتمت المدرسة السوفيتية بأمور التخطيط على المدى الطويل والمتوسط في مختلف القضايا المجتمعية (الاقتصاد ـ التعليم ـ الصحة ـ الدفاع ـ الثقافة . . الخ) ، ومن ثم فقد تبنت النمط المعيارى أو الاستهداف في الدراسات المستقبلية .

ويلاحظ أنه رغم ما يردده جمهرة العلماء والباحثين في شتى فروع المعرفة العلمية من أن العلم لا وطن له ، إلا أن الانتماء القومى والتوجه الأيديولوجي لهؤلاء الباحثين يفرض نفسه منذ اللحظة الأولى على كافة الدراسات والبحوث التى تجرى في شتى المجالات المعرفية وخصوصا ميادين العلوم الاجتماعية والانسانية ، ويبرز هذا الطابع (القومى والأيديولوجى) على وجه الخصوص في مجال الدراسات المستقبلية حيث يؤثر على مجمل الخطوات المنهجية والاجرائية للدراسة فضلا عن تأثيره في تحديد الأولويات البحثية طبقا للأهداف المنشودة أو المتوقعة من الدراسة المستقبلية ذاتها[٢٤] .

أنماط الدراسات المستقبلية :

تسهم العوامل السابقة (مجال الدراسة المستقبلية والتراكم المعرفى في مجال التخصص والاطار النظرى للدراسة والفترة الزمنية التى يشملها التنبؤ والانتماء القومى الأيديولوجى للباحث) في تحديد نمط الدراسة المستقبلية التى يقوم الباحث بإجرائها . ويمكننا أن نميز بين أربعة أنماط رئيسية في الدراسات المستقبلية نوجزها على النحو التالى :

النمط الأول : هو النمط الحدسى « Intuitive »

ويستند هذا النمط الى الخبرة الذاتية في الأساس . ويرى البعض أن هذا النمط من الدراسات المستقبلية ينتمى الى العمل الفنى أكثر منه الى العمل العلمى ، حيث يفتقر الى القاعدة الموضوعية من البيانات والملاحظات التى يمكن بالاعتماد عليها تقويم التنبؤات التى يتوصل اليها الباحث تقوما علميا . ولذلك توصف هذه الدراسات بالذاتية ، فهى عادة تنبثق عن رؤ ية حدسية تعكس ذاتية الفرد وخبراته الخاصة . ويقوم هذا النمط على محاولة التعرف الى التفاعلات

(٢٤) انظر : فؤاد زكريا : التفكير العلمي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٢٧ ـ ٣٣٠ .

والتشابكات التي تؤدى الى صورة معينة يتوقعها سلفا الباحث دون أن يدعى إثباتها . وهنا تبرز أهمية العوامل الذاتية ، فالحدس ليس إلهاما ولكنه تقدير يراه بعض الناس الذين يُشْغَلون بهموم مجتمعهم ، ويسلمون علميا ببعض الأفكار والنظريات التي يمكن أن تلخص أو تعبر عن مصالح محددة[٢٥] .

النمط الثاني : هو النمط الاستطلاعي Exploratory

ويهدف هذا النمط الى استكشاف صورة المستقبل المحتمل أو الممكن تحقيقه عن طريق نموذج صريح للعلاقات والتشابكات . ويبدو هذا النمط أكثر موضوعية من النمط السابق ، وإن كان العنصر الذاتي لا يختفي منه تماما . إذ أن النمط الاستطلاعي يستخدم لاستكشاف الآثار المستقبلية المحتملة والقائمة على افتراضات معينة ، مما يعني أن هذا النمط لا يصلح لاختبار كافة الافتراضات الخاصة بدراسة مستقبل ظاهرة ما ، بل تقتصر صلاحيته العلمية على استكشاف المسار المستقبلي للظاهرة المدروسة في ضوء الافتراضات التي وضعها الباحث والتي لا تخلو من التأثر بمواقفه الذاتية واختياراته الأيديولوجية علاوة على انتمائه القومي . فنحن هنا إزاء عملية اختيار وتفضيل لا تخلو من الاعتبارات القيمية المسبقة .

وإذا كان النمط الحدسي يعتمد على حصيلة الخبرات الشخصية والذاتية للباحث ، فإن النمط الاستطلاعي من الدراسات المستقبلية يعتمد على قاعدة موضوعية من البيانات والمعلومات ذات الطابع الكيفي والكمي مما يستلزم الاستعانة بأساليب بحثية متقدمة تتمثل في أساليب التحليل الرياضية والاحصائية وأسلوب تحليل النظم وبحوث العمليات . وقد شاع أخيرا استخدام الأسلوب المورفولوجي[٢٦] رغم حداثة اكتشافه في مجال البحوث المستقبلية . ويحتل هذا الأسلوب أهمية خاصة في إطار النمط الاستطلاعي للدراسات المستقبلية . ويركز هذا الأسلوب على ضرورة التعرف على كافة التأثيرات التي تحيط بالظاهرة المدروسة من خلال كشف تسلسلها سعيا لاستطلاع آفاقها المستقبلية المحتملة . ويتم استخدام هذا الأسلوب من خلال مجموعة خطوات تبدأ بتحديد المشكلة مع التركيز على أبرز معالمها أو ملامحها ثم محاولة النفاذ الى التفاصيل الخاصة بكل معلم أو ملمح من ملامحها وتحديد الأفق المستقبل المحتمل له ثم تقويم هذه الاحتمالات .

النمط الثالث : هو النمط الاستهدافي أو المعياري NORMOTIVE

يبدو العنصر الذاتي سافرا في هذا النمط على عكس النمط السابق (الاستطلاعي) بل يمكن اعتبار هذا النمط تطويرا للنمط الحدسي المستمد من الخبرة والتخيل والبصيرة . وينطلق النمط المعياري من العباءة الذاتية للباحث ولكنه

---

(٢٥) انظر كل من : ابراهيم سعد الدين وآخرون : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٢٤ ، ١٨٠ . ناهد صالح : المنهج في البحوث المستقبلية ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢٦) لمزيد من التفاصيل انظر : ناهد صالح ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

يتجاوزها مستفيدا بشتى الاضافات المنهجية التى استحدثتها العلوم التطبيقية والرياضية مع عدم إغفال أهمية الخبرات والاستبصارات . ويبدأ هذا النمط بتحديد أهداف معينة سلفا ثم يصوغ النموذج على نحو يسمح بتحديد الخطوات والسياسات الكفيلة بتحقيق أهداف الدراسة المستقبلية[٢٧] . ويتميز هذا النمط بالتدخل الواعى من أجل تغيير المسارات المستقبلية للظواهر المدروسة في ضوء أهداف محددة سلفا .

وقد استلزمت الطبيعة النوعية الخاصة لهذا النمط استحداث أساليب بحثية جديدة تمثلت فيما يسمى بالاستثارة الذهنية الجماعية وأسلوب دلفى ويعتمد كل من هذين الأسلوبين على رصد تصورات مجموعات من الخبراء والمتخصصين عن المستقبل المتوقع في مجالات تخصصهم ، وهنا يبرز الاسهام الذى قدمه العالم الرياضى الأمريكى أولاف هلمر عام ١٩٥٩ حيث نشر دراسة هامة عن (الاطار المعرفى للعلوم غير الأساسية) ، أوضح فيها إمكانية الاستعانة بشهادة الخبراء في المجالات العلمية التى لا يتوافر لديها رصيد معرفى يسمح باستخلاص القوانين العلمية ، وقد اعتمد في استقاء شهادة هؤلاء الخبراء على أسلوب دلفى الذى يقضى بالحصول على رأى كل خبير على انفراد ، وبدون علم زملائه . وقد أجريت عدة تعديلات على هذا الأسلوب بهدف الاستفادة من الاستخدامات الحديثة للكومبيوتر[٢٨] .

وخلافا للنمط الاستطلاعى تبدأ الخطوات المنهجية في البحوث المعيارية من رسم صورة المستقبل المستهدف تحقيقه ثم تنتقل الى الحاضر . ومن هنا جاء الاختلاف في الأساليب البحثية المتبعة في كل نمط . غير أن ذلك لا يمنع من اشتراكهما في بعض الأساليب .

ومن أبرز الأساليب المستخدمة في النمط المعيارى الأسلوب المعروف باسم شجرة العائلة[٢٩] Family Tree Method ، ويقوم على أساس تحديد الهدف المرغوب في تحقيقه مستقبليا بالنسبة للظاهرة المدروسة ، وهذا يمثل قمة الشجرة ، ثم ننتقل من هذا الهدف الى الحاضر الذى يتمثل في سائر فروع الشجرة ، ونبحث في البدائل المختلفة لكل فرع من هذه الفروع حتى نتوصل الى رسم صورة كاملة للبدائل المستقبلية المرغوب في تحقيقها . والواقع أن هذا الأسلوب رغم ما يتسم به من وضوح إلا أنه يستلزم بذل جهد مكثف يتميز بالدقة والشمول ، حتى يمكن استيعاب كافة الاحتمالات التى يطرحها الواقع الراهن للظاهرة وترتيبها وفقا لأهميتها ، ثم تحديد السياسات اللازمة لتحقيق كل هدف من الأهداف الفرعية ، ثم ربط مجمل هذه السياسات في صورة متكاملة تتضمن كافة العناصر والمؤشرات .

---

(٢٧) انظر : صور المستقبل العربى ـ مصدر سابق ـ ص ١٨١ .

(٢٨) انظر : E. Cornish: OP. Cit- PP 84-87.

(٢٩) F. L. Polak: Prognostics, Ascience In making surveys and creates Future. Elsvier publishers, Amsterdam: 1971. PP 390-393.

النمط الرابع : نموذج الأنساق الكلية Feedback Models

ويركز هذا النمط على مجمل المتغيرات والتشابكات في إطار موحد يجمع بين النمطين السابقين في شكل تغذية مرتدة تعتمد على التفاعل المتبادل بينهما ، حيث لا يهمل ماضي الظاهرة المدروسة ولا تتجاهل الأسباب الموضوعية التي سوف تفرض نفسها لتغيير المسارات المستقبلية لها . كما يستفيد هذا النمط من مزايا النمطين السابقين ، أي يجمع بين البحوث الاستطلاعية التي تستند الى البيانات والحقائق الموضوعية ، وبين البحوث المعيارية التي تولي أهمية خاصة للقدرات الابداعية والتخيل والاستبصار . ويمثل هذا النمط خطوة متقدمة في المسار المنهجي للبحوث المستقبلية المعاصرة(٣٠) .

وفي مجال المقارنة بين الأنماط المختلفة للدراسات المستقبلية لا يمكن ترجيح كفة أحدها على الآخر ، بل يمكن القول إن جهود العلماء المستقبليين قد انصبت في الأساس على محاولة الجمع بين مزايا الأنماط الثلاثة الأولى والاستفادة بها في بناء النمط الرابع المعروف بنموذج الأنساق الكلية . وإن كان هناك تحذير يطلقه هؤلاء العلماء هو عدم إحلال النموذج الرياضي محل التحليل النظري الذي يركز على الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية ، ومراعاة الا يكون النموذج ستارا يخفي اختيارات محددة لا يفصح عنها صراحة(٣١) .

ويمكن القول بأن بناء النماذج في مجال بحث التشابكات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لم يزل مسعى علميا حديث النشأة ، ويحتاج الى المزيد من الجهد البحثي والتأمل .

أساليب ومستويات التحليل في الدراسات المستقبلية

يدور الكثير من الجدل حول المقارنة بين كل من الأسلوب الكمي والكيفي وصلاحية كل منها لضمان الوصول الى أكبر قدر من الدقة والموضوعية . وأصبح من الشائع ترجيح كفة الكم على حساب الكيف في كثير من البحوث والدراسات الاجتماعية المعاصرة على أساس أن التكميم بصوره المختلفة (الرياضية والاحصائية) أكثر اختصارا ودقة في التعبير .

وقد انتقل هذا الجدل المنهجي الى ميدان الدراسات المستقبلية حيث يرى البعض أن الأساليب الرياضية توفر إمكانية التعامل مع المتغيرات الكمية بصورة تسمح بإدراك ما يمكن أن تؤدي إليه السياسات المختلفة من نتائج في الأمد الطويل ، وأصحاب هذا الاتجاه هم في الأغلب من العلماء البارزين في مجال بناء النماذج الرياضية .

---

(٣٠) انظر : F.L. Polak: Ibid. PP 262-267

(٣١) انظر : صور المستقبل العربي ، مصدر سابق ، ص ١٨١ .

ولا شك أن هناك خلطا غير مقصود بين المجالات البحثية التى يصلح لها كلا الأسلوبين الكمى والكيفى ومنطق استخدام كل منها وحدود هذا الاستخدام . علاوة على أن أهداف الدراسة تفرض على الباحث الاهتمام بأبعاد معينة أكثر من سواها . ذلك أنه لا يوجد منهج واحد أو أسلوب تحليل بعينه بإمكانه أن ينهض بمفرده بدراسة ظاهرة ما أو عدة ظواهر ، ويحيط بها وصفا وتفسيرا مبرزا كافة جوانبها الكمية والكيفية .

فمن الواضح أن التحليل الكمى قد لا يتناسب مع بعض الموضوعات كعمليات التفاعل الاجتماعى أو التحليل التاريخى ، ذلك لأن الرقم الذى تمنحه أهمية قصوى هو شىء ثابت بمعنى أن الذين يعتمدون على التكميم يعزلون الحقيقة الاجتماعية عن مسارها الجدلى ، ويحاولون تثبيتها فى لحظة ما ثم يتنبئون بمسارات معينة لهذه الحقيقة بناء على عملية التثبيت المتعسفة ،مفترضين أن العلاقات بين العوامل والمتغيرات التى يخضعونها للقياس هى علاقات دائمة وثابتة عبر الزمن وهذا افتراض خاطىء بسبب تناقضه مع قانون الصيرورة والجدل الذى لا تستثنى منها أية ظاهرة حية فى هذا الكون . علاوة على أن ثمة ظواهر أو أبعادا فى الواقع الاجتماعى أكثر دينامية وتغيرا من سواها ، وبالتالى فالاصرار على إخضاعها للتحليل الكمى يؤدى الى تزييف فهمها وقياسها والتنبؤ بمسارها المستقبل . ويمكن القول إن الرياضة ليست إلا أداة من أدوات البحث العلمى ، وأن استخدام النماذج الرياضية لا يعنى بأى حال حيادية هذه النماذج ، فهى لا تقوم على افتراضات مجردة وإنما تتعامل هذه النماذج مع وقائع اجتماعية للباحث منها مواقف واعية خفية أو معلنة[٣٢] . وهذا لا يعنى أن نتغافل عن وجود موضوعات تقتضى دراستها التركيز على التحليل الكمى خصوصا الموضوعات التى تقيس الدرجة والشدة مثل الدخل القومى والسكان والناتج الزراعى والصناعى واستهلاك الطاقة . . الخ .

الأساليب الكيفية :

ويركز أنصار هذا الاتجاه على رصد وتحليل الجوانب الكيفية مثل قضايا الصراع الاجتماعى والأيديولوجى والقيم والفنون وسائر الموضوعات التى يغلب عليها الطابع الكيفى ، وإن كانت لا تخلو من أبعاد كمية . ولا يبالى أصحاب هذا الاتجاه كثيرا بالاهتمام ببعض المتغيرات الكمية التى قد تؤثر بالفعل على العوامل الكيفية التى يركزون عليها دون سواها . وهنا لا نستطيع أن نتجاهل مجموعة الاعتراضات التى توجه الى الأساليب الكيفية فى التحليل وأهمها الافتقار الى الدقة والموضوعية بسبب اعتمادها على الأحكام الانطباعية والذاتية واتسامها بالجزئية وإسقاط بعض المتغيرات أو إهمالها أثناء التحليل . فضلا عن صعوبة أو استحالة تكرار الأبحاث الكيفية فى أغلب الحالات مما يؤثر على ثبات وصدق أغلب الأبحاث التى تعتمد على الأساليب الكيفية فى التحليل[٣٣] .

---

(٣٢) انظر : عبدالباسط عبدالمعطى : البحث الاجتماعى ـ نحو رؤية نقدية لمنهجه وأبعاده ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ـ ١٩٨٤ ـ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ ـ عواطف عبدالرحمن وآخريات : المدخل المنهجى فى الدراسات الإعلامية ـ العربى للنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ ـ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

(٣٣) انظر : عواطف عبدالرحمن : مصدر سابق ـ ص ٢٤٦ ـ ناهد صالح ـ مصدر سابق ـ ص ٢٠١ .

التوازن بين الكمى والكيفى :

كيف يمكن الجمع بين مزايا الأسلوبين الكمى والكيفى في الدراسات المستقبلية . . ؟

هناك بعض الاعتبارات العامة التى يجب أن يضعها الباحث في اعتباره عند اختيار نوع التحليل الملائم مع مراعاة عدم الفصل التعسفى بين أنواع التحليل أو بترجيح كفة أحدهما على الآخر . بل لابد من وضع الأسلوبين موضع الاعتبار عند دراسة الواقع المجتمعى حتى لا يقودنا أى فصل بينهما الى تشويه الحقيقة الاجتماعية . وتتلخص هذه الاعتبارات فيما يلى :

١ ـ موضوع البحث وطبيعة الظاهرة المدروسة :

وتتضح أهمية هذا العامل بسبب تباين بعض أبعاد الواقع الاجتماعى وتفاوت الأبعاد الكمية والكيفية بين ظاهرة وأخرى فهناك موضوعات مثل الصراع الاجتماعى والوعى والتأثير الثقافي والحضاري والموضوعات التاريخية . كل هذه الموضوعات يغلب عليها الطابع الكيفى . في حين أن هناك موضوعات أخرى مثل الدراسات الديموجرافية يغلب عليها الطابع الكمى . مثل هذه الموضوعات أو تلك تقتضى من الباحث التركيز على الأسلوب الكمى أو الكيفى مع مراعاة الاحتفاظ بالأسلوبين ، ولكن يتفاوت أحدهما عن الآخر طبقا لطبيعة الظاهرة المدروسة .

٢ ـ نمط الدراسة المستقبلية :

قد يعتمد النمط الاستطلاعى في الدراسات المستقبلية على البيانات الكمية أكثر من البيانات الكيفية وإن كان النمط الاستهداف لا يستغنى عن النوعين معا .

٣ ـ الاطار النظرى للدراسة المستقبلية :

إذا تمت الدراسة المستقبلية في ضوء البنائية الوظيفية التى تهتم بالثبات والتوازن فإن هذا يستلزم التركيز على الأبعاد الكمية القابلة للفصل والتجزئة والعد ، أما إذا ركز الباحث على الأبعاد الدينامية في إطار المادية التاريخية فإن التحليل الكيفى هو الأسلوب الأكثر ملاءمة في هذا الصدد .

٤ ـ مصادر البيانات :

تؤثر مصادر البيانات في اختيار الباحث للأساليب الخاصة بجمعها ومن ثم تحليلها . فالبيانات الجاهزة في سجلات أو وثائق البيانات الميدانية التى يجمعها الباحث من خلال المقابلة بأنواعها والملاحظة . هذا عدا البيانات

المستقاة من وسائل الاعلام التي غالبا ما يقتضى تحليلها استخدام أسلوب تحليل المضمون أو تحليل حقول الدلالة ، كما أنه يمكن استخدام ما يسمى بالتحليل الثانوى . وتتباين أدوات جمع البيانات بتباين معايير تصنيفها . فهناك أدوات يقتضى تحليل بياناتها استخدام نوع من التحليل الكيفى كتحليل المضمون ، كذلك في المقابلة الحرة غير المقننة عكس الاستبيان المقنن الذى يستلزم تحليلا كميا[٣٤] .

النماذج العالمية للمستقبليات ما لها وما عليها

إذا كانت العشرينيات قد شهدت بروز البدايات العلمية للدراسات المستقبلية ، فإن السبعينيات تمثل نقطة الانطلاق نحو العالمية بالنسبة لهذه الدراسات بعد أن حظيت بالاهتمام والانتشار مع بدء حقبة الستينيات حيث بدأ العديد من الدراسات المستقبلية في الظهور في الدول الغربية . كذلك تزايد اهتمام الدول الاشتراكية بهذا النوع من الدراسات من أجل توفير خلفية أعرض وأعمق للمعلومات المستقبلية التي تساعدها في نشاطها التخطيطى على المدى الطويل ، ولا شك أن تراكم المعرفة العلمية في مختلف المجالات وعلى الأخص المجال الاقتصادى فضلا عن تطور أدوات ومناهج البحوث الكمية خصوصا بعد ظهور الحاسب الالكترونى وانتشار استخداماته . هذه العوامل مضافا إليها الأزمات المتعددة الأوجه التي تعترض النظام الدولى الراهن مهدت الطريق وساعدت على هذه النقلة التي شهدتها الدراسات المستقبلية بخروجها من إطار المحلية الى العالمية . إذ أصبحت تتصدر قائمة الاهتمامات الاستراتيجية لدى المنظمات الدولية ولدى الكثير من التكتلات الحكومية وغير الحكومية على المستوى العالمى .

ويبرز في هذا المجال نشاط نادى روما الذى كان له السبق في طرح هذا النوع من النشاط الذى عرف بحركة النماذج العالمية في الدراسات المستقبلية . فقد تولى العالمان الأمريكيان فورستر وميدوز بتشجيع ورعاية نادى روما - مهمة بناء أول نموذج عالمى على الكومبيوتر يستطلعون من خلاله مستقبل العالم خلال المائة عام القادمة في عدد محدد من القضايا مثل الانتاج الصناعى والغذاء وتلوث البيئة وتزايد السكان ونضوب الموارد . وقد نشرت هذه الدراسة تحت عنوان (حدود النمو) في عام ١٩٧٢ .

وقبل أن أتناول هذه الدراسة بالقدر الذى تستحقه من التحليل أرى أنه من الضرورى أن أشير الى العوامل التي جعلت هذه الدراسة - رغم ظهورها في ثوب عالمى - تخرج من قلب العالم الرأسمالى وفي هذه المرحلة بالتحديد . هناك عاملان رئيسيان يكمل أحدهما الآخر . ويتعلق أولهما بالأزمة التي تعانى منها الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، استحكمت حلقاتها في منتصف الستينيات بعد استكمال حركة التحرر الوطنى في العالم الثالث لمهامها الوطنية مما أتاح امكانية ظهور اجتهادات ورؤى فكرية وسياسية تسعى الى إنجاز مهام المرحلة الثانية لحركة التحرر الوطنى خصوصا في المجال الاقتصادى والثقافى . أما العامل الثانى الذى يكمن وراء ازدياد نشاط النماذج الدولية في حقبة السبعينيات فهو يتعلق بظهور تكتلات جديدة على المسرح الدولى تبلور وتحاول تجسيد مصالح شعوب العالم الثالث على شكل نماذج بديلة

(٣٤) لمزيد من التفاصيل انظر : عبدالباسط عبدالمعطى - مصدر سابق - ص ٣٨٧ - ٣٨٠ .

للتنمية ودعوات تطالب بمزيد من العدالة والتكافؤ في علاقاتها مع الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة ، وأبرز مثال على ذلك مجموعة السبعة والسبعين وكتلة عدم الانحياز . مما بات يهدد وبصورة ملحوظة مصالح مجمل النظام الرأسمالي العالمي الذي يتمثل في الشركات المتعددة الجنسيات بالاضافة الى الحكومات الغربية منفردة أو مجتمعة . ومن هنا يمكن تفسير سر تسارع العديد من الهيئات الغربية الى تقديم هذه النماذج التي زعمت لنفسها صفة العالمية . فقد تتابعت حركة النماذج العالمية في مجال الدراسات المستقبلية بعد ظهور (حدود النمو) في بداية السبعينيات . ورغم سمة العالمية التي تدثرت بها . إلا أن معظمها اتسم بالطابع الجزئي سواء ما يتعلق بالنطاق الجغرافي أو المدى الزمني أو المتغيرات التي شملتها هذه النماذج .

وسعيا الى التمييز بين هذه النماذج فإننا سوف نحتكم الى مجموعة من المعايير نوجزها على النحو التالي :

١ ـ النطاق الجغرافي للدراسة .
٢ ـ الأفق الزمني للدراسة .
٣ ـ هدف الدراسة (استكشافي أم استهدافي) .
٤ ـ المتغيرات التي يركز عليها النموذج المستقبلي .
٥ ـ الأساليب المنهجية المستخدمة .
٦ ـ الهوية الأيديولوجية للنموذج سواء كانت معلنة أو متضمنة .

وفي ضوء هذه المعايير يمكن التمييز بين ثلاثة أنماط من النماذج العالمية للدراسات المستقبلية وتتلخص فيما يلي :

النمط الأول : ويتضمن النماذج التي تم تقديمها في إطار الهيئات والمنظمات والحكومات الغربية . ويشمل ثلاثة أنواع من النماذج قدمت على أنها نماذج أنساق كلية للعالم وظواهره الاقتصادية والاجتماعية تهدف الى الاسهام في حل مشكلات العالم من خلال استكشاف آفاقه المستقبلية وتشابكاته المختلفة . وينتمي الى هذا النوع تقرير (حدود النمو) الذي قدمه نادي روما . ويمثل هذا الجهد محاولة رائدة في ذلك الوقت ، وقد تناول العالم على أنه كتلة واحدة متجانسة ذات حدود طبيعية ثابتة . وقد أكد أصحاب هذا النموذج على أن النمط الحالي للنشاط الانتاجي والتعامل مع البيئة يقودان الى الانهيار ، ومن أجل تفادي هذا المصير يقترح فورستر وميدوز وضع حدود اختيارية للنمو تتمثل في ضبط النمو السكاني في العالم الثالث وتحجيم التوسع الرأسمالي بهدف تحقيق التوازن المستقبل المنشود[٣٥] .

وعند محاولة تطبيق المعايير السابقة على هذا النموذج الذي عرف (بحدود النمو) نلاحظ أنه قد تناول العالم ككل من ناحية النطاق الجغرافي . أما الأفق الزمني فقد امتد الى مائة عام بينما اقتصر هدف

---

(٣٥) انظر : -J-M- Richards on: Global Modelling (1) The Models. Futures Val-12.NO 5. october 1978 P. 388.
D.H. Meadows el al: The Limits to Growth New York-Univers books, 1972-P.
نقلا عن صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٣٠ ـ ٣٥ .

الدراسة على الاستطلاع فحسب مع طرح سيناريوهات مختلفة للنمو . وقد اقتصر النموذج على مجموعة من المتغيرات هى السكان والطاقة والموارد الطبيعية والانتاج الزراعى وغير الزراعى وتلوث البيئة . أما الأساليب المنهجية فقد اعتمد هذا النموذج على ما يسمى بديناميكية الانسان ، ومما يحسب لهذا النموذج إسهامه المنهجى في بناء نماذج الأنساق الكلية التى يعتبرها المتخصصون إضافة علمية جوهرية في هذا المجال[٣٦] .

ولعل أبرز المآخذ على هذا النموذج ادعاؤه الحياد ومحاولة إخفاء هويته الأيديولوجية(*) ومحاولة ادعاء البعد عن المعالجات الجزئية مما أدى الى وقوعه في أخطاء جوهرية أثارت حوله موجة من الانتقادات الحادة . وخصوصا أنه تعامل مع العالم كوحدة متجانسة متجاهلا الفروق الاقتصادية والاجتماعية والسياق التاريخى للأقاليم والمناطق المختلفة . فضلا عن تركيزه على عدد محدود من المتغيرات مما جعله عاجزا عن تقديم صورة واضحة عن مستقبل المناطق الجغرافية المختلفة في العالم . كما أن البيانات والمعلومات التى غذى بها الكومبيوتر كانت تفتقر الى الدقة والشمول .

النوع الثانى : من النماذج (نموذج ميزاروفيتش ويستل)(**) . انبثق هذا النموذج من قلب الانتقادات التى وجهت الى النموذج الأول (حدود النمو) . وقد حاول هذا النموذج تلافى السلبيات المنهجية والثغرات الخاصة بمحدودية النطاق الجغرافى وضآلة المتغيرات التى شابت النموذج الأول . ولذلك اهتم ميزاروفيتش ويستل بتقديم صيغة تفاعلية جديدة بين الانسان والحاسب الألكترونى من خلال بناء نسق يعتمد على التقسيم الأفقى للعالم (قسم العالم الى عشر مناطق) بالاضافة الى التقسيم الرأسى الذى يتفاعل بين مستويات متعددة فردية وجماعية واقتصادية وجغرافية . . الخ . وقد تضمن هذا النموذج تفاصيل أكثر عمقا وتنوعا غير أن نتائجه لم تختلف اختلافا جوهريا عن نتائج فورستر وميدوز في النموذج الأول . فقد التزم هذا النموذج بنفس الأفق الزمنى الذى يتعدى القرن العشرين كما اقتصر على الهدف الاستطلاعى الذى يطرح سيناريوهات مختلفة للنمو ، ولكنه استعان بأساليب منهجية أفضل من النموذج السابق تمثلت في استخدام أساليب الاقتصاد القياسى وتحليل المدخلات والمخرجات علاوة على تحليل الأنساق من خلال تفاعل التقسيم الأفقى والرأسى للعالم ومكوناته الجغرافية والبشرية والاقتصادية ، وتميز نموذج ميزاروفيتش ويستل في أنه يقدم صورة أقل قتامة لمستقبل العالم ، وإن كانت نتائجه تشير الى حتمية حدوث الانهيار ولكن ليس بصورة كلية ، ومن أجل تفادى هذا الانهيار يقترح نفس

---

(٣٦) انظر : صور المستقبل العربى ـ مصدر سابق ـ ص ٣٥ .

(*) جاء في مقدمة التقرير المعروف باسم (حدود النمو) الذى طبعت منه ملايين النسخ أن أوريليو بتشى الذى يشرف ويمول نشاط نادى روما يساهم في شركتى فيات للسيارات وأوليفتى للآلات الكاتبة ويملك مؤسسة للاستشارات الهندسية والاقتصادية ويرى البعض أنه كان هو المحرك وراء حركة النشاط العالمية .

(**) اجتمع نادى روما عالمين أحدهما أمريكى (ميزاروفيتش) وثانيهما ألمانى غربى (بستل) على بناء هذا النموذج الذى عرف باسميهما ونشرت نتائجه عام ١٩٧٤ في تقرير بعنوان (البشرية عند مفترق الطرق) .

انظر : عبدالعظيم أنيس ـ مصدر سابق ـ ص ٣٥ .

الاقتراحات التى طرحها النموذج الأول والتى تتمثل في ضبط نمو السكان في العالم الثالث ويضيف إليها اللجوء الى الأساليب التعاونية على المستوى الدولى مثل اقتراح قيام نظام اقتصادى عالمى جديد ، ويعطى النموذج أمثلة محددة لأنواع التعاون المطلوب وممارستها بين الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة والدول التابعة .(٣٧)

والواقع أن هذا النموذج الذى تميز عن سابقه بالتعقيد المنهجى وتعدد المتغيرات التى تناولها لم يختلف بصورة جوهرية عن سابقه ، ويرجع ذلك الى سببين أولهما أيديولوجى وهو أن كلا النموذجين يتطلعان الى تحقيق هدف واحد هو إنقاذ مستقبل الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة على حساب شعوب العالم الثالث ، والسبب الثانى منهجى يتعلق بطبيعة المناهج الرياضية القاصرة عن التعبير عن التعقيدات الاجتماعية التى تعد جوهرية بالنسبة للدراسات المستقبلية .

النوع الثالث : نموذج ساروم Sarum ، لقد تم تصميم هذا النموذج تحت إشراف هيئة البيئة البريطانية وذلك من أجل تدارك الثغرات التى شابت النماذج السابقة وخصوصا ما يتعلق بعدم وضوح مناهجها من ناحية وعدم شمول ودقة بياناتها من ناحية أخرى . ويقسم هذا النموذج العالم الى ثلاث مناطق عالمية تختلف من حيث معدلات دخول الأفراد وهى على التوالى : الولايات المتحدة ثم الدول الصناعية المتقدمة وأخيرا الدول النامية والصين ، ولا يختلف هذا النموذج عن النموذجين السابقين سواء من حيث الأفق الزمنى أو الأساليب المنهجية ، ويتميز عنها في أنه لا يشترط ضبط النسل بنفس الصورة التعسفية التى ركز عليها كل من ميدوز وميزاروفيتش . كما أهمل بعض القضايا العالمية التى ركز عليها الآخران مثل تلوث البيئة . وقد ركز على دراسة امكانيات التوسع الأفقى والرأسى للزراعة ، ولذلك طرح نتائج تتميز بالتفاؤل بالنسبة لمستقبل الغذاء في العالم الثالث(٣٨) .

وبهذا النموذج ينتهى النمط الأول من النماذج العالمية وقد تضمن ثلاثة نماذج طرحت في أطار الهيئات والحكومات الغربية وقد تباينت قليلا في أساليبها المنهجية وقاعدة البيانات التى اعتمدت عليها ، ولكنها تميزت بسمة رئيسية هى أنها استهدفت المحافظة على النظام الدولى الراهن في إطار العلاقات والمصالح الرأسمالية الدولية القائمة .

---

(٣٧) انظر : S.Cole: The global futures debate 1975- 1976. in C.Freewan and Jahoda, Eds: World futures. Falmer, Brighton-Sussex University 1979.

Richardson: Global Modelling (1) the Models op.it PP 389-390.

نقلا عن صور المستقبل العربى ، مصدر سابق ، ص ٣٢ ـ ٣٧ .

(٣٨) انظر : Richardson: Global Modelling, op.cit- P 342-393.

النمط الثاني : ويتضمن نموذجا واحدا يمثل العالم الثالث طرحته مجموعة أمريكا اللاتينية وعرف باسم نموذج باريلوتشي(*) . وخلافا للنماذج الغربية التي حاولت إخفاء وجهها الأيديولوجي بادعاء الحياد والموضوعية فإن القائمين على هذا النموذج قد طرحوا منذ البداية اتهامهم للعالم الثالث وتبنيهم لرؤية مخالفة بصورة جذرية لمنظور أصحاب تقرير (حدود النمو) ، وقد أعلنوا ذلك خلال الندوة التي عقدها نادي روما في البرازيل لمناقشة هذا التقرير الذي وضعه فورستر وميدوز وقد تركزت انتقاداتهم على الجوانب التالية :

١ ـ توصيف الأوضاع الراهنة في العالم والخاصة بحالة البؤس والجوع وسائر الأزمات الحياتية التي يعاني منها ثلثا البشرية في العالم الثالث هي أمر واقع ولسنا في حاجة الى نماذج رياضية للتنبؤ بها ، وإن ربط حالة البؤس بفكرة الانهيار مغالطة كبرى لأن المجموعة القليلة من الدول الرأسمالية المتقدمة تمارس الاسراف في استهلاكها للموارد مما ينذر بحدوث الانهيار .

٢ ـ إن الحدود الطبيعية التي ادعت النماذج العالمية ثباتها لا تتسم بالصرامة التي بشر بها تقرير حدود النمو ، وأنه يمكن تجاوزها والتغلب عليها إذا ما اتبعت سياسات معينة لتفادي انهيار النسق العالمي تضع في اعتبارها مصالح الشعوب المسحوقة في العالم الثالث .

٣ ـ إن الاقتراحات التي جاءت في تقرير (حدود النمو) تهدف الى تحقيق التوازن والمقصود بها استمرار الفوارق الاجتماعية الراهنة بين الفقراء والأغنياء على مستوى الدول والأفراد .(٣٩)

وقد قسم هذا النموذج العالم الى أربع مناطق : واحدة تشمل الدول المتقدمة (الرأسمالية والاشتراكية) وثلاث مناطق تشمل القارات الثلاث ، وهو يتكون من ثلاث أنساق فرعية هي السكان والغذاء والموارد الاقتصادية . ويتميز هذا النموذج عن النماذج السابقة في الهدف إذ ألزمت مجموعة باريلوتشي نفسها بوضع نموذج عالمي معياري لا يهتم بالتنبؤ بما سوف يحدث إذا استمرت التوجهات الراهنة في النظام العالمي ، وإنما اهتمت برسم طريق يساعد على التوصل الى إشباع الحاجات الأساسية لشعوب العالم خلال ستين عاما بدءا من عام ١٩٨٠ ، وذلك بشرط تخصيص ٢٪ من إنتاج العالم المتقدم للمساعدة غير المشروطة لشعوب آسيا وأفريقيا ، وبهذا تسقط الحجة الزائفة التي اعتمدت عليها النماذج الأخرى والتي تشترط تنظيم النسل في العالم الثالث من أجل تفادي الانهيار المتوقع للنسق العالمي الراهن .

وتتمثل القضية المحورية لهذا النموذج في تحقيق العدالة في توزيع الدخل وتحقيق الاستقلال الاقتصادي لشعوب العالم الثالث ، ويحدد القائمون على هذا النموذج ملامح المجتمع الجديد الذي يعتمد

(*) إشارة إلى مؤسسة باريلوتشي بالأرجنتين وهي التي مولت هذا المشروع .

(٣٩) انظر : R. Petrella: Ideological basis and Impact of World Models: Acomparison. in Seminar of Future Forecasts and World models, Rio de Janiero, 28-11/3-12-1975.

على العدالة الاجتماعية والمشاركة الشعبية ، وتختفى فيه أشكال السيطرة الفردية القائمة على امتلاك وسائل الانتاج وأشكال الاستهلاك المبالغ فيها ويتم تخطيط الانتاج الذى يفى بالحاجات الأساسية للسكان طبقا لبرامج تنموية تستهدف تحقيق مصالح مختلف الجماعات السكانية دون تمييز .

ويتميز نموذج أمريكا اللاتينية باستخدام أساليب منهجية جديدة تعتمد على بحوث العمليات والاقتصاد والقياسى وما يسمى بالأساليب الأمثلية . كما أن الأفق الزمنى الذى التزم به النموذج يرتبط بالمدى الذى يتحقق خلاله إشباع الحاجات الأساسية للسكان[٤٠] ، وقد تم نشر هذا النموذج في تقرير تحت عنوان (كارثة أم مجتمع جديد) عام ١٩٧٦ .

النمط الثالث : (١) نموذج الأمم المتحدة (ليونتيف) :

ينطلق هذا النموذج من استراتيجية التنمية العالمية التى تبنتها الأمم المتحدة عام ١٩٧٠ لعقد التنمية الثانى . ويتم تقسيم العالم في هذا النموذج الى ١٥ منطقة لكل منها جدول (مدخلات ومخرجات) يضم ٤٨ قطاعا ، ويتم الربط بين مناطق العالم من خلال قنوات التجارة الدولية في حوالى أربعين فئة من السلع والخدمات ورؤوس الأموال . وقد تركزت محاور النموذج حول مجموعة من المتغيرات شملت تفاوت مستوى المعيشة بين القطاعات المتقدمة والأقل تقدما من البشرية في ضوء مشكلات الغذاء والتلوث والطاقة والزراعة والتجارة الدولية . وقد طرح النموذج تصورات مستقبلية للاقتصاد العالمى تتمثل في إيجاد مسارات بديلة للتنمية الاقتصادية على المستوى العالمى ، وتبدأ من عام ١٩٧٠ حتى عام ٢٠٠٠[٤١]* ، وقد أكد هذا النموذج على ما سبق أن أشرنا اليه في نموذج أمريكا اللاتينية على عدم وجود حواجز طبيعية تحول دون التنمية الشاملة والمستقلة في العالم الثالث ، وأكد أن الحواجز هى ـ أساسا ـ سياسة ـ اجتماعية ومؤسسية .

(٢) ـ نموذج المستقبلات الدولية :

تعتبر الدراسة المستقبلية ذات الطابع العالمى التى عرفت باسم (Interfutures) أو (ثنايا المستقبل)[٤٢] أحدث الدراسات المستقبلية التى تم إجراؤها على المستوى الدولى تحت إشراف منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ، وقد ركزت على استشراف الآفاق المستقبلية للتطور الاقتصادى للدول الصناعية المتقدمة في إطار علاقاتها بالدول النامية . وقد قسمت هذه الدراسة العالم الى ١٣ منطقة واهتمت

---

(٤٠) انظر : Amil car o. Herrera et al; catastrophe or a new society. A latin American world model Ottawa; international development research centre. 1976.

عبد العظيم أنيس ـ مصدر سابق ـ ص ٣٤ ، صور المستقبل العربى ـ مصدر سابق ـ ص ٣٩ ـ ٤١ .

(٤١) * انظر : W. Leontif et al: The Future of the world economy prelimin ary report, New York, UN, Dept of Economic and Social Affairs 1976.

(٤٢) انظر : نادر فرجانى ـ مصدر سابق ـ ص٧٨ .

بقضايا الطاقة والتصنيع واستيراد التكنولوجيا الرأسمالية ومجالات الاستثمار الخارجية والزراعة وخصوصا الانتاج الغذائي . وقد تضمنت كل منطقة من مناطق العالم ١١ قطاعا . وخلافا للنماذج السابقة حاولت هذه الدراسة التقليل من الاعتماد على الأساليب الكمية كما ركزت على العوامل الاقتصادية والتكنولوجية مع عدم إغفال الجوانب الاجتماعية وانتهت بمجموعة من التوصيات في إطار سيناريوهات بديلة للمستقبل تبدأ من عام ١٩٧٥ وحتى نهاية القرن الحالى . ومن أبرز التوصيات التى توصلت إليها هذه الدراسة ضرورة قيام الدول الصناعية المتقدمة بتقديم العون اللازم للدول النامية كى تصل الى مرحلة الاكتفاء التكنولوجى من خلال خلق التكنولوجيات الملائمة لاحتياجات وظروف مجتمعاتها .(٤٣)

ونقف عند هذا النموذج الذى يمثل نهاية سلسلة من النماذج العالمية لدراسة المستقبليات التى توالت حلقاتها مع بداية السبعينيات . ويلاحظ أن الدول الاشتراكية لم تسهم بصورة مباشرة فى مجال النماذج العالمية رغم وجود العديد من الكفايات النقدية فى هذا الموضوع . كما أن هناك مجموعة من العلماء فى الدول الاشتراكية قد قدموا إسهامات بارزة فى مجال المستقبليات وأبرزهم العالم السوفيتى الجيور لادا وجفيشيان رئيس المعهد الدولى لتحليل الأنظمة فى فينا ، وأيضا العالم الرياضى المعروف جلوفاش ، ولكن انحصرت جهودهم على الدراسات المستقبلية فى إطار النظم الاشتراكية التى تعتمد على التخطيط المركزى . وإن كان ذلك لم يحل دون طرح ملاحظاتهم النقدية على موضوع النماذج العالمية . ويبرز فى هذا المجال ما قدمه بعض علماء الدول الاشتراكية عن قصور العائد العلمى لهذه النماذج لأسباب أيديولوجية ومنهجية .

فقد أشار العالمان الرومانيان بوبيز وسلاك الى تأثير الانتماء الأيديولوجى لصناع النماذج على مجمل معالجاتهم المنهجية سواء فيما يتعلق بالفروض أو أساليب ومستويات التحليل ونوع المتغيرات التى يركزون عليها وبالتالى على النتائج والتوصيات التى يطرحونها .

وقد قام فريق سوفيتى بقيادة العالم جلوفاش بإعادة دراسة لنموذج نادى روما فتوصلوا الى نتائج مخالفة تماما لما جاء فى التقرير المعروف بحدود النمو(٤٤) .

والواقع أن تحيز الهيئات التى أشرفت على هذه النماذج قد انعكس بصورة جلية فى النتائج التى استهدفت ـ رغم الجهد العلمى المبذول فيها ـ تكريس العلاقات الدولية بصورتها الراهنة ماعدا النموذج الذى ينتمى لأمريكا اللاتينية ، وقد برز كصوت وحيد يطرح أولويات وقضايا واحتياجات شعوب العالم الثالث ومن هنا تبرز الحاجة الى استنهاض القدرات والكفاءات الفكرية لدى علماء ومفكرى العالم الثالث للاسهام بصورة جادة فى هذا الجدل الدائر حول المستقبليات والبدائل المستقبلية ، وإلا فليس أمام شعوب العالم الثالث سوى مزيد من تعاسات التبعية ومواجعها .

●●●

(٤٣) انظر : OECD: Facing the Future OECD, Paris 1979 pp. 329-330, 403.

(٤٤) انظر : عبدالعظيم أنيس : مصدر سابق ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

الدراسات المستقبلية في اطار المدارس المعاصرة

المدرسة الفرنسية :

تتميز المدرسة الفرنسية في الدراسات المستقبلية بالنشأة ذات الطابع الفلسفي والفكرى . فقد خرجت من أعطاف الفلسفة الوجودية وروادها من المفكرين الفرنسيين البارزين مثل جان بول سارتر وقد جاءت هذه النشأة مواكبة لانتهاء الحرب العالمية الثانية وما صاحبها من مرارات وتداعيات وجدانية أليمة . وقد لعب الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر دورا حاسما في بلورة النظرة الى المستقبل من خلال المحاضرات والكتابات التى قدمها في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد شهدت الخمسينيات نشأة علم المستقبل من خلال الجهود التى بذلها جاستون برجيه وزملاؤه حيث استخلص المفهوم الوجودى عن مسئولية الفرد وحريته في تشكيل حياته ، وحاول تطبيقها على الشعب الفرنسى كوحدة جماعية منسجمة وقادرة على إعادة تشكيل المجتمع الفرنسى الذى عانى من ويلات الحرب العالمية الثانية الى حد التعرض للدمار الشامل . وقد تبلورت جهود برجيه في إنشاء المركز الدولى لعلم الريادة في باريس عام ١٩٥٧[٤٥] . ويمثل هذا المركز حجر الزاوية في الدراسات المستقبلية في فرنسا حيث تابع تلاميذ برجيه وزملاؤه الجهود الرائدة التى بذلها في حقل المستقبليات ، وخصوصا جوفينال صاحب الكتاب الشهير (فن الحدس) الذى صدر في منتصف الستينيات .

المدرسة الأمريكية والدراسات المستقبلية

بينما بدأ الاهتمام بالمستقبليات في فرنسا في الاطار الفلسفى والأديولوجى ثم انتقل الى القضايا الاجتماعية والسياسية ، لوحظ أن الاهتمام بالمستقبل بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية في المجال العسكرى ثم انتقل الى المجال السلمى حيث شمل القضايا الاقتصادية والاجتماعية ثم تجاوز ذلك الى الميادين العلمية والتعليمية حيث توجت جهود الرواد المستقبليين بإنشاء العديد من الجمعيات والمعاهد العلمية لدراسة المستقبليات وتدريسها بالجامعات .

وترجع البداية الأمريكية في حقل الدراسات المستقبلية الى فترة الحرب العالمية الثانية ، حيث بددت تطورات الحرب وأحداثها الوهم الذى كان يسيطر على المسئولين الأمريكيين في أن الموقع الجغرافى المتميز للقارة الأمريكية قد يجنبهم مخاطر الحروب التى قد تندلع في أية لحظة في سائر مناطق العالم . ومن هنا جاءت البداية في المجال العسكرى حيث كانت مصحوبة بالرغبة في تطوير أساليب الدفاع والحماية العسكرية . ويمثل استطلاع كارمان المعروف باسم (نحو آفاق جديدة) ، والذى صدر عام ١٩٤٧ الحلقة الأولى في سلسلة الدراسات الاستطلاعية التى تم إجراؤها للتعرف على الامكانيات الدفاعية للولايات المتحدة ، وقد انتهت هذه الدراسات بتأسيس أول مركز للاستطلاع التكنولوجى البعيد المدى للجيش الأمريكى[٤٦] .

---

(٤٥) انظر : محمود زايد ـ مصدر سابق ـ ص ٢٧ ، ٣١ .

(٤٦) انظر : E. Cornish: op. cit PP 77-80.

ثم تطور الاهتمام في هذا الميدان وانتقل الى مجال الفضاء على مشارف الخمسينيات . وقد شهدت هذه الحقبة (الخمسينيات) بدء ظهور مشروعات مدنية تركز على الدراسات المستقبلية في الميادين الاجتماعية والتعليمية . وهنا يبرز الدور الريادى الذى قامت به مؤسسة راند الأمريكية حيث قامت بتشجيع مجموعة من العلماء والدارسين حيث قاموا بإعداد العديد من المشروعات البحثية التى تتناول الاحتمالات المستقبلية لبعض القضايا الحيوية بالنسبة للسوق الأمريكية والتعليم والصحة والسكان وأساليب الحياة الاجتماعية .

وفي إطار هذا المشروع الرائد ظهرت المحاولات الجادة لتأصيل الأسس العلمية والمنهجية لعلوم المستقبل ، ففى نهاية الخمسينيات وطوال حقبة الستينيات شهد المجتمع الأمريكى توالى ظهور العديد من الدراسات التى شكلت فيما بعد البنية الأساسية لما يسمى بالمدرسة الأمريكية في المستقبليات . وقد تجسد ذلك في تأسيس معهد المستقبل عام ١٩٦٨ ، وقد تزعم هذا العمل العالم الرياضى الأمريكى أولاف هلمر . وجاء في بيان التأسيس لهذا المعهد أنه يهدف الى استكشاف الامكانيات المستقبلية للمجتمع الأمريكى أولا ثم المجتمع الدولى ، وأيضا يهدف الى رسم صورة علمية للمستقبل المرغوب في تحقيقه بالنسبة للأمريكيين(٤٧) ويمثل معهد هدسن نقلة هامة في مسار الدراسات المستقبلية بالولايات المتحدة سواء في نوع الدراسات التى قدمها خصوصا في المجال العسكرى والاستراتيجى أو الاضافات المنهجية التى تمثلت في استحداث أسلوبين جديدين في الدراسات المستقبلية عرفا باسم السناريو والمستقبل البديل(٤٨) . وقد راج استخدام هذين الأسلوبين في السنوات الأخيرة من قبل الباحثين المستقبليين الذين ينتمون لكافة التخصصات وللمدارس العلمية المتباينة .

وقد شهدت السبعينيات ظهور العديد من الهيئات والمعاهد المتخصصة في الدراسات المستقبلية امتدت على الساحة الأمريكية شمالا وجنوبا ومن أبرزها معهد نيويورك للمستقبليات والجمعية العالمية لدراسة المستقبل World Future Study . كما بدأت المحاولات لادخال الدراسات المستقبلية ضمن المناهج الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات . ويرى البعض أنها تبلغ حاليا ٤١٥ مقررا دراسيا موزعا على ١٨ ولاية أمريكية(٤٩) .

وخطت الدراسات الأمريكية عن المستقبل الاقتصادى والتكنولوجى للعالم الأوساط العلمية المتخصصة وبدأت تنتشر في دول العالم الثالث .

ومن أبرز الاسهامات المنهجية التى قدمتها المدرسة الأمريكية في مجال البحوث المستقبلية أسلوب (دلفى) Delphi Method الذى يمثل رؤ ية عصرية للدور الذى كان يقوم به كهنة معبد دلفى في الحضارة اليونانية القديمة بالنسبة للتكهن بالمستقبل . وقد أصبح هذا الأسلوب لصيقا بالدراسات المستقبلية وخصوصا أن استحداثاته المتنوعة في إطار هذه الدراسات قد أعطى عائدا خصبا في مجال التنبؤ ات التكنولوجية والاجتماعية . ويرجع ذلك الى أنه يجمع بين أكثر من أسلوب من أساليب الدراسات المستقبلية ، فهو يجمع بين الأسلوب الحدسى والاستطلاعى والمعيارى ، ويمكن تطبيقه على مراحل وفي كل مرحلة يمثل خطوة متقدمة منهجيا عن تلك التى تسبقها سواء في جمع

---

(٤٧) انظر : محمود زايد : مصدر سابق ـ ص ٣٢ .

(٤٨) انظر : E. Cornish: Op. cit P. 86.

(٤٩) انظر : على خلاف : مصدر سابق ـ ص ١٣ .

البيانات أو تحليلها واستخلاص مؤشراتها المستقبلية[٥٠] . وقد أثبت هذا الأسلوب أهميته وفاعليته في جمع وتحليل المعلومات خصوصا في الميادين التي لا تتوافر لها قاعدة عريضة من المعلومات .

المدرسة السوفيتية وبحوث المستقبليات

هناك فروق جذرية تميز المدرسة السوفيتية كرائدة للتوجه والتطبيق الاشتراكي العلمي المستند الى النظرية الماركسية اللينينية عن المدارس الغربية التي تلتزم النهج الرأسمالي مثل المدرسة الفرنسية والأمريكية في حقل الدراسات المستقبلية ، ويرجع ذلك الى أن التخطيط المتوسط والطويل المدى يعد سمة بارزة تلتزم بها كافة النظم الاشتراكية ، حيث تقوم بتطبيقه من خلال مجموعة من السياسات المتكاملة والمتاحة لها كسلطة مركزية تملك في مجال التطبيق إمكانيات كبيرة للتسيير والمتابعة وخلق الظروف الموضوعية لتحقيق هذه السياسات . ولذلك فالتخطيط طويل المدى يجد لنفسه مكانا بارزا في مجموعة الدول الاشتراكية التي تمارس قدرا كافيا من التدخل المركزي في الحياة الاقتصادية والثقافية ، وهو يحتاج الى خلفية أعرض في نوعيتها وأطول في مداها من الاسقاطات والتنبؤات والتحليلات المستقبلية . وتمثل هذه الخلفية حجر الزاوية في رسم المسارات المستقبلية الأكثر استقرارا ، كما أنها تفيد كثيرا في التنبه الى المخاطر والاختناقات المفاجئة مما يساعد على رسم السياسات الكفيلة بتجنب هذه المخاطر في الوقت الملائم[٥١] .

وقد بدأ الاتحاد السوفيتي في تطبيق هذه السياسة في منتصف الخمسينات حيث أدرجت كجزء من برنامج الحزب ثم تم اقرارها عام ١٩٦١ وتوالت بعدها الحلقات المتتابعة من الخطط الخمسية .

ولم يتسع هذا البرنامج سواء من حيث مداه الزمني وآفاقه التطبيقية إلا في حقبة السبعينيات وتمثل السنوات الخمس الماضية (١٩٨١-١٩٨٥) الفترة الثالثة التي تم خلالها تطبيق هذا الأسلوب حيث كانت خطط النمو الاقتصادي مسبوقة بدراسات خاصة بالتخطيط طويل المدى . وقد أسفرت هذه الدراسات عن وضع البرنامج الشامل للتقدم العلمي والتكنولوجي الذي تم توزيعه على ثلاث فترات زمنية :

تمتد الفترة الأولى : حتى عام ١٩٩٠ ، وقد أجريت الدراسات الخاصة بها على ضوء ظروف عامي ١٩٧٢-١٩٧٤ للاستفادة منها في إعداد الخطة الخمسية ١٩٧٦-١٩٨٠ .

وتمتد الفترة الثانية : حتى عام ٢٠٠٠ ، وقد أجريت الدراسات الخاصة بها على ضوء ظروف عامي ١٩٧٦-١٩٧٨ للاستفادة بها في الخطة الخمسية ١٩٨١-١٩٨٥ .

أما الفترة الثالثة : فهي تمتد حتى عام ٢٠٠٥ ، وقد أجريت الدراسات الخاصة بها على ضوء ظروف عامي ١٩٨١-١٩٨٣ للاستفادة بها في الخطة الخمسية ١٩٨٦-١٩٩٠ .

وقد أشرف على هذا البرنامج لجنة مؤقتة تابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية ، ثم تولاه بعد ذلك المجلس العلمي الذي تأسس عام ١٩٧٦ ممثلا الأكاديمية العلوم السوفيتية ولجان الدولة للعلم والتكنولوجيا ، وهي تهتم أساسا (بالتنبؤ في

(٥٠) لمزيد من التفاصيل انظر : ناهد صالح ـ مصدر سابق ـ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، محمود زايد ـ مصدر سابق ـ ص ٣٢ .

(٥١) انظر : إبراهيم سعدالدين : صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ٢٢ .

المجالات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية ، وتتكون من وحدات قطاعية ولجان إقليمية وفقا للتخصصات المختلفة[٥٢] .

ومنذ نهاية السبعينات (١٩٧٩) أصبح هناك شرط أساسي يقضي بأن كل خطة خمسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في الاتحاد السوفيتي لابد أن تكون مسبوقة بتخطيط طويل المدى يتراوح بين ١٠ ـ ١٥ سنة قادمة ، بحيث يرتبط هذا التخطيط بالخطط السابقة عليه في إطار البرنامج الشامل للتقدم العلمي والتكنولوجي لمدة ٢٠ عاما مقبلة . ومنذ ذلك الحين أصبحت الدراسات المستقبلية تمثل الخلفية الأساسية للبرنامج الشامل حيث توضع خطط التنمية ، وتقاس فاعلية البرامج والمشروعات والحلول الإدارية والتنظيمية الخاصة بهذه الخطط في إطار تنبؤ شامل . وتتميز هذه الفترة بنشوء لجنة متخصصة ومتنوعة للدراسات المستقبلية على مستوى مركزي ، ولها فروع في شتى جمهوريات الاتحاد السوفيتي وقد عرفت باسم لجنة مشكلات التقدم العلمي والتكنولوجي . وتختص هذه اللجنة بدراسة المشكلات النظرية والتطبيقية في مجال الدراسات المستقبلية والتنبؤ الاقتصادي والاجتماعي على المستوى المحلي والعالمي[٥٣] . هذا وتعد مجموعة فيلنيس (Vilnius) التي تضم بعض العلماء السوفيت في مجال التنبؤ من أشهر فرق البحث في مجال المستقبليات ، وقد أحرزت تقدما محسوسا في التوصل إلى بعض المعايير المنهجية الخاصة بالتنبؤ الاقليمي في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية[٥٤] . كذلك لوحظ أن علماء المستقبليات في مناطق منسك ولينينجراد وريجاقد شاركوا في هذا الإنجاز العلمي . وقد أشار هؤلاء العلماء إلى أهمية البدء بتشخيص أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية على مستوى الأقاليم ثم وضع نظام للأولويات يليه البدائل الممكنة لتحقيق هذه الأهداف في إطار الموارد المتاحة . كما توصلوا إلى إعداد نماذج كلية تشمل التشابكات المختلفة باحتمالاتها المتعددة في مجالات التنمية كي يتاح اختيار أكثر العناصر كفاءة وفاعلية من بينها لتحقيق الأهداف المطلوبة . وقد ساعدت هذه الإنجازات في تطوير دراسات التنبؤ المعياري كما أبرزت أهمية الدراسات الاستكشافية في مجال المستقبليات .

ويلاحظ أن دراسات التنبؤ في مجالات العلم والتكنولوجيا قد حققت درجة عالية من التقدم في الاتحاد السوفيتي ، بينما لم تزل الأبحاث في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية والجغرافية في طور التطوير ، وخصوصا مايتعلق بالجوانب التي تحدد (ماقبل التنبؤ) مثل الهدف والمشكلة البحثية والأولويات والفروض والمدى الزمني والطرق والتنظيم الخاصة بهذه البحوث التنبئية حيث تتدخل القيم والأهداف في رسم صورة المستقبل المرغوب في تحقيقه[٥٥] .

والواقع أن الاهتمام الأكبر لعلماء التنبؤ السوفيت يتجه إلى الجوانب النظرية والمنهجية والفلسفية للتنبؤ . وهناك مجموعة من الإشكاليات المنهجية والنظرية الخاصة بالتنبؤ كمجال متميز في حقل المستقبليات تستحق أن يتوقف عندها العلماء والباحثون مثل تحديد العلاقة المنهجية بين الوظائف الوصفية والتفسيرية والتنبؤ العلمي ، وكذلك المحددات الرياضية والاجتماعية والتاريخية للتنبؤ ومكانة التنبؤ في إطار الدراسات التحليلية والاستكشافية[٥٦] . هذا ويتجسد

---

(٥٢) Igor V. Bestu zhev Lada: Futures research in U.S.S.R. Academy of sciences of U.S.S.R. Moscow-1986.

(٥٣) Igor. V.B. Lada: Ibid-PP 2-4.

(٥٤) Igor. V.B. Lada: Forcasting and planning in U.S.S.R. Butterworth Company (Publisher) Feb. 1986.

(٥٥) Igor B. Lada: A Soviet Scientist Looks at Futurology-Courier UNESCO, April 1971 P. 24.

(٥٦) Igor. B. Lada: Forcasting, an approach to the problem of the Future. Moscow Journal 4-1972-P 38.

الاهتمام السوفيتي بالدراسات المستقبلية في مجموعة من النشاطات العلمية المنظمة التي تتمثل في تنظيم مجموعة من السيمنارات الخاصة ببحوث المستقبل وأبرزها سيمنار لينتجراد الخاص بالتنبؤ العلمي والتكنولوجي في المجال الصناعي ، وهذا السيمنار يتم تنظيمه سنويا منذ عام ١٩٧١ . وهناك ندوة كييف التي تجتمع مرة كل عامين منذ عام ١٩٦٧ ، والتي تضم ألف مشارك تقريبا وهي تركز أيضا على التنبؤ في المجال العلمي والتكنولوجي . وهناك سيمنار نوفسيرسك السنوي وهو يهتم بمتابعة مشكلات الثبات في التنبؤ . أما سيمنار منسك فهو يختص بالتنبؤ في مشكلات المدن ، بينما يختص سيمنار فيلنيس بالتنبؤ الإقليمي ، ويختص سيمنار ريجا بوسائل التنبؤ ، ويركز سيمنار موسكو على التصميم . ومن أبرز المجلات العلمية المتخصصة في بحوث المستقبل جورنال موسكو الشهري وهو الوحيد الذي يغطي نطاقا واسعا من بحوث المستقبل . هذا عدا النشرات العلمية الدورية التي تصدرها السيمنارات السابقة الذكر والتي تتضمن أحدث البحوث في مجال المستقبليات ودراسات التنبؤ .

لقد استمرت الأبحاث المستقبلية في الاتحاد السوفيتي تعاني من النقص الشديد في المراجع والمنشورات الأكاديمية ، الأمر الذي شكل إعاقة لعمليات التدريب ، إلا أن هذه العقبة تم التغلب عليها إلى حد ما من خلال أول كتاب عام يختص بالتنبؤ الذي أعده أعضاء المجلس القومي للجمعيات العلمية والتقنية المعنية بعمليات التنبؤ العلمي والتكنولوجي ـ ولم يزل هذا الكتاب يستخدم كمرجع في التنبؤات العامة ، وأيضا يستخدم كمرجع للتدريب المتخصص[٣٧] .

ويبدأ الكتاب بمقدمة تهدف إلى إعطاء خلفية عامة عن التنبؤ ويعقب هذه المقدمة إشارة إلى التاريخ الخاص بدراسات المستقبل ، والتصورات الاجتماعية ، ومختلف مراحل أبحاث الدراسات الخاصة بالمستقبل في مختلف الأقطار .

ويعد هذا الكتاب بمثابة تقرير دقيق عن الأساليب المنهجية للتنبؤ وتطبيقاتها النوعية في مجالات الجيولوجيا ، البيولوجيا ، الطب ، الجغرافيا ، الإيكولوجيا ، الفضاء ، العلم والتكنولوجيا ، الاقتصاديات ، علم النفس ، علم الاجتماع ، الديموجرافيا ، الأنثوغرافيا ، المعمار ، التربية ، الثقافة والفنون ، الدولة والقانون ، السياسة ، القانون الدولي والعلوم العسكرية .

وبالكتاب ملحق يتضمن معلومات أساسية عن المعاهد الرئيسية الخاصة بالتنبؤ على مستوى العالم ، كما يتضمن جزءا عن التجربة السوفيتية في مجال التنبؤ القطاعي ، وقاموس اصطلاحي وببليوجرافيا عن الإسهامات الرئيسية في مجال التنبؤ في بحوث المستقبل التي ظهرت في الفترة من عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٨٠ باللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبلغارية والمجرية والبولندية والرومانية والتشيكوسلوفاكية .

● ● ●

(٣٧) انظر : I.V.B. Lada: Futures research in U.S.S.R. Op cit. PP 10-11.

الإسهامات العربية في حقل الدراسات المستقبلية

لاشك أن ما يبدو على الساحة العربية من افتقاد شبه تام للرؤية المستقبلية تتمثل في مجموعة من السمات تضع الوطن العربي في هذه المرحلة من تاريخه ، وبكل ما يزخر به من ثروات بشرية وطبيعية ، وما يحمله من تراث حضاري ، وما يواجهه من تحديات داخلية وخارجية ومايتعرض له من هدر لاعقلاني لامكانياته الهائلة المادية وغير المادية . كل هذه السمات وغيرها تضع الوطن العربي كله أمام مأزق تاريخي مخيف يوحي باحتمالات الانقراض التدريجي أو الاستمرارية والبقاء ، ولكن بشروط محددة لاتقبل المساومة تنحصر في حقيقة واحدة ساطعة هي الاهتمام بالمستقبل ليس من خلال التطورات التقليدية التي تمنح للظروف وللدخلاء والطامعين إمكانية تشكيل المستقبل العربي عوضا عن أبنائه ، وليس من منطلق الرؤى الجزئية ذات الأطر القطرية الضيقة ، وليس من خلال استيراد التكنولوجيا العالمية ، بل لابد أن تتولاها عقول عربية تستوعب بالمعايشة والمعاناة وأعمال العقل عبرة التاريخ العربي الحديث والمعاصر وخلاصة الواقع العربي الراهن بمايطرحه من إمكانيات للتقدم وقدرات خلاقة لتجاوز مواطن العجز الكامنة في التراث وأنماط الحياة اليومية وأساليب الفكر والسلوك المهيمنة على الأمة العربية أفرادا وجماعات .

ولقد تجاوزت معظم البلدان العربية مرحلة التنمية القائمة على مشروعات جزئية متفرقة ، واهتمت بإنشاء أجهزة ووزارات للتخطيط . وهناك إثناعشرة دولة عربية تبنت سياسات تخطيطية متوسطة المدى من بينها ثماني دول تمارس قدرا من السيطرة المركزية لا يمكن التقليل من أهميته ، وذلك من خلال أجهزة ووزارات التخطيط العربية[٥٨] وقد أولت بعض المنظمات العربية اهتماما ملحوظا للدراسات القطاعية سعيا للتوصل إلى تصورات إستراتيجية عربية مشتركة تمثل حلقة في سلسلة المحاولات المستمرة لتحقيق الحد الأدنى من التعاون العربي المشترك لمواجهة التحديات المستقبلية التي تجابه الوطن العربي ككل . وقد أسفرت هذه المحاولات عن مجموعة من الوثائق التي تعالج قضايا ذات صلة بالمستقبل العربي ، وتتلمس خطوط التحرك الاستراتيجي في المجالات المختلفة حتى نهاية القرن العشرين . وتهدف هذه الدراسات والوثائق إلى إعطاء قدر من التصور الاستراتيجي لآفاق ومستقبل تطور الأوضاع العربية في العديد من المجالات . وعلى المستوى القومي تزامن هذا الاهتمام بوضع الأستراتيجيات القطاعية مع بعض المحاولات التي بذلت من جانب العلماء العرب للسعي نحو صوغ نماذج كمية تضم الوطن العربي كله . وقد استلزمت هذه المحاولات ضرورة التعرف إلى النماذج العالمية ودراسة أساليبها الفنية وتصنيفاتها المختلفة سعيا للاستفادة بها فيها يمكن إجراؤه من دراسات مستقبلية على المستوى العربي . ونذكر في هذا المجال الإسهام الرائد الذي قدمته (مجموعة التخطيط طويل المدى للبلدان العربية) التي أنشئت بمعهد التخطيط القومي في القاهرة ، وأشرف على نشاطها الدكتور إبراهيم حلمي عبدالرحمن ، وكانت تضم كوكبة من العلماء والباحثين المصريين . وقد عملت هذه المجموعة بالتعاون العلمي مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي ومنظمة اليونيدو . ولقد أعدت هذه المجموعة التي عرفت باسم (مجموعة القاهرة) بعض الدراسات الهامة التي تمثل في مجملها مشروع نموذج عربي للمستقبليات ، إلا أن هذا المشروع لم يكتب له الخروج إلى دائرة التطبيق[٥٩] .

---

(٥٨) لمزيد من التفاصيل انظر : إبراهيم سعد الدين ، وآخرون صور المستقبل العربي ـ مصدر سابق ـ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(٥٩) انظر : نادر الفرجاني : حول استشراف المستقبل العربي للوطن العربي رؤية نقدية للجهود المحلية والخارجية ـ مجلة المستقبل العربي ـ بيروت ـ مايو ١٩٨٠ .

ويضاف إلى هذا الجهد العديد من الدراسات ذات الطابع الفردي ، التي تفتقر إلى التكامل والشمول في تناول ومعالجة القضايا المستقبلية في تشابكاتها المعقدة . وفيما عدا ذلك هناك دراسة رائدة تتميز بالطابع الجماعي أصدرتها **مؤسسة المشاريع والإنماء العربية عام ١٩٧٥ بإشراف أنطون زحلان** تحت عنوان (الوطن العربي عام ٢٠٠٠)[٦٠] . وتتكون هذه الدراسة من مجموعة دراسات قطاعية تشمل السكان والتعليم والتحضر والموارد البشرية والزراعة والري والنفط والنقل والنمو الاقتصادي الكلي . وقد تضمنت هذه الدراسات توصيفا للأوضاع الراهنة لكل قطاع ثم إسقاطات مبسطة لمستقبل كل قطاع ، وفي النهاية تضمنت بعض التوصيات العامة .

وتفتقر هذه الدراسة إلى النظرة الشمولية المتكاملة كما أنها لا تستند إلى قاعدة علمية عريضة من المعلومات والبيانات .

وانطلاقا من الوعي العميق بأهمية وضرورة البدء بالخطوة الأولى على الطريق الطويل نحو التحكم في زمام المستقبل العربي . تلك الخطوة التي تتمثل في ضرورة بذل جهد عربي استثنائي من أجل خلق تيار وطني وقومي يؤمن بالدراسات المستقبلية باعتبارها السبيل الأوحد للنهوض الشامل والانطلاق نحو تشكيل المستقبل العربي ومن ثم امتلاكه . ولقد تمثلت هذه الخطوة في مشروع المستقبلات العربية البديلة[٦١] الذي يهدف في الأساس إلى إثارة الوعي حول أهمية الدراسات المستقبلية في الوطن العربي . وينطلق هذا المشروع من إدراك أن التطور المستقبلي للوطن العربي وتنميته لاتصنعه التطورات الاقتصادية فحسب ، ولا يشكله مجرد الزيادة المحتملة في بعض مؤشرات الإنتاج أو التوزيع أو الاستهلاك ، بل إن التنمية الحقيقية لا يمكن أن تتحقق إلا في إطار إجتماعي ـ اقتصادي حضاري شامل . ولذلك فقد تضمن هذا المشروع العديد من الدراسات المتعلقة بمختلف عناصر التطور الحضاري العربي . وتشتمل هذه المجالات :

١ ـ العلاقات بين البنى الاجتماعية والسياسية والتنمية .

٢ ـ عملية صنع القرار .

٣ ـ الديموقراطية والاتصال الجماهيري والمشاركة الشعبية .

٤ ـ الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية .

٥ ـ آليات التبعية .

٦ ـ الوطن العربي والنظام العالمي المتغير .

٧ ـ الآثار غير المدروسة للثروة النفطية .

٨ ـ الموارد البشرية .

٩ ـ موارد واستخدامات العلم والتكنولوجيا .

١٠ ـ الفنون والآداب .

١١ ـ الإطار المؤسسي للتكامل .

١٢ ـ التوحيد العربي وقضايا الأقليات .

---

(٦٠) انظر : نادر فرجاني : استشراف المستقبل العربي ـ مصدر سابق .

(٦١) شارك في تصميم المشروع مجموعة من المفكرين العرب وعلى رأسهم د . إسماعيل صبري عبدالله وإبراهيم سعدالدين . وأقرته جامعة الأمم المتحدة بطوكيو في ديسمبر ١٩٨٠ . وقد أنجزت كافة دراساته الفرعية وإن لم تصدر بعد في دراسات منشورة .

مستقبل البشرية، بين رؤى العالم الثالث وفظاظة العالم "نموذج باريلوتشي"

نادر فرجاني

تمهيد

في ابريل ١٩٦٨ اجتمع ثلاثون من الشخصيات العلمية والعامة من عشرة بلدان بدعوة من رجل الصناعة الايطالي أوريليو بيتشاي A. Peccei في مدينة روما لمناقشة المعضلات الحالية والمستقبلية التي تواجه البشرية(١) . ومن هذا الاجتماع نشأ نادي روما Club of Rome كهيئة غير رسمية تسعى لفهم النسق العالمي بأبعاده ، الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، المتشابكة . وقد أسفرت الأنشطة الأولى لنادي روما عن بدء مشروع بحثي تحت عنوان « مأزق البشرية » The Predicament of Mankind ، واستهدف المشروع فحص المشاكل المعقدة التي تواجه البشر في أنحاء العالم كافة : الفاقة وسط الوفرة ، تدهور البيئة ، فقد الثقة في المؤسسات ، الانتشار الحضري المنفلت ، اغتراب الشباب ، رفض القيم التقليدية ، التضخم والاضطرابات النقدية والاقتصادية الأخرى .(٢) وقد اصطلح فيما بعد على تسمية مجموعة المشاكل هذه : « مشكل العالم » World Problematique .

ومن المهم الاشارة هنا إلى أن التوصيف المقدم اعلاه لمشكل العالم يأتي من منظور الغرب المصنع ، وبالتأكيد لا ينطلق من الهموم الجوهرية لغالبية البشرية التي تعيش في بلدان العالم الثالث ، وإلا فأين زوايا التبعية والاستغلال ، وهي قسمات أساسية للتنظيم الاقتصادي ـ السياسي للعالم يرزح تحت عبئها البشر في جنوب الكوكب ؟ وليس هذا التوجه بمستغرب . فنادي روما نشأ في عقر دار الغرب المصنع ، ومن المنطقي أن يعبر عن التوجهات السائدة هناك في

---

(١) تعتمد هذه الفقرة على تصدير وليام واتس W. Watts لكتاب « حدود النمو » . D. H. Meadows, et al, The Limits to Growth; the New American Library, New York, Second Edition, 1975.

(٢) المرجع السابق ، ص × .

النظر الى العالم . وعلى سبيل التوضيح ، فإن اللجنة التنفيذية للنادي عند قيامه كانت تضم خمسة أفراد ، هم : منشىء النادي ، وكان ينتمي إلى إدارة اثنتين من كبريات الشركات الايطالية (فيات وأوليفتي) ، ومدير أكبر الشركات الاستشارية الأوروبية في مجال الاقتصاد والهندسة ، بالاضافة إلى رئيس معهد باتيل بجنيف ، والمدير العلمي لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) ، ومدير مركز اليابان للأبحاث ، وأستاذ جامعي بالجامعة الفنية بهانوفر ، وآخر بمعهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا[٣] . وبتفحص مراكز الثلاثة الأول ومعرفة أسماء وأعمال المجموعة كلها نجد أنه ما كان يتوقع لنادي روما أن يتخذ مواقف جذرية من التنظيم الاقتصادي - السياسي القائم للعالم .

وإن كان للمناقشات الأولى لنادي روما من فضل أكيد فهو في لفت الأنظار إلى التفاعل الوثيق بين الجوانب المختلفة لمشكل العالم ، وأن مأزق البشرية يعود في جانب أساسي منه إلى إهمال هذا التفاعل ، وقد أدى هذا التوجه إلى تكريس اعتماد أسلوب الأنساق Systems Approach في دراسة تطور العالم . وفي صيف ١٩٧٠ قدم جاي فورستر J. Forrester ، الأستاذ بمعهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا ، في اجتماعات للنادي نموذجا بسيطا للعالم يقوم على حركية الأنساق Systems Dynamics ، وتمخضت هذه الاجتماعات عن تكوين فريق بحثي برئاسة دينيس ميدوز D. Meadows ، الأستاذ بمعهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا ، بدعم مالي من مؤسسة فولكس فاجن الألمانية . وقد توفر الفريق على دراسة خمسة عوامل رئيسية تحدد النمو في العالم ، كوحدة غير مجزأة : هي السكان ، والانتاج الزراعي ، والموارد الطبيعية ، والانتاج الصناعي ، والتلوث . ونشرت النتائج العامة لهذا المشروع البحثي لأول مرة في ١٩٧٢ في الكتاب ذائع الصيت : « حدود النمو »[٤] .

ولسنا بمعرض دراسة ما قام به أصحاب « حدود النمو » ولكن نود الاشارة فقط إلى بعض السمات العامة ، والنتائج الأساسية ، لهذا العمل . نظرا لأنه ترك بصمات واضحة على تطور دراسات مستقبل البشرية : بداية ، يتسم انتقاء العوامل الرئيسية بمسحة غربية واضحة ، فالمشاكل التي يتناولها هي مشاكل العالم من وجهة نظر بلدان الغرب المصنع ، كما أسلفنا في توصيف اهتمامات نادي روما عامة . والنتيجة الجوهرية لهذا العمل هي ضرورة وضع قيود قصدية على النمو في العالم للوصول إلى حالة من التوازن . وتعني حالة التوازن هذه أن يكون عدد السكان وحجم رأس المال مستقرين نتيجة لضبط قوى الاضافة والانقاص بحيث تكون متساوية وعند مستوى متدن[٥] . أما إذا لم يحدث هذا فإن البديل سيكون توقف النمو على الكواكب نتيجة لتخطي الحاجز النهائي ، أي قدرة البيئة الطبيعية على تحمل النمو في البشر وتراكم رأس المال . ولكن هذا البديل يعني أيضا كوارث تحيق بالبشرية تتمثل في نفاد الموارد الطبيعية ، وانهيار البيئة ، والمجاعة .

ولقد شكل عمل فريق « حدود النمو » حافزا أساسيا للعمل الذي نحن بصدد عرضه ، أي نموذج باريلوتشي لمستقبل العالم . فقد نشأت فكرة بناء النموذج في اجتماع دعا إليه نادي روما ، في ريودي جانيرو في صيف ١٩٧١ ،

---

(٣) المرجع السابق
(٤) سبق الإشارة إليه . وقد ترجم إلى العربية
(٥) المرجع السابق ، ص ١٦٣ - ١٧٩

لمناقشة ما توصل إليه فريق ميدوز حتى ذلك الحين . وفي هذا الاجتماع قرر المشاركون من أمريكا اللاتينية تكليف مؤسسة باريلوتشي للأبحاث ببناء نموذج للعالم يقوم على وجهات النظر التي عبروا عنها في النقاش .

ولكننا نرى من الضروري ، قبل أن نتحول لتقديم نموذج باريلوتشي ، أن نشير إشارة سريعة لعمل يُعَدُّ المرحلة الثانية لاهتمام نادي روما بمشكل العالم . إذ كلف النادي فريقا بحثيا بقيادة ميزاروفيك Mesarofic وبستيل Pestel ، والأول أستاذ أمريكي من أصل يوغسلافي ، والثاني أستاذ بجامعة ألمانية ، ببناء نموذج يتم فيه تقسيم العالم إلى مناطق ترتبط بعلاقات ، ويتم استخدامه لمناقشة « مشكل العالم » مع التركيز على مسألتي الطاقة والغذاء . وبهذه الصورة ، فإن هذا العمل يكون أرقى فنيا من المحاولة الأولى التي قادها ميدوز . وقد اكتسب عمل ميزاروفيك وبستل ، الذي نشر لأول مرة على الملأ في ١٩٧٤ على صورة كتاب « البشرية في مفترق الطرق »[٦] ، شهرة فائقة . وتعد هذه الدراسة ، في حركة النماذج العالمية ، نقيض نموذج باريلوتشي في أكثر من جانب . ورغم أننا لن نعقد مقارنة بين العملين ، إلا أن التقييم السليم لنموذج باريلوتشي يتطلب إيراد لمحة سريعة عن ذلك الآخر .

وتضم النتائج العامة لعمل ميزاروفيك وبستيل مجموعة من التوجهات والتوصيات الطيبة مثل ضرورة أن يواجه مشكل العالم في إطار عالمي يتبنى منظور الأجل الطويل ، ويعتمد التعاون بدلا من المواجهة[٧] . ولكن التحليل التفصيلي للعمل ينطوي على تحيزات غريبة واضحة ، فعلى سبيل المثال ، تمت مناقشة وضع النفط العربي في نطاق مناقشة الأوضاع العالمية للطاقة ، وتضمنت التوصيات المقدمة للمنطقة العربية في « مفترق الطرق » : أن أفضل سعر للنفط يكون أعلى من سعر ١٩٧٤ بحوالي ٥٠٪ ، وضرورة أن تعاون المنطقة على إمداد الدول المصنعة باحتياجاتها من النفط . فهذه الاستراتيجية « فضلى » ، لأنها تؤدي إلى تحقيق أعظم تراكم ثروة للعرب في الدول المصنعة ، على حين تؤدي أي تصرفات بديلة ، مثل تقليل إنتاج النفط ، إلى تراكم أقل لثروة العرب في البلدان المصنعة . ولنلاحظ أن المعيار المستخدم في تحديد ما يعد ميزة للمنطقة هو تراكم ثروتها في الغرب المصنع ، وليس تنمية القدرات الذاتية للمنطقة ، أو التراكم الرأسمالي المحقق للتنمية داخلها . كذلك تضمنت التوصيات العامة ضرورة تخفيض نمو السكان في العالم عن طريق برامج الحد من النسل ، في العالم الثالث طبعا[٨] . وفي النهاية ، فإن تحليل هذه المجموعة لأوضاع العالم ، وبدائل مستقبله ، كان يفترض ، ضمنا ، استمرار جوهر التنظيم الاقتصادي ـ السياسي القائم للعالم . وياله من افتراض يذكرنا بقولة النفري : « واقعد في ثقب الابرة ولا تبرح . . . وافرح » .

---

(٦) انظر M. Mesarovic & Pestel, E., Mankind at the Turning Point, the New American Library, New York, 1974.
وقد ترجم إلى العربية .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٤٣ ـ ١٥٧

(٨) يثير الإصرار على تخفيض معدل نمو السكان في العالم ، أي في العالم الثالث ، في أعمال نادي روما ، وغيره من الدوائر الغربية والدولية ، كثيرا من الريبة وهل يمكن أن نستبعد ، في هذا الصدد ، تذكر أن السبعينات شهدت لأول مرة في التاريخ الحديث زيادة نصيب العالم الثالث من سكان العالم على نصيب البلدان الغربية المصنعة ، وسيادة التوقع بأن يزداد هذا الفارق بمرور الزمن حتى ينخفض نصيب تلك الأخيرة إلى الثلث عند مطلع القرن القادم ؟

نموذج باريلوتشي للعالم

مؤسسة باريلوتشي هيئة بحثية خاصة تستمد اسمها من المنتجع الجبلي الصغير الذي يستضيف مقرها البحثي ، سان كارلوس دي باريلوتشي ، والذي يقع في جنوب غرب الأرجنتين على حدود شيلي . وقد أشرنا إلى البداية التاريخية لمشروع بناء نموذج للعالم بالمؤسسة بتكليف من مجموعة من المفكرين من أمريكا اللاتينية التي خولت لجنة من ستة من كبارهم الاشراف على المشروع . أما المشروع ذاته فقد قام به فريق رئيسي ، متعدد التخصصات ، من قرابة عشرين من الباحثين برئاسة أميلكار هيريرا A. herrera ، واضطلع فيه بدور بارز أوجو سكولنيك H. Scolnik ، ونشرت خلاصة للعمل بالانجليزية في كتاب صدر عن مركز أبحاث التنمية الدولية الكندي IDRC ، الذي مول المشروع جزئيا ، وذلك في ١٩٧٦[٩] . وقد نشر التقرير التفصيلي عن المشروع بعد ذلك بعدة لغات . ويقوم عرضنا هنا على ترجمة عربية للتقرير الموجز ، أعدها كاتب هذه الورقة[١٠] .

الاطار النظري

لا يقوم موقف نموذج باريلوتشي على حياد أيديولوجي مزعوم كما هو الحال في كثير من الدراسات المستقبلية ، خاصة تلك التي تتضمن بناء نماذج رياضية ، فهو ، على العكس من ذلك حيث يعترف واضعوه بداية بأنه معياري (normative) ، بمعنى أنه يحاول رسم طريق يوصل إلى غاية محددة سلفا . وهذه الغاية هي عالم متحرر من التخلف والبؤس . وفي هذا الصدد ، يتبنى النموذج تصورا للعالم يشترك فيه أعضاء فريق العمل ويلتزمون به بعمق .

والواقع أن كلمة « نموذج » تستعمل في التقرير عن المشروع بطريقتين : الأولى بالاشارة إلى مفهوم مجتمع « مثالي » ، والثانية للتعبير عن نموذج رياضي .

ويقدم المجتمع المثالي كرد على المدرسة الفكرية الشائعة في الغرب المصنع ، والتي ترجع مشكل العالم إلى النمو السريع للسكان ، ولقد قدمنا لها مثالين هامين في القسم السابق : « حدود النمو » و « البشرية في مفترق الطرق » . ولكن موقف باريلوتشي يختلف جذريا . فعندهم أن المشاكل الأساسية التي تواجه العالم ليست حدودا طبيعية تتعارض مع النمو السريع للسكان ، ولكنها اجتماعية ـ سياسية تنجم عن التوزيع غير المتكافىء للقوة بين البلاد ، وداخلها . ومن ثم فإن المجتمع المثالي الموصوف يقوم على أن الانسان لن يتحرر من القهر والتخلف في نهاية المطاف إلا عن طريق تغييرات جذرية في التنظيم الاجتماعي ـ السياسي للعالم . والمقترح هو تحول نحو مجتمع اشتراكي في الأساس ، يقوم على

(٩) A. Herrera, et al, Catastrophe Or New Society? A latin American World Model, IDRC, Ottawa, 1976.

(١٠) أميلكار هيريرا ، أوجو سكولنيك وآخرون ، كارثة .. أم مجتمع جديد ؟ نموذج للعالم من أمريكا اللاتينية ، ترجمة نادر فرجاني ، تقديم د . إبراهيم حلمي عبدالرحمن ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

المساواة والمشاركة الكاملة لكل أعضائه في القرارات التي تؤثر عليهم ، وينظم فيه الاستهلاك والنمو الاقتصادي بطريقة تؤدي لتحقيق مجتمع متوافق مع بيئته .

وينتقد واضعو النموذج ، بداية ، نموذجي التنظيم الاجتماعي ـ السياسي السائدين في العالم المعاصر ، الرأسمالي والاشتراكي ، بتنويعاتها القائمة حاليا ، فالنموذج الرأسمالي يقوم على الملكية الخاصة ، والمبادلة ، والربح الخاص ، ويؤدي إلى نشوء مجتمعات قوامها أبنية طبقية يسود فيها عدم المساواة ، والسيطرة ، والاستغلال (واستعمال الحث والتشكيل كوسائل للضبط الاجتماعي) . ويتحقق ذلك داخل المجتمعات الرأسمالية ، وعلى صعيد النظام الرأسمالي العالمي . ويترتب على ذلك اغتراب الانسان في بلدان المركز الرأسمالية ، ووقوع البلدان المتخلفة في شرك التخلف والتبعية .

أما النموذج الاشتراكي ، فإن صورته المثالية تقوم على إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وإنشاء مجتمع لاطبقي يتسم بغياب السيطرة والاستغلال وعدم المساواة ، ويقترح إنشاء نظام عالمي جديد يقوم على التضامن وعلى تقسيم دولي يستبعد الاستغلال والسيطرة . ولكن التجربة التاريخية تشير إلى أن الأنظمة « الاشتراكية » قد اتسمت بوجود بيروقراطيات حزب ودولة تحولت إلى أبنية قوة شديدة المركزية ، وسلطوية ، وبالغة الجمود في التدرج الاجتماعي ، كما مالت هذه النخب إلى تكريس فروق اجتماعية تتوقف على مدى الاتجاه إلى الأقلية التي تمسك بالقوة السياسية .

ويحرص فريق باريلوتشي على عدم إنكار السمات الايجابية لكلا النظامين . فالرأسمالية البرجوازية ، بثوراتها التقانية والسياسية ، كانت واحدة من أكثر التيارات التاريخية حركية وفعالية ، وفتحت عصرا من التقدم الانساني غير مسبوق ، بينما وضعت الثورات الاشتراكية نهاية لبعض من أكثر الأنظمة تخلفا في العالم الحديث .

كذلك لا يمكن إنكار أن الأنظمة الاشتراكية قد حققت إنجازات ذات أهمية تاريخية حقيقية . فقد تمكنت من كبت إحدى الدعائم الأساسية التي تفرز عدم المساواة عن طريق تأميم وسائل الانتاج . كذلك أظهرت هذه الأنظمة أنه يمكن إشباع الحاجات الأساسية لمعظم السكان في بعض من أكثر بلدان العالم تخلفا ، وبمعدلات يكاد لا يسبقها مثيل في التاريخ .

ولكن تبقى حاجة لتصور مجتمع جديد . وتتبنى رؤية باريلوتشي لهذا المجتمع قيمتين أساسيتين : المساواة الأساسية بين بني البشر ، ومفهوم التاريخ كعملية لا حد لها يتوقف اتجاهها في التحليل الأخير على رغبات وأفعال البشر . الأولى تشكل الأساس الصالح الوحيد لبناء عالم يسوده الوفاق ، والثانية شرط أساسي لتحقيق هذا العالم .

ولا تقدم رؤية باريلوتشي وصفا تفصيليا للمجتمع المنشود . ويعود ذلك إلى أن أي عملية تاريخية تكون ، في

جوهرها ، غير مسبوقة . وعلى وجه الخصوص ، فإن كل مجموعة حضارية غالبا ما تسلك طريقا متميزا لتحقيق ذات الغايات النهائية . ومن ثم ، لا يتضمن النموذج إلا وصفا إجماليا للمجتمع الجديد ينتظم حول العناصر الآتية :

١ ـ الغاية النهائية هي مجتمع مساواتي egaliterian على الصعيدين القطري والدولي . والمبدأ الأساسي لهذا المجتمع هو الاعتراف بأن لكل إنسان ، لمجرد وجوده ، حقا لا جدال فيه في إشباع حاجاته الأساسية ـ الغذاء ، السكن ، الصحة ، التعليم ـ والتي هي ضرورية لاندماجه الكامل والنشط في مجتمعه .

٢ ـ المجتمع المقترح ليس مجتمعا استهلاكيا ، ويتحدد فيه الانتاج بالحاجات الاجتماعية وليس بدافع الربح . ولا شك أن الحاجات الاجتماعية تتغير باستمرار ، وتتحدد مشروعية الحاجات في المجتمع الجديد عن طريق المشاركة الفاعلة لأعضائه . وعلى حين يكفل حق الفرد في التعبير الحر ، فإن اتخاذ القرارات يكون عن طريق آليات العمل الجمعي . وعلى أساس مدى الأهمية للمجتمع ، تناقش القضايا ، وتتخذ القرارات ، على مستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي ـ السياسي .

٣ ـ ينتفي في المجتمع المقترح استخدام الملكية كوسيلة للحصول على القوة أو الميزات الشخصية . فبدلا من الملكية الخاصة أو ملكية الدولة ، تقوم أساليب لاستعمال وإدارة وسائل الانتاج باللجوء إلى آليات العمل الجمعي وحسب طبيعة وأهمية وسيلة الانتاج ، يمكن أن تقع مسؤولية إدارتها على وحدات انتاج ، أو لجان مؤقتة أو كوميونات دولة ، وستتوقف أساليب الاستعمال والادارة هذه على العادات والملامح الحضارية والتنظيم الاجتماعي .

٤ ـ يوفر تطبيق هذا النموذج المثالي في عدد متزايد من بلاد العالم الظروف الأساسية لخلق نظام عالمي متوافق ، قادر على نشر العدالة ، والرفاهية والديمقراطية ، وعلى اقتلاع جذور الحرب . ويمكن أن يؤدي ذلك إلى نشوء شكل من التنظيم الدولي يحترم حرية وذاتية كل الدول ، ويروج للاندماج التدريجي في جماعة دولية متحررة من النزعات الاقليمية .

الحدود الطبيعية للتنمية

لا يكفي بالطبع وصف مجتمع مثالي ، بل يلزم بيان إمكانية قيامه . ويقتضي ذلك إظهار أنه لا يتوقع أن تفرض محدودية الموارد الطبيعية . في المستقبل المنظور ، أي عوائق في سبيل تحقيق هذا المجتمع في صورة حدود طبيعية مطلقة . كذلك يتعين تبيان أن دول ومناطق العالم ، وبخاصة الأفقر منها ، يمكن أن تبلغ الأهداف المرجوة خلال فترة زمنية معقولة ، بدءا من الموقف الحالي بالنسبة لتوافر رأس المال ، والقوى البشرية ، والموارد الطبيعية ، والاتجاهات السكانية ، الخ . .

ولتحقيق الهدف الأول ، أي بيان عدم وجود حدود طبيعية مطلقة في المستقبل المنظور ، قام فريق باريلوتشي بتحليل معمق لأوضاع الموارد الطبيعية والتلوث ، وأنشأ نموذجا رياضيا لمعالجة الهدف الثاني : إثبات أن كل بلاد أو مناطق العالم يمكن أن تنتقل من أوضاعها الحالية الى الأهداف المقترحة في مدى زمني معقول .

والقصد من تحليل أوضاع الموارد الطبيعية والتلوث هو بالطبع دحض المزاعم التي سادت دوائر عدة في الغرب المصنع ، وخاصة دراسة « حدود النمو » ، باستحالة قيام مجتمع عالمي يتمتع فيه كل البشر بمستويات معيشية ملائمة دون ضبط نمو السكان ، نظرا لوجود حدود طبيعية يستحيل تخطيها يفرضها نفاد الموارد الطبيعية المتوقع في المستقبل غير البعيد ، والآثار السامة للتلوث المتزايد . وترتبط هاتين المسألتين بإمكانية إنتاج الطاقة بكميات تتمشى مع زيادة عدد السكان وارتفاع مستويات استهلاك الفرد منها ، وهذه قضية اهتم بها الغرب المصنع بوجه خاص .

ويبدأ تحليل باريلوتشي لأوضاع الموارد الطبيعية ببيان أنه لا يمكن التعبير عن الثروة المعدنية لمنطقة ما بشكل مطلق وغير مشروط ، ولكن فقط بالنسبة إلى أوضاع اقتصادية وتقانية معينة . وحتى عندئذ يكون هناك هامش خطأ كبير . وعلى وجه الخصوص ، فإن تقديرات الاحتياطيات المعروفة من أي مورد معدني تتوقف على الظروف الاقتصادية والتقانية السائدة وقت التقييم ، أما في المستقبل فستؤدي تركيبات مختلفة من هذه الظروف إلى تعديل هذه التقديرات . وتدل الخبرة التاريخية على أن التعديل كان دائما إلى الأعلى ، وبفروق هائلة .

وينتهي فحص المعلومات المتاحة عن الموارد المعدنية في القشرة الأرضية وقاع البحر إلى أن الاحتياطيات المعدنية التي يمكن استغلالها بالفن الانتاجي الحالي ، أو المنتظر في المستقبل القريب ، يحتمل أن تكفي البشرية لقرون عديدة مستقبلا .

كذلك يفضي التحليل إلى ضرورة مراجعة المفهوم الشائع الذي يفترض أنه ما دامت الأرض محدودة ، فلا بد أن تكون مواردها كذلك . وهذا بالقطع صحيح . ولكن المغالطة التي تقدم كبرهان دامغ على الكارثة التي ستحل بالعالم نتيجة لاستمرار تزايد السكان ، تخلط بين المحدودية والنفاد . بخلاف استثناءات قليلة ، لا تفقد الكميات الهائلة من المعادن في قشرة الأرض بمجرد تعدينها واستعمالها ، ولكنها تستمر لتكون جزءا لا يتجزأ من الموارد المعدنية للكوكب . فقد تدخل مؤقتا في سلع رأسمالية أو استهلاكية ، وقد تدمج كيميائيا مع عناصر أخرى . ولكن ، على الرغم من هذا ، تبقى ولا تفنى . وقد أثبت الفن الانتاجي الحديث قدرته على إيجاد طرق لاستخلاص الموارد من أكثر التركيبات الجيولوجية تنوعا ، وعلى تدوير المواد التي استخدمت قبلا ، مرة أو أكثر في استخدامات جديدة .

أما بالنسبه لموارد الطاقة ، فقد أظهرت دراسات باريلوتشي أن الهيدروكاربونات ، في صورة سوائل وغازات ، يحتمل أن تبقى لمدة مائة عام تقريبا ، بينما قدر أن هناك مايكفي من الفحم ، على معدلات الاستهلاك الحالية لمدة حوالي

أربعة قرون . ولكن مصدر الطاقة المستقبلي الأهم هو الوقود النووي . وكان التقدير أن الاحتياطيات المحتملة من اليورانيوم والثوريوم تكفي لسد الاحتياجات من الطاقة إلى الأبد تقريبا . وعليه ، فإنه لايوجد داع ، من منظور التوافر المادي ، لتوقع مشاكل في مصادر الطاقة في المستقبل المنظور . وتؤكد الدراسة أن أزمة الطاقة التي ركز عليها الغرب المصنع هي ، في المنظور التاريخي ، ذات طابع عرضي .

وتفرق دراسات باريلوتشي عن التلوث بين البلدان الغنية والفقيرة . في الأولى يقترن التلوث بتوسع النشاط الصناعي ، والأعداد المتزايدة من السيارات وغيرها من معالم معدلات الاستهلاك المرتفعة . وضبط هذا النوع من التلوث ممكن بشرط وجود سياسات مكافحة مناسبة . أما في البلاد المتخلفة ، فينتج التلوث من الفاقة : تلوث الماء ، أوضاع سكن سيئة ، غياب الصرف الصحي ، الخ . . . والحد من هذا النوع من التلوث رهن بإشباع الحاجات الأساسية . وختاما ، فإن النمو الاقتصادي لايرتبط بالضرورة بزيادة التلوث . وعليه فإنه يمكن ضبط كل أنواع التلوث تقريبا إذا تم اتخاذ القرارات المطلوبة ، وتنفيذ الإجراءات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة .

النموذج الرياضي ونتائجه

ذكرنا أن مشروع باريلوتشي تضمن إنشاء نموذج رياضي كأداة لاستكشاف إمكانية قيام المجتمع المقترح . ويقوم النموذج الرياضي على أنه ، في المجتمع الجديد ، يكون الهدف الرئيسي لنسق الإنتاج هو إشباع الحاجات الأساسية : الغذاء والسكن ، والتعليم والصحة ، طبقا لمعايير معينة والنموذج الرياضي المستخدم هو ، في الجوهر ، نموذج اقتصادي ، أو بصورة ، أدق ، نموذج إنتاجي يتكون من خمسة قطاعات : الغذاء ، والسكن ، والتعليم ، والسلع الرأسمالية ، وأخيرا السلع الاستهلاكية والخدمات الأخرى . ويشمل هذا القطاع الأخير كل ما لا يدخل في الأربعة الأول . وتسمح دالة الانتاج المستخدمة بالاحلال بين العمل ورأس المال وتعكس التحسن في الإنتاجية استجابة للتقدم التقاني . وبعد إشباع الحد الأدنى من الحاجات الأساسية ، تخصص الموارد لترقية مستوى المعيشة باطراد .

والوظيفة الرئيسية للنسق الاقتصادي في النموذج الرياضي هي تخصيص رأس المال والقوة البشرية بين القطاعات الخمسة لتحقيق أفضل توزيع لعنصري الإنتاج طبقا لآلية رياضية تخصص الموارد لكل قطاع بحيث يعظم توقع الحياة عند الميلاد (life expectancy) عند كل نقطة زمنية أثناء تشغيل النموذج وقد اختير معيار توقع الحياة ، بدلا من مؤشر اقتصادي - مثل الناتج القومي الإجمالي للفرد ، كما هو معتاد في مثل هذه النماذج - نظرا لأن توقع الحياة يتحدد بالمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية ، كما أنه حساس للتغير فيها ، بدرجه أعلى بكثير من الناتج الإجمالي للفرد .

وإحدى السمات الرئيسية للنموذج التي تميزه عن أغلب النماذج التي بنيت حتى وقت إعداده ، وخاصة تلك التي تمت في إطار نادي روما ، هي أن حجم السكان يولد داخليا بواسطة نموذج فرعي يربط المتغيرات السكانية بالمتغيرات

الاجتماعية ـ الاقتصادية . ويعكس هذا النموذج الفرعي أحد المقومات الأساسية لمشروع باريلوتشي ، وهو أن الطريقة الوحيدة الكافية لضبط نمو السكان هي تحسين مستويات المعيشة .

وللتوفيق بين اعتبارات عدة ، تم تقسيم العالم في نموذج باريلوتشي إلى أربع مناطق ، تضم الأولى البلدان المصنعة وتمثل الثلاث الباقية قارات الجنوب الثلاثة : أمريكا اللاتينية ، وأفريقيا وآسيا .

وبدون الدخول في التفاصيل الفنية للنموذج الرياضي(١١) ، نورد فيما يلي أهم النتائج التي حصل عليها فريق باريلوتشي من تشغيل النموذج على الحاسب الالكتروني ، مع التأكيد على أن التواريخ المتضمنة في هذه النتائج تشير إلى الآفاق الزمنية التقريبية اللازمة لتحقيق أهداف معينة . وذلك بفرض الانطلاق من الظروف الابتدائية للمناطق الأربع في ١٩٦٠ ، وافتراض تطبيق السياسات اللازمة للوصول إلى المجتمع المنشود بدءا من ١٩٨٠ (أي بعد نشر نتائج النموذج بسنوات ثلاث) وحتى عام ٢٠٦٠ وبفرض أن تعتمد كل منطقة على مواردها الذاتية خلال عشرين عاما منذ عام ١٩٨٠ .

وكما يتوقع من الظروف الابتدائية ، يتم إشباع الحاجات الأساسية في البلدان المصنعة خلال السنوات القليلة الأولى لتشغيل النموذج . وعند نهاية تشغيل النموذج ، يكون الوضع السكاني مستقرا ، ويبقى ٢٧٪ من الأرض القابلة للزراعة غير مستغلة . وإضافة إلى ذلك ، تحتفظ هذه المنطقة ، ابتداء من نهاية الثمانينيات ، برصيد من الغذاء يوازي استهلاك سنة . وتعني هذه الأرقام أن يصبح بمقدور المنطقة تطوير المستوى المعيشي لسكانها باطراد بعد مرور سنوات قليلة من تطبيق السياسات المقترحة .

وتتمكن أمريكا اللاتينية من إشباع الحاجات الأساسية في بداية التسعينيات ، أي بعد عشر سنوات من تطبيق السياسات المقترحة . وقبل نهاية القرن الحالي يمكنها توفير رصيد غذائي يكفي لمدة سنة ، ويبقى هذا الحال حتى عام ٢٠٦٠ ، بالرغم من زيادة عدد السكان إلى حوالي أربعة أمثال بحلول ذلك العام .

كذلك يمكن لأفريقيا إشباع حاجاتها الأساسية ، ولكن في فترة أطول من أمريكا اللاتينية ، إذ تبلغ هذا الهدف في عام ٢٠٠٨ ، ولكنها لا تستطيع الاحتفاظ بمخزون غذائي يتعدى استهلاك شهر واحد بحلول عام ٢٠٦٠ .

ولكن آسيا لاتتمكن من إشباع الحاجات الأساسية لسكانها على المستوى المرغوب حتى عام ٢٠٦٠ وتنشأ مشكلة آسيا في قطاع الغذاء . فبحلول سنة ٢٠١٠ ، تكون كل الأراضي المتاحة قد زرعت وتكرس الموارد الاقتصادية لزيادة إنتاج الماشية والأسماك . ولكن هذا لايكفي لتغذية السكان المتزايدين مما يؤدي لانهيار النسق الاقتصادي . ولايعني هذا أن آسيا تواجه مشكلة حدود مطلقة ، إذ تبقى في المناطق الأخرى مساحات كبيرة من الأراضي القابلة للزراعة

---

(١١) يمكن الرجوع للمصادر السابق الاشارة إليها للاستزادة عن هذا الجانب من مشروع باريلوتشي .

عندما يستقر عدد سكانها ، وبالتالي يمكن لآسيا أن تستورد الغذاء . اذ أنه من غير المتوقع أن تتمكن آسيا من زيادة الغلة الزراعية عن الحد المتحفظ المستخدم في حسابات النموذج (أربعة أطنان حبوب للهكتار في السنة) . وتظهر نتائج تشغيل النموذج بافتراض زيادة مستوى الغلة الزراعية بمقدار النصف ، وهو أمر في حيز المعقول ، أنه يمكن اشباع الحاجات الغذائية حول مطلع القرن القادم ، وتحقيق شمولية القيد في المدارس بحلول عام ٢٠١٠ ، بينما لايتحقق هدف المسكن لكل أسرة إلا في سنة ٢٠٢٠ . وعلى الرغم من هذا التحسن الكبير ، فإن قدرة آسيا على تغذية سكانها بكفاية من مواردها الذاتية تعالي قرب ٢٠٦٠ . ولاحل لمشكلة الغذاء في الأجل الطويل إلا بزيادة الغلة الزراعية عن ستة أطنان للهكتار أو بإنتاج الغذاء من مصادر غير تقليدية .

وبطبيعة الحال ، فإن النموذج الرياضي يمكن استخدامه في اختبار فروض مختلفة أو في استشراف عواقب افتراضات معينة . وقد استخدم فريق باريلوتشي النموذج الرياضي في مناقشة عدة قضايا تمثل شروطا مغايرة لتلك التي تمت تحتها التشغيلة القياسية التي لخصنا نتائجها أعلاه . ومن تلك القضايا نذكر التضامن الدولي وتوزيع الدخل .

ولاختبار أثر التضامن الدولي ، تم تشغيل النموذج بافتراض تخصيص البلاد المتقدمة لنسبة ضئيلة (٢٪) من ناتجها القومي الإجمالي للمعونة الاقتصادية لآسيا وأفريقيا على صورة تحويل صاف لرأس المال ، بدون تعهد بإعادة الدفع ، وذلك حتى يتم إشباع الحاجات الأساسية في المنطقتين المعانيتين . وتشير نتائج النموذج ، تحت هذه الافتراضات ، إلى تحسن واضح في توقيت ، ومستوى ، إشباع الحاجات الأساسية في كل من أفريقيا وآسيا .

كذلك تظهر نتائج النموذج أن الابتعاد عن التخصيص المساواتي للسلع والخدمات يؤدي إلى إعاقة إشباع الحاجات الأساسية ويحي الإبقاء على توزيعات الدخل الحالية ، على وجه الخصوص ، تأجيل إشباع الحاجات الأساسية بجيلين على الأقل . كما ينطوي ذلك على تكريس مايتراوح مابين ثلاثة إلى خمسة أمثال الموارد اللازمة لتحقيق الهدف بافتراض المساواتية .

خاتمة :

لاريب أن مشروع باريلوتشي هو من أهم الأعمال في مجال الدراسات المستقبلية التي تناقش مصير البشرية . وتعود أهمية هذا العمل إلى تبنيه ، صراحة ، لوجهة نظر اجتماعية ـ سياسية محددة ، وإلى بعض النواحي الفنية ، التي ألمحنا لبعضها فيماسبق .

ولكن مشروع باريلوتشي يكتسب قيمة كبيرة من حيث كونه العمل الكبير الوحيد في ميدان الدراسات المستقبلية الذي نبع من العالم الثالث تعبيرا عن رفض كثير من الأوضاع السائدة في العالم وقت إعداده ، بما في ذلك الدراسات المستقبلية ، وكشفا لخلفيات هذه الأوضاع ، واستشرافا لمستقبل أفضل وأكرم لكل البشر .

لقد بين النموذج الرياضي إمكانية إشباع الحاجات الأساسية لأغلب سكان العالم حول مطلع القرن القادم ، إذا ما طبقت السياسات المقترحة للوصول إلى المجتمع المثالي في رؤى باريلوتشي . وأظهر مشروع باريلوتشي برمته أن العقبات التي تقف حاليا في سبيل تحرر البشرية من الفاقة والبؤس ليست طبيعية أو اقتصادية بالمعنى الضيق ، وليست النمو السريع في حجم السكان . ولكنها في الأساس ، اجتماعية ـ سياسية .

وعليه فإن مشروع باريلوتشي قد أكد لنا أن مستقبل البشرية لايتوقف ، في النهاية ، على عقبات طبيعية لاتذلل ، وإنما على عوامل اجتماعية وسياسية هي من صنع البشر ، وبالتالي فإن في مقدورهم تعديلها وصولا لوجود إنساني أغنى ، ولكن أين العالم من هذا المسعى ، بعد أكثر من سنوات عشر على نشر نتائج المشروع ؟ هل اقترب العالم من مجتمع باريلوتشي الجديد ؟ أم زاد احتمال الكارثة ؟

بداية ، نذكر أن مؤسسة باريلوتشي قد قاست من عنت الحكم العسكري في الأرجنتين حتى قبل نشر نتائج العمل في المشروع بدعوى أن المؤسسة تشيع أفكارا يسارية هدامة . ومن جراء ذلك ، تفرق أعضاء فريق العمل في مشروع باريلوتشي في أنحاء المعمورة لايجمعهم إلا الحرص على نشر وترجمة العمل كي تذيع رؤاه وأفكاره . ولم يعد بعضهم الى بلده إلا بعد انهيار الحكم العسكري منذ سنوات قلائل .

وليس مشروع باريلوتشي ، للأسف ، الأكثر انتشارا في مجال الدراسات المستقبلية لمصير البشرية ، حتى في العالم الثالث . وإن كان في هذا الأمر مدعاة للأسف ، إلا أنه ليس بمستغرب ، فمشروع باريلوتشي قام ضد كل العناصر المهيمنة في بني القوة الحالية في العالم . ومن الطبيعي أن تحارب هذه العناصر انتشار مثل هذه الرؤى التي تنتصر للفقراء وتدعو لتقويض أركان الهيمنة والاستغلال في العالم .

واذا عقدنا مقارنة بين عناصر مشروع باريلوتشي وواقع العالم في السنوات التي تلت نشر نتائج العمل لوجدنا الشقة واسعة ، وربما تزداد اتساعا . فعلى مستوى الرؤى ، نقدر أن العالم لم يقترب من تبني سمات مجتمع باريلوتشي المنشود ، ولا من تبلور عمل يهتدي بالسياسات المقترحة للتحرك نحو المجتمع الجديد . والنتيجة ، على وجه الخصوص ، هي أن مستوى إشباع الحاجات الأساسية للبشر في العالم قرب نهاية الثمانينيات يقل كثيرا عن المتوقع من النموذج .

فمازلنا نعيش في عالم يعاني فيه الكثير من سكان الجنوب من نقص وسوء التغذية ، بينما يشكو الغرب المصنع من عبء بحيرات الحليب وجبال الزبد ، أما عن تردي أوضاع التعليم والسكن في البلدان النامية فحدث ولاحرج ، وعوضا عن تكريس المشاركة والمساواة نجد اتجاها متعاظما لتكريس القهر وتهميش الناس خاصة في بلدان العالم الثالث . وبدلا من تعميق قيم المساواة ، نواجه استقطابا متزايدا داخل مجتمعات العالم الثالث ، وعلى صعيد النظام الدولي . ويرتبط ذلك كله بموجة قوية من زيادة الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي عمت العالم منذ منتصف السبعينيات تحت شعار « الانفتاح الاقتصادي » ، حتى قاربت الاشتراكية أن تكون كلمة قذرة . وفي النهاية ، فإن محصلة هذا كله هي مزيد من

تبني مثل المجتمع الرأسمالي الغربي ، ونمطه الاستهلاكي المدمر ، وخاصة بعد أن اهتزت أهم المحاولات المعاصرة لبناء « الإنسان الاشتراكي » في الصين الشعبية .

والخلاصة ، أننا نقدر أن العالم يقترب من الكارثة التي تنبأت بها دراسات نادي روما ، ولكن لأسباب غير تلك التي زعمتها هذه الدراسات . إن الاقتراب من الكارثة يعود كما بينت دراسة باريلوتشي ، إلى أسباب كامنة في أشكال التنظيم الاجتماعي ـ السياسي في العالم المعاصر .

ولايمكن الاحتجاج بواقع الحال في العالم على مشروع باريلوتشي . فالمشروع لم يحاول التنبؤ بمستقبل البشرية ، وانما قدم توقعات بما يمكن أن يكون عليه الأمر اذا تحققت افتراضات معينة حول السياسات الكفيلة بالتحرك صوب المجتمع المنشود . وحيث إن الافتراضات لم تتحقق ، فلا يتصور عاقل أن تتحقق النتائج المترتبة عليها .

إن رؤى باريلوتشي تبدو لنا كمولود بهي الطلعة ، مبشر بالخير ، مالبث أن عصفت به تصاريف واقع غاشم . لكن يبقى الأمل مابقيت الذكرى ، والمذكرون .

* * *

الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل "نظرة تقويمية"

محمود عبد الفضيل
أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة

توطئة : حول منهجية الدراسات المستقبلية

مازالت الدراسات المستقبلية مسعى علميا حديث العهد نسبيا ، ومازالت منهجيتها وأدواتها التحليلية محل مناقشة وجدل حاد في الدوائر المهتمة بقضايا استشراف المستقبل . ولكنه على الرغم من تعدد الرؤى والمناهج ، فهناك اتفاق واسع حول أنه لا يوجد ليس هناك مستقبل واحد أوحد .. بل هناك عدة مستقبلات بديلة أو محتملة . ولذا فإنه من طبائع الأمور ، أن تتعدد القراءات الاستشرافية للمستقبل .. لأنه مستقبل مازال « تحت التشكيل » ، وليس « معطى نهائيا » يتم الكشف عنه من خلال نوع من قراءة الطالع . فعلى الرغم من أننا لا نملك المستقبل ولا نمسك بزمامه تماما ، إلا أننا نملك جزئيا تشكيل جانب هام منه .

واستشراف المستقبل هو جهد استطلاعي بالأساس ، يتسع لرؤى مستقبلية متباينة ، ويسعى لاستكشاف أو تكشف العلاقات المستقبلية بين الأشياء والنظم والانساق الكلية والفرعية في عالم يموج بالحركة ويتصف بازدياد درجة « عدم اليقين » ، ولذا يمكن تشبيه « النظرة الاستشرافية » بالوقوف على ربوة عالية لاستطلاع آفاق المستقبل المنظور ، كل بحسب ما يسمح به ملء بصره وبصيرته . فالجهد الاستشرافي المستقبلي هو نوع من « الحدس التاريخي » المستند الى قاعدة علمية .

ولذا فإن « الخطاب الاستشرافي » له طبيعة معرفية خاصة ، فهو خطاب احتمالي بالضرورة يتضمن تعيين المسارات الحرجة للمستقبل العربي ... وحساب « الفرص » و « المآزق » المستقبلية ، في ضوء القيود

والامكانات القائمة والاحتمالية . وهنا تحتل « نسبية الزمان والمكان » أهمية خاصة في إطار « الخطاب الاستشراق » ، إذ تتحدد الاحداثيات للمشاهد المستقبلية من خلال علاقات النسبية بين « الزمن الاستشراق » و « الفضاء الاستشراق » (Futuristic Space) .

وبقدر ما أن هناك جزءا من المسارات المستقبلية « حرا طليقا مفتوحا لكافة الاحتمالات والمفاجآت ، فهناك كذلك جانب من المستقبل **مرهون سلفا** (**Cometted**) ، بفعل الموروثات والقيود الاستراتيجية التي تثقل كاهل الحركة والفعل المستقبل ، ولذا فإن عملية « التفاوض مع المستقبل » (**Negotiating the future**) هي رهان دائم لزحزحة وكسر القيود التي تشل حركة المستقبل ، دون القفز فوق الواقع الذي يحدد نقاط البدء في السباق نحو المستقبل(١) .

ولذا فإن الدراسات المستقبلية تسعى لاستشراف آفاق ودروب المستقبل الممكنة ، بهدف رسم **خرائط للملاحة** الصعبة في بحار المستقبل . إذ أن امتلاك « بوصلة » ما حول نمط التطورات والتحولات المستقبلية المحتملة ، يساعد راسم السياسة على تحديد درجات « الحرية » أو « **المناورة** » التاريخية .. حتى لا يصبح المستقبل قدرا محتوما تستقبله الأمم والشعوب دون حول أو قوة .

فحقيقة الأمر ، أن الصور المختلفة للمستقبل « تتوقف الى حد بعيد على القرارات التي تتخذ في الحاضر . ولذلك **فإن محاولة استقراء آثارها التراكمية** في الأجل الطويل تساعد في ترشيد القرارات الحالية ، ابتغاء الاقتراب من أفضل البدائل التي يمكن أن تتاح في المستقبل »(٢) ، إذن العلاقة بين الحاضر والمستقبل هي علاقة جدلية ، تركيبية تأليفية بالضرورة .

ويقتضي ذلك بدوره تحديد القوى والمتغيرات الحاكمة لحركة المستقبل ، إذ أن إماطة اللثام والكشف عن تلك القوى المحركة (الظاهرة والباطنة) كفيل باستكشاف المسارات المستقبلية الممكنة .. وإعداد الحسابات المستقبلية اللازمة ، بما تنطوي عليه من هوامش خطأ وقفزات خيال .

أدوات الاستدلال المستقبلي

لعل من أهم المشاكل المنهجية الشائكة التي تواجه الباحث في مجال الدراسات المستقبلية هي التوصل الى بعض أدوات « الاستدلال المستقبلي » ، أسوة بأدوات « الاستدلال الاحصائي » (Satistical inference) التي استقر العرف عليها منذ أمد بعيد .

ورغم أن هناك نوعا من المقابلة والمشابهة بين كلا من « أدوات الاستدلال المستقبلي » و « أدوات الاستدلال الاحصائي » إلا أن المشاكل والصعوبات المنهجية التي تكتنف عمليات « الاستدلال المستقبلي » هي أعقد بكثير من تلك

(١) راجع : **Mahbubul-Haq, "Negotiating the Future", Foreign Affairs (Winter 1986/87), pp. 398-417.**

(٢) ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل العربي ، ط١ (بيروت : مركز الوحدة العربية ، ١٩٨٢) ، ص ١٧٤ .

التي تطرح نفسها في مجال الدراسات التنبئية التقليدية . فنهج الدراسات التنبئية هو بالأساس نهج الاسقاطات المستقبلية الاحتمالية المشروطة تماما بما يتم مشاهدته في الماضي .. مما يعني قدرا كبيرا من الاستمرارية في السلوك[٣] .

وذلك في تقديرنا فرق جوهري كبير عندما نعيش في عالم يموج بالتحولات والتغيرات الكيفية التي تجعل الدوال غير متصلة (Not Continuous) عبر الزمان ، وحيث المؤسسات والموارد الطبيعية والبشرية ومنجزات التكنولوجيا تشهد قفزات واسعة وتحوي انقطاعات هامة بالنسبة للخبرة التاريخية الماضية .

وبالتالي فإن أدوات الاستدلال المستقبلي لا يمكن لها أن تكون أدوات خطية ، ولا يمكن لها أيضا أن تخضع لحسابات الاحتمالات التقليدية (Conventional Probability Coleulus) . . . بل لابد لها وأن تكون أدوات غير خطية تسمح بالانقطاعات والتحولات الهيكلية (Structural breaks) في البنيات المؤسسية ، وقاعدة الموارد وفي النظم التكنولوجية . كذلك لابد من اللجوء الى نهج جديد في تقدير وترجيح الاحتمالات حول سلوك المتغيرات الاحتمالية في المستقبل ويمكن لنا عقد مقارنة اجتهادية من جانبنا بين **هيكل الاستدلال الاحصائي التقليدي ، ونهج الاستدلال المستقبل التجديدي** .

الخبرة العربية في مجال استشراف المستقبل

كثر الحديث مؤخرا عن هموم المستقبل العربي ومطالب المستقبل العربي . فتعددت الكتابات والمحاولات التي تسعى لاستشراف بعض الجزئيات المتعلقة بآفاق المستقبل العربي . وتراوحت تلك المحاولات ما بين الخطاب الفكري والسياسي المرسل[٤] ، وبين الدراسات القطاعية الجزئية[٥] ، وبين الدراسات الخاصة بقطر أو مجموعة من الأقطار العربية[٦] . وعلى الرغم من أن تلك المحاولات ظلت جزئية ولا ترقى الى مستوى الرؤية الشاملة ، فإنها جميعها قد عبرت عن شعور عميق بالقلق إزاء المستقبل العربي وما يحمله في طياته من مخاطر ونذر .

---

(٣) لقد عبر عن ذلك بوضوح عالم الاقتصاد القياسي النرويجي الشهير (T.haavelmo) بالصيغة التالية : "A statistical prediction means simply a (probability) statement about the location of a sample point not yet observed". If the probability Approach in Econometrics, supplement to Econometrica vol. 12 (July 1944) p. 105.

(٤) راجع بهذا الخصوص :

- حسن صعب ، المقاربة المستقبلية للانماء العربي (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩) .
- قسطنطين زريق ، نحن والمستقبل (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠) .
- قسطنطين زريق ، مطالب المستقبل العربي : هموم وتساؤلات (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٣) .
- أحمد صدقي الدجاني ، رؤى مستقبلية عربية للثمانينات (عمان : دار الجليل ، ١٩٨٣) .

(٥) راجع على وجه الخصوص :

- عمر الخطيب ، الوطن العربي عام ٢٠٠٠ : محاولة لاستشراف الأوضاع السياسية (القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٨٥) .
- هدسون وآخرون ، العقد العربي القادم : المستقبلات البديلة (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦) .

(٦) راجع على سبيل المثال : المهدي المنجرة ، والمغرب الكبير عام ٢٠٠٠ ، المستقبل العربي ، السنة ٦ ، العدد ٥٣ (تموز / يوليو ١٩٨٣)

عالم الفكر - المجلد الثامن عشر - العدد الرابع

بيان	هيكل الاستدلال الاحصائى التقليدى	نهج الاستدلال المستقبل
(أ) الأدوات الرئيسية	حسابات الاحتمالات التقليدى Probability Calculus	مقولات احتمالية مشروطة Con- ditional Probability Statements
(ب) أسلوب استخلاص الاحتمالات	اشتقاق احتمالات موضوعية ObgectiveProbabiiities بالاستناد الى التوزيعات الاحتمالية المعروفة .	الاعتماد على التقديرات الذاتية للاحتمالات للحالات والمسارات المستقبلية المتوقعة (Different States of Affairs) .
(جـ) الأساليب التطبيقية الشائعة	أسلوب العينات وتصميم التجارب القائم على مبدأ امكانية التكرار فى ظروف مماثلة Principle of repeated experiments	١) أساليب المحاكاة (Simulation) ٢) وبحوث العمليات (Oper- ational research) ٣) وتركيب السيناريوهات القائم على مبدأ عدم امكانية تكرار التجارب البشرية ، وعدم امكان تشابه الظروف التاريخية التى يجرى فى إطارها تركيب السيناريوهات أو تمارين المحاكاة .
(د) هيكل الأخطاء	اختبار درجة معنوية النتائج ، وفقا لاختبارات احصائية مستقرة ، يتم بواسطة رفض أو قبول نتائج الاستدلال الاحصائى .	تحديد أحزمة ثقة (Confidence belts) تسمح بقبول أو رفض ترجيحات احتمالية معينة للتوقعات والمسارات المستقبلية .

ولم تخرج الكتابات ـ على تنوعها ـ عن كونها صرخات لاستثارة الاهتمام بهموم المستقبل في الضمير العربي ، في عصر سادت فيه روح السلبية والاستسلام والتواكل . ولكن تلك الدراسات والصرخات ساعدت على إيقاظ الوعي المستقبلي لدى النخبة ، وساعدت على استضافة المستقبل في مداولاتنا اليومية ومشاغلنا الفكرية .

وإذا كنا قد أشرنا الى الارهاصات الأولى للكتابات المستقبلية في وطننا العربي ، فإننا نود أن نركز هنا على الخبرة العربية في مجال الاستشراف والدراسات المستقبلية كما تمخضت عنها أعمال أكبر مشروعين بحثيين تم إنجازهما في المنطقة العربية خلال الخمس سنوات الماضية . والمشروع الأول هو مشروع « المستقبلات العربية البديلة » ، وهو أحد المشروعات البحثية لجامعة الأمم المتحدة ، وأشرف على تنفيذه منتدى العالم الثالث ـ مكتب الشرق الأوسط تحت إشراف الدكتور اسماعيل صبري عبد الله منسق عام المشروع ، والدكتور ابراهيم سعد الدين المنسق المشارك للمشروع .

والمشروع البحثي الثاني هو **مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي الذي تم انجازه في إطار مركز دراسات الوحدة العربية تحت إشراف الدكتور** خير الدين حسيب رئيس الفريق المركزي للبحث .

وباعتبار أن كلتا المحاولتين قد دشنت البدايات الأولى لمحاولات استشراف مستقبل الوطن العربي وولوج مجال الدراسات المستقبلية على نحو طموح وبعقول وخبرات عربية خالصة ، فإن الخبرات والدروس المستفادة من كلتا التجربتين تعتبر علامات هامة على طريق البحث المستقبلي في وطننا العربي . وإذا كان لتلك الدراسات شرف الريادة في هذا المجال الصعب . . فإن الدروس المنهجية المستخلصة وتقييم عثرات الطريق التي واجهتها تعتبر اضافة هامة للخبرة العربية في هذا المجال ، لكي تهتدي وتسترشد بها الأجيال القادمة من الباحثين على طريق المستقبل . وهذا بالتحديد ما سوف نركز عليه في الفقرات التالية .

مشروع المستقبلات العربية البديلة

تبنى المشروع منذ البداية مقولة « المستقبلات العربية البديلة » ، باعتبار أن المستقبل ليس قدرا محتوما ، وبالتالي لا يمكن له أن يجيء في صورة فريدة . « بل أمام كل مجتمع في لحظة معينة من تاريخه احتمالات متعددة للمستقبل يتعين الكشف عنها ومحاولة رسم المعالم الأساسية لكل منها »[٧] ، ولذا فإن الدراسات المستقبلية ـ وفقا لرؤية منسقي المشروع ـ يجب أن تعنى قبل كل شيء « بمحاولة استشراف الصور المختلفة للمستقبل وفقا لفروض مختلفة فيما يتعلق بالمعرفة بالواقع وجذوره التاريخية ، والامكانات المتاحة وأساليب استخدامها المتباينة »[٨] .

وقد بدأ تنفيذ المشروع في يناير/ كانون الثاني عام ١٩٨١ من خلال التركيز على عدد من ميادين البحث ذات التأثير في استكشاف المستقبلات المحتملة للوطن العربي ، والتي لم يتم استكشافها على نحو مرض حتى لحظة بدء

(٧) ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل العربي ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٢

المشروع . ورغم أهمية بناء نماذج كمية للتطورات المحتملة في الوطن العربي في مجموعه ، فإن منسقي المشروع قد قرروا منذ البداية أن أهداف مشروع « المستقبلات العربية البديلة » هي أكثر تواضعا وإن كانت لا تقل أهمية عن بناء النماذج الكمية[٩] .

إذ أن « استخدام النماذج الرياضية لا يعني بأي حال من الأحوال حيادية النماذج . فنحن هنا لسنا ، في عالم الرياضة البحتة التي تقوم على افتراضات مجردة . وإنما تتعامل النماذج مع وقائع اجتماعية للباحث منها مواقف واعية أو مستبطنة ، صريحة أو كتومة[١٠] . وفي ضوء هذه الرؤية ، فقد حذر منسقا المشروع من مخاطر أن « يحل النموذج الرياضي محل التحليل النظري اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وحضاريا ، وألا يكون النموذج ستارا يخفي اختيارات في تلك المجالات غير مفصح عنها »[١١] .

وفي ضوء تلك الرؤية النقدية لدور وحدود النماذج الرياضية في عمليات الاستشراف المستقبل ، فقد تم تصميم المشروع على نحو يسمح بالتركيز على عدد هام من :

(أ) القضايا (issues) .
(ب) البنى (structures) .
(جـ) العمليات (processes) .

أي تلك القضايا والبنى والعمليات ، ذات التأثير الجوهري في مسيرة المستقبل العربي ، بهدف التركيز على الديناميات الاجتماعية والاقتصادية والحضارية التي تؤدي بنا إلى مسالك لتنمية بديلة وإلى صور متنوعة للمستقبل العربي .

واتساقا مع تلك النظرة ، فقد كان من المقرر أن يغطي المشروع اثنى عشر مجالا بحثيا هي :

(١) العلاقة بين البنى الاجتماعية ـ السياسية والتنمية .
(٢) عملية صنع القرار .
(٣) الديمقراطية والاتصال الجماهيري والمشاركة الشعبية .
(٤) الاتجاهات الاجتماعية والسياسية والثقافية (حركات الصحوة الاسلامية والحركة التقدمية العربية) .
(٥) آليات التبعية .
(٦) الوطن العربي والنظام العالمي المتغير .
(٧) الآثار غير المدروسة للثروة النفطية .
(٨) الموارد البشرية .

---

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٨٢
(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٨٠
(١١) المصدر نفسه ، ص ١٨١

(٩) موارد واستخدامات العلم والتكنولوجيا .

(١٠) الفنون والآداب كعناصر وحدة وتنوع في الوطن العربي .

(١١) الاطار المؤسسي للتكامل العربي .

(١٢) التوحيد العربي وقضايا الأقليات .

وقد تم تغطية كافة المجالات البحثية باستثناء مجالي : الموارد البشرية وموارد استخدامات العلم والتكنولوجيا ، وذلك لتعذر الحصول على الموارد المالية اللازمة[١٢] . وكان اختيار تلك « المناطق البحثية » ـ التي تجب التخصصات المعرفية الضيقة ـ محاولة من جانب مصممي المشروع للامساك بالقوى المحركة الأساسية التي تسهم في تشكيل المسارات الحرجة للمستقبل العربي .

وقد تمخضت كل « منطقة بحثية » عن اسهامات متميزة ضمها كتاب من كتب مكتبة المستقبلات العربية البديلة التي صدر منها حتى الآن اثنى عشر كتابا ، والبقية تأتي . وقد صبت كل تلك الدراسات ـ رغم استقلالية وخصوصية كل منها ـ في التقرير النهائي للمشروع الذي نوقش في ندوة موسعة عقدت في القاهرة خلال الفترة من ٢٥ـ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦م .

وقد حاول التقرير النهائي لمشروع المستقبلات البديلة الربط بين المناطق البحثية المختلفة ، وابراز الصلة العضوية بين القضايا والبنى والعمليات الحاكمة لمسارات المستقبل العربي . وقد رصد التقرير أهم الاتجاهات التي تمخضت عنها الدراسات المختلفة في إطار المشروع ، باعتبارها اتجاهات تثقل الحركة المستقبلية وتلقي بظلالها الكثيفة على عمليات الانطلاق نحو مستقبل أفضل . ويمكن تلخيص أهم هذه الاتجاهات فيما يلي :

(١) هناك اتجاه ملموس لعملية التراجع عن مشروعات التوحيد القومي ، الى مزيد من التفكك والتقوقع القطري .

(٢) الاتجاه المتزايد لتدويل الحياة الاقتصادية والاجتماعية العربية ، وإدماجها في إطار الشبكات الدولية لتدفقات التجارة والمال والتكنولوجيا والاتصالات والمعلومات . . مما رافقه فقدان متزايد للهوية الحضارية في كافة مجالات الفكر والثقافة والتكنولوجيا والعمارة وأنماط الاستهلاك .

(٣) أن التكنولوجيا المستوردة من الخارج حملت معها أنماطا فكرية وأيديولوجية واستهلاكية وتوزيعية جديدة ، عمقت من الازدواجية الفكرية والاجتماعية والثقافية في الوطن العربي .

(٤) أن هناك اتجاها متزايدا للاعتداء على البيئة وتخريبها . . . فقد فقدت « الأنساق البيئية » مقومات توازنها في منطقتنا العربية ، من حيث ارتفاع معدلات التصحر والتلوث ، واهدار القيم والعلاقات الجمالية .

---

(١٢) راجع : د. ابراهيم سعد الدين ، « تقرير تجميعي عن نشاطات مشروع المستقبلات العربية البديلة في الفترة (١٩٨١ ـ ١٩٨٥) ، ملف المستقبلات العربية البديلة عدد خاص رقم ١٩ ـ ٢٠ (القاهرة : منتدى العالم الثالث ـ مكتب الشرق الأوسط ، يناير ـ ابريل ١٩٨٦) ، ص ٩ .

(٥) تزايد مفعول قانون النمو غير المتكافئ فيما بين البلدان العربية ، ليس فقط فيما بين البلدان النفطية وغير النفطية . . . بل داخل كل مجموعة على حدة . وقد أدى هذا بدوره الى ازدياد درجة التفكك القومي (الداخل) وارتفاع درجة التدويل والاندماج مع العالم الخارجي (الرأسمالي) ، وقد انعكس ذلك في ارتفاع درجة تدويل العمليات الانتاجية وقطاعات المال والتجارة على وجه الخصوص .

(٦) نتج عن ذلك أن توجهات النمو والتراكم قد غدت محكومة باعتبارات خارجية وليس بمنطلقات داخلية « متمحورة حول الذات » ـ مما أدى الى الافتقاد الكامل للسيطرة على توجهات عملية التراكم وشروط اعادة الانتاج في المجتمع العربي .

(٧) تعيش المنطقة العربية حالة سيولة طبقية هائلة لم يسبق لها مثيل من قبل ، وذلك بفعل هبوط المال النفطي واتساع عمليات هجرة العمالة للخارج . . مما نتج عنه تبدلات هامة في المواقع الطبقية وتوسع مراتب « البورجوازية الصغيرة » في الريف والمدينة . وقد رافق ذلك انحسار رقعة ودائرة « الأنشطة الانتاجية » وتوسع دائرة « الأنشطة الطفيلية والريعية » ، مما نجم عنه اختلال بين في موازين القيم وأنماط السلوك .

وقد حذر منسق مشروع المستقبلات العربية البديلة في أكثر من موضع من خطورة استمرار « النظرة الماضوية » لقضايا المستقبل ، والماضوية هنا ليست مرادفة « للسلفية » . . . وإنما هي نهج سائد في الفكر العربي قائم على النظر لقضايا المستقبل بروح مشبعة بالحنين للماضي ، مما يجعل النظر لقضايا المستقبل « غير متحررة » . . . بل أسيرة لقوالب وصيغ الماضي . . . بينما المستقبل يحمل في طياته وثناياه أشياء وأشكالا تبتدع لأول مرة[١٣] .

ونظرا لأن نهج « المستقبلات البديلة » هو نهج احتمالي بطبيعته ، فليس هناك « مسار مستقبلي » وحيد . . . بل هناك عدة مسارات حرجة مشروطة بظروف وقوى تاريخية محلية وعالمية . بل إن درجة اليقين والتأكيد لا ترقى حتى الى مستوى « نشرة الأرصاد الجوية » ، حيث هناك درجة أكبر من الترجيح الاحتمالي لحالة معينة من حالات الطقس ، ولذا فقد عكف الباحثون في قضايا الدراسات المستقبلية على تصميم وتركيب ما سمي « بسيناريوهات المستقبل » ، هي أشبه ما تكون « بالمشاهد المسرحية » التي يرفع عنها الستار . . وتحمل في داخلها ديناميتها الذاتية . . ويكون هدفها استثارة الفكر والتأمل حول قضايا وهموم المستقبل من خلال تلك المشاهد أو المسارات الاحتمالية .

وفي ضوء تلك الخلفية ، طرح مشروع المستقبلات العربية البديلة في وثيقته النهائية سيناريوهين (أو تصورين) للمستقبل .

(أ) السيناريو الاتجاهي ، وهو سيناريو يركز على صورة المستقبل القائم « المتوقعة » . . اذا استمرت الأوضاع في التطور في نفس الاتجاه الذي تم استخلاصه من واقع الدراسات والحوارات التي تمت في إطار المشروع ، ولاسيما تسارع عمليات التدويل للاقتصاد والمجتمع العربي ، وتصاعد الصراعات الطائفية والعشائرية ، وتراجع الحركات الاصلاحية

---

(١٣) راجع : محمود عبد الفضيل ، « كيف نتحاور مع المستقبل ؟ » ، مجلة الهلال ، عدد يناير ١٩٨٧ ، ص ١١١

والتحررية نتيجة الضعف التاريخي للبورجوازية المحلية ، وعدم تجانس الطبقات الوسطى في المجتمع العربي مما يحد من قدرتها على تبنى مشروع نهوض وتحرر على نحو ماشهدناه في الخمسينيات والستينيات .

بيد أن تبنى هذا السيناريو الاتجاهي لا يعني بأى حال من الأحوال أن المستقبل سيكون امتدادا خطيا لما هو قائم . . . بل إنه قد يقود الى مزيد من التدهور والتردى للأوضاع القائمة في ظل انحسار مفعول « المتغير النفطى » أو بالأحرى « المخدر النفطى » . فلقد عاشت المنطقة العربية منذ منتصف السبعينيات على موجة من الأموال النفطية تركت بصماتها الواضحة على الدورة الدموية للاقتصاد والمجتمع العربي .

ومع النمو السكانى الهائل ، إذ تشير الاسقاطات الديموجرافية الى أن حجم سكان الوطن العربي ٢٠١٥ سوف يتراوح ما بين ٥٠٠ ـ ٧٠٠ مليون نسمة ، سوف تتعاظم الضغوط على الموارد الأرضية والمائية المتاحة . . . بحيث تصبح « براميل المياه » أغلى وأعلى قيمة من « براميل النفط » في حساب الزمن المستقبل(١٤) .

وهكذا فإن المستقبل يحمل في طياته علاقة جدلية فريدة بين السكان كأفواه تأكل وكسواعد تعمل وتنتج ، وذلك يتوقف بلا شك على مدى كفاءة النظام الاقتصادى ـ الاجتماعي القائم على تعبئة الموارد البشرية المتاحة .

وخلاصة القول هنا ، أن « السيناريو الاتجاهى » هو ببساطة سيناريو استقالة العرب ونكوصهم عن صناعة مستقبلهم . . ومعنى ذلك أيضا أن غيرنا يمكن أن يشكل مستقبلنا كعرب . إذ أنه من الثابت أن بلدان العالم الثالث ـ ومن بينها بلدان المنطقة العربية ـ إذا فشلت في أن تشكل لنفسها مستقبلا أكثر استقلالية ، فإن مسيرة النظام العالمى سوف تحدد لها هذا المستقبل . . بما يتفق مع مصالح القوى المسيطرة في القلب من النظام العالمى(١٥) ، وبعبارة أخرى ، فإن هذا السيناريو هو سيناريو « استشراف المستقبل العربي » وتسريبه من بين أيدى العرب .

(ب) السيناريو البديل (التفاؤلى) .

رغم النزعة التشاؤمية التى سيطرت على رسم « السيناريو الاتجاهى » ، فإن هناك العديد من « البؤر والخمائر » في الوطن العربي التى يمكن لها أن تتفاعل لكى تصنع مستقبل أفضل . وبهذا الصدد يشير منسقا مشروع المستقبلات العربية البديلة الى الدراسات المستقبلية هى « محاولات لتصور سمات بدائل المستقبل المترتبة على الخيارات البديلة والمسارات المختلفة التى يحتمل أن تتخذها الأحداث أو يحددها صانعو القرار . وتتحدد هذه السمات المستقبلية كنتيجة للتفاعل المتبادل بين مجموعة الخيارات والمسارات المتخذة وبينها وبين مختلف جوانب النسق الاجتماعى ـ الاقتصادى ـ الحضارى ـ الذى يتكون منه المجتمع . وترتبط القدرة على تصور هذه السمات البديلة بمدى فهمنا للنسق الاقتصادى ـ الاجتماعى ـ الحضارى بمكوناته الرئيسية من بنى وأنساق فرعية وعلاقات ، ومعرفة الكيفية التى تتفاعل بها الأحداث في إطار النسق الكلى »(١٦) .

(١٤) راجع : محمود عبد الفضيل ، « كيف نتحاور مع المستقبل ؟ » مرجع سبق ذكره ، ص١١٢

(١٥) راجع : ابراهيم سعد الدين وآخرون ، صور المستقبل ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦

(١٦) المصدر نفسه ، ص١٧٨

ففي ظل الضعف التاريخي للبورجوازية المحلية ، تطرح بعض القوى والحركات نفسها كقوى حامله للتغيير ودافعة نحو مستقبل أفضل للوطن العربي . ويجيء على رأس تلك القوى : الحركة الراديكالية للصحوة الإسلامية والحركة التقدمية العربية . ولقد خص مشروع المستقبلات العربية البديلة تلك الحركتين بسلسلة من الدراسات والحوارات الغنية لتعيين مواطن القوة ومواطن الضعف .. ومدى قدرتها على حمل مشروع مستقبلي للنهوض والتحرر(١٧) .

وفي إطار هذا السيناريو ، تبرز أهمية العلاقة الجدلية بين قضية الديمقراطية وعملية التغيير الاجتماعي .. وتلك إشكالية مازالت تبحث عن حل مرض على جدول أعمال المستقبل . إذ أن من بين أهم القضايا المستقبلية ، في إطار هذا السيناريو البديل ، هو موقف الحركات والقوى التقدمية وكذا الحركات التي ينتظمها التيار الإسلامي من قضية التعددية السياسية » .

ويتبنى هذا السيناريو مفهوما للتنمية لاتصنعه التطورات الاقتصادية وحدها ، بل في إطار تصور حضاري شامل يقوم على إشباع الحاجات الأساسية ، والمشاركة الشعبية ، والمحافظة على توازن الأنساق البيئية ، والحفاظ على الهوية القومية في كل منحى من مناحي الحياة .. ولن يتأتى هذا النمط من التنمية سوى في إطار من الاعتماد الجماعي على النفس في إطار المجموعة العربية .. وما يستتبعه ذلك من الانسلاخ التدريجي من إسار النظام العالمي وآلياته وشبكاته الأخطبوطية .

ولاشك أن هذا السيناريو « الاستهدافي » أو (« المعياري » إن جاز التعبير) ، إنما يمثل نظرة مستهدفة للمستقبل العربي المأمول لا تخلو من المثالية المشوبة بمسحة « تبشيريه » (ولعل من أهم ماجاء على لسان منسق مشروع المستقبلات العربية البديلة في الكلمة الختامية للندوة التي انعقدت في القاهرة خلال الفترة : ٢٥ ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٨٦ لمناقشة التقرير النهائي للمشروع ، أنه قد آن الأوان لكسر ثلاثية : « الأمير ـ أرباب السيف ـ أرباب القلم » ، وأنه يجب أن يكون هناك مكان متميز في دراسات وسيناريوهات المستقبل للجماهير الشعبية وعامة الناس ، إذ أنهم يضطلعون بدور كبير في صناعة التاريخ . والمستقبل .. ولاسيما في لحظات التحول والفوران التاريخي .

مشروع استشراق مستقبل الوطن العربي

ويعتبر هذا المشروع هو المشروع العملاق الثاني الذي تولى مسئولية تنفيذه والإشراف عليه مركز دراسات الوحدة العربية . وقد بدأ العمل الفعلي في المشروع منذ منتصف ١٩٨٣ بسلسلة من الندوات المصغرة والحوارات الواسعة مع مفكرين وممارسين عرب من اختصاصات مختلفة بهدف بلورة « وثيقة الإطار العام للمشروع » . ورغم العديد من عثرات الطريق ، وتبدل أعضاء الفريق المركزي للبحث ، فقد تم إنجاز التقرير النهائي للمشروع في صيف عام ١٩٨٧

(١٧) راجع بهذا الخصوص : ـ اسماعيل صبري عبد الله وآخرون ، دراسات في الحركة التقدمية العربية (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧)
ـ اسماعيل صبري عبد الله وآخرون ، الحركات الاسلامية المعاصرة في الوطن العربي (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧م) .

والتقارير الرئيسية المساندة له . . وتوقش في إجتماع موسع عقد في مدينة تونس خلال الفترة : ١٧ ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٨٧ .

وحول المنهجية المختارة للبحث ، يشير فريق البحث إلى أن الدراسة تتبنى : « منهجية شاملة مع كل مايترتب على ذلك من تعقيدات منهجية ، فالمشروع يرمي الى بحث الآفاق المختلفة لمستقبل الوطن العربي بكل تشابكاته وتفاصيله . كما أنه يلتزم بارتياد المتوقع منه والمأمول به ، ويمتد بنظره إلى الأفق الزمني الذي يتسع لترجمة الطموحات إلى واقع ، والذي يسمح بربط وتتابع الظواهر المختلفة بما فيها غير الاقتصادية . والدراسة تقوم على جهد عربي خالص ، وتحاول أن تتمايز عن دراسات عربية أخرى اتهمت بجزئية نظرتها للمستقبل بسبب تركيزها على قطاع أو ظاهرة ، مع الإهمال النسبي لباقي القطاعات والظواهر ومجمل تشابكاتها مع ماعداها »[١٨] .

وقد تم التأكيد منذ البدايه على أن هدف الدراسة هو« الاستشراف للمستقبل » ، وليس « التنبؤ » . و « الاستشراف » هنا مقصود به « التحليل المستقبلي » Prospective analysis ، دون التقيد بأسلوب فنى معين أو منهجية ضيقة .

وتغطى فترة الاستشراف في هذا المشروع ثلاثة عقود تغطى الفترة : ١٩٨٥ ـ ٢٠١٥ ، يتم في إطارها الوصول الى تصورات متباينة للمشاهد الممكنة والمحتملة للمستقبل العربي .

وقد جاء تصميم المشروع طموحا ، إذ يسعى الى الإمساك بالتشابكات والعلاقات الجدلية بين :

(أ) الاقتصادى والاجتماعي .
(ب) السياسي والأيديولوجي
(ج) الداخل والخارج (ولاسيما في مجال التطورات الاقتصادية والتكنولوجية العالمية) .
(د) الحاضر والمستقبل (إرث الحاضر ورهن المستقبل)

وقد تمخض النشاط الاستشراقي ، في اطار هذا المشروع ، عن ثلاثة انشطة فرعية أساسية هي :

(١)المحاور المضمونية :

وهي تشمل ثلاثة محاور رئيسية هي : العرب والعالم ، المجتمع والدولة ، والتنمية العربية . وينضوى تحت كل محور من المحاور الثلاثة عدد من الدراسات الأساسية الخلفية ، وعدد من الدراسات التحليلية المستقبلية التي تلقي الضوء على أهم التغيرات الحاكمة للحاضر والمستقبل في إطار كل محور . . وتداعيات ذلك بالنسبة لمشاهد الحركة المستقبلية .

(١٨) راجع : د . خير الدين حسيب وأخرون ، مستقبل الأمة العربية : التحديات . . والخيارات (التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي) ـ وثيقة غير منشورة ـ ص ٣٥

(٢) المشاهد المستقبلية (١٩)

تم تركيب ثلاثة مشاهد مستقبلية « تسمح باستطلاع ماهو اتجاهي ، وماهو إصلاحي وماهو تحويلي . فالمشهد الأول (الاتجاهي) ينطلق من افتراض استمرار الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ على حالها . . أي استمرار منطق التبعية والتجزئة ، دون أن يعني ذلك أن المستقبل سوف يكون امتدادا ميكانيكيا للحاضر . فهناك احتمالات لمزيد من التدهور والتردي ، وكذا بعض التحسينات الطفيفة والترقيعات الجزئية ، تحت وطأة الأزمة .

« والمشهد المستقبلي الثاني » هو مشهد اصلاحي ترشيدي بطبعه ، إذ يسمح بقدر من التكامل والتنسيق القطاعي العربي ونشوء بعض التجمعات الاقليمية بين أقطار متجاورة متشابهة في التوجهات والسياسات ، دون أن يستدعي ذلك تبدلات جذرية في بنيان السلطة ونظم الحكم .

والمشهد الرئيسي الثالث هو المشهد التحولي (أو الثوري) الذي يستطلع الأشكال الممكنة لنشوء دولة الوحدة العربية ببدائلها الاجتماعية والسياسية المختلفة .

النهائي للمشروع :

(ووفقا لما جاء في التقرير « يماثل منهج تطوير المشاهد المستقبلية مايحدث عادة عبر كتابة » « السيناريو » لأحد الأفلام أو المسرحيات . فنقطة البداية تكون دائما بطرح فكرة رئيسية ، تعد أساسا لبناء « السيناريو » . . ثم يتم توصيف العلاقات والهياكل المرتبطة بها ، ثم التنبؤ بتداعياتها المتتالية » .(٢٠) « المخرجات »

ويمكن لنا تصوير عملية تركيب المشاهد المستقبلية على النحو التالي :



(٣) نشاط النمذجة (Modelling) : ينطوي نشاط النمذجة على صياغات كمية وكيفية لمجمل التفاعلات والتشابكات بين المتغيرات الحاكمة في ظل المشاهد المستقبلية المختلفة التي يتم فتح الستار عنها : مشهد استمرار التفتت والتجزئة ، مشهد التنسيق والتعاون ، مشهد الوحدة العربية . وذلك بهدف اختبار امكانية التطبيق وحيز الامكان في

(١٩) قرر الفريق المركزي للدراسة استعمال تعبير « مشاهد مستقبلية » بدلا من تعبير « سيناريوهات » .

(٢٠) مستقبل الأمة العربية : التحديات . . والخيارات ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨

الواقع العربي ، (Feasibility test) ،ومدى الاتساق الداخلي لكل مشهد في تداعياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية (Consistency test) .

وهنا يبرز الدور المحوري للنموذج كأداة للربط والتفاعل بين المحاور المضمونية الثلاثة السابق الأشارة اليها . . . بل يمكن اعتبار « النموذج » بمثابة الأداة المنهجية للتحاور والتفاعل بين « المحاور المضمونية » الثلاثة ، كما يتضح ذلك من الشكل رقم (١)

ولايقتصر نشاط محور « النمذجة » على ضمان الواقعية والاتساق بين تداعيات المشاهد المستقبلية المختلفة وتحقيق الترابط المطلوب بين « المحاور المضمونية » ، بل يمتد ليلعب دورا هاما في مجال الربط بين الأنساق الفرعية التي تم تعميمها : نموذج الموارد الطبيعية (موارد معدنية / أرض / مياه) ، نموذج المورد البشري ، نموذج المتغيرات الاقتصادية الكلية ، نموذج الظواهر غير الاقتصادية (الظواهر الاجتماعية والسياسية) . ويوضح الشكل (٢) نمط التشابكات والتفاعلات التي تتم داخل النميذجات (أو الأنساق الفرعية) ، والتي تصب في النسق العربي العام .

« والنسق العربي » ـ في اطار دراسة استشراف مستقبل الوطن العربي ـ هو نوع من النموذج الاقليمي الديناميي الشامل ، ويقوم على الربط بين الأنساق والنميذجات الفرعية ، بما يحقق التفاعل بين الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . . وكذا المتغيرات الاجمالية والقطاعية . ويتم الوصول الى صورة متسقة « من خلال عمليات التصحيح المتتابع ، يلعب فيها عنصرا الخبرة والحدس المنضبطان دورا محددا وهاما »[٢١] .

ـ وتجاوبا مع الحجم الهائل للمشكلات والقضايا في التعامل مع فترة الاستشراف التي تمتد لثلاثة عقود ، فان تصميم النموذج العام (النسق العربي) يسمح بتقسيمات قطاعية تتناسب مع هذا المدى الطويل ، وحسب القطر أو المجموعة الاقليمية العربية المحددة[٢٢] .

وقد أظهرت خبرة فريق النمذجة أن « منهج التحليل المستقبلي يتطلب أساليب المحاكاة الأكثر تحررا من الأساليب القياسية والأكثر قدرة على ربط الانساق الفرعية » . اذ أن أساليب المحاكاة تناسب أسلوب التعبير عن منهجية الاستشراف « حيث تأتي تداعيات المشاهد معبرة عن تفاعل الواقع المادي من ناحية ، والاختيار (والرغبة) الانسانية من ناحية أخرى »[٢٣] .

---

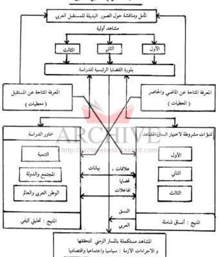
(٢١) مستقبل الأمة العربية : التحديات . . والخيارات ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٢٣) المصدر نفسه .

شكل رقم (١)

خطوات العمل في التحليل المستقبلي



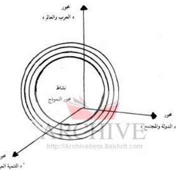
المصدر : مستقبل الأمة العربية : التحديات والخيارات (التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي) ، ص ٤٣

شكل رقم (٢)
نميذجات النسق العربي



المصدر : مستقبل الأمة العربية : التحديات والخيارات ، التقرير النهائي لمشروع استشراف مستقبل الوطن العربي ، ص ٤٤

ويمكن تمثيل العلاقة بين « المحاور المضمونية » الثلاثة ونشاط محور النمذجة على النحو البياني التالي :



وهكذا يلعب « النموذج » دورا هاما في الربط بين المحاور المختلفة ، وتدقيق ، التداعيات المنطقية للمشاهد المستقبلية ، واختبار مدى معنوية النتائج التي يتم الوصول إليها في اطار سلسلة من « الجداول الاستشرافية » المرتبطة بمشهد بعينه

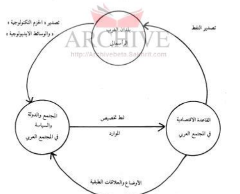
وعلى الرغم من أن خبرة عمليات النمذجة هي خبرة غنية بطبعها ويصعب تلخيص أهم نتائجها في مثل هذا العرض المختصر [٢٤] ، فقد أفصحت وتمخضت تلك المجهودات عن بعض النتائج الهامة ، نوجز أهمها فيما يلي :

(١) تساعد نتائج عمليات النمذجة على تحديد أهم الاختناقات المحتملة وأهم المآزق التي تكمن في ثنايا المستقبل . ويساعد ذلك بدوره على الكشف عن « نقاط الانكسار » و « نقاط الانقلاب » في مسارات المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية الهامة . وذلك التحديد والكشف لنقاط « الانكسار و « الانقلاب » هام في حد ذاته ، للافصاح عن التحولات النوعية والمحاذير الماثلة ضمن المشاهد المستقبلية المختلفة .

(٢٤) قام بالجهد الاساسي في مجال النمذجة في اطار مشروع (استشراف مستقبل الوطن العربي) ، الدكتور علي نصار المستشار بمعهد التخطيط القومي (القاهرة) .

وكمثال لذلك ، فلقد كشفت « الجداول الاستشرافية » في اطار المشهد الأول عن **انفجار للديون وانفجار للبطالة** ، مما يهدد بأزمة اقتصادية خانقة على صعيد العديد من البلدان العربية اذا ما استمر منطق التجزئة واستمرت عمليات النمو المبتور والتابع . كذلك ، كشفت تفاعلات المحاور المختلفة في اطار النموذج عن « مأزق الدولة القطرية » على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، في إطار كل من المشهدين الأول والثاني .

(٢) تساعد عمليات النمذجة ـ اذا ما أحسن تعميمها ـ على فهم أفضل للعلاقات المتبادلة وآثار التغذية العكسية (Feed back effects) ، بين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأيديولوجي في مسيرة المستقبل العربي . ولعل خير مثال لتوضيح ذلك تلك العلاقات الجدلية والتبادلية الناتجة عن دور المتغير النفطي في التأثير على الاقتصاد والسياسة والاجتماع والأيديولوجية في كل من الحاضر والمستقبل العربي ، صعودا وهبوطا . ويمكن توضيح تلك العلاقات التبادلية على النحو التالي :



(٣) تساعد عمليات « النمذجة » على فهم أفضل لجدلية المصالح القطرية في علاقتها بالمصلحة القومية شاملة ، إذ أن المشاهد الثلاثة التي تم تركيبها هي في حقيقة الأمر محاولة للبحث عن « نقاط التقاطع » الممكنة بين موعة المصالح القطرية ومجمل المصالح والغايات القومية بهدف تعظيم المكاسب الجماعية القومية (Collective gain) . . . دون المساس ببعض خصوصيات المصالح القطرية ، كما تعرفها النخب الحاكمة « البديلة » . . . وكما ددها اعتبارات التاريخ . والجغرافيا الموروثة . ويمكن لنا تصوير « نقاط التقاطع » بين المصالح القطرية والمصالح قومية في اطار المشاهد المستقبلية الثلاثة على النحو التالي :

(أ) في اطار المشهد الأول — (ب) في اطار المشهد الثاني — (ج) في اطار المشهد الثالث



وبالتالي تهدف « الجداول الاستشرافية » في اطار كل مشهد الى حساب « المكاسب الجماعية » في مواجهة « خسائر الجماعية » ، في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والجيوبوليتكية .

(٤) ساعدت تمارين « النمذجة » على التأكيد على نسبية « قيود الموارد » (Resource constraints) في الزمان لمكان ، اذ أنه في ظل التطورات التكنولوجية والسعرية المتسارعة في ظل نظام عالمي متغير . . . يصعب الحديث عن ود جامدة أو ثابتة (بما في ذلك الموارد المعدنية والمنجمية والطبيعية) . . فهي في حالة اعادة تقويم ديناميي دائم (Dy-namic revaluatio) . ولذا فان النظرة المستقبلية لقيود الموارد وغيرها من القيود يجب أن تكون نظرة نسبية حركة ، بمعنى أنه يمكن « كسر » بعض القيود أو على الأقل « تحريكها » من خلال عمليات اعادة التنظيم الاجتماعي لسياسي . وهنا يجدر بنا أن نؤكد على أن هناك باستمرار فرصا جديدة « للمساومة التاريخية » على الصعيد العالمي كن أن تنفتح آفاقها للعرب من خلال المشهدين الثاني والثالث ، وتلك الفرص الجديدة « للمساومة التاريخية » هي ي تفسح الطريق أمام كسر وزحزحة الاستراتيجية والموردية .

وهكذا لاتوجد في التاريخ . الحالي والمستقبلي « حتمية تكنولوجية » أو « حتمية موردية » كتلك الحتمية يكانيكية . التي تحدث عنها واضعو تقرير روما الشهير « حدود النمو » [٢٥] .

(٢٠ : Aurelio Pecci, Limits to Growth : A Report to the club of Rome (1968)

(٥) نظرا لأن جانبا هاما من مستقبل الأمة العربية يتحدد بمصير عدد من الصراعات الدائرة في قلب الوطن العربي وعلى حدوده ، وأبرزها : مصير وتطورات الصراع العربي الاسرائيلي ، مصير وتطورات حرب الخليج والصراع العراقي ـ الايراني ، مستقبل الصراعات الاجتماعية والاثنية والطائفية في عدد من البلدان التي تمثل بؤرا متفجرة (مثل لبنان والسودان) .. فان السيناريوهات المتصورة لتطور تلك الصراعات وأسلوب إدارتها سيكون (انعكاساتها الحادة على مستقبل المنطقة العربية في ظل المشاهد الثلاثة المعتمدة . وهنا يمكن للنموذج أن يلعب دورا هاما في استطلاع آثار « الأفعال » و « ردود الأفعال » في ظل السيناريوهات المستقبلية المحتملة ، من خلال محاكاة الأفعال وردود الأفعال .. بهدف الكشف عن « قوى التغيير » ومايمكن أن نطلق عليه » « قوى التحجيم » . مما يساعد على « حسن التقدير » و « حسن التدبير المستقبلي » .

(٦) ان مجهودات وعمليات النمذجة تفقد كل مصداقيتها وفعاليتها اذا كان الاطار الرياضي للنموذج المستخدم جامدا لايسمح بالتغيرات التي تطرأ على الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، وكذا التغيرات التي تطرأ على « المعلمات » و « المعاملات الفنية » تحت تأثير التغيرات التكنولوجية وعمليات إعادة التنظيم الاجتماعي والاداري [٢٦] ولذا يجب أن تكون معالجة التغيرات التي تطرأ على « الهياكل » و « المعلمات » هي معالجة ديناميكية عبر فترات زمنية ، وقد نجح القائمون على أعمال النمذجة في اطار مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي على تطويع بعض المعلمات لتأخذ تلك التحولات الاقتصادية والاجتماعية بعين الاعتبار ، وإن لم يكن بالقدر الكافي .

حول التغيرات المنهجية وبعض الدروس المستفادة :

رغم الجهد الكبير المبذول في كلا المشروعين العملاقين : مشروع المستقبلات العربية البديلة ، ومشروع استشراف مستقبل الوطن العربي ... تظل تلك المشروعات بدايات هامة لجهود لاحقة تواصل المسيرة وتستفيد من الأخطاء والدروس التي تمخضت عنها تجربة كل من المشروعين الكبيرين . ونظرا لما أتيح لكاتب هذا المقال من مشاركة متواضعة في أعمال كلا المشروعين المستقبليين ، أود أن أطرح في نهاية هذا المقال بعض الملاحظات النقدية حول الخبرة من كلا المشروعين :

(أ) حول منهجية بناء وتركيب « السيناريوهات المستقبلية »

عانت منهجية بناء « السيناريوهات » و « المشاهد المستقبلية » ، في كلا المشروعين من بعض نواحي القصور .. ولاسيما في مجال تحديد :

(أ) شروط الامكان (Feasibility condions)

(ب) شروط الاستمرارية (Sustainability conditions)

---

(٢٦) توجد بعض الملاحظات المنهجية الهامة بهذا الصدد في مقال هام للأستاذ راجنر فريش : RAGNAR Frisch, "Investment starting vs. Investment sinking," Economics of Planning vol. 7, No. 3, 1967, pp. 219-231.

اذ أن العبرة ليست فقط . بلحظة « فتح الستار » عن المشهد ، بل ان تداعى المشاهد الفرعية وتتابعها لابد أن يستند الى شروط تضمن استمرارية المشهد ، وتحول دون ارتداده أو تحلله . إذ لم تتم التفرقة ولم يتضح التمييز بشكل واضح بين كل مجموعة من الشروط في إطار كل مشهد .

كذلك فان « السيناريوهات » لم تخرج عن كونها « مشاهد استاتيكية مقارنة » ، تطرح قضايا واختيارات مستقبلية أكثر من كونها تطرح آليات ومسارات دينامية للوصول للهدف المطلوب بدءا من نقطة الأساس والانطلاق [٣٧] ، ويرتبط بهذه النقطة غموض « آليات الانتقال » من مشهد (أو سيناريو) الى آخر ، فقد جاءت المشاهد المستقبلية كما لو كانت معلقة في الهواء . . وظلت أسئلة هامة معلقة حول امكانية الانتقال من مشهد لآخر أو « عدم الامكان » أصلا ؟ وكذا امكانية الارتداد والنكوص من مشهد متقدم الى مشهد متخلف ، فالمستقبل لايحمل في طياته اتجاها خطيا آحاديا (Uni-linear)لايقبل الانتكاس والارتداد .

وفي إطار تلك الصعوبات ، يبدو « المشهد الثاني » في اطار مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي كمشهد ملحق اما « بالمشهد الأول » ، باعتباره أعلى وأرقى مستويات الترشيد والتنسيق في ظل استمرار منطق التجزئة وتغليب النظرة والمصلحة القطرية واما كارهاصات لبداية « المشهد الثالث » : مشهد الوحدة العربية . وبالتالي فان الاستقلالية التاريخية والمستقبلية ـ من حيث الآليات والقوى الصانعة ـ لهذا المشهد هي موضع شك وتساؤ ل .

كذلك عندما تبنت منهجية بناء وتركيب السيناريوهات فكرة « فتح الستار » عن المشهد المستقبل موضع التحليل ، لم تفصح بالتبعية عن الفترة اللازمة « لتخمر التغيير » قبل أن تحدث التحول النوعي الذي يفضى الى نشوء وتحقق المشهد في « الزمن المستقبلي » المفترض .

(ب) حول بناء النماذج الرياضية

كما أن التكنولوجيا ليست وسيطا محايدا . . . بل هي وسيط محمل بالأيديولوجيا الصريحة أو الضمنية ، فكذلك يكون « النموذج الرياضي » . إذ أن طبيعة تصميم « النموذج الرياضي » تحكم سلفا نوعية النتائج والاسقاطات التي تم الوصول اليها في اطار مثل هذا النموذج فالعلاقات الهيكلية والمعادلات الأساسية التي يحويها النموذج يمكن لها أن تفضى الى نتائج متميزة سلفا ، ومنذ البداية Built-in biases ، وكأن النموذج هو نوع من العقلنة لنتائج محددة سلفا .

كذلك يمكن أن تفضى حلول النماذج الى « نتائج ماجنة » وغير مقبولة ، كما حدث أثناء الحوار الطويل والمضني بين « مجموعة النماذج » والمشرفين على « المحاور المضمونية » في اطار مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي . وهذا يؤكد مرة أخرى أن النموذج هو مجرد أداة . . وليس وثنا جديدا أو انها ينطق بالحكمة ـ والقول الفصل .

(٣٧) راجع محمود عبد الفضيل ، « كيف نتحاور مع المستقبل ؟ » ، مرجع سبق الاشارة اليه ، ص ١١٣ .

ولذا فهناك مجال واسع لتحسين بناء النماذج وتطويرها لاغراض الاستشراف المستقبلي والاقلال من أثر المحاكاة أو الاقتصار على تعديل مواصفات النماذج العالمية التي صممت في ظل ظروف تاريخية مختلفة وفقا لفروض مغايرة .

) حول نمذجة الظواهر « غير الاقتصادية » .

عادة ما تثار صعوبات جمة حول نمذجة الظواهر « غير الاقتصادية » ، ورغم كل الجرأة المنهجية في اقتحام هذا المجال من جانب القائمين على أمر مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي . . . الا أن المحاولة تظل في بدايتها وعانت من عيوب منهجية أساسية . فالاعتماد المطلق على « أسلوب الاستبيان » لتحديد الأوزان والترجيحات اللازمة للظواهر والاعتبارات غير الاقتصادية ، يجعل كل نتائج الاستشراف في هذا المجال عرضة للتحيزات الذاتية والشخصية لمن قاموا بملء الاستبيان مهما حسنت نواياهم أو أوتوا من حكمة وعلم غزير .

ويزيد من مشاكل هذا الأسلوب أن « الاستبيان » قد اقتصر على استطلاع رأي النخبة . سواء أكانت نخبة سياسية أم نخبة فكرية . فلم تشمل العينة ممثلين للنقابيين ، وممثلين للحركات الشعبية الفاعلة ، وممثلين للشباب (رمز المستقبل) ، وهي فئات لها بلاشك لها ترجيحات وأوزان مختلفة ورؤى مستقبلية مغايرة لرؤى النخب الفكرية والسياسية .

وهنا يكمن مجال واسع للتحسين والتطوير في المستقبل في مجال الدراسات الاستشرافية . حتى لاتكون دراسات استشراف المستقبل تمارين نخبوية ، تعمق من مقدار الفجوة القائمة بين « النخبة » و « الجماهير » .

) حول تصنيع البيانات

ثبت من خلال تجربة كلا المشروعين الكبيرين لاستشراف آفاق المستقبل العربي أن قاعدة البيانات اللازمة لأغراض الاستشراف هي قاعدة جد ضعيفة ، وأن العديد من البيانات الخام المتاحة هي بيانات غير مواتية لأغراض الجهد الاستشرافي . . . وأنها في أحوال كثيرة تحتاج لاعادة تصنيع (أو اعادة تشغيل) لكي تصبح صالحة لخدمة أغراض الاستشراف .

ولذا فان صناعة البيانات والاحصاءات لأغراض الاستشراف هي بالضرورة صناعة مستقبلية ، يجب أن تتم وفق مواصفات معينة تمخضت عنها الخبرة التاريخية المتراكمة للجهد الاستشرافي الذي تم خلال السنوات الخمس الماضية .

وقد لانغالي كثيرا اذا ما قلنا ان قصور « قاعدة البيانات » تمثل احدى نقاط الاختناق الهامة التي تعيق تقدم مجهودات استشراف آفاق المستقبل العربي ، بخيره وشره .

●●●

وفي ختام هذا العرض الموجز للخبرة العربية في مجال استشراف آفاق المستقبل العربي ، نود أن نؤكد على أهمية تلك الدراسات التي تتعدد مسالكها وتتشعب دروبها فقد آن للعرب أن يكون لهم نظرتهم المستقبلية ، في عالم مليء بالتغيرات والتحديات الضخمة . . . بحيث يمكن استشراف المسارات الحرجة للمستقبل العربي ، ومايحفل به من مشاكل وتحديات ، ومانطوي عليه من طاقات وامكانات . فالأمور قد تطيب أو تخيب بالنسبة للمسارات الاحتمالية للمستقبل العربي ، بقدر ما نتج في اعداد العدة والعتاد للمستقبل . . عن طريق « حسن الدرس والتقدير » و « حسن التدبير » معا . وما « الاستشراف » سوى الطلقة الأولى في معركة طويلة مريرة لفك الحصار الغربي حول المستقبل العربي .

* * *

النماذج الرياضية والمحاكاة في اتخاذ القرارات والدراسات المستقبلية

معتز خورشيد
معهد الكويت للأبحاث العلمية

تمهيد :

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح دور النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة بوصفها إحدى الأدوات التجريبية في الدراسات المستقبلية ، إذ تسمح النماذج الرياضية باختبار الفروض والسياسات البديلة واستشراف المسار المستقبلي للنظم المختلفة وهو ما ساعد على ترشيد عملية اتخاذ القرارات على المستويين الجزئي والكلي .

وبناء على ذلك ، يتناول هذا البحث خمس نقاط رئيسية هي :

١ ـ تصنيف النماذج الرياضية على أساس هدف البحث .

٢ ـ استخدام النماذج للتنبؤ بسلوك الوحدات الانتاجية .

٣ ـ دور النماذج الكمية في تقييم المسار المستقبلي للنظم الاقتصادية الكلية .

٤ ـ استخدام النماذج الرياضية لاتخاذ القرارات على المستوى الاقليمي .

٥ ـ تحليل المشكلات ذات الطابع الدولي باستخدام النماذج العالمية .

وبذلك يتضح للقارىء جدوى استخدام النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة على المستويات المختلفة لاتخاذ القرار .

أولا : مقدمة :

يصعب على الباحث العلمي في ظل عصر ثورة المعلومات وما صاحبها من تطور سريع في علوم الحاسب ، أن يتغاضى عن الدور الذي تقوم به النماذج الكمية كأداة تحليلية فعالة في مختلف مجالات العلم والمعرفة . فبرغم أوجه القصور في أسلوب النمذجة ، إلا أنه يمثل بالقطع إحدى الأدوات التجريبية المرنة التي

تسمح باختبار بدائل السياسات والحوارات المستقبلية مما يساعد متخذ القرار ـ على المستوى القطري والاقليمي والعالمي ـ على التعرف على الآثار المباشرة وغير المباشرة لقراراته ، وبالتالي قياس درجة المخاطرة المترتبة عليها .

وتهدف الدراسة الحالية إلى مناقشة دور النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة كإحدى الأدوات التجريبية المساعدة لعملية اتخاذ القرارات واستشراف التطورات المستقبلية . وهي موجهة بالدرجة الأولى للمجتمع العريض من الباحثين الذين يرغبون في التعرف على إمكانية وحدود استخدام هذه النماذج في الدراسات المستقبلية . لذلك حاولنا اختيار مجموعة من التطبيقات تغطي مستويات مختلفة من التحليل تبدأ بالنماذج التي تسعى إلى التنبؤ بالمسار المستقبلي واختبار السياسات على مستوى الوحدة الانتاجية وتنتهي بمجموعة من النماذج تقوم بدراسة المشاكل ذات الطابع الدولي أو العالمي .

ويتناول الجزء الثاني من هذه الدراسة ، المفاهيم الأساسية للنمذجة ، في حين يناقش الجزء الثالث الأنواع المختلفة من النماذج . أما الأجزاء التالية فتقدم للقارىء بعض مجالات التطبيق حيث تبدأ بنماذج تخطيط الوحدات الانتاجية وهي نوعية من النماذج تقوم بالتنبؤ بالسلوك المستقبلي متوسط الأجل الذي يترتب على اتخاذ مجموعة من القرارات والسياسات الادارية والمالية . يلي ذلك مناقشة للنماذج الاقتصادية التي تسعى إلى تحليل المسار المستقبلي للاقتصاد الكلي وقياس أثر التغيرات الخارجية على معدلات أدائه . أما نماذج التحليل على المستوى الاقليمي فيفرد لها جزء خاص يتطرق لدراسة سوق النقل البحري في منطقة غربي آسيا . وأخيرا ، يتناول الفصل الأخير من الدراسة ، تقييم مجموعة من النماذج العالمية التي تم بناؤها خلال حقبة السبعينيات والثمانينيات بهدف دراسة بعض المشاكل ذات الطابع الدولي أو الاقليمي .

ويجب التنويه ، بادىء ذي بدء ، إلى بعض النقاط المحورية في مناقشتنا لدور النماذج الرياضية والمحاكاة في الدراسات المستقبلية :

١ ـ أن النماذج مهما تعددت أنواعها ، لا تخرج عن كونها أداة تجريبية صممت لتحقيق هدف بحثي محدد . وأن مدى الاستفادة منها يعتمد بدرجة كبيرة على وعي الباحث بإمكاناتها وحدود استخدامها ومدى تمثيلها للواقع . ذلك أن استخدام النماذج في غير موقعها أو لدراسة مشاكل لا تدخل في نطاقها قد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج عكسية قد تفقد الباحث الاقتناع بجدواها .

٢ ـ أن الدراسات المستقبلية هي نتاج تفاعل فكري بين مجموعة من الباحثين في مختلف فروع العلم والمعرفة . وأن هذه الدراسات بطبيعتها تحتوي على العديد من المتغيرات الكيفية التي يصعب تمثيلها رياضيا وخاصة كلما امتد الأفق الزمني للتحليل . ومن ثم فإن استخدام النماذج الكمية يقتصر في هذه الحالة على اختبار اتساق السيناريوهات المستقبلية وتقييم الآثار المترتبة على السياسات والقرارات البديلة .

٣ ـ أن النماذج ليست إلا تجريدا للواقع ، وأن أسلوب النمذجة يقوم أساسا بعزل الظواهر ودراستها وهو ما اصطلح على تسميته بدرجة شمول النموذج . ويؤدي ذلك بالطبع إلى درجة من التقريب يجب أخذها في

الاعتبار عند تحليل النتائج . يضاف إلى ذلك أن النماذج الرياضية تعتمد على حجم ضخم من البيانات تتفاوت في درجة دقتها واتساقها بعضها مع البعض الآخر . لذلك فإن مستخدم النموذج يجب أن يكون على بينة بحجم الأخطاء المحتملة في التقدير قبل الاستعانة بنتائج النموذج .

٤ - يجب النظر إلى النموذج على أساس أنه يمثل جزءاً من العملية البحثية الكلية ، وبالتالي فإنه يجب توظيفه وتطويعه لتحقيق الهدف الرئيسي من الدراسة أو البحث . أي أن اختيار النموذج يعتمد بالدرجة الأولى على القضايا الرئيسية التي تناقشها الدراسة والأهداف المراد تحقيقها . ومن ثم فإن جودة أو درجة فعالية النموذج إنما تقاس بدرجة تمثيله للمشكلة محل الدراسة وليس على أساس جودة ودرجة تعقيد صياغته الرياضية .

ثانيا : مفاهيم أساسية :

نشأة فكرة بناء النماذج Model Building في العلوم الهندسية منذ فترة ليست بالقصيرة . إذ اتجه المهندس المعماري إلى بناء نموذج مجسم يمثل المبنى الذي يرغب في إنشائه . كما اتجه المهندس الميكانيكي إلى بناء نموذج مصغّر للماكينة التي يرغب في تصميمها ، يمكن استخدامه لاجراء الاختبارات اللازمة قبل تعميم النتائج على الماكينة أو المعدة الأصلية . كما اتجه البعض الآخر للاستفادة من التشابه أو التقارب بين النظم (أو الأنساق) الهندسية لاختبار آلية عملها الداخلي . فمن الممكن على سبيل المثال ، تمثيل عمل نظام ميكانيكي بمجموعة من الدوائر الكهربائية يمكن بسهولة اختبارها معمليا . وقد امتد استخدام هذا الأسلوب أيضا في العلوم الاجتماعية حيث يبحث علم « السيبرنطيقا Cybernetics » في تمثيل الظواهر والعلاقات التي تحكم عمل النظام الاقتصادي عن طريق نظام أو نسق هيدروليكي مثلا ، أي أن الفكرة الرئيسية هي صعوبة إجراء اختبارات معملية لدراسة آلية عمل (Mechanism) النظم ، مما يستدعي بناء نموذج مصغّر يعكس خواصها الأساسية حيث يتم اختباره ثم تعميم نتائج الاختبار على النظام الحقيقي . **ومن ثم فإن الفلسفة الأساسية لعملية النمذجة إنما تكمن في محاكاة عمل النظم (أو الأنساق) من خلال تمثيلها بنماذج تعكس آلية عملها أو خصائصها الرئيسية .**

ويمكن تقسيم النماذج بشكل عام إلى مجموعتين رئيسيتين : الأولى ، النماذج الطبيعية (Physical Models) ، والثانية ، النماذج الرياضية (Mathematical Models) ، كما يمكن تصنيف كل من المجموعتين السابقتين إلى عدد من المجموعات الفرعية الأخرى (كما يوضح الشكل رقم (١) .

وتختص دراستنا أساسا - وبشكل خاص - بالنماذج الرياضية نظرا لشيوع استخدامها ومواكبتها للدراسات المستقبلية وعملية اتخاذ القرارات . وفي هذا الصدد ، نود أن نحدد بعض المفاهيم الرئيسية التي سيجري استخدامها بعد ذلك في هذه الدراسة .

النظام أو النسق (System)

النظام هو مجموعة أو تجمع من الأجزاء أو الكيانات يتفاعل بعضها مع البعض الآخر ، ومع البيئة المحيطة بها ، بهدف الوصول إلى هدف مشترك .

فالنظام الاقتصادي الكلي (Macro-economic System) يحتوي على مجموعة من المؤسسات الوطنية مثل الشركات الانتاجية ، المؤسسات المالية ، الحكومة ، والقطاع العالمي يتفاعل بعضها مع البعض الآخر بهدف استخدام الموارد المحدودة لاشباع الحاجات المتزايدة . ويتفاعل هذا النظام الاقتصادي مع البيئة المحيطة به وهي الاقتصاد العالمي . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنه يمكن النظر إلى الوحدات أو الشركات الانتاجية كنظام إنتاجي (Pro-duction System) ، إذ يتكون من العمال والموظفين والماكينات والمواد الخام التي تتفاعل بعضها مع البعض الآخر للوصول إلى هدف محدد الا وهو تحويل المادة الخام إلى منتج نهائي . ويعمل هذا النظام في إطار البيئة المحيطة به وهي النظام الاقتصادي الكلي . كذلك عند التحدث عن النظام الصحي (Medical System) فإنه يتكون من الأطباء ، والممرضات ، وعمال الصيانة ، والمعدات الطبية ، ووحدات العلاج الخ . . . وهذه المكونات يتفاعل بعضها مع البعض الآخر لتقديم الخدمات الصحية إلى الأفراد .

النماذج الرياضية (Mathematical Models)

هي مجموعة من النماذج تقوم بتمثيل آلية عمل النظم المختلفة بمجموعة من العلاقات والدوال الرياضية . وتحتوي العلاقات الرياضية للنموذج على نوعين رئيسيين من المتغيرات الكمية : المتغيرات التابعة ، والمتغيرات المستقلة .

المتغيرات المستقلة : (Independent Variables)

هي مجموعة المتغيرات التي يتم تحديدها من خارج النموذج التي يتم تحديدها بواسطة مستخدم النموذج أو متخذ القرار . وتنقسم هذه النوعية بدورها إلى متغيرات اتخاذ القرار ، والمتغيرات البيئية .

متغيرات اتخاذ القرار : (Decision Variafles)

هي مجموعة من المتغيرات المستقلة التي تمثل القرارات والسياسات التي نرغب في دراسة أثرها على الأداء المستقبلي للنظام محل الدراسة . فعلى سبيل المثال ، عند بناء نموذج اقتصادي كلي ، فإن الانفاق الحكومي ، الاستثمارات الحكومية ، الضرائب والرسوم الجمركية ، الدعم السلعي والطاقة الانتاجية لبعض القطاعات الاقتصادية ، من الممكن أن تمثل متغيرات اتخاذ قرار . أما في حالة نموذج تخطيط الوحدة الانتاجية ، فإن حجم الانتاج وبرنامج التمويل يمكن أن تمثل بدورها متغيرات اتخاذ قرار ، يتم اختبار آثارها من خلال النموذج المقترح .

المتغيرات البيئية : (Environmental Variables)

هي مجموعة من المتغيرات المستقلة تتحدد قيمها نتيجة لتفاعل مجموعة من العوامل المثلة للبيئة المحيطة بالنسق أو النموذج . وبالتالي فهي تعتبر معطيات للنظام عليه أن يطوع أداءه للتأقلم معها . فعلى سبيل المثال ، يحتاج النموذج الاقتصادي الكلي إلى قياس مجموعة من متغيرات البيئة مثل : الأسعار العالمية للسلع والخدمات ، متوسط سعر الفائدة السائد عالميا ، والطلب العالمي على السلع والخدمات . أما في حالة نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ، فإن متغيرات البيئة تحتوي على الأسعار السائدة في سوق السلعة ، العرض الكلي والطلب الكلي على السلعة في السوق ، ومعدل الضرائب على الدخل وهكذا . .

ب ـ نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام ومعدلات أدائه[٢] (Models for Predicting System Performance)

جـ ـ نماذج البحث عن الحل الأمثل[٣] (Optimization Models)

تهدف النوعية الأولى من النماذج إلى تقدير أو قياس القيم المستقبلية لمتغيرات البيئة المحيطة بالنظام . فعند بناء نموذج اقتصادي كلي لابد من تحديد القيم المستقبلية للأسعار العالمية ومعدلات التضخم ومتوسط أسعار الفائدة العالمي . أما هذه النوعية من نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية فتقوم بتقدير المؤشرات المستقبلية التي تعكس سوق السلع المنتجة مثل أسعار المنافسين وحجم العرض الكلي . . . الخ .

أما النوعية الثانية من النماذج ، فيمكن استخدامها في التنبؤ بآلية عمل النظام وقياس معدلات أدائه كدالة في متغيرات البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار . إذ يوضح شكل رقم (٢) أن هذه النوعية من النماذج تقوم بقياس قيم المتغيرات التابعة اعتمادا على القيم التي حددها مستخدم النموذج لكل من متغيرات البيئة ، ومتغيرات اتخاذ القرار والعلاقات الرياضية التي تمثل آلية عمل النظام . فهذه النوعية من نماذج الاقتصاد الكلي يمكن استخدامها لدراسة الآثار المستقبلية للتغير في الأسعار العالمية (متغيرات البيئة) ، أو لزيادة الاستثمارات الحكومية (متغيرات اتخاذ القرار) على الأداء الاقتصادي مقاسا بمعدلات نمو الناتج المحلي الاجمالي . أما هذه النوعية من نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ، فإنها تركز على تقييم الآثار المترتبة على السعر التوازني للسلع (متغيرات البيئة) ، أو الزيادة في الطاقة الانتاجية للوحدة (متغيرات اتخاذ القرار) .

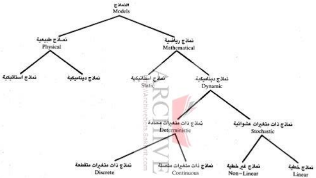
ويجب التأكيد في هذا المجال على أن هذه النوعية من النماذج تهدف إلى استشراف النتائج المترتبة على تطبيق مجموعة من السياسات والقرارات في ظل ظروف بيئية محددة دون محاولة الوصول إلى الحل الأمثل للمشكلة محل الدراسة . أي أن هذه النماذج لا تحتوي على آلية (ميكانزم) داخلية تمكنها من الوصول إلى الحل أو الوضع الأمثل .

أما النوعية الثالثة والأخيرة فهي نماذج الأمثلية أو البحث عن الحل الأمثل ، إذ تسعى هذه النماذج إلى قياس معدلات الأداء المثلى للنظام محل الدراسة . أي أنها تهدف إلى تحديد قيم متغيرات اتخاذ القرار التي تسمح بتعظيم قيم المتغيرات التابعة أو دالة رياضية تشملها . ونظرا لتعدد معايير التقييم التي يمكن الاستناد إليها بالاضافة إلى تعدد البدائل الممكنة للحل فإن الخطوة الأولى في بناء نماذج الأمثلية تكمن في اختيار دالة هدف ، تعكس تفضيل مستخدم النموذج أو المعيار الذي سيتم على أساسه تحديد الحل الأمثل . ومن ثم فإن الحل الأمثل الذي نصل إليه باستخدام هذه النماذج إنما يعتمد بالدرجة الأولى على توصيف دالة الهدف . ففي حالة النماذج الاقتصادية يمكن اختيار مستوى الرفاه الاجتماعي ، أو معدلات النمو الاقتصادي ، أو حجم الصادرات السلعية كدالة هدف نسعى إلى ايجاد القيمة المثلى لها . إلا أن اختيارنا لمستوى الرفاه الاجتماعي ، على سبيل المثال ، قد يؤدي إلى حل أمثل يختلف عن الحل الذي ينتج عن اختيار معدلات نمو القطاعات الاقتصادية .

---

(٢) — Gordia, G. (1978) "System Stimulations prentice Hall Inc., New Jersey.

(٣) — Luenberger, D. G. "Internation to Linear And Non - Linear programming" Addison - Wesley, Massachusetts.



شكل رقم (١) تصنيف النماذج استناداً إلى المعايير الفنية
(Technical Classification)

وبالمثل ، يمكن في الدراسات ذات الطابع الدولي أن نختزل الفجوة بين دخول الدول المتقدمة والدول النامية كدالة هدف . وبالتالي فإن النموذج العالمي يسعى إلى تحديد القرارات والسياسات على المستوى الدولي والاقليمي التي تسمح بتقليص هذه الفجوة إلى الحد الأدنى خلال السنوات القادمة . كذلك يمكن صياغة دالة الهدف لتمثل معدلات نمو الانتاج العالمي من السلع والخدمات . حيث يكون التركيز في هذه الحالة على اختيار السياسات الدولية التي تعظم الناتج الاجمالي العالمي . أي أنه من الممكن الوصول إلى أكثر من حل أمثل بناء على الاختلاف في توصيف دالة الهدف .

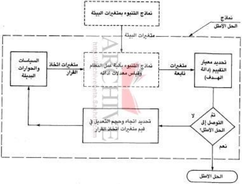
نخلص مما سبق أن نماذج الحل الأمثل تتميز عن سابقتها بكونها تحتوي على آلية داخلية تمكنها من البحث عن الحل الأمثل من خلال تعريف دالة هدف تعكس تفضيل متخذ القرار . إذ يوضح الشكل رقم (٢) أن هذه النوعية من النماذج تسمح باختبار الحل الأمثل ، وفي حالة عدم تحقيقه فإنها تحدد اتجاه وحجم التعديل في متغيرات اتخاذ القرار للوصول إلى حل أفضل ، ثم تكرر هذه الخطوات حتى تحديد الحل الأمثل . ومن هنا تبدو صعوبة ودرجة تعقيد هذه النماذج وخاصة في حالة وجود عدد كبير من التغيرات .

ونود قبل البدء في مناقشة بعض مجالات تطبيق النماذج السابقة أن نوضح أنها جميعا تستخدم بشكل أو بآخر في الدراسات المستقبلية برغم الاختلاف في خصائصها وسماتها الفنية . فعند استخدام نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام في الدراسات المستقبلية فإننا ندخل في نطاق ما اصطلح على تسميته التنبؤ المشروط (Conditional Forecasting) أو محاكاة الحوارات البديلة (Scenario Simulation) . ذلك أن التنبؤ بالأداء المستقبلي للنظام أو المتغيرات التابعة يعتمد بالدرجة الأولى على اختيار المستخدم للحوارات البديلة (القيم المستقبلية لمتغيرات البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار) . أو بمعنى آخر ، فإن التغير في قيم متغيرات اتخاذ القرار يصاحبه تغير في الصورة المستقبلية التي يولدها النموذج للنظام محل الدراسة .

أما نماذج الأمثلية فهي تسعى إلى ايجاد الحل الأمثل خلال فترة التنبؤ المستقبلي بافتراض دالة هدف يتم اختيارها مع تعريف بعض القيود التي تحدد النمو . أي أننا نبحث في التطور المستقبلي الأمثل لأداء الأنظمة المختلفة ، بناء على ذلك فإن النماذج الاقتصادية الكلية على سبيل المثال تسعى إلى الوصول إلى الصورة المستقبلية للنظام الاقتصادي التي تنتج من تعظيم معدلات النمو في الناتج المحلي الاجمالي وأخذا في الاعتبار القيود المتمثلة في هيكل وخصائص النظام وحجم الموارد المتاحة .

وفيما يلي نتطرق بشيء من التفصيل لبعض استخدامات النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة في الدراسات المستقبلية وعملية اتخاذ القرارات . حيث نبدأ بنماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ثم نناقش النماذج الاقتصادية الكلية وصولا الى النماذج الاقليمية والعالمية وسنركز عند تناول كل من هذه التطبيقات على ثلاث نقاط رئيسية :

- القضايا التي يتناولها النموذج
- البعد الزمني للنموذج
- هيكل النموذج وسماته المميزة
- مناقشة لبعض نتائج النموذج



شكل رقم (٢) تصنيف النماذج الرياضية

وبالمثل ، يمكن في الدراسات ذات الطابع الدولي أن نختار الفجوة بين دخول الدول المتقدمة والدول النامية كدالة هدف . وبالتالي فإن النموذج العالمي يسعى إلى تحديد القرارات والسياسات على المستوى الدولي والاقليمي التي تسمح بتقليص هذه الفجوة إلى الحد الأدنى خلال السنوات القادمة . كذلك يمكن صياغة دالة الهدف لتمثل معدلات نمو الانتاج العالمي من السلع والخدمات . حيث يكون التركيز في هذه الحالة على اختيار السياسات الدولية التي تعظم الناتج الاجمالي العالمي . أي أنه من الممكن الوصول إلى أكثر من حل أمثل بناء على الاختلاف في توصيف دالة الهدف .

نخلص مما سبق أن نماذج الحل الأمثل تتميز عن سابقتها بكونها تحتوي على آلية داخلية تمكنها من البحث عن الحل الأمثل من خلال تعريف دالة هدف تعكس تفضيل متخذ القرار . إذ يوضح الشكل رقم (٢) أن هذه النوعية من النماذج تسمح باختيار الحل الأمثل ، وفي حالة عدم تحقيقه فإنها تحدد اتجاه وحجم التعديل في متغيرات اتخاذ القرار للوصول إلى حل أفضل ، ثم تكرر هذه الخطوات حتى تحديد الحل الأمثل . ومن هنا تبدو صعوبة ودرجة تعقيد هذه النماذج وخاصة في حالة وجود عدد كبير من التغيرات .

ونود قبل البدء في مناقشة بعض مجالات تطبيق النماذج السابقة أن نوضح أنها جميعا تستخدم بشكل أو بآخر في الدراسات المستقبلية برغم الاختلاف في خصائصها وسماتها الفنية . فعند استخدام نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام في الدراسات المستقبلية فإننا ندخل في نطاق ما اصطلح على تسميته التنبؤ المشروط (Conditional Forecasting) أو محاكاة الحوارات البديلة (Scenario Simulation) . ذلك أن التنبؤ بالأداء المستقبلي للنظام أو المتغيرات التابعة يعتمد بالدرجة الأولى على اختيار المستخدم للحوارات البديلة (القيم المستقبلية لمتغيرات البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار) . أو بمعنى آخر ، فإن التغير في قيم متغيرات اتخاذ القرار يصاحبه تغير في الصورة المستقبلية التي يولدها النموذج للنظام محل الدراسة .

أما نماذج الأمثلية فهي تسعى إلى ايجاد الحل الأمثل خلال فترة التنبؤ المستقبلي بافتراض دالة هدف يتم اختيارها مع تعريف بعض القيود التي تحدد النمو . أي أننا نبحث في التطور المستقبلي الأمثل لأداء الأنظمة المختلفة ، بناء على ذلك فإن النماذج الاقتصادية الكلية على سبيل المثال تسعى إلى الوصول إلى الصورة المستقبلية للنظام الاقتصادي التي تنتج من تعظيم معدلات النمو في الناتج المحلي الأجمالي وأخذا في الاعتبار القيود المتمثلة في هيكل وخصائص النظام وحجم الموارد المتاحة .

وفيما يلي نتطرق بشيء من التفصيل لبعض استخدامات النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة في الدراسات المستقبلية وعملية اتخاذ القرارات . حيث نبدأ بنماذج تخطيط الوحدة الانتاجية ثم نناقش النماذج الاقتصادية الكلية وصولا الى النماذج الاقليمية والعالمية وسنركز عند تناول كل من هذه التطبيقات على ثلاث نقاط رئيسية :

- القضايا التي يتناولها النموذج
- البعد الزمني للنموذج
- هيكل النموذج وسماته المميزة
- مناقشة لبعض نتائج النموذج

رابعا ـ نماذج تخطيط الوحدة الإنتاجية :

منذ بدء العقد السابق تعدد استخدام نماذج تخطيط الوحدة الانتاجية[٤] (Corporate planning Models) سواء في الدول الصناعية أو الدول النامية ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى أن هذه النوعية من النماذج تسمح باختيار العديد من القرارات أو الحوارات البديلة التي تعكس السياسات الإدارية والمالية للشركة ، كما يمكن استخدام هذه النماذج لدراسة المسار المستقبلي للوحدات الإنتاجية في ظل فروض مختلفة وتعديل هذا المسار عن طريق مجموعة متجانسة من السياسات أو قواعد اتخاذ القرار . وبرغم تعدد نوعيات النماذج المستخدمة في هذا المجال إلا أن نماذج المحاكاة (نماذج التنبؤ بآلية عمل النظام) كانت الأكثر استخداما نظرا لسهولة تطويعها ومرونتها كأداة تجريبية .

١ ـ هيكل النموذج

فيما يلي نناقش باختصار أحد نماذج المحاكاة قام ببنائه كاتب هذه الدراسة وتم تطبيقه على بعض الوحدات الإنتاجية في جمهورية مصر العربية ودولة الكويت[٥] ، ويوضح الشكل رقم (٣) المكونات الأساسية للنموذج حيث ينقسم إلى ثلاثة نماذج فرعية : النموذج الفرعي لتخطيط الإنتاج ونموذجي التسويق والتحليل المالي . إذ يختص النموذج الفرعي للتسويق بتقدير حجم المبيعات خلال الفترة الزمنية للتنبؤ ونمط الأسعار السائد وحجم الانفاق الكلي على الدعاية والإعلان . ويستخدم النموذج هذه المعلومات بالإضافة إلى بيانات عن الفن الإنتاجي المستخدم وهيكل التكلفة لحساب الإنتاج وعناصر التكلفة المباشرة وغير المباشرة . وفي مرحلة أخيرة يقوم نموذج التحليل المالي باستخدام نتائج النموذجين السابقين أداء الشركة وتوليد القوائم المالية . ثم يقوم نموذج تخطيط الوحدة الإنتاجية بتكرار الخطوات السابقة سنويا حتى نهاية فترة التخطيط المستقبلي .

ومما سبق يتضح أن هذه النوعية من النماذج تقوم بتحديد المسار المستقبلي للوحدة الإنتاجية والذي ينتج من اتخاذ مجموعة من القرارات تختص بحجم الاستثمارات وسياسات التمويل والتسويق وتوزيع الأرباح بالإضافة إلى سياسات الإنتاج وإدارة المخزون .

وللتعرف على كيفية عمل النموذج يلخص شكل رقم (٤) الخطوات الرئيسية لعمل النموذج باستخدام خريطة تدفق معلومات مبسطة . إذ يبدأ نموذج المحاكاة بمجموعة القوائم المالية لسنة الأساس كقاعدة معلومات أو بيانات ثم يقوم في السنة الأولى للتنبؤ بإجراء مجموعة من الخطوات نلخصها فيما يلي :

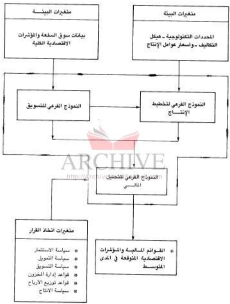
أ ـ يقوم النموذج بتحديد حجم الاستثمارات للسنة الأولى كدالة في إمكانات التمويل الذاتي وبرنامج الاستثمار الذي يحدده مستخدم النموذج .

ب ـ يحدد الإنفاق الاستثماري حجم التمويل المطلوب الذي يمكن تحقيقه عن طريق قروض طويلة أو متوسطة الأجل أو زيادة في رأس المال .

---

(٤) — Naylar, T. H. (1979) "Coporate planning Models", Addition Wesely pub. Company.

(٥) — Khorshid, M. and A. F. Abdel - Khalik (1985) "a Coporate simulation Model for Evaluating The performance of Industrial projects" proc. of the 20th Annual Conference on Statistics, Computer Sciences, and OPerations Research, Vol. 4, pp. 1—19, Cairo, Egypt.



شكل رقم (٣) المكونات الأساسية لنموذج
تخطيط الوحدة الانتاجية

شكل رقم (٤) خريطة تدفق المعلومات لنموذج تخطيط الوحدة الإنتاجية



شكل رقم (٤) تكملـــة



جـ ـ يستخدم النموذج الفرعي للتسويق المعطيات السابقة إلى جانب بعض المتغيرات الأخرى مثل الأسعار التوازنية للسوق وتكلفة الدعاية والإعلان لتحديد حجم المبيعات المحققة في هذه السنة .

د ـ بناء على سياسة التخزين للمنتجات النهائية يمكن تحديد الكمية المطلوب إنتاجها وبالتالي المتطلبات من المواد الخام الوسيطة .

هـ ـ يقوم بعد ذلك النموذج الفرعي للإنتاج بقياس النفقات المباشرة وغير المباشرة بناء على مجموعة من القواعد المحاسبية وسياسة الأجور وبعض قواعد السلوك .

و ـ يمكن عن طريق الإيرادات والنفقات الجارية حساب العائد حيث يقوم النموذج بناء على سياسة توزيع الأرباح باستقطاع الضرائب وتحديد الأرباح المحتجزة والأرباح الموزعة على حاملي الأسهم أو العاملين بالشركة وصولا إلى صافي الربح أو العائد .

ن ـ بناء على البيانات السابقة ومجموعة من العلاقات السلوكية والسياسات المقترحة يقوم النموذج بحساب جدول التدفقات النقدية وتحديد مستوى السيولة النقدية وقياس الحاجة إلى الاقتراض قصير الأجل لإدارة رأس المال العامل .

س ـ عند هذه المرحلة من التحليل تتوافر لدى النموذج المعلومات اللازمة لإعداد الميزانية العمومية الجديدة للشركة التي تعكس هيكلها المالي والإنتاجي .

ي ـ يقوم النموذج بعد ذلك بتكرار الخطوات السابقة لعدد من المرات يساوي الفترة الزمنية للتنبؤ ثم طباعة القوائم المالية والمؤشرات الاقتصادية والمالية التي تعكس مسار الشركة في المستقبل .

٢ ـ تطبيق على شركة لصناعة الورق (٦)

أنشئت شركة صناعة الورق في نوفمبر ١٩٧٧ برأس مال اسمي يقدر بـ ١٧٥٠,٠٠٠ دينار تمت زيادته إلى ٣٠٠٠,٠٠٠ دينار عام ١٩٨٤ ، ويتكون هيكل تمويل الشركة من قروض طويلة الأجل من البنك الصناعي بالإضافة إلى تسهيلات ائتمانية من البنوك التجارية . ومنذ منتصف عام ١٩٨٢ حققت الشركة خسائر متراكمة نتيجة لانخفاض أسعار المنتجات الورقية المستوردة بالإضافة إلى العديد من المشاكل الفنية والتسويقية والمالية .

وقد اتخذت الشركة في الفترة الأخيرة مجموعة من القرارات الفنية مثل تحسين خطوط الانتاج القديمة وإضافة خطوط جديدة بالإضافة إلى عدد من القرارات الإدارية والمالية . ورغما عن ذلك فإن الشركة ما زالت تعاني من انحراف في هيكل تمويلها وفي الحاجة إلى مصادر تمويل جديدة . إذ يبلغ حجم القروض طويلة الأجل ما قيمته ٧٣٪ من مجموع الخصوم مما ساعد على زيادة الأعباء المالية للشركة ، وعدم قدرتها على سداد التزاماتها المالية .

بناء على ما سبق تم استخدام النموذج لمحاكاة المسار المستقبلي للشركة خلال الفترة من عام ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠ حيث قمنا بتلخيص النتائج الرئيسية بالجدول رقم (١) وهي :

---

(٦) — Khorshid, M. (1987), "A Coperate Simulation Model For policy Experiments proc. of the Summer Conferne on Computer Simulation, Monterial, Canada

أ ـ حققت الشركة تحسنا ملحوظا في هيكل التكاليف ، إذ انخفضت نسبة النفقات غير الإنتاجية إلى التكلفة الكلية من ٣١٪ عام ١٩٨٥ إلى ما يقرب من ١٦٪ عام ١٩٩٠ ، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى إعادة تنظيم الجوانب الإدارية بالشركة .

ب ـ ساعدت السياسات المقترحة في تخفيض قيمة الخسائر من ٧١٠ آلاف دينار في عام ١٩٨٥ إلى ١١ ألف دينار في عام ١٩٩٠ . مما أدى إلى تحسن ملحوظ في النسب المالية .

جـ ـ ازداد حجم مبيعات الشركة بشكل ملحوظ خلال فترة التنبؤ حيث يرجع ذلك إلى الاستثمارات الجديدة عام ١٩٨٦ والاستخدام الأمثل للطاقة الإنتاجية للمصنع .

د ـ إلا أن الانحراف في هيكل التمويل والحاجة إلى تمويل رأس المال العامل أدى إلى الحد من الآثار الإيجابية لسياسة الشركة . إذ اتجهت الشركة إلى الاقتراض قصير الأجل لتمويل رأس المال العامل وبالتالي ارتفعت نسبة القروض البنكية الأجل إلى مجموع الخصوم من ٢٧ ، ٤٪ في عام ١٩٨٥ إلى حوالي ٣٥٪ في عام ١٩٩٠ .

نخلص من ذلك إلى أن الخطوات التصحيحية للشركة سوف تؤدي إلى تحسن في الربحية وهيكل التكاليف وإنتاجية رأس المال . إلا أن انحراف هيكل التمويل سينتج عنه زيادة في الطلب على القروض قصيرة الأجل مما سيؤدي في المستقبل القريب إلى مشكلة في مستوى السيولة النقدية . لذلك كان من الضرورة بمكان أن يعاد النظر في هيكل التمويل إما عن طريق زيادة رأس المال الاسمي أو إعادة جدولة بعض الديون ، وهو ما سعت الشركة بالفعل الى تحقيقه . إذ تمت الموافقة على تحويل جزء من القروض إلى رأس مال الشركة للوصول إلى هيكل مالي أكثر توازنا .

خامسا ـ نماذج الاقتصاد الكلي :

تمثل نماذج الاقتصاد الكلي[٧] Macroeconomic Models في عصرنا الحالي إحدى الأدوات أو الأساليب الهامة التي يستخدمها المخطط لاختبار اتساق الخطط الإنمائية متوسطة الأجل ودراسة المسار المستقبل للاقتصاد الكلي . وقد ساعد على انتشار هذه النوعية من النماذج التطور السريع الذي حدث إبان حقبة السبعينيات في بناء قواعد البيانات الاقتصادية وإعداد مجموعة من برامج الحاسب الآلي تساعد في توصيف النماذج وإيجاد حلول مناسبة لها[٨] . وبرغم تعدد نوعيات نماذج الاقتصاد الكلي (نماذج الاقتصاد القياسي ـ نماذج المدخلات والمخرجات ـ نماذج البرمجة الخطية .. الخ) فإننا نركز في هذه الدراسة على نماذج التوازن العام General Egulibrium Models .

ولما كانت نماذج الاقتصاد الكُلي تتطلب قاعدة عريضة من البيانات أو الإحصاءات الاقتصادية والاجتماعية ، فقد اتجهت الجهود الأولية نحو بناء قواعد بيانات تسمح بالوصول إلى درجة عالية من الشمول والاتساق على المستويين

(٧) — Dervis K. et al (1982) "General Equilibruim Models for Development policy" Cambridge University press, Cambridge.
— Taylor L. (1979) "Macro Models for Developing Countries" Mc Graw - Hill Book Company, New York
(٨) — Khorshid, M. (1985) "The Computerised TV Approach To Economic Modelling" IBK papers No. 18, Kuwait

الجدول رقم (١) المؤشرات المالية والاقتصادية لشركة الورق

المؤشرات الاقتصادية والمالية	١٩٨٥	١٩٩٠
	التوزيع النسبي (٪)	التوزيع النسبي (٪)
١ ـ الأصول الثابتة	٦٩,٩٩	٧٤,٣٠
٢ ـ الأصول الجارية	٢٧,١٣	٢١,٤٥
٣ ـ أصول أخرى	٢,٩٨	٤,٢٤
مجموع الأصول	١٠٠	١٠٠
١ ـ رأس المال	٣١,٤٨	٤٤,٧٢
٢ ـ الاحتياطيات	—	—
٣ ـ الأرباح المحتجزة	(١٦,٧٢)	(٣٦,٦٣)
٤ ـ القروض طويلة الأجل	٧٣,٧٧	٥٤,٠٤
٥ ـ القروض قصيرة الأجل	١١,٤٧	٣٧,٨٧
مجموع الخصوم	١٠٠	١٠٠
١ ـ النفقات الإنتاجية	٦٨,٥٣	٨٣,٥٢
٢ ـ النفقات غير الإنتاجية	٣١,٤٧	١٦,٤٨
التكلفة الكلية	١٠٠	١٠٠

الجزئي والكلي . ذلك أن البيانات الاقتصادية إن وجدت فإنها تتسم بعدم الاتساق . أضف إلى ذلك تعدد مصادر هذه البيانات واختلاف أساليب تقديرها مما قد يؤدي إلى العديد من الأخطاء . وانطلاقا من ذلك فقد تم تطوير أسلوب المحاسبة القومية التقليدي إلى نظام أكثر اتساقا وهو نظام الأمم المتحدة للمحاسبة القومية(٩) . حيث أمكن إعادة تنظيم البيانات الاقتصادية الكلية في شكل مصفوفة تعكس تدفق الدخل بين أجزاء الاقتصاد القومي . إلا أن توجهات هذا النظام كانت على جانب تولد الدخل القومي والإنتاج في حين أغفل جانب توزيع الدخل على الأفراد والمؤسسات الوطنية الأخرى . وقد أدى ذلك إلى قيام مجموعة من الباحثين في البنك الدولي للإنشاء والتعمير بتطوير نظام جديد للمحاسبة القومية اصطلح على تسميته « مصفوفة الحسابات الاجتماعية »(١٠) Social Accounting Matrix .

ويتميز أسلوب مصفوفة الحسابات الاجتماعية بمجموعة من السمات المميزة نلخصها في النقاط التالية :

أ ـ الشمول : حيث تحتوي مصفوفة الحسابات الاجتماعية على معظم المؤشرات الاقتصادية التي تعكس هيكل الاقتصاد القومي والعلاقات المتبادلة بين أجزائه . فلا تقتصر المصفوفة على هيكل الإنتاج والطلب على السلع والخدمات فقط بل تشمل أيضا دخل عوامل الإنتاج وتوزيعه على المؤسسات الوطنية .

ب ـ الاتساق : وهو يعني التوازن الكلي للنظام الاقتصادي ، إذ تتطلب المصفوفة تساوي الدخل مع الإنفاق على المستوى الكلي والقطاعي ، وبالتالي يمكن التعرف على المشاكل الناجمة عن تعدد مصادر البيانات من جهة وعدم دقة تقديرها من جهة أخرى .

جـ ـ المرونة في الاستخدام : وهو إمكانية تطوير وتطويع مصفوفة الحسابات الاجتماعية لتحقيق أغراض متعددة من التحليل . إذ تستخدم المصفوفة كأساس أو قاعدة لبناء نماذج اقتصادية كلية تسمح بدراسة المسار المستقبلي للنظام الاقتصادي .

هذا ، وقد صاحب التطور في بناء مصفوفات الحسابات الاجتماعية تطور متزامن في بناء النماذج الاقتصادية الكلية(١١) . وفيما يلي نناقش نموذج تجميعي مبني على منهجية مصفوفة الحسابات الاجتماعية استخدم لتحليل السياسيات الاقتصادية في جمهورية مصر العربية . حيث نبدأ بعرض قاعدة البيانات التي اعتمد عليها النموذج تمهيدا لشرح هيكل النموذج وبعض النتائج التحليلية .

١ ـ قاعدة بيانات النموذج :

يبين جدول رقم (٢) مصفوفة حسابات اجتماعية تمثل هيكل الاقتصاد المصري للسنة المالية ٨١/١٩٨٠ .

---

(٩) — United Nations (1968) "A System of Natioinal Accounts" New York, U.S.A

(١٠) — pyatl, G. et al (1985) "Social Accounting Matrices - A Basis For planning" The World Bank, Washington, D.C. U.S.A.

ممتاز خورشيد (١٩٨٦) « الحسابات القومية ومصفوفات التوازن الاجتماعي » المال والصناعة ، العدد السابع ، بنك الكويت الوطني الكويت .

(١١) — Centeral Agency For public Mobilization And Statistics (1984) "Social Accounting Matrices and Economic Modelling For Egypt" Nasr City, Egypt.

— Mohi el-Din (1982) "SAM Updaling and EconomyWide Modelling" Final Report, DRTPC, Cairo University.

جدول رقم (٢) مصفوفة الحسابات الاجتماعية
لجمهورية مصر العربية

مصفوفة الحسابات الاجتماعية لمصر (١٩٨٠ / ١٩٨١) مليون جنيه مصري		I عناصر الإنتاج: تعويضات العاملين	I عناصر الإنتاج: فائض التشغيل	I عناصر الإنتاج: عائد الأرض	II مؤسسات (حساب جاري): عائلي	II مؤسسات (حساب جاري): شركات خاصة	II مؤسسات (حساب جاري): شركات عامة	II مؤسسات (حساب جاري): حكومة	III حساب رأس المال	IV النشاط الإنتاجي	V سلع وخدمات	VI العالم الخارجي	VII المجموع
		١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢
عناصر الإنتاج: تعويضات العاملين	١							١٤٥٣		٤٦١٢,٩		٢١٨٣	٨٢١٨,٥
عناصر الإنتاج: فائض التشغيل	٢									٩٨٥٩,١		٢٩,٩	٩٨٨٩
عناصر الإنتاج: عائد الأرض	٣									٤٠٠			٤٠٠
مؤسسات (حساب جاري): عائلي	٤	٨١٤٨,٥	٤٦٠١,١	٣٨٧,٩		١٩	١١٦,٥	٥٧٤				٢٦٦,٧	١٣٦١٣
مؤسسات (حساب جاري): شركات خاصة	٥		٥٣٧		١		١	٦١٣					٥٣٩
مؤسسات (حساب جاري): شركات عامة	٦		٥٢٢٢,٩	٢٢,١	٢٨	٤						٤٦	٥٩٢٦
مؤسسات (حساب جاري): حكومة	٧		٢٨,٠		٨٣٩,١	٣٤	٣٦٦١,٦			٢٦٢	٤٥١,٣	٢٤,٨	٥٣٠٥
حساب رأس المال	٨				١٨٥٥,٣	٤٨٢	١٢٩٧	١٤٥٢				١٠٥٧,٥	٦١٤٤,٤
النشاط الإنتاجي	٩				١٠٨٢٦						٢٧٧٤٤,٧		٢٧٧٤٤,٤
سلع وخدمات	١٠							١٠٩٤,٩	٦١٤٤,٤	١٢٦١١		١٤٤٨,٧	٣٥٣٢٥
العالم الخارجي	١١	٧٠,٠			٦٣,٦		٨٤٦	١١٨			٧١٢٩		٨٢٢٦,٩
المجموع	١٢	٨٢١٨,٥	٩٨٨٩	٤٠٠	١٣٦١٣	٥٣٩	٥٩٢٦	٥٣٠٥	٦١٤٤,٤	٢٧٧٤٤,٧	٣٥٣٢٥	٨٢٢٦,٩	

ويبين الجدول أن لكل حساب عمودا وصفًا في المصفوفة ، حيث يمثل الصف الدخل أو الايراد بينما يمثل العمود الإنفاق أو الاستخدام ، بالاستناد الى المبدأ السابق فإن كل معاملة مالية أو صفقة تتم تظهر مرة واحدة فقط ، وذلك كمدفوعات من عمود إلى صف . أي أن كل خلية في هذه المصفوفة تمثل من وجهة نظر العمود إنفاقا ، ومن وجهة نظر الصف إيرادا . ولضمان توازن الدخل مع الإنفاق في المصفوفة (وهي المتساوية الأساسية في علم الاقتصاد) لا بد من تساوي مجموع عناصر الصف مع مجموع عناصر العمود . وقد جرى تقسيم الحسابات في هذه المصفوفة المجمعة على النحو التالي :

- حساب عناصر الإنتاج ويشمل تعويضات العاملين وفائض التشغيل وعائد الأرض .
- الحساب الجاري للمؤسسات الوطنية ويشمل القطاع العائلي ، الشركات الخاصة والعامة ، والحكومة .
- حساب رأس المال للمؤسسات .
- حساب النشاط الإنتاجي .
- حساب السلع والخدمات .
- حساب العالم الخارجي .

بناء على ما سبق يمكن تفسير بيانات المصفوفة المبينة بالجدول رقم (٢) إذ يقوم على سبيل المثال النشاط الإنتاجي (العمود رقم ٩) بتقسيم الإنتاج الكلي إلى تعويضات العاملين (تقاطع الصف ١ مع العمود ٩) ، فائض التشغيل القومي (تقاطع الصف ٢ مع العمود ٩) ، وعائد استخدام الأرض (تقاطع الصف ٣ مع العمود ٩) ، الضرائب على النشاط الإنتاجي (تقاطع الصف ٧ مع العمود ٩) ، والمدخلات الوسيطة (تقاطع الصف ١٠ مع العمود ٩) . كذلك يمكن توزيع الإنفاق الحكومي (العمود رقم ٧) على تعويضات العاملين بالحكومة (تقاطع الصف ١ مع العمود ٧) تحويلات الحكومة إلى الأفراد (تقاطع الصف ٤ مع العمود ٧) ، تحويلات إلى الشركات العامة (تقاطع الصف ٦ مع العمود ٧) ، الادخار الحكومي (تقاطع الصف ٨ مع العمود ٧) ، شراء السلع والخدمات (تقاطع الصف ١٠ مع العمود ٧) ، وأخيرا تحويلات الحكومة إلى العالم الخارجي (تقاطع الصف ١١ مع العمود ٧) ، وبنفس الطريقة يمكن تفسير المفهوم الاقتصادي لباقي بيانات مصفوفة الحسابات الاجتماعية .

بناء النموذج الاقتصادي :-

يتضح مما سبق أن مصفوفة الحسابات الاجتماعية تمثل إطارا محاسبيا أو قاعدة بيانات متسقة على المستوى الكلي والجزئي . أي أن المصفوفة توفر للباحث الاقتصادي صورة متوازنة تعكس السمات الرئيسية للنظام الاقتصادي الكلي .

إلا أن المصفوفة ، بجانب كونها إطار محاسبيا فإنها تساعد أيضا في بناء نماذج رياضية تستخدم لمحاكاة السلوك المستقبلي للنظام الاقتصادي وتتبع الفكرة الاساسية لهذا الأسلوب في بناء النماذج من أن المصفوفة تعكس تدفق الدخل بين أجزاء الاقتصاد القومي ، وبالتالي فإن كل عنصر أو خلية بالمصفوفة إنما تمثل مدفوعات من عمود إلى صف أو من حساب إلى آخر . فعلى سبيل المثال تظهر تعويضات العاملين في القطاع الإنتاجي بالجدول رقم (٢) كمدفوعات من

عمود النشاط الإنتاجي الى وصف تعويضات العاملين (٤٦١٢,٢ مليون جنيه مصري) ، بينما تظهر تعويضات موظفي الحكومة كمدفوعات من عمود الحكومة إلى صف تعويضات الموظفين (١٤٥٣ مليون جنيه مصري) .

بيد أن هذه التدفقات النقدية بين قطاعات الاقتصاد القومي تنتج من القرارات التي يتخذها الأفراد والشركات الإنتاجية والحكومة وباقي القطاعات الاقتصادية . وهي قرارات تحكمها مجموعة من قواعد السلوك أو اتخاذ القرار . فالشركات الإنتاجية تسعى إلى تعظيم الربح أو تخفيض التكلفة ، والمستهلك يسعى إلى تعظيم الفائدة أو المنفعة ، والحكومة تسعى إلى تخفيض عجز الموازنة العامة . . الخ . وبالتالي فإنه يمكن تمثيل كل خلية في المصفوفة بعلاقة رياضية تعكس قاعدة السلوك المستقبلي التي تحكم اختيار المؤسسات الوطنية .

نخلص من ذلك الى انه يمكن استبدال مصفوفة الحسابات القومية بمصفوفة أخرى تحتوي على مجموعة قواعد السلوك المستقبلي او العلاقات الرياضية التي تمثل النموذج الاقتصادي . ولعل ذلك يمثل الاساس النظري او الفكرة الاساسية للنماذج الاقتصادية المبنية على منهجية مصفوفة الحسابات الاجتماعية .

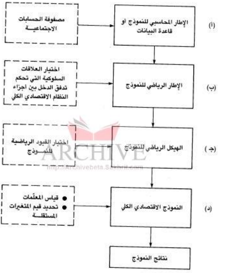
ويوضح شكل رقم (٥) الخطوات أو المراحل الرئيسية لبناء نموذج اقتصادي كلي يمكن تلخيصها كما يلي :-

أ - تحديد الإطار المحاسبي للنموذج :- حيث يتم في هذه المرحلة الأولية بناء مصفوفة حسابات اجتماعية تعكس هيكل الاقتصاد الكلي وسماته المميزة . وواقع الأمر أن عملية النمذجة تبدأ مع بداية تصميم وبناء المصفوفة . إذ أن اختيارنا للحسابات المكونة للمصفوفة ودرجة تفصيل بياناتها يعتمد بدرجة كبيرة على هيكل ودرجة تفصيل النموذج الذي نرغب بناءه .

ب - اختيار الإطار الرياضي للنموذج : وفي هذه المرحلة يقوم الباحث باختيار العلاقات السلوكية التي تحكم تدفق الدخل بين أجزاء النظام الاقتصادي أو بين أعمدة وصفوف مصفوفة الحسابات الاجتماعية .

جـ - تحديد الهيكل الرياضي للنموذج :- تمثل مجموعة العلاقات السلوكية المختارة في المرحلة السابقة مجموعة من المعادلات الرياضية بين المتغيرات المستقلة والمتغيرات التابعة ، وللوصول إلى حل لهذا النظام من المعادلات فإنه لابد من تساوي عدد المعادلات مع عدد المتغيرات التابعة . وحيث إن هذا الشرط لا يتحقق في غالب الأحيان فإنه يجب تحويل بعض المتغيرات التابعة إلى متغيرات مستقلة بحيث يتحقق شرط التساوي السابق ذكره . ويعني ذلك أن مستخدم النموذج عليه أن يحدد قيم بعض المتغيرات من خارج النموذج .

د - قياس النموذج الاقتصادي :- ويتم في هذه المرحلة قياس معلمات النموذج وتحديد القيم المستقبلية للمتغيرات المستقلة التي ستستخدم لتشغيل النموذج .



شكل رقم (٥) مراحل بناء نموذج اقتصادي كلي

٣ ـ تطبيق على الاقتصاد المصري : (١٢)

شهد الاقتصاد المصري خلال حقبة السبعينيات معدلات نمو مرتفعة في معظم قطاعاته الإنتاجية . إذ بلغ معدل النمو السنوي في الناتج المحلي الإجمالي إبان تلك الفترة حوالي ٩٪ إلا أن هذا النمو لم ينتج من زيادة في الكفاءة الإنتاجية للأنشطة الاقتصادية بقدر ما نتج عن توافر الموارد الخارجية : مثل ، تحويلات العاملين بالخارج ، العائد من صادرات البترول ، إيرادات قناة السويس بعد إعادة فتحها للملاحة الدولية ، وأخيرا الدخل المتولد من السياحة . حيث نمت هذه الموارد الخارجية خلال الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٨٠ بمعدل سنوي متوسط يقدر بحوالي ٤٠٪ وارتفع نصيبها في الناتج المحلي الإجمالي من ٦٪ عام ١٩٧٤ إلى ما يقدر بـ ٤٥٪ في عام ١٩٨٠ .

وقد ساعد توافر هذه الموارد خلال حقبة السبعينيات في إخفاء المشاكل الهيكلية التي يعاني منها الاقتصاد المصري التي تتلخص في النقاط التالية :ـ

أ ـ عدم كفاية الإنتاج الصناعي والزراعي لإشباع حجم الطلب المتزايد على السلع والخدمات .

ب ـ الزيادة في معدل التضخم في الأسعار الذي يقدر بما قيمته ١٥٪ إلى ٢٠٪ سنويا .

جـ ـ عدم موائمة أجور العاملين بالقطاع العام لمستوى الأسعار السائد في سوق السلع والخدمات .

د ـ العجز المزمن في ميزان المدفوعات والميزان التجاري .

هـ ـ الزيادة المطردة في حجم الاستثمار بالمقارنة بحجم المدخرات القومية مما يؤدي إلى الاستدانة من العالم الخارجي .

و ـ النقص في مشروعات البنية الأساسية والحاجة إلى زيادة كبيرة في الوحدات السكنية لمقابلة النمو المتزايد في عدد السكان .

ن ـ انخفاض الكفاءة الإدارية في معظم القطاعات الاقتصادية ونقص الأيدي العاملة المدربة .

إلا أنه منذ بداية الثمانينيات تناقصت معدلات نمو الموارد الخارجية للاقتصاد المصري بشكل ملحوظ ، ويتنظر استمرار هذا التناقص خلال حقبة الثمانينيات وبداية التسعينيات مما سيؤدي بالطبع إلى زيادة أعباء الديون الخارجية وارتفاع معدل التضخم في الأسعار وتفاقم المشاكل الهيكلية الاخرى . لذلك فإنه للمحافظة على مستوى النمو الذي تحقق خلال حقبة السبعينيات يجب على الحكومة المصرية إما أن تبحث عن مصادر أخرى للدخل أو ان تتبنى مجموعة متناسقة من السياسات التي تسمح بإصلاح المسار الاقتصادي وعلاج المشاكل الهيكلية المزمنة .

بناء على ما سبق فإن الحكومة المصرية أصبحت في حاجة إلى دراسة أثر التغيرات غير المناسبة في العوامل الخارجية وتقييم أثر السياسات الإنمائية البديلة على المسار المستقبلي للاقتصاد المصري ، وبهدف تحقيق ذلك تم بناء نموذج اقتصاديّ كليّ يعتمد على منهجية مصفوفة الحسابات الاجتماعية يستخدم كأداة تجريبية في مجال اختبار السياسات البديلة . وقد صمم النموذج لتناول عدد من القضايا الاقتصادية التالية :ـ

---

(١٢) — Khorshid, M. and O.M. Osman (1986) "An Economy Wide Model for Simulating The Behavior of The Egyptian Economy" Memo No. 1420, The Institute of National planning, Cairo Egypt

- أثر التغير في معدلات نمو قطاع النفط ومشتقاته على أداء باقي أجزاء الاقتصاد القومي .
- أثر التغير في الأسعار العالمية للسلع والخدمات على حجم الصادرات والواردات والعجز في ميزان المدفوعات .
- أثر انخفاض تحويلات المصريين العاملين في الخارج على حجم الاستهلاك الخاص ومعدلات الادخار القومي .
- أثر التغير في الإنفاق الحكومي والسياسة الضريبية على العجز في ميزان المدفوعات وحجم الاقتراض من العالم الخارجي .
- أثر التغير في معدلات نمو الاستثمار القومي على السلوك المستقبلي للنظام الاقتصادي .

هذا وقد استخدم النموذج لدراسة سلوك الاقتصاد المصري خلال الفترة الزمنية ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧ حيث تم بناء ثلاثة سيناريوهات أو احتمالات منطقية للتطور المستقبلي وهي :

- السيناريو الأساسي
- السيناريو المتفائل
- السيناريو المتشائم .

حيث يفترض السيناريو الأول استمرار الظروف الخارجية التي بدأت في بداية حقبة الثمانينيات خلال فترة التنبؤ المستقبلي ، بينما افترض كل من السيناريوهين . . الثاني والثالث حدوث تغيرات مستقبلية أكثر تفاؤلا أو تشاؤما . وبناء على هذه السيناريوهات استخدام النموذج لاختبار عدد من السياسات او القرارات الاقتصادية الكلية حيث يبين جدول رقم (٣) نتائج تحقق كل من السيناريو الاساسي والسيناريو المتشائم ثم أثر تطبيق بعض القرارات الاقتصادية المختارة مثل تشجيع الصادرات ، تخفيض الانفاق النهائي الحكومي ، زيادة الرسوم الجمركية ، . . . الخ .

ويمكن تلخيص النتائج في النقاط التالية :

أ ـ نظرا لحساسية الاقتصاد المصري للتغيرات الخارجية فقد أدى السيناريو المتشائم إلى انخفاض النمو في الناتج المحلي الإجمالي والقيمة المضافة في معظم القطاعات الإنتاجية مقارنتين بالمسار أو السيناريو الأساسي (العمودين الأول والثاني بالجدول رقم (٣)) . إذ انخفض معدل النمو السنوي في الناتج المحلي الإجمالي من ٥,٨ إلى ١,٧ خلال فترة التنبؤ . بيد أن النتائج أوضحت أن هناك تفاوتا في درجة تأثر القطاعات الانتاجية بالمتغيرات الخارجية إذ انخفض معدل النمو في قطاع الزراعة بمقدار ٨٦٪ في حين تناقص معدل النمو في قطاع الصناعة بمقدار ٥٩٪ فقط .

ب ـ أدى حدوث السيناريو المتشائم إلى نقص في دخول المؤسسات الوطنية مما أدى إلى انخفاظ في معدلات النمو السنوية للاستهلاك الخاص وحجم الواردات السلعية . كما أدى النقص في الإنتاج إلى انخفاض مماثل في الصادرات حيث حقق هذا القطاع معدلات نمو سالبة (أي تناقص في حجم الصادرات) خلال الفجوة الزمنية للتحليل .

جـ ـ ارتفع العجز في ميزان المدفوعات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي من ٢٠٪ إلى ٢٣٪ إذ يرجع بالدرجة الأولى إلى انخفاض حجم الصادرات وتحويلات العاملين من العالم الخارجي .

د ـ أدى تطبيق عدد من السياسات إلى تحسن في الأداء الاقتصادي المستقبلي برغم حدوث السيناريو المتشائم (العمود رقم ٣ بالجدول رقم (٣)) . وقد تركز هذا في ثلاثة مؤشرات رئيسية : الناتج المحلي الإجمالي في قطاع

٤

جدول رقم (٣)

تحليل المسار المستقبلي للاقتصاد المصري

(نتائج السيناريو المتشائم والسياسات المقترحة)

المؤشرات الاقتصادية	متوسط معدل النمو السنوي) ٠/٠) بالأسعار الثابتة		
	المسار الأساسي ١٩٨٢ - ١٩٨٧	نتائج السيناريو المتشائم	نتائج السيناريو المتشائم + السياسات المقترحة
الناتج المحلي الإجمالي :-	٥,٨١٤	١,٧٦٧	١,٩١٧
- الزراعة	٣,٨٨٦	٥,٥١٩	,٩٥٩
- الصناعة	٩,٨٩٩	٢,٧٦٥	٣,١٠٣
- التشييد والبناء	٦,٠٠٢	١,٧١٥	١,٧٠٠
- الخدمات	٦,٣٥٧	٢,٤٠٢	٢,٤٢٠
الاستهلاك الخاص	٤,٩٤٨	١,٤٢٣	١,٤٨٤
الواردات	٦,٠٧٤	٢,١٦٧	٢,٤٢٧
الصادرات	٥,٠٨٤	٠,٣٧٩	٤,٨٠٩
العجز في ميزان المدفوعات (نسبة من الناتج المحلي الإجمالي	٢٠٪	٢٣٪	١٧٪

الصناعة ، حجم الصادرات القومية ومقدار العجز في ميزان المدفوعات حيث ارتفع معدل النمو السنوي في القطاع الصناعي بمقدار ١٢٪ بالمقارنة بالسيناريو المتشائم بينما حقق قطاع الصادرات معدلات نمو تصل إلى ٤,٨ سنويا في حين انخفض العجز في ميزان المدفوعات كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي إلى ١٧ بالمائة فقط .

نخلص مما سبق إلى أن النموذج الاقتصادي السابق يدخل في إطار نماذج التنبؤ بآلية عمل النظم (انظر شكل رقم (٢) وأنه يقوم بدراسة المسار المستقبلي للنظام الاقتصادي باستخدام أسلوب محاكاة الحوارات المستقبلية Scenario Simulation ، أو التنبؤ المشروط Conditional forecasting . إذ يقوم النموذج بمحاولة التعرف على التغيرات المستقبلية بناء على السيناريو أو الحوار المستقبلي (متغيرات البيئة) والسياسات المتبعة (متغيرات اتخاذ القرار) .

سادسا : نماذج التخطيط الإقليمي :

ناقشنا فيما سبق استخدام نماذج تخطيط الوحدة الإنتاجية ونماذج الاقتصاد الكلي في الدراسات المستقبلية متوسطة الأجل . أي أن النموذج يستخدم للتنبؤ بالمسار المستقبلي لفترة زمنية تتراوح من خمس إلى ثماني سنوات على الأكثر . هذه النوعية من النماذج يمكن تصنيفها ضمن نماذج المحاكاة . لذلك نتناول في هذا الجزء من الدراسة نموذج إقليمي يختلف عن النموذجين السابقين في النقاط التالية :

أ ـ يمثل النموذج الحالي أحد نماذج البحث عن الحل الأمثل في شكل دالة هدف باستخدام مجموعة من القيود الرياضية .

ب ـ يستخدم النموذج في التنبؤ طويل الأجل أي لفترة زمنية تصل إلى ٢٥ عاما .

جـ ـ يقوم النموذج الحالي بتحليل السياسات أو القرارات على المستوى الإقليمي وليس المستوى القطري أو الجزئي .

وقد تم إعداد هذا النموذج كجزء من دراسة للجنة الاقتصادية لمنطقة غرب آسيا التابعة لمنظمة الأمم المتحدة [١٣] حيث سعت الدراسة إلى استشراف التطورات المستقبلية لقطاع النقل البحري في منطقة غرب آسيا والبرنامج المستقبلي لبناء سفن نقل النفط الخام . وقد نبعت فكرة هذا المشروع البحثي من تدني نسبة مشاركة دول منطقة غرب آسيا في نقل صادراتهم من النفط الخام بواسطة الأسطول البحري لهذه الدول ، فبرغم أن هذه المنطقة تقوم بتصدير حوالي ٤٠ في المائة من النفط الخام العالمي إلا أن نصيب دول المنطقة من الأسطول العالمي لا يتعدى ٢,٣ بالمائة . وقد صدرت مجموعة من قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومنظمة اليونكتاد UNCTAD لتشجيع الدول النامية على وجه العموم لزيادة مشاركتها في نقل السلع والمواد الخام عن طريق بناء أساطيل بحرية خاصة بها .

وبناء على ما سبق فقد اتجهت اللجان الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة لإجراء دراسات تهدف إلى التعرف على إمكانية التوسع في الأسطول البحري للدول النامية التي تعتبر هذه الدراسة جزءا منها .

---

(١٣) — Khorshid, M (1985) "Future prospects of Seaborne Trade And Fleet Development In The ECWA Region "Unpublished memo, UNECWA, Bagdad Iraq

١ ـ صياغة النموذج :

اتجه البحث في البداية إلى تحديد مستوى تفصيل النموذج حيث إن ذلك يؤثر على أسلوب التحليل المستخدم ودقة النتائج التي يمكن الحصول عليها ، وبما أن الدراسة المستقبلية تتطلب تحديد وسيلة نقل صادرات النفط الخام من دول منطقة غرب آسيا إلى باقي إجزاء العالم فقد تقرر إجراء التحليل بمنطقة غرب آسيا على مستوى الدولة بينما قسمت باقي أجزاء العالم إلى ثمانية أقاليم أو مناطق كما هو موضح بالجدول رقم (٤) . ويسمح هذا التقسيم من ناحية بالتفرقة بين أنماط نقل النفط الخام بين الأقاليم العالمية وبتوضيح السمات المميزة والسياسات المتبعة في دول غرب آسيا من ناحية أخرى . ولما كان النموذج سيستخدم للتنبؤ طويل الأجل بما يتضمنه ذلك من درجة عالية من عدم اليقين وصعوبة تمثيل بعض المتغيرات السياسية والاجتماعية فقد اتفق على دمج الأساليب الكميّة مع مجموعة من السيناريوهات أو الحوارات البديلة لاحتمالات التطور المتوقع في أداء الاقتصاد العالمي في المدى الطويل خاصة في الجزء الأول من الدراسة وهو التنبؤ بصادرات البترول الخام من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم .

بناء على النقاط السابقة فإن النموذج الحالي يمكن استخدامه للإجابة عن بعض أو كل الأسئلة التالية :ـ

ـ ما هو الحجم المتوقع لصادرات النفط الخام حتى عام ٢٠٠٠ من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم ؟

ـ ما هو التطور المتوقع في الطلب على النفط الخام من أقاليم العالم وعرض النفط من دول غرب آسيا ؟

ـ ما هو حجم وتركيبة أسطول دول غرب آسيا حتى عام ٢٠٠٠ بافتراض أن دول المنطقة ترغب في نقل ٤٠٪ من حجم صادراتها من النفط الخام عن طريق أسطولها الإقليمي ؟

ـ ما هو عدد ونوعية السفن الإضافية التي تحتاجها منطقة غرب آسيا لنقل نسبة لا تقل عن ٤٠٪ من حجم صادراتها من النفط مع الأخذ في الاعتبار بمحددات موانيء المنطقة والطلب العالمي على النفط ؟

ـ ما هي التوزيعة المثلى للأسطول البحري لدول غرب آسيا على الخطوط الملاحية المختلفة بافتراض أن هناك تنسيقا على المستوى الإقليمي بين دول المنطقة ؟

للإجابة عن الأسئلة السابقة تم تصميم نموذج إقليمي ينقسم إلى نموذجين فرعيين :

ـ نموذج التنبؤ بصادرات النفط من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم حتى عام ٢٠٠٠ .

ـ نموذج اختيار الحجم الأمثل للأسطول البحري لمنطقة غرب آسيا الذي يسمح بنقل ٤٠٪ من حجم هذه الصادرات .

جدول رقم (٤) دول منطقة غرب آسيا وباقي أقاليم العالم

دول غرب آسيا	
البحرين	١
جمهورية مصر العربية	٢
العراق	٣
الأردن	٤
الكويت	٥
لبنان	٦
سلطنة عمان	٧
دولة قطر	٨
المملكة العربية السعودية	٩
سوريا	١٠
الإمارات المتحدة	١١
اليمن الشمالية	١٢
اليمن الجنوبية	١٣

أقاليم العالم	
شمال أمريكا	١
جنوب أمريكا	٢
غرب أوروبا	٣
شرق أوروبا	٤
الشرق الأوسط	٥
قارة أفريقيا	٦
آسيا (عدا غرب آسيا)	٧
استراليا	٨

ويوضح الشكل رقم (٦) الاطار المتكامل للنموذج الاقليمي الذي يمكن توصيفه على النحو التالي :

أ ـ في الخطوة الأولى يتم تجميع وتنظيم قاعدة معلومات تشتمل على البيانات التاريخية والمؤشرات الاقتصادية لدول غرب آسيا ومناطق العالم الأخرى .

ب ـ في الخطوة التالية يتم بناء سيناريوهات أو حوارات مستقبلية تعكس التطورات المتوقعة للاقتصاد العالمي في المدى الطويل . وقد تم تحديد سيناريو متفائل وآخر متشائم .

جـ ـ يقوم نموذج فرعي باستخدام البيانات التاريخية ومعطيات السيناريوهات المستقبلية بالتنبؤ بحجم صادرات النفط الخام من دول غرب آسيا (متجه العرض) ـ وواردات مناطق العالم الأخرى من نفط غرب آسيا (متجه الطلب) .

د ـ يعد نموذج فرعي آخر هدفه مقارنة متجه صادرات النفط حسب دولة المصدر (العرض) مع متجه واردات النفط حسب الإقليم (الطلب) بهدف الوصول الى حل توازني يضمن تساوي العرض الكلي مع الطلب الكلي خلال الفترة الزمنية ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠ ، وبالتالي نحصل على مصفوفة متوازنة تشمل حجم النفط المنقول بحريا (بالالف طن) تمثل صفوفها دول منطقة غرب آسيا بينما تمثل أعمدتها باقي أجزاء العالم .

هـ ـ يقوم نموذج الحل الأمثل باستخدام بيانات مصفوفة صادرات النفط وبيانات عن هيكل تكلفة النقل البحري ومحددات الموانى وعدد السفن المتوفرة حتى عام ٢٠٠٠ ـ للوصول الى الحجم الأمثل للأسطول البحري بمنطقة غرب آسيا في عام ٢٠٠٠ والتوزيعة المثلى لهذا الأسطول على الخطوط الملاحية التي تربط المنطقة بباقي اجزاء العالم . وقد استخدم في هذه الخطوة نموذج برمجة خطية وهو نموذج حل أمثل ينطبق عليه الخصائص والسمات التي ناقشناها في الجزء الثالث من هذه الدراسة . إلا انه يتميز بأن علاقاته الرياضية تأخذ الشكل الخطي ! (linear relation) أي أن النموذج يتكون من دالة هدف خطية ومجموعة من القيود أو المتباينات الخطية .

٢ ـ نتائج النموذج :

يمثل الجدول رقم (٥) مخرجات النموذج الاقليمي وهو عبارة عن مصفوفة تبين صادرات النفط الخام من منطقة غرب آسيا عام ٢٠٠٠ . إذ تمثل صفوف الصفوفة الخطوط الملاحية من دول غرب آسيا إلى باقي أجزاء العالم ، في حين تبين الأعمدة وسيلة النقل البحري سواء كان ذلك باستخدام الاسطول الاقليمي لغرب آسيا أو عن طريق سفن أجنبية . كذلك يقسم النموذج السفن المملوكة لدول منطقة غرب آسيا إلى وحدات متوفرة من الأسطول الاصلي حتى عام ٢٠٠٠ ، ووحدات جديدة تضاف بهدف زيادة نصيب دول غرب آسيا من الحجم الكلي لنقليات النفط الخام . كما يبين الجدول كذلك تقسيم أسطول منطقة غرب آسيا حسب الحمولة بالالف طن .

وبالطبع فانه يمكن ترجمة مصفوفة حجم صادرات النفط [جدول رقم (٥)] الى عدد السفن المطلوب إضافتها الى الأسطول القائم لتحقيق أهداف الدراسة ألا وهي زيادة مشاركة دول غرب اسيا في نقل نفطها الخام . حيث يوضح الجدول رقم (٦) الحجم الأمثل لأسطول النقل البحري لمنطقة غرب آسيا عام ٢٠٠٠ الذي يحقق النقاط التالية :

شكل رقم (٦)
الإطار المتكامل للنموذج الإقليمي



جدول رقم (٥) مصفوفة صادرات النفط من دول غرب آسيا إلى أقاليم العالم (عام ٢٠٠٠)

الخطوط الملاحية / وسيلة نقل النفط الخام		أسطول نقل النفط لمنطقة غرب آسيا							سفن نقل أجنبية
		وحدات متوفرة حتى عام ٢٠٠٠				وحدات جديدة			
		الحمولة بالألف طن				الحمولة بالألف طن			
دولة المصدر	إقليم المتجه	٣٠	٦٠	٨٠	٠٠٠	٣٠	٦٠	٠٠٠	
العراق	شمال أمريكا								
	جنوب أمريكا								
	غرب أوروبا								
	شرق أوروبا								
	أفريقيا								
	شرق آسيا								
الكويت	شمال أمريكا								
	غرب أوروبا								
	شرق آسيا								
	:								
المملكة العربية السعودية	شمال أمريكا								
	شرق آسيا								
	:								
	:								

- الحد الأدنى من حجم ناقلات النفط الخام الذي حددته الدراسة بـ ٤٠٪ من الحجم الكلي للصادرات .
- الحد الأدنى من التكلفة الكلية لنقل الخام من منطقة غرب آسيا الى باقي أجزاء العالم .

وكما يوضح الجدول رقم (٦) ، فقد ارتبطت النتائج بحواريين (أوسينار يوهين) بديلين يعكسان التطورات المتوقعة في الاقتصاد العالمي خلال الفترة الزمنية ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠ أي ان النموذج يوفر لمتخذ القرار على المستوى الاقليمي الحل المستقبلي الأمثل بافتراض تحقق السيناريو المتشائم (او السيناريو المتفائل) ، وبالتالي فبافتراض تحقق السيناريو المتشائم ، على سبيل المثال ، يجب على دول غرب آسيا زيادة حجم أسطولها البحري بعدد ١٥٢ سفينة للوصول الى نسبة ٤٠٪ من الحجم الكلي لناقلات النفط ، بينما تحتاج دول المنطقة الى زيادة حجم أسطولها بعدد ٣١٩ سفينة في حالة تحقق السيناريو المتفائل (انظر جدول رقم (٦)) .

سابعا : النماذج العالمية :

خلال الخمس عشرة سنة الماضية تركز النشاط البحثي العالمي حول بناء عدد من النماذج تستهدف تحليل المشكلات ذات الطابع الاقليمي والدولي ، حيث استخدمت هذه النوعية من النماذج لتقييم الآثار المترتبة على مجموعة من السياسات الوطنية والدولية على بعض المشكلات أو المتغيرات ذات الطبيعة الدولية .

ويمكن القول ان الاهتمام المتزايد بالنماذج العالمية يرجع الى اقتناع العديد من رجال البحث العلمي بأن العالم ككل يواجه عددا من المشكلات لا يمكن مواجهتها الا بتضافر الجهود الدولية ، (مشكلات البيئة ، الطاقة ، السكان ، . .) وقد سعت هذه النماذج الى تحقيق أحد الأهداف التالية[١٤] :

- التخطيط الكفء لانتاج الغذاء والمواصلات على نطاق العالم .
- الاستخدام الأمثل للموارد الأولية .
- تخفيض الفجوة في الدخول بين الدول المتقدمة والدول النامية .
- زيادة نصيب الدول النامية من الانتاج الصناعي العالمي .
- اشباع الحاجات الأساسية لدول العالم الثالث .

وحيث ان المشكلات الدولية تتميز بتعقيدها وارتباطها المتبادل فان النماذج العالمية تمثل من وجهة نظرنا أداة فعالة لتقييم الآثار المباشرة وغير المباشرة للقرارات التي يتم اتخاذها سواء على المستوى الاقليمي أو الدولي . ولقد ساعد على انتشار هذه النماذج التطور الذي حدث في السنوات الاخيرة في علوم الحاسب ونظم المعلومات .

وفيما يلي سنبدأ بمناقشة لبعض النماذج العالمية التي تم بناؤها خلال حقبة السبعينيات وبداية الثمانينيات ، ثم نتعرض بشيء من التفصيل لمكونات وهيكل نموذج استراتيجية التصنيع في الوطن العربي الذي تم اعداده بمعهد

(١٤) — Khorshid, Motaz (1985) "A Conceptual Review And Anlaysis of Global Models" The Egyptian Computer Journal, Vol. 13, November

جدول رقم (٦) التركيبة المثلى للأسطول البحري لنقل النفط الخام من منطقة غرب آسيا

أ - الحوار المتشائم Pessimistic Scenario

السنة	سفن متوافرة					إضافات جديدة					اجمالي الاضافات
	حمولة السفن بالألف طن					حمولة السفن بالألف طن					
	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	
٢٠٠٠	—	٢	٤	—	٢	٨٦	٢٤	١٤	١٩	٣٧	١٥٢

ب - الحوار المتفائل Optimistic Scenario

السنة	سفن متوافرة					إضافات جديدة					اجمالي الاضافات
	حمولة السفن بالألف طن					حمولة السفن بالألف طن					
	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	٣٠	٦٠	٨٠	١٢٠	٢٥٠	
٢٠٠٠	—	٢	٤	—	٢	١٢٧	٤٧	٤٠	٤٠	٦٥	٣١٩

التخطيط القومي (جمهورية مصر العربية) بتكليف من مركز التنمية الصناعية للبلدان العربية . هذا وسيرتكز التحليل على ثلاثة معايير رئيسية :

- هدف النموذج ونطاقه .
- هيكل النموذج وخصائصه .
- المزايا والعيوب .

١ ـ نموذج فورستر [١٥] :

تم إعداد هذا النموذج بواسطة فورستر تحت اشراف نادي روما ، وقام ميدوز[١٦] من جانبه بكتابة التقرير الخاص بنتائج الدراسة .

ويقوم نموذج كل من فورستر وميدوز بدراسة خمس سمات اساسية للنمو على المستوى الدولي ، وهي النمو السكاني ، التوسع الصناعي ، تلوث البيئة ، نضوب الموارد الطبيعية وشيوع سوء التغذية .

وعلى الرغم من الانتقادات العديدة التي وجهت الى النموذج ، الا انه مازال يمثل العمل الرائد على مستوى التحليل الكمي للمشكلات الدولية . فقد أظهرت نتائج النموذج ان العالم سيواجه مشكلات حقيقية على درجة من الخطورة سوف تتأثر بها كل من الدول المتقدمة والنامية على السواء . وأن الجهد الدولي لابد أن يوجه للقضاء على هذه المشكلات .

ولعل النقد الهام الذي يمكن ان يوجه الى النموذج هو معاملته للعالم ككل بوصفه كتلة واحدة . اذ استبعد النموذج تقسيم العالم الى اقاليم جغرافية او الى كتل متعددة .

ولعل ذلك يحد الى درجه كبيرة من امكانية استشراف سيناريوهات مستقبلية تستند الى هياكل مختلفة للتجارة الدولية وللتدفقات النقدية بين أقاليم العالم .

واخيرا فان نموذج فورستر يدخل في نطاق نماذج التنبؤ بآلية عمل النظم (انظر شكل رقم (٢)) وهي نماذج تسعى الى محاكاة السلوك المستقبلي للعالم ككل او اقليم جغرافي منه .

٢ ـ نماذج مازاروفيتش / بستيل : [١٧]

تشارك هذه النماذج ، النموذج السابق في فلسفته . ذلك ان الهدف هو محاكاة سلوك النسق في المستقبل عن طريق تغيير ظروف البيئة ومتغيرات اتخاذ القرار (السياسات الاقليمية والعالمية) .

---

(١٥) — Farrester, J.W. (1973) "World Dynamics" Cambridge, Mass., Wright - Allen Press

(١٦) — Meadows, D.L. And al (1974) "Dynamics of Growth In Finite World", Cambridge, Mass., Wright - Allen press

(١٧) — Mesarovic, M. and E. pestel (1974), "Multi - Level Computer Model of World Development Systems" proceedings of IIASA Symp., Laxenburg, Austria.

وقد قام مازاروفيتش ويستول بتطوير مجموعتين من النماذج العالمية ، تركز المجموعة الأولى على قضايا تخطيط الطاقة ، في حين تتجه المجموعة الثانية الى تحليل مشكلات انتاج المواد الغذائية ومشكلة المواصلات .

فنموذج الطاقة يستهدف على سبيل المثال ، دراسة سياسات الأسعار وانتاج الطاقة مع التركيز على منتجات النفط . وقد قسم العالم في اطار هذا النموذج الى عشرة اقاليم في حين مثل الأفق الزمني للنموذج خمسين عاما تبدأ عام ١٩٧٥ حتى عام ٢٠٢٥ .

يحتوى النموذج على عدد من النماذج الفرعية اذ يقوم النموذج الفرعي الاقتصادي بتقدير الناتج الاقليمي الاجمالي ، في حين يقوم النموذج الفرعي للسكان بتقدير عدد السكان . بناء على هذين التقديرين يتم قياس الطلب الكلي على الطاقة . يلي ذلك توزيع الطلب الكلي على الطاقة على الأقاليم المختلفة للعالم .

وخلال هذه المرحلة من عمل النموذج فان التحكم ينتقل الى النموذج الفرعي للطاقة لاستشراق تلك القضايا المتعلقة بتوافر الطاقة كمورد اول .

وينتهي عمل النموذج بتوليد عدد من المؤشرات الاقتصادية مثل العجز في النفط العالمي ، الناتج الاقليمي الاجمالي ، تراكم رأس المال ... الخ .

ونود في هذا الصدد الاشارة الى ملاحظتين تتعلقان بهيكل النموذج . اما الملاحظة الأولى فهي اعتماد النموذج على اسلوب السيناريوهات او الحوارات البديلة . اما الملاحظة الثانية فهي نمط التجارة الخارجية في النموذج . اذ يتم ذلك عن طريق جمع كافة السلع في مجمع عالمي World Pool مع اهمال العلاقات الثنائية بين الدول او الاقاليم المختلفة .. مما يؤثر على دقة نتائج النموذج .

٣ ـ نماذج محاكاة الاقتصاد العالمي :

يمكن تصنيف هذه النماذج بوصفها نماذج محاكاة تركز على دراسة السلوك المستقبلي للنظام العالمي . ولعل السبب في معالجتها كفئة مستقلة انما يكمن في حقيقة ان مشكلات الاقتصاد العالمي تعتبر هي الكون الرئيسي في بناء هيكل هذه النماذج . اذ تسود المشكلات الاقتصادية عمليات تشغيل هذه النماذج في حين تتوارى جانبا المشكلات السياسية . وتتميز اغلب هذه النماذج بوجود عدد من النماذج الفرعية الاقليمية ترتبط ببعضها البعض عن طريق مصفوفات تدفق التجارة الخارجية . ويحتوي النموذج الفرعي لكل اقليم على جدول المستخدم المنتج الذي يربط بين هيكل الانتاج ومتجه الطلب النهائي على مستوى الاقليم .

وتحتاج هذه النوعية من النماذج الى حجم ضخم من البيانات والاحصاءات وهو مايمثل من وجهة نظرنا ، القيد الرئيسي على استخدام مثل هذه النماذج في تحليل المشكلات الدولية .

وفيما يلي نتناول بالتحليل نموذجين رئيسيين :

أ ـ نموذج مستقبل الاقتصاد العالمي [١٨] الذي تم بناؤه تحت مظلة الأمم المتحدة وأشرف على اعداد الباحث الاقتصادي المعروف فاسيلي ليونتيف .

ب ـ نموذج مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية[١٩] وهو يمثل مشروع مشترك لكل من مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية .

يهدف نموذج ليونتيف الى اظهار مجموعة من الارتباطات المتبادلة التي يمكن ان تحدث بين السياسات الاقتصادية والبيئية على أساس نمو الاقتصاد العالمي في المستقبل .

وبالتالي فقد تمت مقارنة صورة الاقتصاد العالمي السائدة سنة ١٩٧٠ بصور افتراضية اخرى (سيناريوهات) للاقتصاد العالمي لسنوات ١٩٨٠ ، ١٩٩٠ ، ٢٠٠٠ . ويتسم نموذج ليونتيف بدرجة عالية من التفصيل اذا يقسم العالم في هذا النموذج الى ١٥ إقليما ويحتوي كل اقليم على ٤٥ قطاعا يمثلون الأنشطة الاقتصادية المختلفة . وترتبط الأقاليم المختلفة ببعضها البعض من خلال آلية معقدة للارتباط Complex Linkage mechanism تشمل الصادرات والواردات لحوالي ٤٠ مجموعة سلعية ، تدفقات رأس المال والمعونات وحجم الفوائد على الديون الدولية .

أما نموذج مؤتمر التجارة والتنمية للأمم المتحدة فيحتوي على احد عشر اقليما يتم ربطها باستخدام سبع مصفوفات تعكس هيكل التجارة الدولية . كما ترتبط الأقاليم ببعضها البعض من خلال موازنات للتدفقات النقدية بحيث يصبح الهيكل النقدي الدولي متاحا لأغراض التحليل ، ويحتوي النموذج الفرعي لكل اقليم على مايلي :

أ ـ جداول المستخدم / المنتج (٨×٨ قطاعات) تربط هيكل الانتاج بمتجه الطلب النهائي .

ب ـ تركيبة التكنولوجيا كما تعبر عنها المعاملات الفنية لجدول المستخدم / المنتج ومتغيرات دالة الانتاج .

جـ ـ النموذج الفرعي لمتجه الطلب النهائي المحلي شاملا الاستهلاك الخاص والعام ، والاستثمار الصادرات ، والواردات .

د ـ النموذج الفرعي للتجارة الخارجية وموازنة الادخار والاستثمار .

وبهذه الطريقة فان النموذج يستطيع ان يتصدى لقضايا مثل :

أ ـ السياسات المتعلقة بالتكنولوجيا .

ب ـ سياسات التصنيع والتجارة الدولية .

جـ ـ بعض القضايا الأخرى مثل مشكلة الطاقة والتوازن بين الانتاج الزراعي والصناعي . . الخ .

---

(١٨) — Leontief; W, et al (1977) "The Future of The World Economy", Oxford University press, Oxford

(١٩) — Joint UNCTAD - UNIDO project (1981) "The UNITAD System" progress Report, 17 Feb.

٤ ـ نموذج باريلوتشي العالمي :(٢٠)

يتميز نموذج باريلوتشي بعدد من السمات المميزة اذا ماقورن بالنماذج السابقة . ولعل اهم هذه السمات هي الأهمية الخاصة الموجهة الى المشكلات المستقبلية لبلدان العالم الثالث . لهذا السبب يقسم النموذج العالم الى اربع مناطق جغرافية . واحدة للدول المتقدمة وثلاث للدول النامية (افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية) .

وقد اعتمد بناء النموذج على أن الهدف الرئيسي للنسق (أو النظام) الانتاجي لاي مجتمع انما يتمثل في اشباع الحاجات الانسانية مثل مستويات التغذية ، والاسكان ، التعليم ، . . . الخ . ومن هنا ينقسم النسق الانتاجي الى خمسة قطاعات :ـ انتاج الغذاء خدمات الاسكان ، التعليم ، السلع الاستهلاكية ، والسلع الرأسمالية .

ويهدف النموذج الى تحقيق التوزيع الأمثل للعمل ورأس المال بين القطاعات الانتاجية للمجتمع بقصد تعظيم المؤشرات الانسانية المتمثلة في توقع الحياة عند الولادة .

أما النتائج التي وصل اليها النموذج فيمكن تلخيصها في ان اشباع الحاجات الأساسية يمكن تحقيقه في خلال ٦٠ عاما تبدأ سنة ١٩٨٠ ، وذلك اذا قامت الدول المتقدمة بتخصيص مالا يزيد على ٢٪ من الناتج المحلي الاجمالي الى الدول النامية في أفريقيا وآسيا في حالة ما اذا ساد العلاقات الدولية نظام سياسي واقتصادي واجتماعي جديد . كذلك يصل النموذج الى أن المشكلة السكانية ليست المشكلة الملحة عالميا . ذلك أن المشكلة الأساسية انما تتمثل في قضايا توزيع الدخل وقدرة الدول النامية على خلق هياكل اقتصادية مستقلة تسمح باشباع الحاجات الأساسية للمجتمع .

٥ ـ نموذج اليونيدو للتعاون الصناعي العالمي(٢١)

يسعى هذا النموذج العالمي بدوره الى الوصول الى حل امثل لبعض المشكلات العالمية أو الأقليمية . وهو نموذج يهدف الى اختيار مجموعة من سياسات التصنيع لدول العالم في المدى الطويل . ويبين التقرير الخاص بالنموذج انه يركز على قضايا الاقتصاد العالمي ، فهو لا يهتم بقضية البيئة ، الموارد الطبيعية ، او الطاقة . وبهذا المعنى فهو نموذج اقتصادي عالمي للبحث عن الحل الامثل .

وقد تم صياغة دالة الهدف في النموذج على أساس اختيار السياسات الاقتصادية التي تسعى الى تعظيم نصيب الدول النامية من الانتاج الصناعي العالمي في عام ٢٠٠٠ .

ويمكن توصيف أسلوب عمل النموذج على النحو التالي . تبدأ عملية التقدير عن طريق استخدام نموذج للاقتصاد الوطني لتوليد متجه على المستوى الكلي بصف الأهداف المتوقعة او المستهدفة للاقتصاد في نهاية فترة التخطيط . هذه الأهداف تشمل على سبيل المثال الناتج المحلي الاجمالي ، الصادرات ، الواردات ، الاستثمار ، الى غير ذلك من

---

(٢٠) — Herrera, A. et al (1976) "Calastroph Or New Society - A Latin American Weeld Model" OHOWA, International Development Research Center

(٢١) — UNIDO (1977), "Constructing The UNIDO Weeld Industry Cooperation Model" progress Report, UnIDO, Vienna, Austria

المؤشرات الكلية . بناء على ذلك يقوم نموذج التناسق الدولي بالتنسيق بين المتجهات الكلية للدول على المستوى العالمي ، اذ يستخدم هذا النموذج أسلوب البرمجة الخطية لتعديل اي مجموعة من الأهداف في ضوء المجموعة الأخرى . وبالتالي فان ناتج هذه العملية هو مجموعة من المتجهات على المستوى القطري متسقة على المستوى العالمي او الدولي . بعد ذلك يقوم نموذج التجارة التفصيلي بقياس تدفقات التجارة بين كافة الأقطار باستخدام مصفوفة تمثل هيكل او نمط التجارة العالمية . يعود التحكم في النهاية الى النموذج الوطني (او القطري) ليقوم بدراسة الآثار المترتبة على نمط التجارة الخارجية (الصادرات والواردات السلعية) .

نموذج استراتيجية التصنيع في الوطن العربي :(٢٢)

ساعد نموذج منظمة اليونيدو الذي أشرنا اليه سابقا على أن يكون إطارا لدراسة استراتيجية التصنيع للاقطار العربية خلال الفترة ١٩٨٥ الى ٢٠٠٠ إذ استهدفت الدراسة الوصول الى مجموعة من الخطط الشاملة للتصنيع لكافة الأقطار العربية . وقد عهد مركز التنمية الصناعية للبلدان العربية الى معهد التخطيط القومي بالقيام بهذه الدراسة .

ويبين شكل رقم (٧) أن كل قطر عربي يجب أن يترجم توجهات الخطة الإنمائية إلى مجموعة مؤشرات تخطيطية (معدل الادخار ـ نسبة الواردات ـ . . . . الخ) حتى يمكن للنموذج أن يقوم بحساب متجه اقتصادي كلي يشتمل على العناصر التالية :ـ

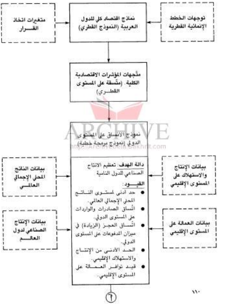
- الناتج المحلي الإجمالي
- القيمة المضافة في قطاع الصناعة
- الصادرات والواردات السلعية
- الادخار القومي
- الاستهلاك النهائي
- تكوين رأس المال الإجمالي
- الميزان التجاري
- حجم القوى العاملة

ويتم تعديل المتجهات القطرية بعد ذلك باستخدام نموذج للتناسق الدولي مشابه لذلك المستخدم في نموذج منظمة اليونيدو ، إذ يوضح الشكل رقم (٧) أن الدراسة استخدمت نموذج برمجة خطية للوصول إلى المتجهات الكلية المتسقة على المستوى الدولي . وقد تم صياغة دالة الهدف لتمثل أحد المعيارين التاليين :ـ

- تعظيم الناتج المحلي الإجمالي على المستوى العالمي .
- تعظيم الناتج الصناعي للدول النامية .
- هذا وقد استخدم النموذج العديد من القيود أو المتباينات الرياضية نذكر منها على سبيل المثال :ـ
- تحقيق حد أدنى من الإنتاج والاستهلاك لكل إقليم من أقاليم العالم .

(٢٢) — Ebhafei, A.N. (1979) " What Future Contribution Can O.R. Offer To Improve The World Understanding of Global problem" proc. of the IFORS Congress, pp. 181-212.

شكل رقم (٧) خريطة تدفق معلومات مبسطة لنموذج استراتيجية التصنيع في الوطن العربي



شكل رقم (٧) تكملــة



ـ الأخذ في الاعتبار توافر العمالة على المستوى الإقليمي .

ـ اتساق الحجم الكلي للصادرات والواردات على المستوى العالمي .

ـ اتساق العجز (الزيادة) في ميزان المدفوعات على المستوى العالمي .

أما قضايا التجارة الخارجية والصادرات القطاعية فقد عوملت معامله مختلفة في نموذج التصنيع العربي ، ذلك أن النموذج الجديد لايستخدم نمطا معياريا للتجارة كما هو الحال في نموذج اليونيدو ، بديلا عن ذلك ، فإن الصادرات الكلية في المتجه القطري يتم تقسيمها إلى مجموعات سلعية باستخدام نموذج برمجة خطية يأخذ في الاعتبار هيكل صادرات وواردات القطر من ناحية وتفضيل متخذ القرار على المستوى القطري من ناحية أخرى . ثم يقوم النموذج بعد ذلك بقياس مصفوفة تدفق الصادرات والواردات السلعية بين الأقطار العربية وباقي دول العالم باستخدام نموذج برمجة خطية متعدد المراحل .

وفي خطوة أخيرة تستخدم جداول المدخلات والمخرجات (جداول المستخدم/ المنتج) لكل قطر عربي لحساب مستويات الإنتاج القطاعي اللازمة للحفاظ على مستوى معين من الطلب المحلي والخارجي . وقد يواجه النموذج في هذه الحالة أكثر من بديل لحجم الإنتاج القطاعي . لذلك يتم توصيف دالة هدف خطية ، ويستخدم نموذج برمجة خطية لإيجاد الحل الأمثل الذي يأخذ في الاعتبار دالة الهدف المختارة ومجموعة القيود التي تمثل جداول المستخدم/ المنتج لكل قطر عربي .

وقد واجه النموذج صعوبات تتعلق بعدم توافر البيانات أو عدم دقتها . إذ يحتاج النموذج إلى جداول المستخدم/ المنتج لواحد وعشرين قطرا عربيا وهو أمر على درجة كبيرة من الصعوبة ذلك أنه عند إعداد النموذج لم توجد جداول المستخدم/ المنتج إلا لسبعة أقطار عربية . وقد تم بناء هذه الجداول في تواريخ مختلفة يعود بعضها إلى فترة الستينيات .

ثامنا : الخلاصة

استهدفت هذه الدراسة تعريف مجتمع الباحثين والمثقفين بدور النمذجة والمحاكاة في الدراسات المستقبلية واتخاذ القرارات على المستوى القطري والاقليمي والدولي . إذ تمثل النماذج الرياضية وأساليب المحاكاة إحدى الأدوات التحليلية التجريبية الهامة التي تسمح باختبار بدائل السياسات والحوارات المستقبلية مما يساعد على ترشيد عملية اتخاذ القرار على المستويين الجزئي والكلي .

بناء على ذلك توجه الجهد نحو توصيف نوعيات نماذج التنبؤ بالسلوك المستقبلي واختيار مجموعة من التطبيقات على مستويات مختلفة من التحليل تبدأ بالنماذج التي تسعى إلى دراسة المسار المستقبلي للوحدات الإنتاجية والنظام الاقتصادي الكلي وتنتهي بمجموعة النماذج التي تقوم بالتصدي للمشاكل ذات الطابع الإقليمي أو الدولي .

والنماذج الرياضية مهما تعددت نوعياتها يجب النظر إليها كجزء من العملية البحثية الكلية ، وبالتالي فإنها توظف وتطوع لتحقيق الهدف من الدراسة . اذ يتوقف مدى الاستفادة منها على وعي الباحث بإمكاناتها وقيود استخدامها ومدى تمثيلها للواقع . ذلك أن النماذج هي تجريد للواقع أو صورة تقريبية للنظام محل الدراسة ، وبالتالي فإن قدرة النماذج على تمثيل الواقع إنما تعتمد على جودة الصياغة الرياضية ومدى تعقيد المشكلة ودرجة دقه واتساق البيانات المستخدمة في بنائها . وعلى الرغم من أوجه القصور في أسلوب بناء النماذج فإنها تمثل بالقطع أداه تجريبية مرنة وفعالة يصعب على الباحث العلمي في عصرنا الحالي التغاضي عن دورها الهام في مختلف مجالات العلم والمعرفة .

مراجع عربية :

١ ـ محمد خورشيد (١٩٨٦) ، الحسابات القومية ومصفوفات التوازن الاجتماعي ، المال والصناعة ، العدد السابع بنك الكويت الصناعي ، الكويت .

٢ ـ مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٨٢) ، استشراف مستقبل الوطن العربي ، مقترح بحثي ، بيروت .

المراجع الأجنبية

1— Blitzer R.B. et al (1975) ''Ecomomywide Models and Development planning'' Oxford University press, Oxford,.

2— buffa, E.S. and J.S. Dyer (1978) ''Essentials of Management sciences/ Operations research'' john Wiley & sons, New York.

3— Derivs, K et al (1982) ''General Equilibrium models for development policy'' Cambridge press, Cambridge

4— Elshafei, A.N (1979) ''What Future Contribution Can O.R Offer to Improve The World Understanding of Global problems'' proc. of the IFORS Congress, pp. 181-212.

5— Forrester, J.W (1973) ''World Dynamics'' Cambridge Mass., Wright - Allen press.

6— Gordon. G (1978) ''System Simulation'' printice Hall Inc., New Jersy.

7— Herrera. A; et al (1976) ''Catastrophe or New Society A latin American World Model'' Ottowa, International Development Research Centre.

8— Khorshid. M (1985) ''A Conceptual Review And Analysis of Global Models'' The Egyption Computer Journal, Vol. 13, November.

9— Khorshid, M. (1987) ''A Corporate Simulation Model For Policy Experiments'' proc. of the summer comference on Computer Simulation, 27 - 29 July, Montrial, Canada.

10— Khorshid, M. and A.F. Abdel Khalik (1985) ''ACorporate simulation Model For Fvaluationg the performance of Industrial Projects'' proc. of the 20th Annual Conference on Statistic, Computer Sciences, and Opertions Research, Vol. 4, cairo, Egypt.

11— Khorshid, M. (1985), ''The Computerized TV Approach To Economic Modelling'' IBK paper No. 18, Kuwait.

12— Khorshid. M; et al (1987) ''Social Accounting Matrix For Kuwait - Structure, Documentation, and Analysis'' Tehnical Report, Kuwait Institute for Scientific Research. Kuwait.

13— Khorshid. M, et, al (1987) ''Description and Analysis of the Kuwait Economy - The Multiplier Model'' Technical Report, Kuwait Instiute for Scientific research, Kuwait.

14— Khorshid. M (1985) ''Future prospects of seaborne Trade And Fleet Development In The ECWA Region'' Unpublished memo, UNECWA, Bagdad, Iraq.

15— Leontief. A; et al (1977) ''the future of the world economy'' Oxford University press, Oxford:

16— Luenferger; D. G (1973) ''Introduction To Linear and Non linear programming'' Addison — wesley, Massach usettes.

17— Makridakis. S; et al (1983) "Forecasting Methods And Applications" John Wiley and Sons, New York.

18— meadows. D. L; et al (1974) "Dynamics of Growth In A finite World", Cambridge Mass., wright Allen Press.

19— Mesarovic M. and E. Pestel (1974) "Multilevel Computer Model of World Development Systems" proc. of IIASA Symp., LAxenburg, Austria.

20— Naylor. T. H. (1979) "Corporate planning Models" Addison Wesley Publishing Company.

21— Pyatt g; et al (1985) "Social Accounting Matrices - A basis For Planning" the World Bank, Washington D. C, U.S.A.

22— Pyatt. G; and J. Round (1979) "Accounting and fixed price Multipliers in a Social Accounting Matrix Framework", The Economic Journal, vol. 89.

23— Tavlor. L (1979) "Macro - Models For Developing Countries" Mcgraw Hill, New York.

24— UNICTAD - UNIDO Project (1981) "The UNITAD System" Progress Report, 17-Feb.

25— UNIDO (1977) "Constructing The UNIDO World Industry Coopertion Model" Progress Report, UNIDO, Vienna, Austria.

26— United Nations (1968) "A System of National Accounts" New York, U.S.A.

***

الشخصية المسرحية

سامية أسعد

الشخصية عنصر أساسي من العناصر المكونة للمسرحية . فالمسرحية تعرّف بأنها حدث يتم بواسطة الشخصيات أو الممثلين ، في زمان ومكان محدد ، أمام جمهور من المتفرجين . والمسرح يعرّف بأنه علاقة ثلاثية بين الشخصية ، والممثل ، والمتفرج . وفي الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، أعيد النظر في الشخصية ، روائية كانت أم مسرحية ، ضمن ما أعيد النظر فيه من قيم أدبية موروثة . ودخلت الشخصية فترة وصفت بأنها « أزمة » ، خضعت خلالها ، بعد أن كانت مفهوما راسخا ، لتحول جذري غيّر ملامحها ، وجعلها تختلف تماما عما كانت عليه ، بل هدد وجودها ذاته . وما هذه إلا بعض الأسباب التي جعلتنا نختار الشخصية المسرحية موضوعا لهذه الدراسة ، بالإضافة إلى أن هذا المفهوم الواضح يثير في الواقع أكبر قدر ممكن من الصعوبات النظرية .

تفتقر كلمة شخصية Personnage ، بداية ، إلى معنى محدد . فإذا رجعنا إلى القواميس العادية ، وجدنا أنها أطلقت أصلا على الشخص المرموق رفيع الشأن ، ثم على « الشخصية الخيالية ، رجلا كان أم امرأة ، التي تؤدي دورا في عمل درامي » .

ويقول ب . بافيس P.Pavis إن الكلمة الفرنسية Personnage الدالة على الشخصية المسرحية مشتقة من الكلمة اللاتينية Persona التي تعني القناع . وهذه الكلمة ترجمة للكلمة اليونانية التي تعني الدور Role ، ويقصد بها الشخصية الدرامية . والاستخدام النحوي لكلمة Persono للدلالة على المتكلم والمخاطب والغائب ، هو الذي أعطاها معنى الكائن الحي أو الإنسان .(١)

(١) انظر Dictionnaire du Theâtre., Paris, Iditons Sociales 1930, Page 288

ويعرف د . ابراهيم حمادة الشخصية الدرامية Dramatis Personae ، أو كما يسميها الانجليز Character بقوله : « هو الواحد من الناس الذين يؤدون الأحداث الدرامية في المسرحية المكتوبة أو على المرسح في صورة الممثلين . وكما قد تكون هناك شخصية معنوية تتحرك مع الأحداث ، ولا تظهر فوق خشبة التمثيل ، فقد يكون هناك أيضا رمز مجسد يلعب دورا في القصة ، كمنزل أو بستان أو نحوهما » . [٢]

الشخصية المسرحية إذن كائن بشري يشار إليه في النص بعلامات لغوية ، ويتقمصه ممثل من لحم ودم على خشبة المسرح ، من خلال علامات غير لغوية تبنى فوق العلامات السابقة . حتى في النص المكتوب الذي لم يعرض ، تظل الشخصية كائنا حيا ، ما دام القارىء يعطيها هذا الشكل أو ذاك على مسرح خياله[٣] . لكن ، قد يتسع مفهوم الشخصية بحيث يتجاوز حدود الكائن البشري ، ويشمل بعض الأمور أو الأفكار أو الأشياء المجردة : مدينة بأكملها ، صورة ، سيف الخ . . .

وتعرف الشخصية المسرحية أيضا بمقارنتها بمفهومين كثيرا ما خلط النقاد بينها وبينها ، ونقصد بهما الدور ، والشخصية الحقيقية Personne . كثيرا ما يدور الحديث عن الفتى الأول ، أو الخادم أو غيرهما من الأدوار التي توصف بأنها « كودية » Code ، لأن سماتها المميزة ترتبط ببعض التقاليد المسرحية والتاريخية الراسخة . وفي هذا السياق ، يجعل الكود Code من الشخصية التي تدخل إلى خشبة المسرح وفيها Figure مسرحيا معروفا ، أي سبق أن صعد إلى تلك الخشبة . ولعل أفضل مثال لهذا الدور الكودي هو الأقنعة التي كان يرتديها ممثلو « الكوميديا دي لارتي » ، وكانت تلخص السمات الأساسية لشخصية أصحابها . مثال ذلك قناع أرلكان ، الخادم النهم الذي يثير الضحك ، والدكتور ، الزوج المخدوع دائما ، وبييروه ، الخ . . ومن هذا المنطلق ، يعتبر الاسم أيضا دليلا كوديا ، شأنه شأن القناع تماما . فمجرد النطق باسم سجاناريل ، عند الحديث عن مسرحية موليير « دون جوان » ، يعيد إلى الذهن الدور الذي سبق أن قام به في عديد من المسرحيات الفرنسية الأخرى . وكذلك الأمر بالنسبة لسيده دون جوان ، الذي يجعلنا نرجع تلقائيا إلى أصله الأسباني ، والكاتب ت . دي موليا الذي سبق أن رسم شخصيته من زاوية معينة هي غواية النساء . وغالبا ما توجد الوجوه المسرحية في الأشكال المسرحية الثابتة ، كالميلودراما أو الفودفيل . وينسحب هذا أيضا على المسرحيات التي تستمد شخصياتها من الأسطورة أو التاريخ . فهي تعود بنا إلى معرفة سابقة ، مما يجعل الشخصيات الشهيرة : نيرون ، وأوديب ، وكاليجولا ، الخ . . . تبدو وكأنها « ممسرحة » سلفا . ويزداد مفهوم الدور تعقيدا إذا انتقل الى مستوى آخر . فالشخصية المسرحية قد تؤدي دورا أو عدة أدوار في المسرحية الواحدة . على سبيل المثال ، يمكن أن نقول إن دون جوان ، في مسرحية موليير التي تحمل اسمه ، يقوم بأداء عدة أدوار : دور الابن العاق ، والزوج الخائن ، وزير النساء ، والمنافق ، أي إنه « يمسرح » حياته . من هذا المنظور أيضا ، يمكن أن نقول إن دون جوان يتولى

(٢) انظر معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، القاهرة ، دار الشعب ١٩٧١ ، صفحة ١٨٥ .

(٣) لاينفصل الممثل عن الشخصية أبدا . حتى على مستوى القراءة ، تظل الشخصية المسرحية ممثلا يمكن أن يحتل خشبة المسرح في أي لحظة . وعندما يكتب الكاتب ، يكون نصب عينيه دائما تصويره على خشبة المسرح . وتجد حالة قصوى ، إذا سرنا في هذا الاتجاه ، حالة الشخصية التي يرسمها الكاتب لكي يؤديها ممثل معين . يتمثل جوهر الممثل إذن في تصوير إنسان ما ، وإعطاء الشخصية معنى ما .

إخراج حياته الخاصة وحياة من يحيطون به ، داخل مسرحية موليير ، عندما يجعل من هؤلاء مجرد أدوار كودية : الزوجة المهجورة ، الأب المهان ، الخ . . .

من ناحية أخرى ، كثيرا ما يميل النقاد ، بل والناس العاديون ، إلى الخلط بين الشخصية المسرحية والشخصية الحقيقية[٤] ، لأن الشخصية المسرحية توضع أحيانا في مواقف كتلك التي تعيشها الشخصية الحقيقية في الحياة . ويزداد هذا الخلط نتيجة لتقمص الممثل للشخصية ، مما يجعل المتفرج ينظر الى الكاتب المسرحي على أنه خالق لشخصيات يمكن أن تكون حقيقية . أكثر من هذا ، وجدت بعض العبارات المسرحية الأصل ، مثل « الشخصية المولييرية » (نسبة إلى موليير) التي استخدمت كوسيلة لبيان السمات الخاصة ببعض الشخصيات الحقيقية . ودخل اسم كل من طرطوف وهرباجون ، وهما من أسماء العلم ، اللغة الفرنسية ، حيث أصبحا اسمين يدلان على الشخص المنافق المخادع أو البخيل . وإزاء هذا الخلط ، تقول إن الشخصية المسرحية ليست سوى شخصية من « ورق » على حد قول آن أوبرسفيلد[*] ، أي شخصية خيالية ، وهمية ، لا يتجاوز وجودها ، من الناحية الموضوعية ، وجود العناصر المكونة لها : الحركة ، والكلمة ، وتعبيرات الوجه ، الخ . . أما ماضيها ومستقبلها ، فهما الماضي والمستقبل اللذي يعطيها الكاتب المسرحي لها . ويساعد على هذا الخلط ، كما أسلفنا ، خداع المتفرج بحديث الشخصية المسرحية ، والواقع المتمثل في جسم الممثل ، مما يجعله يسقط عليها تجربته ، وأحداسه الواقع ، ومعرفته بذاته وبالآخرين . وكان المسرح التقليدي يشجع مثل هذا الخلط ، لأنه كان يعطي الشخصية سمات مميزة من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، ويجعل لها ماضيا محددا معروفا ، يذكره في مقدمة العمل المسرحي ، بالإضافة إلى حرصه على أن تكون قابلة للتصديق ، من الناحية النفسية ، حتى لو كانت ثانوية . . . لكن الأمور تغيرت الآن ، وأصبح هذا الخلط بين الشخصية ، والدور ، والشخصية الحقيقية ، غير وارد ، نتيجة لما طرأ على الكتابة المسرحية ذاتها والتحليل النقدي من تطور وتغيير .

وأخيرا ، وليس آخرا ، تعرّف الشخصية المسرحية أيضا بمقارنتها بالشخصية الروائية ، لا سيما أن المسرح اعتبر لفترة طويلة فرعا من فروع الأدب ، ولم ينظر إليه كفن من فنون العرض إلا مؤخرا . وتظل الشخصية المسرحية قريبة جدا من الشخصية الروائية ، طالما بقيت في النص ، ولم تتجاوزه إلى العرض . وفي الرواية يوجد الراوي دائما وراء شخصياته ، فيما عدا السيرة الذاتية التي يستخدم فيها ضمير المتكلم : أنا . أما في المسرح ، فيتوارى الكاتب دائما وراء شخصياته التي تقول دائما « أنا » ، ولا يظهر أبدا ، اللهم إلا من خلال ما يرد على لسانها من أقوال ، وما تعرضه من أفكار . ويعني هذا أنه ينقل اليها سلطة الحديث ، ويفوض لها أمر ذلك . ويقتصر وجود الكاتب في النص المسرحي على ذلك النص الذي وصفه البعض بأنه ثانوي بالنسبة للنص الرئيسي الذي تنطق به الشخصيات ، ونقصد به الإرشادات المسرحية الموجهة في المقام الأول إلى المخرج . وجدير بالذكر أن الشخصية المسرحية تتحمل دائما مسئولية أقوالها ، ما دامت تقول « أنا » . وهناك

(٤) انظر كتاب M. Zeraffa عن الشخصية والشخصية الروائية .
personne et personnage, Paris, Editions Klincksieck 1969

(*) انظر
A. Ubersfeld, Lire le théâtre, Paris, editions sociales, 1978

فرق جوهري آخر بين الشخصيتين : في الرواية ، يجد الكاتب متسعا من الزمان والمكان يمكنه من رسم الشخصية ، وتحليلها من كافة الزوايا ، والرجوع إلى ماضيها كلما شاء ، وتحليل مشاعرها بدقة متناهية ، إذا أراد ، الخ . . . ومعنى هذا أنه يتمتع بحرية مطلقة . لكن الكاتب المسرحي محدود بزمان معين ومكان معين : زمان العرض المفترض ومكانه ، وزمان الحدث ومكانه . ولما كانت موضوع المسرحية ، يضطر الكاتب إلى التركيز على أهم العناصر ، عند المعالجة . ومن ثم ، يوظف الشخصية مسرحيا ، أي يركز على عناصرها التي تخدم الحدث فقط . على سبيل المثال ، في مأساة راسين « فيدرا » ، يصور لنا الكاتب أساسا مأساة المرأة العاشقة التي يدفعها الهوى إلى الهلاك . لذلك ، تتوارى فيدرا الأم ، وفيدرا الزوجة ، وفيدرا الملكة ، وتحتل فيدرا المُحِبّة مكان الصدارة في المأساة . واذا كانت جوانب الشخصية هذه قد بقيت في الظلام ، فذلك لأنها لا تخدم الحدث الذي جعله الكاتب محورا للمسرحية .

●●●

وجرت العادة عند النقاد على تقسيم الشخصيات المسرحية وتصنيفها ، استنادا إلى بعض المعايير المتعارف عليها . ومن الناحية الدرامية ، تقسم الشخصيات الى :

١ - شخصية رئيسية Protagoniste ، ويصفها د . إبراهيم حمادة قائلا إنها « الممثل الأول الذي كان يلعب الدور القيادي في الدراما الإغريقية ، ثم يلعب أدوارا أخرى في نفس المسرحية . أما الآن ، فهو الشخصية التي تلعب الدور الأساسي في المسرحية كنص مكتوب »(٦) .

٢ - شخصية ثانوية ، وتأتي في المرتبة الثانية ، وتتفاوت أهميتها من مسرحية إلى أخرى . في المسرح الكلاسيكي الفرنسي ، لا يلعب الخدم - وهم شخصيات ثانوية - دورا هاما ، عامة ، سواء في المأساة أو في الملهاة . فهم يستمعون إلى ما يقوله السادة ، ولا يعلقون عليه ، ويكتفون بتلقي الأوامر ، والإعلان عن دخول الشخصيات وخروجها . لكن ، توجد في هذا المسرح أيضا ، شخصيات مثل أونون Oenone وتعادل أهمية دور البطلة فيدرا . فأنون هي التي تحرك فيدرا وكأنها دمية ، وهي التي تدفعها إلى البوح بسر حبها لابن زوجها ، وإلى الكيد له وإلقائه إلى الهلاك ، الخ . . . كذلك ، يتجاوز الخدم عند موليير دورهم المحدود ، ويرقى سجاناريل في « دون جوان » إلى مستوى البطل ، ويقف على قدم المساواة مع سيده النبيل .

٣ - الشخصية التي نسميها اليوم كومبارس أو شخصية عرضية . مثال ذلك ، مبعوث الأمير في مسرحية موليير « طرطوف » . فهو لا يظهر إلا في المشهد الأخير من المسرحية ، عندما يأتي ليعلن لأورجون وأسرته أن الأمير قد عفا عنه ، وأنه جاء ليلقي القبض على طرطوف المنافق المحتال . وتظل الشخصية المسرحية قريبة جدا من الشخصية الروائية ، طالما بقيت في النص ، ولم تتجاوزه إلى العرض . وفي الرواية ، يوجد الراوي دائما وراء شخصياته ، فيما عدا السيرة الذاتية التي يتكلم فيها بضمير « الأنا » .

٤ - الشخصية الصامتة . ويدل اسمها ذاته على أنها لا تقول شيئا ، وإنما تعد جزءا من الديكور(٧) .

---

(٦) معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، صفحة ١٨٦ .

(٧) هناك تقسيم آخر يقترحه د . إبراهيم حمادة . فهو يرى أن الشخصيات نوعان : « شخصيات مبسطة وأخرى كروية . الشخصية الأولى لها وجه واحد ، كالشخصية الخلاق والثرثار ، أو الفتاة الساذجة . وسلوك مثل تلك الشخصية يمكن التنبؤ به إلى حد بعيد . أما الشخصية الثانية فهي على عكس ذلك : إنها متعددة المظاهر ، وتدور كما لو أنها كروية ، وفي تلك الحالة ، فسلوكها غير متوقع . (المرجع السابق ، صفحة ١٨٤) .

ويمكن ترتيب الشخصيات الدرامية وفقا لمعيار اصطلاحي قديم : الحضور والغياب . فلقد جرى العرف المسرحي على اعتبار الشخصية التي تظهر كثيرا على المسرح أهم من مثيلاتها التي تظهر أقل منها . ويمكن قياس هذه الأهمية بإحصاء عدد المشاهد التي تظهر فيها بالنسبة لمجمل مشاهد المسرحية ، أو كمية أقوالها ، أو عدد السطور التي تشغلها هذه الأقوال . لكن . . . توجد حالات استثنائية تتعارض مع هذا المعيار ، لعل أهمها مسرحية موليير « طرطوف » . ففي هذه المسرحية ، لا تظهر الشخصية الرئيسية ، أي طرطوف ، إلا في الفصل الثالث . وظهورها متأخرة يتعارض مع التقاليد المسرحية التي كانت سائدة آنذاك . لكن الحديث في الفصلين الأول والثاني كان محوره دائما طرطوف . وبالتالي ، أفاد موليير من الأثر المسرحي الأكيد الذي يحدثه دخول طرطوف متأخرا . فالمتفرج يشتاق إلى رؤية هذه الشخصية التي طال الحديث عنها ، من وجهتي نظر مختلفتين تماما . وإذا اتجهنا الى المسرح المعاصر ، وجدنا مثالا صارخا لغياب الشخصية المحورية ، وذلك في مسرحية بيكيت « في انتظار جودو » . فجودو لا يظهر على خشبة المسرح ، في حين يعتبر الدافع الأساسي لوجود المسرحية . والمسرحية مادتها الانتظار الذي لن ينتهي الا بمجيء جودو . وطالما لم يأت ، يمكن أن تعود المسرحية إلى نقطة البداية ، وأن يتكرر الانتظار إلى مالا نهاية . معيار آخر : ظهور الشخصية بمفردها أو ضمن مجموعة ، أو مع نفس الشخصية دائما ، وارتباط الشخصية بالمكان ، الخ . . . . ومما لا شك فيه أن أهمية الشخصية من الناحية الدرامية تتوقف أولا وأخيرا على وظيفتها ، وهي أهم المعايير بلا جدال .

وأيا كان المعيار ، تعرف الشخصية دائما باختلافها . وهنا يكمن لب القضية . إن ما يميز « أ » عن « ب » هو مجموعة من أوجه الشبه والاختلاف التي يتحدد موقعها بالنسبة لعدد من المحاور السيمانطيقية المميزة التي تتسم بالتكرار . ويستند الناقد فيليب هامون Ph. Hamon إلى عدد من الثوابت الاختلافية في تعريفه للبطل . فهو يعطيه ١ ـ صفات مختلفة ـ « تستخدم الشخصية كدعامة لعدد من الصفات التي لا تتسم بها الشخصيات الأخرى أو تتسم بها ، لكن بقدر أقل »[٨] ، ٢ ـ وتوزيع مختلف ، ٣ ـ واستقلال مختلف ـ في حين تظهر بعض الشخصيات دائما بصحبة شخصية أخرى أو عدة شخصيات ، يظهر البطل وحده ، أو مع شخصية أخرى ، ٤ ـ ووظيفة مختلفة عن وظيفة سائر الشخصيات ، وتتحدد بمادة معينة .

ونشير أيضا إلى طريقة يمكن من خلالها تصنيف شخصيات المسرحية عامة ، قبل التعمق في دراستها . فإذا نظرنا إلى قائمة الشخصيات التي تسبق النص ذاته ، وجدنا أنها تتضمن بعض السمات المشتركة أو المختلفة . وتختلف هذه السمات وهذه القوائم باختلاف المسرحيات ، بطبيعة الحال . لكن ، يمكن من خلالها تجميع الشخصيات حول بعض المحاور التي تكاد تكون ثابتة : النوع ، السن ، المهنة ، الوضع الاجتماعي الخ . . . على سبيل المثال ، إذا نظرنا إلى قائمة شخصيات « زواج فيجارو » ، وجدنا أنها تتضمن أساسا : رجالا ونساء ، وسادة ، وخدما . ويتضح بالفعل ، عند قراءة النص ، أن الصراع يدور بين هذه المجموعات المتعارضة ، وأن قائمة الأسماء أعلنت عنه منذ البداية .

●●●

(٨) Ph. Hamon, Pour un statut semiologique du personnage, in Litterature, no 6, mai 1972, p.90

خضعت الشخصية المسرحية لتطورات عدة خلال تاريخها . ولن نسترجع هذا التاريخ بطبيعة الحال ، لكن ، لا بد من التوقف عند بعض المراحل الرئيسية التي تعد علامات على طريق تطور هذه الشخصية . وهذا « الفلاش باك » أمر لا بد منه لفهم النقد الحديث وتناوله هذا العنصر المسرحي الهام .

أصبح للشخصية المسرحية ، منذ عام ١٧٦٠ ، مجموعة من السمات الخاصة التي تحدد ، منذ البداية ، انتماءها إلى واقع اجتماعي وتاريخي معين ، كما تحدد مكانها كفرد في المجتمع . وأصبح من الممكن تحديد حالتها الاجتماعية ، وماضيها ، ومهنتها ، وسيرتها الذاتية ، وشكلها ، وزيها ، الخ . . . . وعندما عرّف ديدرو Diderot « الدراما الجادة » بأنها دراما لها علاقة بالحياة اليومية التي يحياها كل منا ، اقترح تصوير بعض الوجوه المعاصرة التي تواجه نفس المشاكل التي يواجهها المتفرجون . وأصبح المسرح بالتالي مرآة يرى فيها المتفرج شبيهه ويتعرف عليه : « لم تعد المحاكاة وسيلة للتحرير ، أو النظر إلى العالم بعين ناقدة ، بل وسيلة لإثارة اهتمام المتفرج ، والتقرب إليه ، وتدعيم رأيه في أيديولوجيا مجموعته الاجتماعية وأخلاقياتها . ويتمثل مفتاح هذا الاهتمام في حمل المتفرج على تطبيق ما يراه على خشبة المسرح على نفسه مباشرة »[٩] . والإيهام المسرحي هو السبيل إلى الوصول الى هذه الحقيقة . ومن هنا ، جاءت نظرية الحائط الرابع التي وضعها أنطوان Antoine . وعندما دخل المسرح عهده البورجوازي ، أصبح ميالا إلى إخفاء طبيعته المسرحية ، وأصبحت الشخصية فيه رمزا للبراءة والشرعية ، وأصبح المجتمع يمارس سلطته من خلالها ، ويقرر الصحيح وغير الصحيح وكان الجمهور البورجوازي يطلب ، من جانبه ، شخصيات تقدم صورة مثالية له ، كما يرى نفسه في عالم يسوده النظام . وهكذا تولت الشخصية المسرحية في القرن الثامن عشر ، عملية الدفاع عن نمط الحياة البورجوازي والأخلاقيات البورجوازية .

وفي القرن التاسع عشر ، لم تعد الشخصية مجرد انعكاس لأغلب المتفرجين ، وناطق باسمهم ، بل دخلت ضمن مجموعة من الشخصيات النمطية التي يفرزها المجتمع ، ويطلب تصويرها ، ويغيرها من جيل الى جيل . فمع عودة الملكية إلى فرنسا ، بدأت تتحدد ملامح الشخصية البورجوازية التي رسمتها الدراما الجادة في القرن الثامن عشر - وأصبح من المستحيل تخيل شخصية تفتقر إلى وجه ، وسيرة ذاتية ، ووضع اجتماعي ، ويشن وسمات محددة ، وتنتمي إلى قطاع اجتماعي معين تشير إليه مهنتها وثروتها . وهكذا انتمت الشخصية المسرحية إلى حياة الجماعة اليومية . ووجدت على خشبة المسرح الفرنسي ، بين ١٨٣٠ و ١٨٧٠ ، كل الحرف ، وكل الحالات الاجتماعية ، وكل الأوضاع البورجوازية ، الخ . . . . واتخذت الشخصية اسما يدل على وظيفتها ، وانتمائها الاجتماعي والجغرافي . وأشارت قائمة الشخصيات أو أشار النص إلى سنها . وأصبح لها لغة ، وزيّ ، وأكسسوار خاص بها . وكثرت المعلومات عن الزمان والمكان الذي تظهر فيه ، وتحدد هذا الظهور بالسنة ، بل باليوم . « غادة الكاميليا » مثلا تبدأ في صباح العاشرة في يوم من أيام عام ١٨٤٨ . والأنشطة اليومية التي تمارسها الشخصية جعلتها قريبة من الجمهور . باختصار ، استخدمت كافة الوسائل للتعبير عن انتماء الشخصية البورجوازية إلى الواقع ، ووصفت الشخصية بأنها صورة فرد نمطي .

R. Abirached, la crise du personnage dans le théâtre moderne, Paris, grasset, 1978, P. 107.

ومع زولا ، ازدادت الشخصية اقترابا من الواقع . فلقد رأى أن على المسرح الحديث أن يبني شخصيات حية ، مع اعترافه بثقل الحتمية التي تحكم مصير الإنسان . وقال إنه يجب أن ننظر إلى الكتابة الدرامية في علاقتها بالطابع المادي لخشبة المسرح . "فالديكور يلعب في العرض دور الوصف في الرواية . ومن ثم يصبح تعاون المخرج مع الكاتب أمرا لا بد منه . وأدخل أنطوان إلى المسرح البورجوازي إصلاحا حاسما ، عندما جعل منه جزءا من العالم المعاصر . وفي نفس اللحظة ، كان ستانسلافسكي يقوم بتجربة مماثلة في موسكو . وطرح كل منهما بطريقته الخاصة بعض الأسئلة الخاصة بالشخصية ، وأوجد علاقة وثيقة بينها وبين المكان الذي تسكنه ، كما يحدث في الواقع . والنتيجة : يجب إخفاء الطابع المسرحي للمكان ، ما أمكن ذلك . وسعى الكاتبان إلى تقديم أكبر قدر ممكن من الواقع على المسرح . وتحول أداء الممثلين نتيجة للإصلاح الذي أدخله انطوان . فلقد دعا الممثل إلى أن يكون الشخصية ، وأن يمتلك حياتها بارتدائه زيّها . وما دام للشخصية وجه محدد ، يتحتم على الممثل أن يعطيها جسده ويمتلك حركاتها . أما تفاصيل الأداء ، فتؤخذ عن ملاحظة الواقع مباشرة . وعلى الممثل أن ينسى جمهور الصالة ، ويتصرف وكأنه في مكان مغلق . باختصار ، حاول المسرح الطبيعي أن يقيم توافقا تاما بين الواقع وتصويره .

ورأى الكتّاب الرمزيون في الشخصية كائنا ينتمي الى عالم الحلم ، ويفتقر إلى خواص بعينها . فأعادوا إليها نقاءها كاملا . وأرادوا حمايتها من الممثل ، فطالبوا بعدم احتلالها خشبة المسرح ، واقتصار دورها على الكلمة . وعمدوا إلى إزالة كل ما يمكن أن يربطها بالعالم المادي والتاريخ . فأصبحت بالتالي روحا تحررت من كل ما يعطيها سمة فردية ويخضعها للحظة الآنية : الطباع ، والحالة الاجتماعية والجسمانية والمهنة ، والانتماء إلى زمان ومكان معين . وما دامت كل آثار الواقع قد أزيلت ، لم يبق منها إلا كائن منسوج من الكلمات ، يخوض بعض التجارب الإنسانية . على سبيل المثال ، تدور أحداث « بيلياس ومليزاند » Pelleas et Melisande في إطار طبيعي يصاحب الشخصيات ويعد انعكاسا لها ، إلا أنه غير محدد في المكان . وزمان الأحداث غير معروف أيضا . والقصة ذاتها بسيطة كالحواديت . ويحيط جو من الصمت بالشخصيات التي تتكلم لغة تجريدية موحدة . ويوجد حولها أقل قدر ممكن من الاكسسوار ، والأشياء المحسوسة ، أو أي شيء يشير إلى الواقع اليومي .

وطرأ أول تغيير جذري على الشخصية عندما كتب ألفريد جاري A. Jarry مسرحيته « أوبو ـ ملكا » ، التي عالج فيها الشخصية على أنها قناع مستقل قائم بذاته ، وجردها من كافة السمات الفردية ، وأجبرها على اتخاذ شكل شخصية أخرى ، وجسمها ، وصوتها . وكان السبيل الوحيد إلى ذلك استخدام الممثل كدمية يفرض عليها سلوك مسرحي يتفق مع الصورة التي يراد تقديمها . لذا ، كان لا بد من إلباسها قناعا يتمثل في زي خاص ، وصوت خاص ، وإتيانها حركات تفهم عالميا . وهذا الزي لا يشير إلى زمان أو مكان بعينه ، والديكور التجريدي لا يحاكي الطبيعة وينفل عنها . فلقد رأى جاري أن الشخصية يجب أن تكون « تجريدا يسير على قدمين » وعندما حذف الجهاز المسرحي الذي يحيط بها عادة ، جعل المعطيات المكونة لها تقتصر على ما هو جوهري فقط . وشخصيات جاري التي تخلصت من كافة أنواع الاكسسوار النفسي ، والتاريخي ، والاجتماعي ، تنشأ عن تعرية الدوافع ، والمشاعر ،

والغرائز ، التي يعيد الكاتب تكوينها وفقا لأسلوب جديد ومنطق جديد أيضا . ولا نعرف من أين أتت هذه الشخصيات ، واسمها غير مؤكد ، حتى إذا كان تاريخيا ، فهو خال من المعنى . ويعني كل هذا أن الكاتب أفرغ الشخصية من كافة عناصرها الشخصية . كما أنه لا يشير إلى مشاعرها أو حالتها النفسية أو يتناولها بالتحليل . فأوبو يخلق قصته بنفسه ، ويجر وراءه دمى تشبهه لاماضي لها ولا مستقبل ، وتحررت تماما من الزمان والمكان ، وقطعت كل صلة لها بالواقع ، ولكي يؤكد جاري استقلال أوبو التام عن الواقع ، جعل له أدوات خاصة به : خُطاف النقود ، والمكنسة ، وآلة نزع المخ ، الخ . . وإذا أراد الحديث مع ضميره ، حمله معه في حقيبته !!! وهكذا وجه جاري إلى الشخصية أول ضربة حقيقية ، بعد أن ظلت ثابتة على مدى قرون عدة . وأفعال شخصيات جاري تنبع من الحاجات الأولية للإنسان ، ويبلغ الكاتب بهذه الحاجات أقصى حد من الفظاظة : الجوع ، والرغبة ، والخوف ، والنوم ، وغريزة البقاء ، الخ . وإذ يعرض أوبو غرائزه ، نعجز عن مقارنته بنظير له في الحياة اليومية أو الحكم عليه من خلال قواعد الأخلاق . وهكذا نرى أن المحاكاة ، من وجهة نظر جاري ، تقيم العلاقة بين المسرح والعالم على أساس من التهكم .

ووجهت ضربة ثانية إلى الشخصية عندما قدم أ . آرتو A. Artaud نظريته عن المسرح في كتابه « المسرح وقرينه »[١٠] ، ويتضح من عنوان الكتاب أن آرتو يعتمد على فكرة الشيء والشيء الآخر الذي يجمع بينهما القرين ، ويزيل الفرق بين الأصل والصورة المأخوذة عنه . والقرين في المسرح ، كما يراه ، هو قوى الحياة ، والقوى التي تتكون منها الأساطير . وهو أيضا الطاعون ، حيث تبدو الحياة آفة ، وقوى المادة الخفية ، والقسوة ، مبدأ أي فعل وقانونه . ومثل هذه النظرة أعادت العلاقة بين المسرح والعالم ، وكانت التقاليد المسرحية قد استبعدتها منذ أرسطو . باختصار ، إذا كان المسرح قرين الحياة ، فإن الحياة قرين المسرح .

وتحتل القسوة مكانا مركزيا إلى جانب القرين في نظرية آرتو ، لكنها لا تعني بأي حال من الأحوال إراقة الدماء . والجديد الذي أتى به آرتو هو الاهتمام بجانب التمثيل ، وجسم الإنسان وقدرته على التعبير ، قبل اهتمام جروتوفسكي بكل هذا فيما بعد . فهو يطلب أن تؤدي الحركة المسرحية بحيث تدعو الجسم كله إلى اتخاذ أوضاع تتفق مع الحالة التي أملتها . ومسرح القسوة لا يرى أي أهمية لإجراء الحوار بين الشخصيات عن المشاعر والأهواء ، والشهوات والدوافع النفسية البحتة . فلا بد أن تستبدل الكلمة بالحركة . والمبدع الوحيد الذي يعترف به آرتو هو المخرج . وفهمت الحركة المسرحية ، فيما مضى ، على أنها تأكيد أو تعليق على الكلمات التي تعبر عن المشاعر والأفكار . لكن الحركة في مسرح آرتو توجد لذاتها . ويرجع آرتو كل شيء بطريقة أو بأخرى ، إلى جسم الانسان ، وأعضائه ، وأطرافه ، وحركاته ، وإذا أسلم هذا الجسم للخيال أو عالم الحلم ، أصبح مادة قابلة للتشكيل ، وكافة التحولات ، مادة متحررة من الزمان والمكان وتعتمل فيها الغرائز الأساسية التي تتصارع في العالم ، وهذا ما أدى بآرتو إلى استخدام الدمى ، والأقنعة ، والمانيكان ، الذين يجسدون ، من حيث الحجم ، واللون ، وطريقة السير ، مالا نراه عن الانسان والعالم : الميلاد ، والقسوة ، والرعب ، والموت ، الخ . . . أي كل القوى الخفية . وأوصى آرتو في كتاباته

(١٠) Le théâtre et son double, Parise, Gillmard, 1964.

النظرية باستخدام المانيكان بطريقة منتظمة . وقال في أول بيان له عن مسرح القسوة إنه يريد استخدام مانيكانات يبلغ ارتفاعها عشرة أمتار ، وتمثل ذقن الملك لير في العاصفة . والشيء الذي ينفرد به آرتو حقا هو التجاوز إلى المانيكان على مستوى آخر لتصوير أقران الشخصيات الحقيقية . ولجأ إلى هذا الأسلوب ، بما أمكن من وضوح ، عندما أخرج « صوناتة الأشباح » فهو ينبهنا إلى أن الشخصيات يمكن أن تستبدل « بقرناء لها لا يتحركون - في شكل نماذج مانيكانات - ، ويمكن أن يحتلوا مكانها فجأة » ويكتشف إلى جانب كل شخصية قرينا يرتدي ملابسها ، ويختفي كل القرناء - الممثلين بثبات مطلق ، وبطء ، وهم يعرجون ، في حين تنقض الشخصيات وكأنها أفاقت من سبات عميق[11] . والممثل عنصر أساسي من عناصر الحدث ، ومحرك العرض . وعليه أن يعرف كيف يتحكم في حركته ، وأنفاسه ، وصوته . ويجب أن يعامل على أنه علامة « سليمة محايدة » ، وأن يصبح مادة لكتابة مسرحية تحرم عليه أية مبادرة . هذا ولم يفكر آرتو قط في استبعاد الممثل من المسرح ، لكنه أراد استخدامه كأداة فحسب ، شريطة إعداده لمثل هذا الاستخدام .

ونلاحظ أن آرتو جعل الممثل يحل محل الشخصية . لكنه لم ير فيه آلة تسلم إلى المخرج ، بل طلب منه أن يكون واعيا ، وأن يتعلم كيف يسيطر على تفجر الأهواء في جسده ، وألا ينساق للصدفة والارتجال . ويرى آرتو أن أداء الممثل يقع عند نقطة التقاء العواطف وعضلات الجسم ، أي الأنفاس التي تغذي الحياة . وتحدث آرتو أيضا عن المس transe ، وقال إن على الممثل أن يولده ، بدون أن يغوص فيه ، والمس ، بالمفهوم الديني الذي يتخذه عند بعض الشعوب البدائية ، متفق كل الاتفاق مع أهداف مسرح القسوة . فهو حال ينغمس فيها الإنسان ، نتيجة لأداء بعض الطقوس ، حتى يبدو أن قوة عليا قد تملكته . وبإيجاز ، نقول إن الشخصية المسرحية كما رآها آرتو ممثل لا يلعب دورا ، وإنما يمثل حياته ، ويتحدث بلغة الجسد : الصرخة ، الحركة ، تعبير الوجه ، الخ . .

هكذا مهد كل من جاري وآرتو لتحول الشخصية المسرحية التقليدية إلى شيء آخر ، أو اتخاذها وجها مختلفا ، على الأقل . وعندما أعيد النظر في القيم والمفاهيم الموروثة ، أعيد النظر في مفهوم الشخصية عامة ، روائية كانت أم مسرحية ، كما أسلفنا . ونشير في هذا الصدد ، إلى أهمية كتاب ناتالي ساروت N.Sar-raute « عصر الشك » . الذي أكدت فيه انتقال الشخصية من عصر اليقين إلى عصر الشك . كانت الشخصية « تحاط بالعناية الفائقة . لم يكن ينقصها شيء . لكنها فقدت كل شيء تدريجيا ، أسلافها ، وبيتها المبني بعناية ، الذي يزخر من أعماقه إلى أعلاه بأشياء شتى من كل نوع ، حتى البسيط منها ، فقدت أملاكها وألقابها ، وأزياءها ، وجسمها ، ووجهها ، وذلك الشيء الثمين : طابعها الخاص ، وفقدت حتى اسمها[12] . . . . » ، وتستطرد الكاتبة قائلة : « واليوم ، تغمرنا الأعمال الأدبية بسيل متدفق من الأعمال التي يقال إنها روايات ، ونرى فيها كائنات بلا ملامح محددة ، لا تُرى ولا تُفهم ، و « أنا » مجهولة هي كل شيء ولا شيء ، وكثيرا ما تكون مجرد انعكاس للكاتب نفسه . واغتصبت هذه « الأنا » مكان البطل الرئيسي ، واحتلت مكان الصدارة . وحرمت

---

(١١) المرجع السابق ، صفحة ١٧٣ - ١٧٤

(١٢) L'ère du soupçon, Paris, Gallimard, 1956, Page 71 - 72

الشخصيات المحيطة بها من الحياة الخاصة ، وأصبحت مجرد رؤى ، وأحلام ، وكوابيس ، وأوهام ، وانعكاسات ، وأشكال من هذه « الأنا » القديرة ، أو توابع لها[١٣] » ، وهكذا دخلنا عصر الشك في الشخصية ، كما تقول ساروت . حدث كل هذا للشخصية الروائية ، وسرعان ما انتقل إلى الشخصية المسرحية ، فيما سمي بمسرح العبث أو اللامعقول .

ومع كتاب مسرح العبث ، عادت الشخصية إلى « درجة الصفر » ، إذا جاز القول . فقدت أول ما فقدت اسمها الذي اقتصر أحيانا على الحرف الأول منه . تدعى إحدى شخصيات مسرحية أداموف Ada-mov « للمحاكمة التهكمية » « N » ويشير الكاتب أحيانا إلى الشخصية بوظيفتها : الموظف ، المفتش ، الأستاذ ، الخ . . . ، أو سنها : العجوز ، أو نوعها : الرجل ، المرأة ، أو وضعها الأسري : الابن ، الأم ، الأب الخ . . . فقدت أيضا وضعها الاجتماعي : نحن لا نعرف شيئا عن فلاديمير واستراجون ، بطلا « في انتظار جودو » ، ربما كانا من الصعاليك أو المهرجين ، ولا نعرف شيئا عن ماضيها وحاضرهما أو سنهما ، أو حالتهما الاجتماعية عامة . وكل ما نعرفه عنهما نعرفه من إشارة عابرة وردت في النص إلى اشتغالهما في وقت ما في إحدى المقاطعات الفرنسية . وإذا أعطى الكاتب للشخصية اسما ، جاء هذا الاسم عاديا وخاليا من أية دلالات إضافية : جاك ، جان ، بيير ، الخ . . . ويعني كل هذا أن كل ما يرد في النص عن الشخصية يجعل منها نمطا جامدا خاليا من أي سمات خاصة ، ولا مرجع Refe-rent له في الواقع . فلقد حول كتّاب العبث الشخصية إلى هيكل اجتماعي وأخلاقي ، ونفسي ، وحرموها من الماضي والمستقبل ، وعزلوها عن الجماعة التي تنتمي إليها ، وقطعوا كل صلة بينها وبين الآخرين . وأصبحت سماتها إن وجدت ، تهكمية ساخرة . ونتيجة لذلك ، أصبحت شخصيات مسرح العبث قابلة للتبادل فيما بينها ، وأصبح أداؤها آليا ، وصارت كلماتها تكرارا عابثا ، أي أنها تحولت إلى دمى . وقد يحدث في المسرحية شيء ما ، لكنه يحدث في خلالها ، لا بواسطتها أبدا . أصبحت الشخصية عاجزة عن التحكم في لغتها ، وخاصة في اللحظة التي تتجه فيها إلى التحلل ، ويجعل فيها الكاتب من اللغة دليلا لهذا التحلل . أصبحت تفتقر إلى وضوح الفكر ، والارادة ، والوعي بالذات . وأصبح وجهها وجسمها عنصرين لا يصوران شخصا بعينه ، بل شخصا مجهولا أو أكثر . وفي بعض الأحيان ، ظهرت بجسد مشوه مبتور ـ مثلما في مسرحية أداموف « المناورة الكبرى والصغرى » ـ أو خاضع للتحول : نرى مثلا كيف يتحول البشر إلى خراتيت في مسرحية أ . يونسكو Ionesco التي تحمل ذات الاسم . ومهما اختلفت شخصيات مسرح العبث ، تجمع بينها سمة مشتركة : عدم وجود أية علاقة بينها وبين الانسان العادي الذي يفعل شيئا ما ، ويفكر ، ويحس ، الخ . . . وانقطاع الصلة بين هذه الشخصيات والمسرح البورجوازي ، لأن الكاتب ، عندما يرسمها يعتمد مباشرة على الرؤى ، والأحلام ، والأفكار المتسلطة ، الخ . . . ويستمد أشكاله المسرحية من عالم اللاوعي ، في نفس الوقت الذي يواصل فيه مسيرته الجدلية ضد النماذج القائمة . ومن هنا ، جاء التهكم ، والميل الى رسم صورة كاركاتيرية للشخصية المسرحية .

وما هي الصورة التي اتخذتها الشخصية في المسرح المعاصر ـ في فرنسا على الأقل ـ ، بما أن مسرح العبث

(١٣) المرجع السابق ، صفحة ٧٦

أصبح اليوم مسرحا كلاسيكيا ، أي تقليديا ؟ يذكر ج . ب . سارازاك Sarrazac، في هذا الصدد ، الإمكانيات المتاحة اليوم أمام الكاتب المسرحي : « نعرف جيدا اثنين من الإمكانيات المختلفة المتاحة للكاتب المسرحي في علاقته بشخصياته : اما أن يتراجع أمامها كلية ، وفقا لقانون المسرح الدرامي ، آملا أن تتحول هذه الكائنات - وهي من ورق - إلى كائنات حية مستقلة من لحم ودم ، اما أن يتحدث من خلالها ، ويعرض نفسه للنظر إليه على أنه محرك لبعض الدمى ، لا أكثر . . . وقد يوجد سبيل ثالث خاص بالكاتب المسرحي الرابسودي : سبيل الشخصية . . . التي يصاحبها المؤلف طوال رحلتها المسرحية ، ويتابع تقلباتها خطوة خطوة ، ويرتبط بها ارتباطا وثيقا كما يرتبط دكتور فرانكشتاين بمخلوقه[١٤] . والشخصية - المخلوق Creature تخرج من العدم في بداية المسرحية ، وتعود إليه في نهايتها . ووجودها ذاته يتسم بالتناقض . فهي لا تحيا إلا طوال فترة العرض ، وترتبط بخالقها والمخلوق » جوهر الشخصية الوحشي » كما يقول سارازاك . وقد نميل إلى تشبيهها بالحيوانية العقيمة نظرا لموقعها في مكان وسط بين الانسان والحيوان . لكن ، ترقد في أعماق أجساد هذه المخلوقات المشكوك في آدميتها ، نقاط التقاء رمزية ، تتمثل في الوعد بتحرير بشرية قد يظن أنها مقصورة على أصغر أبعادها ، لولا فيض جسدها . وقبل أن يعيد الكاتب مخلوقه إلى العدم ، يبلغ به أقصى حد للحيوانية ، أي اللاإنسانية . لكن هذا الكائن الحيواني هو الذي يربط الشخصية بالأسطورة ، ويمكن المخلوق من التعبير عن نفسه تعبيرا تاما . لقد سبق أن قال ج . كوكتو Cocteau عن جان جينيه J . Genet إنه « جعل الحيوانات تتكلم » ، وكان يقصد أنه يجري الكلام على لسان من لا يتكلمون . ونظرا لمرونة جسده الفائقة ، يعتبر المخلوق مكانا لتحول كامن ، تحول « أبيض » لم ترسم حدوده بدقة . وهو لا يتكلم ، بتلك اللغة الحيوانية التي تحرر الكلمات المحرمة تماما ، إلا لكي يقول لنا إنه إنسان لزم الصمت أو لم يسمع صوته قط . ويسوق سارازاك[١٥] مثال شخصيتين في مسرحية هـ . أخترنبوش H.Achterm-busch « ايللا » ، شخصيتان من المعذبين في الأرض ، أقرب إلى الحيوان منها إلى الانسان ، مستبعدتان من عالم البشر : ايللا وابنها جوزيف ، اللذان يعيشان في عشة دجاج ، خلف الأسلاك . ويجري الكاتب الحدث على لسان الممثلين للمستوى الأدنى من البشرية - ويظل غموضها ضمنيا ا.. ، بل يجريه بلسان أحدهما فقط ، لأن الأم تظل قابعة أمام التلفزيون او تدور حول نفسها في القفص . اما الابن جوزيف ، فيبتلع كلمات أمه الصامتة ، وكل ما تقوله عن نفسها كامرأة مقهورة ، أقرب إلى مستوى الحيوان - تتنكر الأم في دور الدجاجة - الأم عندما ترتدي باروكة من ريش الدجاج - ، ويعيد ويزيد فيها طوال المسرحية . والشخصية - المخلوق شخصية فقدت وجهها ، بالمعنيين الحقيقي والرمزي لهذه الكلمة . فبدلا من أن ترقى إلى مستوى الفرد ، تفقد شخصيتها إلى أقصى حد ، ومن ثم ، تنتقل من « النمط » إلى « اللانمط » ، بل إلى الاختلاف المطلق . لكن ، « إذا كانت الشخصية الحديثة تبدأ في منطقة من الظل ، لا يزال الجسد فيها غير محدد المعالم ، . . . . نرى أنه يلقى بها ، في نفس الوقت تقريبا ، إلى أفق منير ، نفسرها فيه بأنها كيان رمزي[١٦] » ، ويرى

(١٤) L' avenir du drame Suisse, Editions de l'Aire, 1981, Page 78

(١٥) انظر المرجع السابق ، صفحة ٨٢ ، ٨٣

(١٦) المرجع السابق ، صفحة ٨٤

سارازاك في شخصيات كل من بيكيت Beckett و. ج جنيه أفضل مثال للشخصية المقسمة إلى جسد من ناحية، وعلاقات رمزية من ناحية أخرى، وترسم حركة متأرجحة تنشأ عنها جدلية جديدة للشخصية - الوجه، والشخصية - المخلوق. على سبيل المثال، لا ينفصل الموت عند بيكيت عن وجود الشخصيات. فهو يعمل معوله في البشرية الحية، ويهدم شخصية الفرد، ويجزئها ويبعثرها. في «نهاية اللعبة»، يعيش ناج ونيل في صناديق القمامة، في حين ينتقل كلوف وهو يعرج، ويظل هام أسير المقعد المتحرك الذي يجلس عليه. وفي «الأيام السعيدة»، تغوص ويني إلى نصفها، ثم إلى عنقها في الأرض، وفي «كوميديا»، لا نرى من الشخصيات التي تعيش في جرار إلا رؤوسها. ويبلغ الأسلوب ذروته في «أنا؟ لا!»، حيث لا يرى المتفرج، في ظلام المسرح، سوى وجه يحيط به أحمر الشفاه، وهكذا يؤكد بيكيت، من خلال بعثرة الجسم وتجزئته، أن الجسم أصبح صوت النص، وتشوها جسمانيا ناطقا وإذا انفصل الصوت عن الجسد، كرس فقدان الشخصية الوجه لهويتها، تدريجيا، وفقدانها نهائيا لأي صلة لها بالماضي، وبالتالي، استحالت عليها العودة إلى ذاتها. هذا وتدرك كل شخصية من شخصيات بيكيت أن ذاتها قد ماتت إلى الأبد.

وتميل الدراما المعاصرة عموما إلى توسيع مجال الشخصية، من خلال جسم الشخصية - المخلوق والشخصية - الوجه الرمزية. أما ما أزيل، في عملية التنقل المستمر بين المخلوق والوجه، فهو تلك الحدود المطمئنة الخاصة بالإنسان الفرد، الذي أصبح من المستحيل اعتباره مركزا للدراما. ولا يمكن أن تصل النزعة الطبيعية إلى هذه الشخصية الجديدة، فضلا عن أن هذه الأخيرة لا تشجع المتفرج على التوحد معها أو التعرف عليها. ولا تمثل الشخصية - الوجه تحللا للشخصية الدرامية الجديدة، وإنما وصفا جديدا لها، يجعل منها شيئا ناقصا ونغمة نشاز، تلجأ إلى المتفرج لكي يعطيها شكلا، ويعني هذا أن على المتفرج أن «يبنيها» أثناء القراءة أو العرض.

●●●

والتغيير الجذري الذي طرأ على الشخصية المسرحية، نتيجة لتطورها، أدى إلى تغيير جذري أيضا في منطلقات النقد المسرحي عامة، والنقد الذي يتناولها خاصة. وسار هذا النقد في طرق عدة، محاولا اختيار ما يناسب المسرح، ومادته، وأشكاله الخاصة. فاتجه تارة إلى النقد السوسيولوجي، وتارة إلى النقد التحليلي والنفسي، وتارة إلى النقد السيميولوجي، بدون أن يغفل بطبيعة الحال النقد الدرامي البحت. وأيا كان الاتجاه الذي سار فيه النقد المسرحي الحديث، نلمس بوضوح أنه قضى على الشخصية المسرحية ككائن حي، عدد السمات والملامح، يتحدث عنه النقاد كما لو كان حقيقيا، ويتوحد الممثل معه.

فجر النقد الحديث الشخصية، وحولها إلى عدد من «الوظائف»، فسلوك الشخصيات في الحديث لا يتوقف على طباعها، وإنما على عدد من السمات المميزة التي يعطيها الكاتب لها، ونفسرها نحن، كما فسرها النقد التقليدي بأنها عناصر سيكولوجية. والواقع أن الكاتب يعطيها هذه السمات أو هذه الملامح لكي تؤدي وظيفتها، وتشارك في الحدث. ولذلك يرفض النقد الحديث النظر إلى الشخصية على أنها وعي مستقل ويرى فيها مجرد وظيفة Fonction فعل actant أو دور. والشخصية كما يراها ليست كائنا، أو مادة، وإنما مكان نصي تؤدي فيه بعض الوظائف، وينتج معنى تثريه كل قراءة جديدة. الشخصية إذن فعل ودور في آن واحد، وهي تنتج عنها، تحت وحدة اسم ما. ذلك أنها، أولا

وقبل كل شيء ، صاحبة خطاب discours يقال باسمها . ومن ثم ، يمكن أن يجد التحليل النقدي والوظائف المختلفة للشخصية . وأن يبين أنها تتكون من تفاعل كل من هاتين الوظيفتين مع الأخرى ، ومن هذا التفاعل فقط . ودراسة الوظائف لن تستبعد الحديث السيكولوجي ، على عكس ما يقوله أصحاب المدرسة الشكلية ، شريطة أن يتناول هذا الحديث الشخصية في علاقتها الشاملة بالشخصيات الأخرى ، وأن يرى فيها نقطة التقاء القوى الفاعلة .

والفن المسرحي ، دون سائر الفنون ، فن تظهر فيه العلامات بأكبر قدر ممكن من الثراء ، والتنوع ، والكثافة ، لأنه يستخدم أكثر من نظام للمعنى . والعلامات فيه سمعية ، وبصرية ، ولغوية ، الخ ... والكلمة فيه يستطيع ، بصفة خاصة ، أن تحل محل أغلب علامات الأنظمة الأخرى .

فالكلمة التي ينطق بها الممثل لها معنى لغوي أولا ، لكن نبرة الصوت قد تغير هذا المعنى ، وتعبيرات الوجه أو حركة اليد تستطيع أن تؤكده ، أو تنفيه ، أو تضفي عليه صبغة خاصة . ويتوقف معنى الكلمات أيضا ، وإلى حد كبير ، على التعبير الجسدي للممثل ، ووضعه بالنسبة للشخصيات الأخرى . وهذه بعض أسباب قد تبرر اختيارنا للمنهج السيميولوجي لدراسة الشخصية المسرحية .

ويجب أن يسبق هذه الدراسة وصف يدخل في اشكالية سيميولوجية بحتة . ونقصد بقولنا هذا إنه يجب أن ننظر أولا إلى الشخصية على أنها علامة ، أي أن نختار زاوية نظر تبني هذا الشيء بإدماجه في رسالة تعرف بأنها مجموعة من العلامات اللغوية . فالشخصية المسرحية تبني وفقا لمحور الزمان تحت عيني القارىء أو المتفرج ، تبني على مراحل ، حسب كود (شفرة) معين ، ولا تعود إلى الوراء . ويمكن أن تدرس من خلال ثلاثة اتجاهات أو ثلاثة محاور كبرى ، باعتبارها :

١ ـ عنصرا من العناصر المكونة لجملة ما ، ٢ ـ وعنصرا من العناصر المكونة لمجموعة سيميولوجية معينة ٣ ـ وصاحبة خطاب .

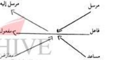
١ ـ نجد في أي مسرحية ، وكذلك في أي رواية ، موقفا رئيسيا أو مبدئيا يمكن أن نلخصه في جملة مكونة من فاعل وفعل ومفعول . ويمكن أن ينتقل بناء هذه الجمله إلى ما يسميه جريماس Greimas « نمط الأفعال » mod-ele actantiel : يقدم لنا هذا النمط طريقة خاصة لتناول بنية الحدث العميقة ، ويعطينا صورة للطابع الدرامي والديناميكي لمسرحية ما . وإذ نرسم هذا النمط ، نرسم صورة بنيوية للقوى الموجودة على خشبة المسرح ، في لحظة ما من الحدث الدرامي . ولكي تكون العلاقة بين هذه القوى مرسومة بوضوح ، علينا بتجاوز مفهوم الشخصية ، واستبداله بمفهوم الفعل actant ، المأخوذ عن التحليل البنيوي للقص . وتحت هذا الاسم ، تندرج لا الشخصيات فحسب ، وإنما أيضا الأشياء المجردة كالموت ، أو المدينة ، أو الهوى ، أو السلطة ، الخ ... وهكذا يصبح الفعل كل الذين يلعبون دورا أو كل ما يلعب دورا في الحدث المسرحي . ووظيفة الأفعال هي نفس الوظيفة التي تقوم بها الكلمات في الجملة .

مثل هذا النمط يستبعدون دراسة الحدث كحكاية أو قصة فقط ، لأن مثل هذه الدراسة تظل سطحية ولا تمس الا مستوى السرد . ومن البديهي أن الحكاية والحدث شيئان مختلفان ويتكون هذا النمط من ستة أفعال :

- الفاعل والمفعول : وتربط بينهما رغبة شعورية أو لا شعورية ، سلبية أو إيجابية ، لكنها أساسية بالنسبة للإنسان . ويتجه الفاعل إلى المفعول ، ويحاول التأثير عليه .

- المرسل والمرسل إليه : وهما مَنْ أو ما يدفع بالفاعل نحو المفعول ، ومن أو ما يهدف إليه الفعل .

- المساعد والمعارض : تساعد بعض القوى الفاعل أو تعوق مشروعاته ، والمساعد والمعارض هما ما أو من يساعد أو يعوق فعل الفاعل .



وضع الخانات الست لا يتغير . وقد تكون بعض الخانات - المساعد أو المعارض مثلا - خالية ، أو متضمنة لعدة شخصيات - أو أشياء . وقد يتغير النمط مع تطور الحدث ، فيتحول المساعد إلى معارض أو يتغير المفعول . ففي « دون جوان » موليير نجد النساء في خانة المفعول ، وطلب المتعة في خانة المرسل ، في الفصلين الأول والثاني . لكن ، يطرأ تغيير في الفصلين الثالث والرابع ، ويميل دون جوان ، الفاعل ، إلى التأثير على القيم الدينية والاجتماعية .

والانتقال من نمط إلى آخر يلقي الضوء على بناء الحدث . وبالتالي ، تتضح المواقف الدرامية المختلفة الناتجة عن تحوّلات تفاعل القوى التي تجسدها الأفعال ويستطيع الباحث أن يرسم نمط الأفعال ، استنادا إلى مشهد واحد ، أو عدة مشاهد ، أو فصل بأكمله . وتعيين الأفعال يطرح الأسئلة أكثر مما يجيب عنها ، لكنه يعد ميزة لأنه يقدم وجهة نظر خاصة عن الحدث ، ومنهجا ملائما للتطبيق . من حيث المبدأ ، يمكن تجربة كل شخصية كفاعل ، وملاحظة ما يترتب على ذلك من تغييرات في الخانات الأخرى . وهكذا نصل إلى تفسير جديد للحدث . مثلا ، جرت العادة ، في المسرحيات التي يعد الحب فيها عنصرا أساسيا ، على إدراج الفعل النسائي في خانة المفعول والفعل الذكر في خانة المفعول والفعل الذكر في خانة الفاعل ، بينما يمكن قلب هذا الوضع ، وجعل الفاعل مؤنثا .

ويظهر المعنى الأيديولوجي ، بكافة متناقضاته ، على مستوى الأفعال . فاختيار المرسل والمرسل إليه يوجهان أسئلة للأبنية الاجتماعية ، ووراء الدوافع النفسية . وحتى لو كان التحليل القائم على نمط الأفعال في حاجة إلى تحليل النص تحليلا دقيقا ، فهو يطرح الأسئلة الأساسية الخاصة ببناء الحدث الدرامي .

٢ - الشخصية المسرحية مجموعة سيميولوجية في الفضاء المسرحي . وهي تبدو للقارىء - المتفرج كمجموعة من العلامات التي يجب أن تصنف ، وفقا لعدد من الأبواب بدون اعطاء قيمة خاصة لهذه التفصيلة أو تلك : الشكل المادي ، والصفات والعلامات السلوكية ، والعلامات النفسية ، وكل ما نعرفه عن ماضيها ، وكل ما نعرفه عن علاقاتها السابقة ، والحالية بالشخصيات الأخرى (صداقة ، عداء ، تنافس) . يتعلق الأمر بعد ذلك بالنظر إلى السمات المتشابهة أو المختلفة بين الشخصيات ، لأن من المسلم به أن الشخصية المسرحية تتميز بعدم تماسكها . وفي مرحلة أخيرة ، يبحث الدارس عن كل ما يتفق مع « كود » (شفرة) للشخصية وُضع سلفا . وجدير بالذكر أن

ترتيب الأبواب يجب أن يحرص على التمييز بين ما يرد في الارشادات المسرحية ، وما يرد في أقوال الشخصيات . وفي الحالة الأخيرة ، لا بد من التفرقة بين ما تقوله الشخصية عن نفسها ، وما يقوله الآخرون عنها . ويلتقي هذا بالتفرقة التي أقامها أكثر من مؤلف بين النص الرئيسي والنص الثانوي . . ويتكون الأول من أقوال الشخصيات ، في حين يتضمن الثاني الارشادات المسرحية التي يقدمها المؤلف للمخرج ، وتختفي هذه الارشادات عندما ينتقل العمل المسرحي إلى خشبة المسرح . ونحن لا نلمسها إذن إلا عندما نقرأ المسرحية فقط ، أو عندما تؤدي وظيفتها في العرض . من ناحية أخرى ، يتخذ النص الرئيسي شكلا صوتيا مسموعا أمام المتفرج ، ما دام الممثلون ينطقون به . والنص الرئيسي ، في مجموعه ، عنصر من العناصر المكونة للعالم الذي يصوره العرض المسرحي . لذا يصبح التعبير enonciation عملية تتم في هذا العالم ، وتتضح في السلوك الشامل للشخصيات .

وهناك مجموعتان من العلامات المرئية تحتلان مكانة خاصة في المجموعة السيميولوجية التي تمثلها الشخصية : الزي ، والحركة . والزي أكثر الوسائل اصطلاحاً في تعريف الشخصية . وفي المسرح ، يدل الزي على الجنس ، والوضع الاجتماعي أو الطبقي ، والجنسية ، والدين ، وأحيانا ، يعرفنا بالشخصية التاريخية أو المعاصرة . وفي كل فئة من هذه الفئات ، يعني الزي أشياء شتى : الوضع المادي للشخصية ، وسنها ، وذوقها ، وسماتها . قد يشير الزي مثلا إلى صبي ثري ، ويشير بالتالي إلى جنسيته ووضعه الاقتصادي . وقد يشير إلى الجو ، والفترة التاريخية ، والمكان ، الخ . . . لكن ، يقتصر الزي المسرحي عادة على علامة واحدة أو اثنين أو ثلاث ، لأن المسرح لا يستخدم إلا علامات الزي اللازمة لموقف درامي بعينه .

والحركة أيضا ، تعد من أكثر العلامات تطورا . وهي واحدة من أغنى الوسائل التي تستخدم للتعبير عن الأفكار ، وأكثرها مرونة : حركة اليد ، أو الذراع ، أو الساق ، أو الرأس ، أو الجسم كله . والحركة توجد العلامات وتوصلها . وتنقسم العلامات الحركية - وهي اصطلاحية بقدر قد يكثر أو يقل - إلى فئات عدة : بعضها يصاحب الكلمة أو يحل محلها ، والبعض الآخر يحل محل عنصر من عناصر الديكور (فتح باب وهمي مثلا) ، أو الزي أو الأكسسوار ، او البعض يعني شعورا ما أو انفعالا ما . لكن كلمة حركة لا تعني الحركة فحسب . فهناك أيضا التعبير الجسماني للممثل ، وعلامات الزمان والمكان التي يخلقها التكنيك الخاص بجسم الإنسان . ويوجد نظام كامل للعلامات الحركية المرتبطة بتنقل الممثل في فضاء المسرح ووضعه فيه : مكانه بالنسبة للممثلين الآخرين ، والأكسسوار ، وعناصر الديكور ، والمتفرجين ، وطريقة تنقله : السير البطيء ، السريع ، الدخول ، الخروج ، الخ . . . .

٣ - تعرف الشخصية أيضا بخطابها discours ، ونظام علاماتها اللغوية . هذا النظام معقد للغاية ، وهو يدخل ضمن بنية أوسع من العلامات غير اللغوية . وتصاحب الخطاب المسرحي الذي يجب أن يدل على الوضع الاجتماعي للشخصية حركات الممثل ، وزيه ، والديكور ، وهم يدلون على الوضع الاجتماعي أيضا . ويستخدم الكاتب والممثل العلامة اللغوية كوسيلة للدلالة على الانتماء الاجتماعي أو القومي للشخصية . وعندئذ ، يصبح الخطاب علامة للمستوى الثقافي والاجتماعي للشخصية . وتوجد حالات تتمثل وظيفة الخطاب الأساسية فيها في العلامات التي يجب أن تصنف ، وفقا لعدد من الأبواب ، بدون إعطاء قيمة

خاصة هذه التفصيلة اللغوية أو تلك الدالة على جنسية المتحدث وطبقته الاجتماعية أكثر مما تتمثل في مضمونه . من ناحية أخرى يستخدم المسرح بعض الوسائل الاصطلاحية ليفرق بين لغة أبناء الطبقة الشعبية ولغة الطبقة الراقية . ويلاحظ أن عددا كبيرا من المسرحيات الشعبية استخدمت بنجاح هذه اللغة الخاصة كدليل نفسي .

ووظيفة الخطاب تعبيرية في المقام الأول . فهو يعبر عن تجارب الشخصية وحالاتها النفسية ، لكن هذا التعبير ليس مجانيا ، لأنه يوصل رسالة معينة . فالشخصية التي ترسل رسالة ما تنقلها إلى المتلقى . والكلمات التي تقال على خشبة المسرح توجه دائما إلى شخص ما . صحيح أن هناك المونولوج ، وهو استثناء لهذه القاعدة ، لكن مكانه في الدراما الحديثة محدود ، لأنه يفتقر بالذات إلى هذه الوظيفة الاتصالية . وقد يتجاوز الخطاب التعبير إلى محاولة الاقناع ، وعندئذ يمارس وظيفته على الطرف الآخر في الحوار أو الشخصيات التي تعد جزءا من الحدث المسرحي الشامل . فالخطاب قد يسعى إلى التأثير على من يوجه إليه : « في أي صراع درامي يتطور في عالم المسرحية ، يعد الخطاب الذي يوجه إلى الشخصية شكلا من أشكال فعل المتحدث ، وفي نهاية الأمر ، لا يكتسب معنى حقيقيا بالنسبة للأحداث المصورة إلا إذا أسهم بطريقة حاسمة في تطوير الحدث[١٧] » . وأيا كانت وظيفته ، يوجه خطاب الشخصية إلى شخصية أو شخصيات أخرى ، ويوجه أيضا ، وبصفة خاصة ، إلى الجمهور . هذا ، وتسير عملية الاتصال في اتجاهين مختلفين : خشبة المسرح ، والصالة ، حيث جمهور المتفرجين .

وخطاب الشخصية المسرحية خطاب متقطع - فيما عدا المونولوج - ، قد يكون طويلا أو قصيرا . وهذه سمة تساعد على إعطاء الشخصية طابعا خاصا ، رئيسية ، ثانوية ، الخ . . وترتب على العلاقة بين الشخصية والخطاب رفض البعض للشخصية الصامتة ، واعتبار أي شيء يتكلم - جهاز راديو ، مكبر صوت مثلا - شخصية . لكن ليس هناك ما يمنع الشخصية من أن تتكلم في مكان ما من النص ، وتصمت في مكان آخر .

وتعرف الشخصية أيضا بعلاقتها بالشخصيات الأخرى . ونادرا ما تجد مسرحيات فيها شخصية واحدة . حتى مسرحية ج . كوكتو J . Çocteau « الصوت البشري » تفترض وجود شخصيتين ، إحداهما مرئية ، والأخرى لا ، وحوار لا نسمع الا جزءا منه فقط . وغالبا ما تكون هذه العلاقات متعارضة . وعلاقة التعارض هذه توحد العبارات المختلفة الخاصة بشخصيتين أو أكثر ، بحيث لا يمكن عزل تعبيرات إحداهما عن الأخرى ، والعكس صحيح . ونواة هذه العلاقة واحدة من تعبيراتها الملموسة ، مثلا أول عبارة تظهر وتدخل العلاقة من خلالها إلى المسرحي . ويرى يانسن Jansen أن هذه العلاقة « لا ترتبط حتما بثنائي محسوس من الشخصيات ، من أول التتابع الى آخره : فهذا المعارض أو ذاك يمكن أن يستبدل من موقف إلى آخر . يجب تصور العلاقة اذن على أنها علاقة بين قطبين ، أو اطارين فارغين متعارضين يمكن أن تدخل فيها أو تخرج منها شخصيات مختلفة[١٨] » . والتعبير عن العلاقة ليس في حاجة إلى إظهار المتعارضين على خشبة المسرح ، لأن التعارض يمكن أن يذكر بلسان أحد

---

(١٧) R. Ingarden, Les fonctions du langage au théâtre, in poétique, no 8, 1971, P. 535

(١٨) Esquisse d'une théorie de la forme dramatique, in langages, no 12, 1968, P. g2

المتعارضين أو طرف ثالث . والتعارض يختلف عن الصراع الذي تتمثل وظيفته في تجميع الشخصيات ، وتوحيد التعبير عن علاقة شخصية ما بالشخصيات الأخرى . أي أن تطور العلاقات بين الشخصيات يتم حول علاقة تعارض ، وعنه ينشأ الصراع .

ولكن لا يكون حديثنا نظريا صرفا ، نطبق المنهج المقترح لدراسة الشخصية المسرحية ، من منظور ومنهج حديث ، على مسرحية آرثور آداموف A. Adamov ، « البروفيسور تاران » .

● ● ●

تجد في « البروفيسور تاران » أربع عشرة شخصية . ومع ذلك ، تستطيع أن تقول إن شخصيات هذه المسرحية قليلة ، لأنها جميعا ثانوية ، فيما عدا تاران : جان ، المفتش ، الموظف ، المديرة ، الصحفية ، سيدة المجتمع ، الخ . . . أو مجرد أدوار : الشرطيان والسادة الأربعة الذين يتبادلون الأدوار ، أو شخصيات صامتة : الموظفة العجوز .

ويتميز تاران عن سائر الشخصيات بالحضور : فهو يحتل خشبة المسرح طوال اللوحتين اللتين تتكون منها المسرحية . ويتميز أيضا بخطابه ـ من الواضح أنه أطول من خطاب الآخرين ـ ، وسمة خاصة يشترك فيها مع أخته جان : أنه الوحيد ، مع هذه الأخيرة ، الذي يحمل اسما . ولسوف يتضح لنا أن لهذا الاسم وظيفة درامية رئيسية . وعندما يظهر تاران لأول مرة ، يدخل في النص شيئا أشبه بالفراغ السيمانطيقي الذي يمتلىء بالمعاني تدريجيا . يحملنا كل شيء إذن على أن نقول إنه الشخصية الرئيسية في المسرحية ، ولانقول البطل . وكان العنوان نفسه قد أبرز دور هذه الشخصية .

ويمكن تجميع العلامات المميزة لشخصيات المسرحية في خمسة أبواب : السن والنوع ، والشكل المادي ، والزي ، والوظيفة الإجتماعية . وإذا رجعنا إلى الارشادات المسرحية ، وجدنا أن باب السن يشار إليه بالعبارات الآتية : كبير السن ، قد يكون في الأربعين ، شاب ، عجوز ، بين بين ، سوالف رمادية ، الخ . . . ويتمتع تاران بوضع مختلف مادام لم يدخل المنطقة التي لايتحدد فيها السن ، في حين دخلتها الشخصيات الأخرى . أما باب النوع ، فمكون من عناصر محددة : يلجأ أداموف إلى الاسم ـ جان ـ الذي يحمل في طياته معلومات عن نوع الشخصية ، أو العناصر اللغوية ، أو الصفة . وفي باب الشكل المادي ، ينتمي تاران إلى منطقة عدم التحديد . كل مانعرفه هو أنه يقول : « لي وجه لايمكن أن ينساه المرء إذا رآه مرة واحدة (١٩) . وإذا كانت هذه الثغرة قابلة للتفسير ، فيما يتعلق بالأدوار ، فهي على عكس ذلك ، في حالة تاران ، اللهم إلا إذا وصفناه بأنه إنسان يحلم ولا وجه له ـ لنذكر أن المسرحية كلها حلم سجله الكاتب ـ وأنه إنعكاس لأداموف ، عندما كان يحلم أيضا . والسمات الجسمانية المميزة للشخصيات هي : « عريض المنكبين » (المفتش) « أسمر للغاية » (الموظف) ، « شقراء » (الصحفية) ، « طويل القامة » (السيدين الثالث والرابع) ، « سمراء متناسقة القسمات » ، « صوت رتيب » (جان) . والزي لايقدم أية معلومات عن الحالة الإقتصادية أو الإجتماعية للشخصيات . ولايشير الكاتب إلا إلى لونه : « سترة سوداء وبنطلون مخطط » (المفتش) ، « يرتدي ثوبا أسود » (تاران) ،

(١٩) A. Adamov, théâtre, t. I, Paris, Gallimard, 1953, P. 222

« بلوزة رمادية » (المديرة) أو نوعه : أناقة السيدتين الثالث والرابع . ويشير الزي بصفة خاصة إلى فصول السنة ، فالموظفة العجوز ترتدي (ثوبا خفيفا من القماش المشجر » ، وترتدي الصحفية « تنورة بشايا وبلوزة بأكمام قصيرة » ، وكل هذا يدل على فصل الصيف . لكن السيدتين الأول والثاني يرتديان « معاطف شتوية » . ويترجم هذا التعارض بين العلامات ، وهو أساسي في المسرحية ، على مستوى الشخصية الرئيسية ، بعدم تماسك السلوك ، والفرق الملموس بين القول والفعل ، والحركة والكلمة . وتقرر أمرا آخر : كل الشخصيات مجهولة ، فيما عدا تاران وجان . وهي لاتعرف إلا بوظيفة إجتماعية معينة ، تتفق كل الإتفاق مع الوظيفة المكلفة بها في المسرحية : استجواب تاران (الشرطيان) ، تجاهل تاران (الصحفية ، وسيدة المجتمع) ، الخ . . ويتميز تاران عن الآخرين بأنه يجمع بين اسم : تاران ، ووظيفة : أستاذ ، وهما قطبا الحدث .

وإذا رجعنا إلى النص الرئيسي ، بصفة خاصة ، وجدنا أن تاران يمتلك صفات مختلفة وله وظيفة مختلفة ، وأن الاثنتين مرتبطتان إرتباطا وثيقا . ففي النص الرئيسي ، لايدور الحدث إلا عن تاران وشخصية غائبة هي البروفيسور مينار الذي إنتحل تاران شخصيته عن وعي . وهذا ويحتل تاران النص كله حيث يتكلم عن نفسه أو يتكلم الآخرون عنه . ويحمل خطابه معلومات نفسية وعلائقية وإجتماعية في المقام الأول . وفي النص الرئيسي أيضا ، يعرف تاران بمجموعة من العلاقات التي تحدد موقعه الإجتماعي والمهني . تتمثل أسرته في أخته وإبنه وأخته أو أخيه . وهو أستاذ جامعي مرموق : « أنا البروفيسور تاران ، رجل مرموق ، ألقيت محاضرات عديدة في الخارج . وفي الفترة الأخيرة ، دعيت إلى بلجيكا . وأحرزت نجاحا لم يسبق له مثيل . . . كان الشباب يتخاطف محاضراتي . . . كانوا يتشاجرون ليحصلوا على ورقة مكتوبة بخط يدي (ص ٢١٨) . ولتاران ألقاب علمية ، ومؤلفات . ومن ثم كانت شهرته : « أتمتع بتقدير الجميع » (ص ـ ٢١٧) . لكنهم يقدرونه في الخارج أكثر مما يقدره أبناء بلده : « في الخارج ، يبحثون بمزيد من الجدية القضايا التي تهمني ، ويولونها أهمية لا أجدها هنا (ص ٢٢٢) . ويعرف تاران أيضا ببعض السمات الطبائعية والنفسية : فهويحب الأطفال ، لكنه لا يصدق مايقولونه ، ويشعر أنه مراقب ، وهذه أول ثغرة في تماسك شخصيته : « أعلم جيدا أنهم يراقبونني ، وأنهم يفتشونني بنظراتهم ، وأن أنظار الجميع مثبتة علي » (ص ٢١٩) ، في حين لا ينظر هو إلى أحد . وهو « ضنين بوقته » ، شأنه في ذلك شأن « كبار العاملين » . ولديه المال لكنه ينساه دائما في منزله ، لأنه شارد الذهن ، مثل كثير من العلماء والباحثين . وفي رأيه أن الجميع يمكن أن يشهدوا على شهرته وتمسكه بمبادىء الأخلاق . لكن تاران يفتقر أحيانا إلى الذوق . وهو يكره أن يخلع ملابسه على البلاج ، حيث يمكن أن يراه الجميع ، ولايحب أن يعود أدراجه أبدا : « لا أقدر على هذا ، ياسادتي ، ولم أقدر عليه قط . لا أجد القوة التي تجعلني أقطع طريقا وأنا أعلم أنني سأقطعه مرة أخرى ، وأرى تفاصيله مرة أخرى . . . وبصفة عامة ، أنا لا أحب المشي . ولا أستطيع العمل وأنا أمشي » (ص ٢٢٨) . وتتناقض المقولة الأخيرة تناقضا صارخا مع مقولة أخرى ترد في نفس المشهد : «عندما يكتب الإنسان ، بسرعة ، وهو سائر مثلا ، وكثيرا ما أعمل وأنا أمشي . . . » (ص ٢٢٩) . هذا التناقض هو أساس سلوك تاران ، الذي يعرف أيضا بعلاقته الماضية بأستاذ يدعى مينار . وفي خطاب الشخصيات الأخرى ، يعرف تاران بمقارنته بالبروفيسور مينار . إن تاران « يشبه قليلا » ، لكن

الآخر « أطول وأقوى بكثير » (ص ٢٢٤) . وتاران يمسك نظارته في يده ، مثل مينار ، وإحتمال الخلط بين الشخصيتين مبني على علامة حركية .

ويعرف تاران أخيرا ، على وجه الخصوص ، بسلوكه . ويشير هذا السلوك إلى عدم تماسك الشخصية وإنفصامها . فهناك فارق واضح بين مايقوله ومايفعله . على سبيل المثال نراه ينكر أنه تعرى أمام بعض الأطفال . وفي نهاية المسرحية يتعرى أمام المتفرجين المفترض وجودهم في الصالة . والتناقض جزء لايتجزأ من أقواله . وما يؤكده تنفيه الأحداث دائما . فهو يؤكد أنه ملأ صفحات كراسته ، ويتضح بعد ذلك أن في وسط الكراسة ثغرة ، أي صفحات بيضاء . وسلوكه كله مبني على التناقض من ناحية ، والإثبات/ النفي من ناحية أخرى . وفي هذا السياق ، تؤكد العلامة الحركية العلامة اللغوية ، والعكس صحيح . ويظهر عدم تماسك الشخصية ، بصفة خاصة ، في مشهد الخطاب الذي يرسله تاران لرئيس الجامعة ، وهو بمثابة محاكمة ، يمثل فيها الأستاذ المتهم بين يدي الرئيس القاضي (وهو شخصية غائبة) ، ليدافع عن نفسه ، ويبرر أفعاله . ويتضح أن الأحداث أنكرت دائما نوايا تاران . والانفصام الذي يطرأ على مستوى العلامات اللغوية محاكاة للانفصام الذي طرأ على شخصية تاران : فهو يعيش باسم مستعار ، ويبحث عن هويته المفقودة . هذا ولايمكن أن نرسم أكثر من نمط أفعال واحد هذه المسرحية ، لأنها تؤكد وتبرز شخصية واحدة ، الفاعل تاران .

ويريد تاران أن يسترد هويته الضائعة واسمه المبتور ، المعادل الرمزي للبتر الجسماني والنفسي . والمرسل هنا شيء مجرد : المجتمع . فهو الذي سيعترف بهوية تاران . لكن مندوبي هذا المجتمع لايحتلون خانة المرسل ، بل نجدهم في خانة المعارض . وتعبر عن الفعل المعارض عدة شخصيات ، تقف حجر عثرة في سبيل سعي تاران : المفتش ، والشرطيان اللذان يخضعان تاران لتحقيق حقيقي ليحملوه على الإعتراف بجريمته ، والسادة الأربعة ، والصحفية ، وسيدة المجتمع ، جميعهم شهود لايتعرفون عليه ، وأخيرا ، رئيس الجامعة ، الذي يصدر ضده حكما قاطعا : « يترتب على كل هذا أنني لا أستطيع أن أدعوك إلى دورتنا القادمة . وتأكد ، ياسيدي أنني آسف لتغيير الفكرة التي كنت قد كونتها عنك (ص ٢٢٦) . ورغم كثرة المعارضين ، لانستطيع أن نقول إن هناك صراعا ، لأن علاقات الشخصيات علاقات تعارض فقط . وتاران لا يدخل في صراع مع باقي الشخصيات لكي يسترد هويته . والأمر يتعلق ، بالنسبة له ، بتعرف الآخرين عليه ، وإعترافهم به ، وهو إعتراف لايمكن أن يتم إلا بواسطة هؤلاء الآخرين . والتعرف لا يأتي من الفاعل ، وإنما ينتج عن لقائه بالآخر . وتجدر الإشارة إلى أن تاران هو المعارض رقم ١ لرغبته ، نظرا لعدم تماسك سلوكه وتناقض أقواله . ولايساعد أحد تاران في سعيه . فخانة المساعد تظل خالية . وبالتالي ، ينتهي السعي إلى العدم ، الذي تعبر عنه ، هنا أيضا ، علامة حركية : يتعرى تاران أمام مساحة عارية ، وتعرية الشخصية ، والشيء ـ المفروض أن الخريطة تمثل سفينة حجز تاران مكانا عليها ـ يعنيان العدم ، وإستحالة إسترداد تاران للوحدة المفقودة ، إلى الابد ، وتاران ، المرسل إليه ، يجد نفسه ، في نهاية المطاف ، محروما من كل شيء ، حتى من تلك الكينونة الزائفة التي عاشها مدة طويلة . وهكذا إنتهت رغبته إلى الكبت والحرمان .

أخيرا ، نقول إن تاران صاحب خطاب تتداخل فيه الحركة والكلمة في عملية شاملة تخص المعنى . والعلامة

الحركية هنا تعلن عن العلامة اللغوية وتؤكدها . وخطاب تاران يبرز «أنا» تقابل التأكيد على الشخصية ـ البطل ، صاحب الفعل . وتصطدم «أنا» بـ «نحن» الجماعة . تتكلم «الأنا» لتبرز ذاتها ، وتؤكدها ، وتنفي عنها الإتهام . والخطاب الذي يوجه على التوالي إلى كل من يتكون منهم «نحن» ، في مجموعة من المواقف ـ المواجهة ، يعد دفاعا حقيقيا . تدافع «أنا» عن قضيتها ، لتبرىء نفسها . ويقول الكاتب في هذا الشأن : «كل مايحدث في المسرحية للبروفيسور حدث لي في الحلم ... لقد جعلت البروفيسور يتكلم كما كنت أتكلم في الحلم»[٣٠] . والمطابقة بين نمط الأفعال والخطاب مطابقة تامة :

الفاعل = أنا = متهم

المعارض = نحن = توجه الاتهام

تتهم «أنا» بالسرقة ، لقد نسب تاران إلى نفسه هوية مينار ، ومهنته (أستاذ) ، وحركته (النظارة) ، وكتابته (الكراسة) ، وأفكاره (المحاضرات) . لكن دفاع تاران عن نفسه لايجدي ، والأنا لاتبرأ ، نظرا للفارق الدائم بين القول والفعل ، الماضي والحاضر .

والحركة نظام سيميولوجي آخر يمكن من تعريف الشخصية ودراستها ، والحركة قد تكون طبيعية ، وقد تتحول إلى حركات ثقافية . وهي ظاهرة إجتماعية ، سواء كانت طبيعية أو مكتسبة . وتركيب أصغر الوحدات الحركية ينتج أقوالا حركية ، والخطاب الحركي ذاته . فأي حركة تفترض ضمنا الإعتراف بوجود محور للاتصال ومُرْسِل ومُرْسَل إليه (القارىء / المتفرج) . وقد تكون تكرارا للصوت ، أو الكلمة ، الخ ...

وتاران مذنب ، لأنه أتى حركتين يعاقب عليهما ، وفقا لسنة المجتمع : خلع ملابسه أمام جمع من الأطفال ، وترك أوراقا في كبائن الإستحمام . وتقول الإرشادات المسرحية إن حركاته تعبر عن حالته النفسية ، ولا تحتاج إلى مساندة الكلمة . وإنهياره أمام الحقائق التي تفرض عليه ، كلما تقدم الحدث ، يرى من خلال العلامات الحركية الدالة على فقدانه لتوازنه الجسماني والمعنوي . وفي مقام آخر ، تتجمع الوحدات الحركية لتؤلف حركة بطيئة أو سريعة الإيقاع . فسيره بطول المسرح وعرضه يعني الإنتظار والتردد . وجريه أمام الأطفال الذين فاجئوه يعني الهرب : في حين يعبر جريه وراء المفتش والموظفين الذين إختفوا فجأة عن المطاردة . هذه مجموعة أولى من العلامات الحركية . وهناك مجموعة أخرى تدخل في عملية التواصل بين تاران والشخصيات الأخرى . وعندئذ ، يتدخل الوضع الذي يتخذه جسم المتحدث بالنسبة لمن يتحدث إليهم : فالمواجهة أو الالتفات مثلا يدخلان في علاقة مع المضمون الذي يعني قبول الإتصال أو رفضه . والمفتش يمحو المسافة التي تفصل بينه وبين تاران عندما ينهض ويضع يده على كتف البروفيسور ، وينهض مرة أخرى ذراعه . وتعني هاتان الحركتان الود : إحساس تاران بالأمان لحمله على الاعتراف وتوقيع الإقرار الذي يدينه . ونجد في المسرحية مشهدا هاما للغاية يعطي فيه الكاتب الأولوية للحركة بالنسبة للكلمة ، في ذلك المشهد ، يحاول تاران أن يتصل بعدد من الشخصيات الثانوية ليحملهم على الاعتراف به . وتتمثل محاولته في تكرار بعض العلامات الحركية ، وفقا للمحور الأفقي

(٣٠) A. Adamov, théâtre 11, Paris, Gallimard, 1955, P. 12

للمكان : الاقتراب ، الابتعاد . فهو يقترب أولا من الصحفية ، ثم يقترب « بحياد وخجل » ، وعدة مرات ، من السادة الأربعة . لكن محاولته الدخول في مجال الآخرين تصطدم بمحاولتهم الهرب(٢١) : إذن ، أثارت رغبة تاران ردود فعل سلبية ، تدل على رفض الاتصال . وعندما يعاود الكرة ، يثير عدم الإكتراث ، بل والعداء . وتتضح أهمية العلامة الحركية في نهاية المسرحية ، عندما ينطق تاران بآخر جملة ، ثم « يلتفت إلى الخريطة وينظر إليها طويلا . . . ويمسك بها ، ويسير بخطا آلية متجها إلى خلفية المسرح ، ويبحث عن مكان يعلقها فيه . . . . . . وإذا يقف على أطراف أصابعه ، يتمكن من تعليق الخريطة . والخريطة مساحة كبيرة ، رمادية اللون ، خالية تماما : يدير تاران ظهره للجمهور ، وينظر إليها لحظة ، ثم يشرع في خلع ملابسه ، بمنتهى البطء . . . » (ص ٢٣٧) .

• • •

لقد حاولنا أن نرسم حدود الشخصية المسرحية، واستعرضنا المراحل المختلفة التي مرت بها في تطورها ، وتوقفنا عند المنهج السيميولوجي ، وقد يكون أنسب المناهج لدراسة الأدب المسرحي عامة ، ثم حاولنا تطبيقه على إحدى المسرحيات لنبين أنه يصلح كأداة للتحليل النقدي الحديث . ولانزعم أننا غطينا هذا الموضوع الواسع : الشخصية المسرحية ، بل حاولنا إيضاح بعض جوانبه . وقبل أن نختتم هذه الدراسة ، نشير إلى بعض النقاط الهامة الخاصة بالشخصية المسرحية .

النقطة الأولى : الشخصية في النص ، والشخصية في العرض : جعلت الشخصية المسرحية أساسا لكي يجسدها الممثل ، ولكي لاتبقى مخلوقا من ورق تعرف إسمه ، وكمية أقواله ، وبعض المعلومات المباشرة ، أو غير المباشرة عنه . وهي تكتسب بفضل الممثل ، دقة وتماسكا . كل ماكنا نقرؤه عنها ، بين السطور ، ونتخيله ، تحدد بإخراجها على خشبة المسرح : شكلها : والبيئة التي تعيش فيها ، الخ . . . صحيح أن إدراكنا الخيالي للدور الذي تقوم به قد قلّ ، لكن أضيف إليه منظور لم نتخيله نتيجة لتغيير موقف التعبير ، والنطق بمضمون النص . ويمكن ، بطبيعة الحال ، أن نعقد مقارنة بين الشخصية المقروءة والشخصية المعروضة ، لكن ، في حالة تلقي العرض ، لانهتم إلا بالشخصية الثانية . وفي هذه الحالة ، يختلف موقفنا عن موقف المخرج إختلافا عميقا ، إذ يجب أن ينطلق تحليلنا من الشخصية المعروضة التي تفرض علينا تفسيرا للنص وللعرض بأكمله . وفي هذا السياق ، يستحيل التوفيق بين وجهات نظر القاريء والمتفرج المثالي : فالأول يطالب بأن يكون أداء الممثلين متفقا مع رؤيته للشخصيات ومغامراتها ، في حين يكتفي الثاني بإكتشاف معنى النص من خلال المعلومات التي يقدمها له المخرج ، ومعرفة ما إذا كان المخرج قد جعل النص يتكلم بطريقة واضحة مفهومة ، تكرر مافيه أو تتناقض معه . ومع ذلك ، يحدث نوع من التعديل في تلقي الشخصيتين . لايمكن أن نرى الشخصية المقروءة إلا إذا أضفنا شيئا إلى خواصها المادية والمعنوية الواردة صراحة في النص ، فنحن نعيد تكوين صورتها إبتداء من بعض العناصر المبعثرة . وعلى عكس ذلك ، توجد في الشخصية المعروضة كمية من التفاصيل المرئية ، لانستطيع أن نحصيها أو نأخذها في الإعتبار عند إبداء رأينا . ومن ثم ، تستخلص السمات المناسبة ،

(٢١) انظر بالنسبة لهذا الموضوع E. T. Hall, La dimension cachée, Paris, seuil, 1971

ونطابقها بالنص ، لكن نختار الأداء الصحيح ونبسط الصورة الفنية التي تقدم لنا .

النقطة الثانية : تتعلق بعلاقة الشخصية بالممثل . جرت العادة على أن يقال إن الممثل لا خيار له : عليه أن يتقمص الشخصية ، أي أن يتوحد معها تماما . وتبين بريخت أن هذه نتيجة منطقية لنظام مسرحي كامل ، ظل راسخا لسنين عدة . ويستند في المسرح الموروث عن أرسطو على فكرة التوحد التام بين الجمهور والشخصيات التي تقدم له ، ويصبح الأمر ميسورا إذا توحد الممثل نفسه مع الشخصية ، أي تقمصها . ومن ثم ، طرح لفترة طويلة سؤال عن طبيعة الظاهرة التي تجعل الممثل « يلبس جلد » بطل وهمي . ورد ديدرو Diderot بقوله : إن الممثل لايمكن أن يكتفي بالإحساس ، وإلا كان أداؤه متفاوتا . ولابد أن ينتج مايعبر عنه عن بناء متماسك يحاكي نموذجا مجردا . . .

ورأى بريخت أن الممثل ليس مضطرا إلى تقمص الشخصية ، بل عليه بالأحرى أن يقدمها للجمهور ، بحيث يوجد مسافة بينها وبينه . وبالتالي ، تصبح علاقة التوحد بين الممثل والشخصية ، تقريبا distanciation يبقى مسافة بين الممثل ودوره ويمكنه من نقد ذلك الدور . وينسحب هذا أيضا على علاقة المتفرج بالممثل ودوره .

وجدير بالذكر أن الحديث حول هذه العلاقة يدور الآن عن « بناء الشخصية »[٢٢] . فالشخصية المسرحية لاتقدم للممثل جاهزة ، بل عليه أن يبنيها ، آخذا بعين الإعتبار مايلي : الشخصية ، بين صفحات الكتاب ، بناء نصي يقدم الكاتب عناصره ، والممثل قارىء يبني الشخصية التي سيؤديها على مستوى الخيال ، مستعينا في ذلك بمعطيات النص . والشخصية ليست ثمرة البناء النصي وقراءته فحسب ، وإنما ثمرة أبنية مسرحية سابقة : هل يستطيع الممثل أن يتصور هاملت ، أو فيدرا ، أو أوديب ، بدون أن يرجع إلى الصور المسرحية التي قدمت لهم في الماضي . و« الشخصية » الوحيدة الموجودة بطريقة محسوسة هي البناء المسرحي الحالي الذي صنعه الممثل ، فهو صاحبة ومادته في آن واحد .

النقطة الثالثة والأخيرة : هل تبقى الشخصية المسرحية أم تموت ؟ قد يخشى ألا تبقى على قيد الحياة بعد أن تعرضت لعملية الهدم المستمر ، وأن تفقد الدور الذي ظلت تلعبه على مر السنين : دورها كدعامة لبعض العلامات . فضلا عن أن الكثيرين تحدثوا في السنوات الأخيرة عن « الأزمة » التي تمر بها . تقول آن أوبرسفيلد : « الشخصية المسرحية في أزمة ، وما هذا بالشيء الجديد . لكن لايصعب علينا أن نرى أن موقفها يزداد خطورة . فلقد أصبحت مقسمة ، ممزقة ، مبعثرة بين عدة ممثلين ، وأعيد النظر في خطابها . . . »[٢٣] . وأصدر ر . أبيراشد R. Abirached كتابا أعطاه عنوانا له دلالته : « أزمة الشخصية في المسرح الحديث » . وتساءل أحد المخرجين عما إذا كان المنظور السيميولوجي سيجعل الممثل فردا أسيرا في نظام مغلق في العلامات . لكننا نقول ، مع ب . بافيس ، لاداعي لهذا القلق . فعلى الرغم من موت الشخصية الروائية ، وذوبان حدود الطابع في المونولج-الداخلي ، ليس من الواضح أن المسرح يمكن أن يستغني عن الشخصية ، وأنها ستذوب في قائمة من العلامات أو الخواص . لكن ، من

(٢٢) انظر A. Ubersfeld, L'ecole du spectateur, Paris, Editions sociales, 1981 (pages 177 - 187)

(٢٣) Lire le théâtre, op. cit. P 119

الواضح أنها أصبحت قابلة للتقسيم ، وأنها لم تعد وعيا خالصا بالذات ، يلتقي فيه كل من الأيديولوجيا والخطاب ، والصراع الاخلاقي ، والعناصر النفسية . إلا أن هذا لايعني أيضا أن النصوص المسرحية المعاصرة ، والإخراج الحالي للمسرحيات قد إستغنوا عن الممثل ، أو الشخصيات . فتبادل الشخصيات وأدوارها ، وإنقسامها ، وتضخيمها ، الخ .. يجعلنا نعي مشكلة إنقسام الوعي النفسي أو الإجتماعي . قد يسهمون في هدم بناء الفاعل والشخصية ، لكنهم لن يستطيعوا عمل أي شيء ليمنعوا بناء أبطال جدد ، أو أبطال ـ متضادين anti - heros . الشخصية المسرحية لم تمت إذن كل ما هنالك أنها أصبحت متعددة الأشكال ، وأصبح من الصعب فهمها والإلمام بأبعادها . وفي هذا تكمن فرصتها الوحيدة للبقاء على قيد الحياة .

***

المراجع

نذكر المراجع الآتية ، بالإضافة إلى المراجع التي سبق ذكرها في الهوامش :

Assaad (Samia): Regards sur le Theatre d'Arthur Adamou, Paris, Nizet, 1981

Bonnefoy (C): Entretiens avec E. Ionesco, Paris, Ed. P. Belfond, 1966.

Duculot (J): pour pratiquer les textes de theatre, Paris, duculot, 1985

Helbo (A) et autres: Semiologie de la representation, Bruxelles, Ed. complexe 1975

Jacquart (E): le theatre de derision, Paris, Gallimard, 1974

Pavis (P): problemes de semiologie theatrale, Canada, presses de L' Universite du Quebec, 1976

Pavis (P.) :Voix et images de la scene, presses Universitaires de Lille, 1982

stanislavski (C): la formation de L' acteur, Paris, Payot, 1969

Vinaver (M): Ecrits sur le theatre, lausanne, Ed. de L' Aire, 1982

Virmaux (A): A. Artaud et le theatre, Paris, seghers, 1970

* * *

لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين

حسن الوراكلي *

تمهيد

أبو عبدالله لسان الدين محمد بن عبدالله بن الخطيب السلماني (٧١٣هـ/ ١٣١٣م ـ ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م) من أشهر الشخصيات الأدبية والعلمية التي تألقت بها صفحات التراث الاسلامي ـ العربي في عدوتي الغرب الاسلامي : الأندلس والمغرب . ومرد هذه الشهرة التي ظفر بها ابن الخطيب على توالي العصور إلى عدة أمور . أهمها :

١ ـ تعدد مجالات الإبداع والبحث التي أسهم فيها ابن الخطيب ، ووفرة ما أسهم به فيها من نتاج وتصنيف مما يدل على غناء الموهبة الأدبية وسعة الاهتمام العلمي . وهو أمر أسعفت معارف ابن الخطيب المتنوعة من جهة ، وظروفه الذاتية من جهة أخرى على إغنائه وتعميقه . وقد ألم هو نفسه بالحديث عن ذلك . فقال عن المعارف المتنوعة التي حصلها فيها قال : (. . . قرأت كتاب الله عز وجل على معلم المكتب الأستاذ الصالح أبي عبدالله بن عبدالولي العواد كتبا ثم حفظا ثم تجويدا إلى مقرا أبي عمرو . . . ثم نقلني ـ أي والده ـ إلى أستاذ الجماعة الشيخ الخطيب أبي الحسن القيجاطي ، فقرأت عليه القرآن والعربية ، وهو أول ما انتفعت به وقرأت على الحسيب الصدر أبي القاسم بن جزي ، ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبدالله بن الفخار البيري . . . وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبي عبدالله بن بكر رحمه الله ، وتأدبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى أبي الحسن ابن الجياب ، ورويت عن كثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرواية . . . ومن أهل العدوة الغربية والمشرق الكثير بالإجازة . . . وأخذت الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي

(*) أستاذ كرسي الأدب الأندلسي بجامعة سيدي محمد بن عبدالله (المغرب) ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (تطوان) .

زكريا بن هذيل ولازمته . . .)[١]، وذكر داء الأرق الذي ابتلي به طوال حياته حتى لقب بذي العمرين ، فقال يتحدث عن لياليه التي كان يمضيها في الكتابة والتأليف : (. . . فاتخذت الليل جملا لهذه النطية . وامتطيت غارب العزم ونعمت المطية . بحيث لا مؤانس إلا ذبال يكافح جيش الدجا ، ودفاتر تلقح الحجا ، وخواطر تبتغي إلى سماء الإجادة معرجا)[٢].

٢ ـ عناية ابن الخطيب بالتعريف بتصانيفه ونشرها بين جمهور المتعلمين والمتأدبين ، ومن مظاهر هذه العناية :

(أ) إخباره الشخصيات العلمية البارزة من عصرييه بما يصدر عنه من جديد التأليف ، والاهتمام بانتساخه وبعثه إليها ، يدلنا على ذلك ما تحدث به هو نفسه في رسالة إلى ابن خلدون عن تقاييده وتصانيفه الجديدة ، ومنها كتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » الذي ألفه يعارض به ابن أبي حجلة جاعلا (الموضوع أشرف وهو محبة الله ، فجاء كتابا ادعى الأصحاب غرابته . . . والله يرزق الاعانة في انتساخه وتوجيهه)[٣] ، وما تحدث به مؤلف (البستان) في ترجمة أبي عبدالله محمد بن أحمد بن علي الشريف من أن علماء الأندلس كانوا (أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة والتأليف البديعة كلما ألف تأليفا بعثه إليه وعرضه عليه ، وطلب منه أن يكتب عليه بخطه)[٤].

كما يدلنا على ذلك تنويه وزير بني مرين أبي القاسم بن رضوان في رسالة له إلى ابن الخطيب بكتابه « روضة التعريف » الذي كان بعث له بقطعة منه (وأما « كتاب المحبة » فقد وقف المعظم على ما وجهتم منه وقوفا ظهر بمزية التأمل ، وعلم منه ما تراه الآخر للأول . ولم يشك في أن الفضل للحاكي[٥] . . .).

(ب) إرساله نسخا من بعض كتبه إلى مصر ووقفها على جميع المسلمين ينتفعون بها قراءة ونسخا ومطالعة ، ومن هذه الكتب (روضة التعريف بالحب الشريف) و (الإحاطة في أخبار غرناطة) وغيرهما من تآليفه ، وجعل مقرّها بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء بالقاهرة)[٦].

(ج) جلوسه لتدريس مؤلفاته وإقرائها طلبة العلم ، وقد عرفنا من هؤلاء أبا عبدالله بن بقي الذي أخذ عن ابن الخطيب في غرناطة تآليفه ورسائله[٧]. وأحد من الخطيب القسنطيني الشهير بابن قنفذ (ت ٨٠٩هـ) الذي ذكر في وفياته بأنه سمع (جملة من تواليفه ـ أي ابن الخطيب ـ قراءته هو في مجالس مختلفة)[٨]. وأغلب الظن أن ذلك كان في سلا أيام إقامته بها (٧٦٠ ـ ٧٦٣هـ) . وإذا كان لنا أن نفيد من هذه الإشارة وتلك جلوس ابن الخطيب لإسماع مؤلفاته وإقرائها طلبة العلم في مختلف فترات حياته سواء بالأندلس أو المغرب ، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأنه كان أحرص على عقد هذه المجالس العلمية بالمغرب وخاصة

(١) انظر ، الإحاطة ، ٤ : ٤٥٧ ـ ٤٥٨ (بتصرف) .
(٢) انظر ، ريحانة الكتاب ، ١ : ٢٢٤ .
(٣) انظر ، التعريف بابن خلدون : ١٢٨ ـ ١٢٩ .
(٤) انظر ، البستان : ١٧٥ .
(٥) انظر ، الإحاطة ، ٣ : ٤٥٥ .
(٦) انظر ، التعريف بابن خلدون : ١٢٩ ، ونفح الطيب ، ٧ : ١٠٥ .
(٧) انظر ، فهرست المنتوري : ٢٢٤ .
(٨) انظر ، وفيات ابن قنفذ ضمن كتاب « ألف سنة من الوفيات » ص ٨٥ .

في الفترات التي قيض له فيها الابتعاد عن مجال الحكم والسياسة والتخفف من أعبائها . وقد أشار إلى ذلك العباس بن ابراهيم فقال (وكان ابن الخطيب رحمه الله بعد فراره من ملوك بني نصر بالأندلس إلى ملوك المغرب من بني مرين واستقراره بالمغرب يدرس العلم به ، وانتفع أهل فاس وغيرهم به[٩]، [١٠]. . .) .

٣ ـ النهاية الفاجعة التي توالت مشاهدها نفاحة بالمرارة ، مفعمة بالألم : هروب واختفاء ، محاكمة وسجن ، إعدام وإحراق[١١] . هذه النهاية التي أسدل بها الستار على حياة ابن الخطيب كان لها أثرها (في تحريك أقلام الوفاء له بعد وفاته . فقد طاف حول ساحته جماعة من الأعلام والأوفياء الكرام . منهم من قصد أداء دين اللسان فاستولى على أمد الإحسان . ومنهم من آنس من بيانه العجز فاكتفى بالإشارة عن البسط والبيان[١٢] .

هذه أهم الأسباب التي أظفرت ابن الخطيب ذيوع صيت ، وصيرورة ذكر يتمثلان من لدن عصره إلى يوم الناس هذا في العناية التي أولاه إياها مصنفو كتب التاريخ والتراجم والآداب والمعارف . يترجمون به ، ويعرفون بآثاره ، ويروون أشعاره ورسائله .

ومع أن هذه العناية بابن الخطيب وتراثه الأدبي والعلمي يمكن تلمسها فيما كتبه عنه عصريّوه من مثل ابن خلدون[١٣] ، وأخيه أبي زكريا[١٤] . وكذلك فيما كتبه أعلام من الجيلين اللذين تليا جيله من مثل أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر[١٥] (ت ٨٠٧هـ) من المغاربة . وابن حجر العسقلاني[١٦] (ت ٨٥٢هـ) من المشارقة . إلا أنها ، أي العناية بابن الخطيب ، إنما بلغت أوجها على يد المقري (ت ١٠٤١هـ) حين ألف كتابه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » (فإنه لم يحسن أحد إلى ابن الخطيب كإحسانه ، ولا في مجاميع الأدب الأندلسي ما يمكن أن يقارن بنفح الطيب في جمعه وإمتاعه[١٧] . وإلى هذا الكتاب نفسه يعود الفضل حديثا . في تزايد الاهتمام بابن الخطيب وآثاره سواء لدى المستشرقين في الغرب أو لدى الدارسين العرب ، فمنذ أن ظهرت طبعة (النفح) الأولى[١٨] في ليدن سنة ١٨٥٥م بإشراف ثلة من المستشرقين على رأسهم دوزي ، ثم تلتها الطبعة الثانية بالقاهرة في غضون سنة ١٢٧٤هـ ـ ١٨٥٧م وعناية الدارسين عربا ومستعربين . تتزايد بشخصية ابن الخطيب وتصانيفه . على أنه بوسعنا أن نلمح وراء هذه

(٩) انظر ، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، ٤ : ٤٧٥ .
(١٠) من الجدير بالإشارة أن العناية بمؤلفات ابن الخطيب وآثاره في حلقات الدرس ومجالس التعليم استمرت بعد وفاته ، فوجدنا السلطان النصري محمد الغالب بالله يحبس نسخة من كتاب الإحاطة في المدرسة اليوسفية بغرناطة (على أهل العلم والطلبة . . . ليشتغل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع . انظر ، النفح ، ٧ : ٤٠ . كما وجدنا بعض شيوخ العلم في الأندلس إنفقت طلبته بتأليف ابن الخطيب ورسائله ومنظوماته . انظر ، فهرسة المنتوري ص ٢٢٤ . وفي القرن الثاني عشر سيجد السلطان محمد بن عبدالله يبعث بمصنفات تاريخية وأدبية ، منها مصنفات ابن الخطيب ، إلى مصر قصد تحبيسها على الطلبة . انظر ، الزياني ، أبا القاسم ، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا ص ٦٤ .
(١١) انظر ، تاريخ ابن خلدون ، ٧ : ٣٤١ ـ ٣٤٢ .
(١٢) انظر ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ١ : ١٧ .
(١٣) انظر ، تاريخ ابن خلدون ، ٧ : ٣٣٢ ـ ٣٣٦ ، والتعريف : ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٢ .
(١٤) انظر ، بغية الرواد ، ٣ : ١٧٥ ، ١٧٤ ، ٢٨٠ ـ ٢٨٧ ، ٢٩٩ .
(١٥) انظر ، نثير فرائد الجمان : ٢٤٢ ـ ٢٩٢ .
(١٦) انظر ، الدرر الكامنة ، ٣ : ٤٦٩ ـ ٤٧٤ .
(١٧) انظر ، ابن الخطيب من خلال كتبه ، ١ : ١٨ .
(١٨) هي طبعة جزئية شملت القسم الأول فقط من الكتاب .

العناية أمورا أخرى ، فضلا عن كتاب (النفح) ، وهي :

(أ) طبع بعض المصادر التاريخية والأدبية التي عني أصحابها بالترجمة لابن الخطيب وذكر تآليفه والتنويه بفضله ، وأهمها تاريخ ابن خلدون الذي صدر في القاهرة عن مطبعة بولاق (١٢٨٤هـ) ، وكتاب (الاستقصا) للناصري وقد تم طبعه بمصر (١٣١٢هـ) ، وكتاب (أزهار الرياض) للمقري ، وقد صدر الجزء الأول منه في تونس عام ١٣٢٢هـ .[١٩]

(ب) ظهور بعض تصانيف ابن الخطيب مطبوعة بعناية مستشرقين أو ناشرين عرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، وكان بعض هذه التصانيف في التاريخ ، وبعضها في الرحلة ، وبعضها في التراجم ، وكان بعضها نظما ، وبعضها ترسلا . الأمر الذي أمكن معه الوقوف على أمثلة من أسلوب ابن الخطيب ومنهجيته في التأليف .

(ج) ارتفاع الدعوة ، في خضم المقاومة العربية ضد الهيمنة الامبريالية الغربية ، إلى بعث التاريخ العربي وإحياء تراث الامة الأدبي والعلمي والحضاري ، ومن ضمنه تراث الأندلس ، ومن ضمن هذا تراث ابن الخطيب ، وكان لهذه الدعوة صداها الملموس في أوساط الدارسين العرب بعامة ، والمغاربة بخاصة ، سواء داخل الجامعة أو خارجها[٢٠] .

(د) تمثل فئة من المستشرقين الأسبان وخاصة الأندلسيين منهم حقيقة تاريخ أمتها ووعيها بالدور العظيم الذي نهض به الأسباني المسلم العربي في نسج خيوط ذلك التاريخ وصياغة آثاره الثقافية والمعرفية والحضارية[٢١] ، وقد كان من أثر هذا وذاك اهتمام أقسام العربية والاسلام في كلية الآداب بالجامعات الأسبانية وخاصة آداب غرناطة ومدريد وبرشلونة ب (الموضوع) الأندلسي وتوجيه طلبة الدراسات العليا ، إسباناً وغير إسبان ، إلى تحقيق نصوصه التراثية وترجمتها ، ودرسها ، هذا فضلا عما أولاه الاستشراق خارج أسبانيا ، في ألمانيا ، وهولاندا ، وفرنسا ، وانجلترا ، تراث الأندلس الأدبي ، والفكري ، والتاريخي من عناية واهتمام منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ولنا ، بعد هذا ، أن نتساءل : ماذا كانت حصيلة الاهتمام بابن الخطيب وتراثه ؟ وما هي مظاهر هذه الحصيلة ؟

أما حصيلة هذا الاهتمام فيعكسها لنا الثبت البيليوجرافي الذي عُنينا بجمعه مما وقفنا عليه من كتابات عن ابن الخطيب في مختلف المصادر والمراجع ، وهو يتألف من مئات العناوين التي تناول فيها أصحابها مختلف جوانب هذه الشخصية وتراثها الأدبي ، والفكري ، والتاريخي بالبحث والدرس في العربية وفي غير العربية من اللغات الحية .

وأما مظاهر هذا الاهتمام فتبدو في مجالات أربعة ، نتناولها بالدرس فيما يلي :

أ - مجال النشر والتحقيق

بالاضافة الى أن بعض تصانيف ابن الخطيب وآثاره كانت في أوائل ما عرف طريقة إلى الطبع من كتب التراث الأندلسي فإنها في جملتها تعتبر من أوفر كتب هذا

(١٩) صدرت عن مطبعة بولاق ، وهي أول طبعة تشمل مجموع الكتاب .

(٢٠) انظر ، د . إحسان عباس ، « الأدب في الأندلس والمغرب » ضمن كتاب آثار (الأدب العربي في آثار الدارسين) ص ٢٥٧ .

(٢١) انظر ، دراستنا « الأدب المغربي الحديث في اللغة الأسبانية » ، مجلة (عالم الفكر) مج ١٧ ع ١ ص ١٦٧ .

التراث حظا من النشر والتحقيق سواء لدى المستشرقين أو لدى الدارسين العرب .

١ ـ لدى المستشرقين

يمكن التاريخ لظهور آثار ابن الخطيب مطبوعة في العصر الحديث بنشر أرجوزة « رقم الحلل في نظم الدول » في النصف الأخير من القرن الثامن عشر بعناية الراهب ميخائيل الغزيري[٢٢] . ثم بعد ذلك بعقود من السنين نشرت بعض رسائل ابن الخطيب وأشعاره مضمنة في القسم الأول من كتاب « النفح » للمقري في ليدن سنة ١٨٥٥م بعناية جماعة من المستشرقين أشهرهم « دوزي » الهولاندي .

ثم توالت عناية المستشرقين بآثار ابن الخطيب ، فنشر المستشرق الإسباني (فرنثيسكو سيمونيت) سنة ١٨٦٠م الجزء المتعلق بمملكة غرناطة من كتاب « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » وجعله ملحقا بكتابه « وصف مملكة غرناطة تحت حكم بني نصر »[٢٣] . ثم نشر المستشرق الألماني (ماركوس مولر) سنة (١٨٦٦م) الجزء المتعلق ببلاد المغرب من الكتاب المذكور مع أثرين آخرين لابن الخطيب ، هما : « خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف » و « مفاضلة مالقة وسلا » في كتاب بعنوان « نخب من تاريخ الغرب العربي »[٢٤] . واهتمت طائفة من المستشرقين بكتاب « إعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » فنشر منه (فرنثيسكو كوديرا) الأبواب المتعلقة بأميري دانية : مجاهد وابنه إقبال الدولة[٢٥] ثم نشر المستشرق البرتغالي (دافيد لويس لويس) الأبواب المتعلقة بثوار المريدين في نهاية دولة الملثمين[٢٦] ، واعتنى المستشرق الاسباني (ملشور أنطونيا) بنشر الفصل الخاص بملوك إسبانيا المسيحية[٢٧] . أما ليفي بروفنصال فقد اهتم بنشر النص الكامل للقسم الثاني من (إعمال الاعلام . . .) ، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٤ بالمغرب . وفي إطار اهتمام الاستشراق بتراث ابن الخطيب التاريخي نشر (كاسبار رميرو) مجموعة من الرسائل الديلوماسية استخرجها من كتاب « ريحانة الكتاب » تحت عنوان « مراسلات ديلوماسية بين غرناطة وفاس في القرن الخامس عشر »[٢٨] .

كما عني الاستشراق بتراث ابن الخطيب الطبي ، وكان (ماركوس مولر أول من اهتم بهذا الجانب في تراث ابن الخطيب ، فنشر سنة ١٨٦٣م رسالة « مقنعة السائل عن المرض الهائل »[٢٩] . ثم نشرت المستشرقة الإسبانية (مارية دي لاكونثيون) عملين طبيين آخرين لابن الخطيب ، أولها « عمل من طب لمن حب » (١٩٧٢) ، وثانيهما « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » (١٩٨٤) . وحظي كتاب « السحر والشعر » دون غيره من آثار ابن الخطيب الأدبية بعناية مستشرق إسباني هو (كونتيننتي فرير) فنشر الكتاب سنة ١٩٨١ ضمن مطبوعات المعهد الإسباني ـ العربي للثقافة بمدريد وعلى

(٢٢) انظر ، Bibliotheca Arabico - hispano Escurialends, t.2pp. 177-246.

(٢٣) انظر ، Simonet, Francisco Javier, Descripcion del Reino de Granada bajo la dominacion de los Naseritas. (Maarid, 1860).

(٢٤) انظر ، Marcus, J. Muller Beitrage zur Geschichte der Westlichen Araber. (Munchen, 1866).

(٢٥) انظر ، Centenario Michele Amari, Vol. 2, pp. 130-133.

(٢٦) انظر ، Arabes mas obras de Alexandre Herculano. pp. 130-137 (Lisbonne, 1911).

(٢٧) انظر ، Revista "ÅL-Andealus" Vol. 1 pp. 105-154 (1933).

(٢٨) انظر ، REvista del Centro de estudios historicos de Granada Y su Reino. Tomo II (1912), III (1913) ، IV (1913 — 1914).

(٢٩) انظر ، Sitzungsberichte der K. Bayerisehen. Academie der unissenchaften, 2 pp. 1—34 (1863).

اهتمام الاستشراق عموما ، بكتب التصوف وتصانيفه واهتمام الاستشراق الإسباني ، على الخصوص ، متمثلا في أحد أعلامه وهو الأستاذ آسين بلاثيوس ، بتراث الأندلس الصوفي ، فإننا لم نعرف سواء من مستشرقي الإسبان أو من غيرهم أحدا عني نفسه بنشر أثر من آثار ابن الخطيب الصوفية مثل « روضة التعريف بالحب الشريف » . وغاية ما نعلم في هذا الصدد أن المستشرق الفرنسي (ماسينيون) كان حاول أن يحفز همم تلاميذه إلى تحقيق (الروضة) ولكنهم لم يفعلوا[٣٠] . غير أن هذا لم يحل بين أفراد من الجيل الجديد من المستشرقين الاسبان والفرنسيين وبين دراسة « روضة التعريف » على نحو ما سنبين في فقرة أخرى من هذه الدراسة .

٢ ـ لدى الدارسين العرب

لم تمض على ظهور الطبعة الأوربية للنفح إلا بضع سنين حتى ظهرت الطبعة الشرقية للنص الكامل للكتاب فأتيحت بذلك للقارىء فرصة الاطلاع على حظ غير يسير من شعر ابن الخطيب وترسله ، كما أتيحت له بذلك فرصة التعرف على عناوين مؤلفات ابن الخطيب وتصانيفه في مختلف المعارف والفنون ، الأمر الذي نقدر أنه حدا ببعض المشتغلين بالعلم والأدب في المشرق والمغرب إلى البحث والتنقيب عن تلك المؤلفات والتصانيف والتفكير في نشرها . وهكذا نشرت في تونس عام ١٣١٦هـ ـ ١٨٩٨هـ أرجوزة « رقم الحلل في نظم الدول » ، وتولى الاستاذ شفيق العظم في القاهرة عام ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م نشر جزأين من الإحاطة ، ثم نشر بفاس عام ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م النص الكامل لكتاب « معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » . وفي نفس التاريخ أو قريبا منه نشر بفاس أيضا طرف يقع في نحو ثمانين صفحة من كتاب « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء المائة الثامنة »[٣١]، ثم نشر الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب عام ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م القطعة المتعلقة من كتاب « إعمال الأعلام » بتاريخ إفريقية وصقلية[٣٢].

وقبل أن نلم بجانب آخر من جوانب الحديث في هذه الفترة تنبغي الإشارة إلى أن جل ما رأيناه نُشر من آثار ابن الخطيب ، سواء على يد المستشرقين أو على يد الناشرين العرب ، جاء مليئا بالتصحيف والتحريف خلوا من التخريج والتعليق ، ومع ذلك فإنه لم يخل من فوائد تمثل أهمها في حفز همم طائفة من الدارسين المتخصصين للاعتناء بآثار ابن الخطيب بما فيه بعض الآثار التي سبق نشرها وذلك بتحقيقها التحقيق العلمي الرصين ، وكان من أثر ذلك أن تعززت المكتبة الأندلسية ، على مدى العقود الأربعة الأخيرة ، بجملة من مؤلفات ابن الخطيب وتصانيفه نذكر منها في مجال التاريخ والرحلات والتراجم : « الاحاطة في أخبار غرناطة » (١٩٥٦) بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان ، و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » و « مفاضلة بين مالقة وسلا » و « معيار الاختيار » وقطعة من « نفاضة الجراب »[٣٣] (١٩٥٨) بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، والجزء الثالث من كتاب « إعمال الأعلام » (١٩٦٤) بتحقيق الأستاذين محمد ابراهيم الكتاني وأحمد مختار العبادي ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » (١٩٦٦) و « معيار الاختيار » و « أوصاف الناس في

(٣٠) انظر ، تصدير « روضة التعريف » بتحقيق الأستاذ عبدالقادر أحمد عطا ، ص ١٣ .

(٣١) لم نقف على هذه الطبعة ، وقد ذكرها المرحوم الأستاذ عبدالسلام بن سودة في « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » ١ : ٢٩٧ رقم ١٠٨٣ . كما ذكرها المرحوم الأستاذ إدريس بلماحي القيطوني في « معجم المطبوعات المغربية » بطاقة رقم ١٩٧ ، ولم يشر إلى هذه الطبعة الدكتور إحسان عباس في مقدمة تحقيقه للكتاب .

(٣٢) انظر ، Centenario Michele Amari Vol. 2 pp. 427—482.

(٣٣) نشرت هذه الرسائل تحت عنوان « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس » ، جامعة الاسكندرية (١٩٥٨) .

التواريخ والصلات » وكلها بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانة . وفي مجال التراث الأدبي : « الكتيبة الكامنة » (١٩٦٣) بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، و « جيش التوشيح » (١٩٦٧) بتحقيق الأستاذ هلال ناجي ، و « الصيب والجهام والماضي والكهام » (١٩٧٣) بتحقيق الدكتور محمد الشريف قاهر . و « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » (١٩٨٠) بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان . وفي مجال التراث الصوفي والسياسي والفقهي « روضة التعريف بالحب الشريف » بتحقيقين : أحدهما للأستاذ المرحوم عبدالقادر أحمد عطا ، وثانيهما للدكتور محمد الكتاني ، و « الاشارة الى أدب الوزارة » و « مقامة السياسة » (١٩٨٠) وكلاهما بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانة ، و « مثل الطريقة في ذم الوثيقة » بتحقيقين : أحدهما للأستاذ عبدالحفيظ منصور (١٩٦٦) وثانيهما للدكتور عبدالمجيد التركي (١٩٨٣) . هذا فضلا عما أنجز من تحقيقات لأعمال أخرى في نطاق رسائل وأطروحات جامعية ولم ينشر بعد ، مثل « ديوان ابن الخطيب »[٣٤] بتحقيق الدكتور محمد مفتاح ، وكتاب « السحر والشعر » بتحقيقات ثلاثة : أحدهما للأستاذ قدور إبراهيم عمارين محمد[٣٥] ، وثانيهما للدكتور كونتثي فرير وثالثها للأستاذ محمد مفتاح[٣٦] .

على أن ما ينبغي التنبيه إليه هنا هو أن أثر الجهد الصادق المخلص المبذول في سبيل إخراج هذه للآثار على صورة علمية مرضية سمة تطبعها جميعها ، غير أنها ، مع ذلك ، ليست على مستوى واحد من حيث التحقيق العلمي الرصين تبعا لتفاوت محققيها في الأخذ بأسباب هذا التحقيق والتزامهم بقواعده وشرائطه . ومن ثم نستطيع أن نميز فيما أنجز من تحقيقات لتراث ابن الخطيب التاريخي ، والأدبي ، والفكري مستويين اثنين :

« أولهما استوفى من التوثيق والضبط ، والتصحيح والتدقيق ما جعل الأثر المحقق على الصورة التي وضعه بها مؤلفه أو أقرب ما يكون منها ، ومرد ذلك ، بدرجة أولى ، إلى مقدرة المحقق العلمية بعامة وتمكنه من مادة الأثر المحقق بخاصة . ويمثل هذا المستوى بتحقيقات الدكتور العبادي لبعض آثار ابن الخطيب في الرحلة والتاريخ من مثل الرسائل الأربع التي نشرها تحت عنوان « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس » والجزء الثاني من « نفاضة الجراب في علالة الاغتراب » والقسم الثالث من « إعمال الأعلام » فقد أنفقت فيها من معرفته بقواعد التحقيق العلمي وشروطه ومن سعة اطلاعه على عصر مؤلفها في مختلف جوانبه ما استطاع به أن يجلو الآثار المذكورة ، سواء من حيث توثيق النصوص أو تعليق الحواشي ، أو صنع الفهارس ، على صورة مثلى أدى بها خدمة جليلة للمشتغلين بتاريخ المغرب والأندلس[٣٧] واستحق ثناءهم تنويههم[٣٨] ومثال آخر للتحقيق القائم على منهج علمي ، رصين وسليم يطالعنا فيما أنجزه الدكتور محمد الكتاني لكتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » ، فقد اعتمد فيه لتوثيق النص وإقامته تسع مخطوطات ما بين نسخ مغربية وأخرى مشرقية مغنيا إياه بهوامش تضمنت تخريجات وشروحا وتعريفات بالغة القيمة والأهمية في استجلاء النص ، هذا فضلا عما ذيل به

(٣٤) قدم ـ مع دراسة لشعر ابن الخطيب ـ لنيل دبلوم الدراسات العليا في آداب فاس (١٩٧٩م) .
(٣٥) قدم تحقيقه ـ مع دراسة ـ لنيل الماجستير بآداب عين شمس بالقاهرة (٣٥م) (١٩٧٥) . قدم تحقيقه مع دراسة وترجمة إسبانية للنص ـ لنيل الدكتوراه بآداب مدريد المركزية .
(٣٦) قدم تحقيقه ـ مع دراسة ـ لنيل دبلوم الدراسات العليا بآداب فاس (١٩٨١م) .
(٣٧) انظر « د . حسين مؤنس ، عرض لكتاب « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب مجلة المعهد المصري ع ١ ـ ٢ مج ٥ ص ٢٧٨ .
(٣٨) انظر ، عرض د . محمد بنشريفة لكتاب (الثقافة) . مجلة الكتاب المغربي ع ٤ ص ٢٤٠

الكتاب من فهارس علمية تيسر عملية البحث فيه والافادة من محتوياته . كل ذلك أضفى على تحقيق الدكتور الكتاني من الدقة والضبط والاتقان ما وفق به حقا (في تقديم نص هذا الكتاب للمكتبة العربية كأقرب ما يكون إلى أصله)[٣٩] . مما جعل هذا التحقيق للروضة معتمد الدارسين ، في بحوثهم حول الفكر التصوفي عند ابن الخطيب[٤٠] .

وثاني المستويين لم يستوف ما استوفاه الأول من شروط التحقيق العلمي الدقيق مما جعل النص (المحقق) عرضة للتصحيف . والخطأ . والإضطراب ويمكن عزو ذلك إلى جملة أسباب . قد يكون منها عدم تمكن المحقق ، علميا من مادة الأثر الذي تصدى لتحقيقه . وقد يكون منها كذلك تنوع مادة هذا الأثر مما يستدعي تنوعا في الاختصاص العلمي عند المحقق أو المحققين . وقد يكون منها ، أيضا ، إغفال بعض نسخ الأثر المحقق مما قد يكون في الرجوع إليه وإعتماده في توثيق النص وإقامته فائدة عظيمة . ويمثل هذا المستوى بتحقيق المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان لكتاب « الإحاطة » فإن به من ألوان التصحيف والخطأ ما جعل عدد غير قليل من نصوص الكتاب غاية في الإختلال والإضطراب . الأمر الذي دفع ببعض الدارسين إلى كتابة مقالات يتعقبون فيها تصحيفات النص (المحقق) وأخطاءه مصححين مقومين[٤١] . ولعل أهم سبب في ضعف تحقيق (الإحاطة) يعود إلى تنوع مادتها . ففضلا عن الأدب بشعره وترسله . وهو مما لاعلاقة له بالتخصص العلمي للمحقق . تشتمل (الإحاطة) على التاريخ والجغرافية وغيرهما من المعارف والفنون ، ومن هنا كان تحقيق نصها (يحتاج إلى مجهود جماعي من الأدباء والمؤرخين والجغرافيين لتحقيق ماورد في هذه الموسوعة من أعلام وأماكن . وشرح أسلوبها المعقد على أساس علمي صحيح)[٤٢] . وإلى (الإحاطة) نضيف مثالا آخر هوالتحقيق الذي أنجزه المرحوم الأستاذ عبدالقادر أحمد عطا لكتاب « روضة التعريف » فإن به قصورا من نواح شتى . يتعلق بعضها بتوثيق النص إذ إكتفى المحقق في ذلك بإعتماد ثلاث نسخ مشرقية لم تسعفه على تصحيح ما بالنص من تصحيفات وأخطاء ، ولم تسعفه كذلك على سد مابه من ثغرات وملء مابه من إسقاطات ، ويتصل بعضها الآخر بتعليق الحواشي . فلم يعن بتخريج إقتباسات النص وإشاراته وشرح مصطلحاته . هذا فضلا عن أخطاء النص المطبعية وخلوه من الفهارس الفنية مما جعل هذا العمل دون مستوى التحقيق العلمي الجيد .

ب - مجال الدرس والبحث .

كانت مواهب ابن الخطيب الأدبية ومعارفه العلمية من الغناء والسعة بالدرجة التي أتيح له معها أن يجري قلمه بالتأليف في مختلف الفنون والعلوم من أدب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وتصوف ، وأخلاق ، وفقه ، وسياسة ، وطب ، وبيطرة ، وموسيقا ، وغير ذلك مما تدل عليه عناوين كتبه ورسائله . وتبعا لهذا تنوعت الدراسات والبحوث التي أنجزت حول شخصية ابن الخطيب وتراثه وتعددت سواء في العربية أو في غيرها من اللغات . على أننا ، مع ذلك ، نستطيع أن نصنفها في مستويين اثنين ، هما :

(٣٩) انظر ، مقدمة المحقق لكتاب (الروضة ج ١ ص ٧٩ .
(٤٠) Emilio de Santiago Simon, El poligrafo granadino Ibn al—Jatib y el sufismo, pp. 65—66.
(٤١) انظر ، سلسلة المقالات النقدية التي كتبها أستاذنا محمد بن تاويت حول (الإحاطة) في أعداد مجلة (المناهل) : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥
وانظر كذلك العرض النقدي حول تحقيق (الإحاطة) للدكتور عبداللطيف عبدالحليم ، مجلة (أوراق) ع ٤ ص ٩٩ - ١١٠ .
(٤٢) انظر ، د . أحمد مختار العبادي ، من التراث العربي الإسباني ، مجلة (عالم الفكر) مج ٨ ع ١ ص ٦٨ (١٩٧٧) .

١ - دراسات وبحوث عامة .

وهي التي أراد بها أصحابها تصوير حياة ابن الخطيب والتعريف بآثاره . ومثل هذه الغاية ، ولاسيما حين يتعلق الأمر بشخصية كشخصية ابن الخطيب في ثراء نشاطها وخصب إنتاجها ، تستلزم نفسا طويلا في البحث والتنقيب ، ومن ثم لم يقدم على النهوض بذلك إلا فئة قليلة العدد من الدارسين . كان السباق فيهم إلى الحلبة العلامة المحقق الأستاذ محمد بن أبي بكرّ التطواني بتأليفه سنة ١٩٤٨ كتاب « ابن الخطيب من خلال كتبه »[٤٣] ، في جزأين ، رسم فيهما حياة ابن الخطيب معتمدا على كتبه ، ودرس آثاره دراسة تميزت بالتقصي والتعمق (مما ينم على إطلاع واسع وإستحضار لايقل عما تحدثنا به الروايات عن العلماء الأعلام من حفاظ الإسلام[٤٤] ويمكن القول بأن كتاب « إبن الخطيب من خلال كتبه » يمثل ، بما حوى من مادة علمية غنية عن حياة ابن الخطيب وآثاره . معلما بارزا في تاريخ الدراسات الخطيبية ، يفصل بين مرحلتين عرفتهما هذه الدراسات ، إحداهما وهي ماقبل ظهور هذا الكتاب ، يغلب على إسهاماتها عنصر (الترجمة) بما يطبعه من تكرار و « اجترار » مما جعلها ، أي الإسهامات ، تدور في حلقة واحدة ، هي حلقة الترجمة لابن الخطيب وسرد أسماء تصانيفه ، دون أن تقوى على مغادرتها في محاولة لإحداث حلقات أخرى للبحث حول ابن الخطيب وتراثه . أما المرحلة الثانية ، وهي مابعد ظهور كتاب « ابن الخطيب من خلال كتبه » . فقد حرصت إسهاماتها أو جلها ، مفيدة من طريف الدراسة المذكورة وجديدها ، ومتذرعة بكشوف جديدة لبعض مصنفات ابن الخطيب ورسائله ، على التعمق بالدرس والتحليل في جوانب متعددة من إبداع ابن الخطيب وفكره على نحو ماسنبين فيما بعد .

ومع أنه قد مضت على تأليف هذا الكتاب وطبعه مدة غير قصيرة ، ظهرت خلالها دراسات عامة وخاصة حول ابن الخطيب ، فإن كتاب الفقيه التطواني لم يعدم طرافته ولم يفقد جدته ، بل إنه لايزال كيوم ظهوره (يبهر القاريء بالأسلوب الرفيع ، والعلم الغزير ، والتحقيق المنقطع النظير)[٤٥] كما يقول أستاذنا الدكتور محمد بنشريفة .

أما العمل الثاني الذي عرفناه ضمن الدراسات والبحوث العامة عن ابن الخطيب فهو كتاب « لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري » الذي ألفه عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان مضمنا إياه دراسة (مستفيضة لحياة ابن الخطيب وتراثه ، إستوعب فيها مراحل هذه الحياة السياسية والفكرية القلقة بتفصيل شاف)[٤٦] و (فهرسا جامعا مفصلا عن آثار ابن الخطيب ، يقوم على دراسة واقعية شاملة لهذه الآثار)[٤٧] ولكي ينجز المؤلف ذلك قسم دراسته الى أربعة كتب ، أولها في حياة ابن الخطيب ، وثانيها في تراثه الفكري ، والثالث والرابع أدرج فيهما نماذج من ترسل ابن الخطيب وشعره ، وإذا كان المؤلف أعرب في مقدمة كتابه عن إعجابه بشخصية ابن الخطيب وتقديره لتراثه وخاصة التاريخي منه باعتباره في نظره (من بين تراثه الزاخر أقيم ما خلف لنا ، ولاسيما عن

(٤٣) صدر عن معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان سنة ١٩٥٤ . وتبقى الإشارة إلى ظهور دراسات أخرى عامة قبل هذا التاريخ ، ولكنها غير وافية مثل دراسة « دي گدكوا » بعنوان « ابن الخطيب : حياته وأعماله التاريخية وقد صدر بباريس سنة (١٩١٧م) ودراسة « مقشور ألطونيا » بعنوان « العالم الغرناطي الشارك ابن الخطيب » . وقد صدرت بالاسكوريال سنة ١٩٢٦ ، ودراسة الأستاذ أحمد السكتاني ، وقد نشرت في خمس حلقات بمجلة (المغرب خلال سنتي ١٩٣١ - ١٩٣٢ .

(٤٤) انظر ، المقدمة الأستاذ عبدالله كنون للكتاب ج ١ ص ٩ .

(٤٥) انظر ، د . محمد بنشريفة ، « من الجديد في شعر ابن الخطيب » مجلة كلية الآداب بتطوان ع ٢ ص ٨٧ .

(٤٦) انظر ، مقدمة المؤلف للكتاب ص ٣ .

(٤٧) نفسه ص ٥ .

تاريخ القرن الثامن الهجري في الأندلس والمغرب وعن أحداث عصره ، وتاريخ الدولة النصرية بنوع خاص[٤٨] ، فإنه قد أكد هذا النزوع التاريخي عنده في دراسته ، فخص حياة ابن الخطيب في كتابه الأول بتسعة فصول استغرقت في مجموعها أزيد من ثمانين صفحة بينما خص تراثه بخمسة فصول وقعت في نحو خمس وسبعين صفحة . وهنا نلمس الفرق بين دراسة الأستاذ عنان والسابقة لها ، فهذه ، على عكس تلك ، إكتفت بتحرير ترجمة مركزة لابن الخطيب في نحو خمسين صفحة ووقفت بقية الكتاب ، أي نحو أربعين ومائتي صفحة ، على دراسة تآليف الرجل معتنية ، خلال ذلك ، بإستخلاص ما من شأنه أن يكشف عن جانب من جوانب حياة ابن الخطيب وشخصيته وعلاقاته بمعاصريه أو يبلور آراءه وأفكاره ومواقفه . ومن الجدير بالإشارة كذلك أن دراسة الأستاذ عنان لمصنفات ابن الخطيب ، على ما بها من جهد غير منكور ، لم تسلم من مآخذ غالبيتها من عدم إفادتها ـ أي الدراسة ـ من سابقتها[٤٩] .

أما الدراسة الثالثة من الدراسات العامة حول ابن الخطيب فقد كتبها الأستاذ البحاثة الحسن السائح بمناسبة ذكرى مرور ستمائة سنة على وفاة ابن الخطيب ونشرها في كتاب بعنون « منوعات ابن الخطيب »[٥٠] عرف فيها بعصر ابن الخطيب وثقافته وصلاته وإهتماماته الأدبية والعلمية ، وشفع ذلك بإختيارات من شعر الرجل وترسله ، وكل ذلك أضفى على دراسة الأستاذ السائح طابعا تعريفيا لم يجد معه متسعا للتحري والتعمق أو إثارة تساؤلات لم يسبق إثارتها حول حياة ابن الخطيب وسيرته وإبداعه وفكره .

٢ ـ دراسات وبحوث خاصة .

لاتغني الدراسات والبحوث العامة التي ينجزها أصحابها حول شخصية ما من الشخصيات الأدبية والعلمية وتراثها . مهما كان حظها من الإستقصاء والإستيعاب ، عن الدراسات والبحوث الخاصة ، وهي التي يعني فيها أصحابها ، عادة ، بالبحث في ظاهرة خاصة في أدب الشخصية المدروسة أو في فكرها في محاولة لبلورة إهتمام أدبي أو علمي متميز عندها أو للكشف عن الجديد والطريف في إبداعها الفني ، ونتاجها الفكري ، غير أنه ينبغي أن نقرر ، هنا ، حقيقة ربما غفل عنها بعض الناس فانتقصوا بسبب ذلك من أهمية الدراسات والبحوث العامة ، ذلك أن هذه ، أي الدراسات والبحوث العامة لئن لم تتح لها طبيعتها ، في الأغلب الأعم ، وهي طبيعة التقديم والتعريف التعمق في الدرس والتقصي في البحث فإن ذلك ليس يحول بينها وبين إثارة تساؤلات وإستفسارات غالبا ماتكون هي البواعث على إنجاز الدراسات والبحوث الخاصة التي ليست تعدو أن تكون ، في نهاية التحليل ، أكثر من جواب ، غير قطعي ، بطبيعة الحال ، عن تلك التساؤلات والإستفسارات .

مهما يكن من أمر فإن الدراسين ، عربا وغير عرب ، لم يتركوا ، على مدى العقود الأربعة الأخيرة ، جانبا من جوانب التراث الأدبي والعلمي لابن الخطيب دون أن يتناولوه بالبحث والتحليل حتى أصبحنا بإزاء عدد وافٍ من الدراسات والبحوث المتخصصة عالج فيها مؤلفها شخصية الرجل الأدبية والعلمية (بما لامزيد عليه)[٥١] .

(٤٨) نفسه ، ص ٣ .
(٤٩) للتمثيل على ذلك تنظر من كتاب الأستاذ عنان الصفحات التالية ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٦٧ حيث تردد حول بعض كتب ابن الخطيب أوهام كان سبق للفقيه التطواني أن تناولها وحقق أمرها في كتابه . تنظر الصفحات ، ٢ : ٥٤ ، ٧٦ ، ٨٨ .
(٥٠) صدرت ضمن مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .
(٥١) انظر ، كنون عبدالله ، مصنف ورزقان ص ٨٥ .

وسنرصد ، فيما يلي ، أمثلة من تلك الدراسات والبحوث على النحو التالي :

أ ـ في الأدب

إذا تركنا جانبا ماكتب عن ابن الخطيب ضمن الكتب التي أرخ بها أصحابها للأدب العربي أو لفن من فنونه بعامة أو في الأندلس بخاصة فإن في طليعة الدراسات التي خص بها أصحابها ، فيما نعلم ، جانبا من الإبداع الأدبي عند ابن الخطيب تلك التي كتبها الأستاذ محمد بن البشير منذ ربع قرن حول (شعر ابن الخطيب وموشحاته)(٥٢) ، ونشرتها مجلة (البينه)(٥٣) ، وهي ، على فقرها من حيث المادة الشعرية وعدم احتفالها بنقد ما اعتمدته منها وتحليل تعتبر رائدة في هذا المجال من مجالات الدراسات الخطيبية ، وإليها يعود حظ من الفضل فيما ظفر به شعر ابن الخطيب وأدبه ، فيما بعد ، من بحوث ودراسات جامعية من مثل ماكتبه الدكتور محمد مفتاح حول شعر ابن الخطيب ضمن التقديم الدراسي لديوان ابن الخطيب الذي جمعه من مختلف المصادر(٥٤) ، ومثل دراسة الأستاذ وهاب سعيد الأمين عن « شعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية »(٥٥) ، ودراسة الدكتور محسن العبادي بعنوان (لسان الدين بن الخطيب الأديب)(٥٦) ، وجميعها لم ينشر بعد ، إلا أننا أطلعنا على أولاها ، وتقع في نحو إثنين وسبعين صفحة من القطع الكبير ، وهي دراسة وصفية للفنون الشعرية عند ابن الخطيب . أما من حيث مستواها التحليلي فهي دون ماسيعرف عن الدكتور مفتاح مؤلفها فيما بعد من شغف بالغ بالتحليل السيميائي للنص الشعري ، ولكنها ، أي الدراسة ، تسجل ، مع ذلك ، خطوة هامة في الدراسات الخطيبية المتعلقة بنتاج الرجل الأدبي والشعري خاصة .

أما في غير العربية فلعل أوفى دراسة حول شعر ابن الخطيب هي التي كتبها الدكتور (كونثيتي فرير) حول نص واحد من مطولات شعر ابن الخطيب هو قصيدته المسماة « المنح الغريب في الفتح القريب » ، غير أننا ، للأسف ، لم نطلع ، إلى الآن ، على الدراسة المذكورة مع حرصنا على ذلك . فلا سبيل ، إذن ، إلى وصفها وتقويمها .

ب ـ في التاريخ

فيما عدا دراستين جامعيتين ، لم تنشرا بعد ، عنيتا ، كما يدل على ذلك عنوانهما(٥٧) ، بالجانب التاريخي في تراث ابن الخطيب فإن مانعرفه مما أنجز من دراسات وبحوث حول هذا الجانب لا يتجاوز عدده الأربعة : إثنين بالعربية ، وأخريين بغير العربية ، إحداهما بالفرنسية والثانية بالإسبانية ، أطلعنا من هذه الدارسات على ثلاثة نعرض لها مرتبة بحسب تاريخ نشرها .

أولاها هي الدراسة التي كتبها الأستاذ محمد زنيبر ، وعنوانها (ابن الخطيب والتجديد في المنهج التاريخي)(٥٨) ، تناول فيها بالبحث (طريقة ابن

---

(٥٢) ظهرت قبل هذه الدراسة دراسة أخرى متخصصة لم نتمكن من الاطلاع عليها كتبها الأستاذ فؤاد أفرام البستاني بعنوان « ابن الخطيب وقيمة الموشحات » .

(٥٣) ع ١ (١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م) .

(٥٤) انظر ، شعر أبي عبدالله محمد لسان الدين بن الخطيب ، نسخة مرقونة بمكتبة آداب الرباط .

(٥٥) انظر ، شعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية ، نسخة مرقونة بمكتبة آداب القاهرة .

(٥٦) انظر ، لسان الدين بن الخطيب الأديب ، نسخة مرقونة بمكتبة آداب القاهرة .

(٥٧) انظر ، كمال حليمة ، نفاضة الجراب لابن الخطيب (رسالة إجازة منها نسخة مرقونة بمكتبة آداب فاس) ، وانظر ، Faghia, Saadio, Nufadit al- yirab de Ibn al- Jatib (Edicion y estudio)

(أطروحة دكتوراة ، منها نسخة بمكتبة كلية الآداب بجامعة مدريد المركزية ـ أسبانيا) .

(٥٨) انظر ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ع ٢ ص ٧٩ وما بعدها ٧٩ م .

الخطيب في معالجة الكتابة التاريخية والروح التي كان يفهم بها التاريخ »[٥٩] ، وذلك من خلال دراسة تحليلية للعوامل الذاتية والموضوعية التي دفعت ، إلى جانب الميل الخاص ، بابن الخطيب إلى الإهتمام بالكتابة التاريخية ، وتصوره ، من خلال الكتابة المذكورة ، للمادة الأولى للتاريخ ومفهومه وصياغته ومنهجه في التعامل مع الأحداث . وقد إستخلص الباحث في ختام الدراسة نتائج لاتخلو من أهمية حتى ماورد منها في صيغة تساؤلات . غير أننا ، مع تنويهنا بما في الدراسة المذكورة من إجتهاد في التحليل والإستنباط ، لايفوتنا أن نشير إلى عيب تلبسها ، ويتمثل فيما طغى على فقرتين من فقراتها من حشو وإستطراد لاداعي لهما في دراسة موجهة إلى جمهور المتخصصين أما الأولى فقد ضمنها الكاتب عرضا مفصلا للفرق بين المنهاج اليوناني والروماني والمنهاج الإسلامي في كتابه التاريخ[٦٠] ، وأما الثانية فقد أفاض فيها القول عن صياغة التاريخ وأسلوبه[٦١] .

وثانية هذه الدراسات كتبها مستشرق ألماني هو « ولهلم هانرباخ » بعنوان « ابن الخطيب المؤرخ : الشعب ـ الحكم ـ الدولة »[٦٢] ، وهي دراسة ، كسابقتها ، تتوسل بتحليل نصوص ابن الخطيب التاريخية ، وخاصة التي ضمن كتابه « إعمال الأعلام » ، للكشف عن فكره السياسي والاجتماعي ، أي عن فكر ابن الخطيب بوصفه فيلسوفا للتاريخ وليس مجرد واصف لأحداثه ووقائعه وهذه الدراسة بما اعتمدت من منهج تحليلي وبما انتهت إليه من نتائج هامة تعتبر رائدة في وسط الإستشراق الذي ظل ، مدى قرن ، أي إبتداء بـ « سيمونيت »[٦٣] و « جاسبار »[٦٤] و « موللر »[٦٥] ، وإنتهاء بـ « ثيكودي لوثينا »[٦٦] . ينظر إلى كتب ابن الخطيب بإعتبارها مجرد حوليات تاريخ عادية ، ومدونات ، غير متميزة ، بأعلامه وأحداثه ، ولم يجرؤ ، أي الإستشراق ، أن يدرس ابن الخطيب بوصفه فيلسوفا للتاريخ .

أما الدراسة الثالثة فهي التي كتبها الدكتور أحمد مختار العبادي ، وهو يعود من أبرز الدارسين العرب لتراث ابن الخطيب ، فقد إهتم بهذا التراث على مستويين اثنين ، أولهما مستوى النشر والتحقيق ، وقد أسلفنا القول عن ذلك في فقرة سابقة من هذه الدراسة . أما المستوى الثاني فهو مستوى دراسة ابن الخطيب المؤرخ[٦٧] ، وأهم ماكتبه في ذلك دراسة (لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التارخية)[٦٨] ، وقد تناول فيها ، بمنهج وصفي ، بعد مدخل في عصور الحكم الإسلامي في الأندلس وخاصة عصر بني الأحمر ، حياة ابن الخطيب وبيئته وعلاقته بمعاصرة ابن خلدون ، ثم عرض لمؤلفاته ، وخاصة التاريخية منها . وأفرد (النفاضة) بوقفه مطولة ، ومع مافي هذه الدراسة مما يدل على سعة إطلاع ، ومعرفة بشخص ابن الخطيب وتراثه التاريخي ، إلا أنها لم تكشف عن جديد في الفكر التاريخي .

---

(٥٩) نفسه ص ٨٤ .
(٦٠) نفسه ص ٨٥ ـ ٨٨ .
(٦١) نفسه ص ١٢٠ ـ ١٢٢ .
(٦٢) انظر : Hoenerbach, Wilhelm, "El Historiador Ibn al-Jatib: pueblo, gobierno-estado". Andalucia Islamica, I pp. 43-63 (1980)
(٦٣) مستشرق إسباني (١٨٢٩ ـ ١٨٩٧)
(٦٤) مستشرق إسباني (١٨٩٨ ـ ١٩٢٥)
(٦٥) مستشرق ألماني (١٨٠٩ ـ ١٨٧٤)
(٦٦) مستشرق إسباني (١٩٠١ ـ ١٩٧٣)
(٦٧) ينظر ما كتبه د . العبادي في هذا الموضوع . (في التاريخ العباسي والأندلسي) ص ٥١٦ ـ ٥٥٣ . و (مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب) ، مجلة (هسبريس) ع XLVI ٢٤٧ ـ ٢٥٣ (١٩٥٩) ، ومقدمة تحقيق الجزء الثاني من (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) .
(٦٨) انظر ، مجلة (عالم الفكر) مج ١٦ ع ٢ ص ٢٩ ـ ٦٢ (١٩٨٥) .

مطالعات

ملحوظات حول المسرح التربوي التجربة البريطانية

محمود الشتيوي
دائرة اللغة الانجليزية
جامعة اليرموك
اربد / الأردن

مقدمة

تولي بعض المؤسسات التربوية في الوطن العربي بعض الاهتمام للأنشطة الفنية كالمسرح المدرسي ومسرح الطفل ، لما لها من فائدة تربوية في تنمية قدرات الطالب الادراكية ، وصقل مواهبه العقلية والحسية والاجتماعية . فوزارة التربية والتعليم في الأردن ، على سبيل المثال ، تشجع مثل هذه الأنشطة الفنية عموما ، والمسرح المدرسي على وجه التخصيص ، فتقيم له المهرجانات السنوية التي تقدم فيها المسرحيات المدرسية من مختلف مناطق المملكة لاختيار أفضلها ، ودعما للمسرح المدرسي فقد جهزت الوزارة بعض المدارس الشاملة والكبيرة بقاعات مخصصة للمسرح ، ووضعت الحوافز لتشجيع الأنشطة المسرحية فيها ، فضلا عن استضافة الفرق المسرحية المدرسية ، وفرق مسرح الطفل المحلية ، وفرق من بعض الأقطار العربية لتقديم عروضها الى طلبة المدارس في الاردن . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن كليات المجتمع المتوسطة تطرح ضمن مقررات تخصص التربية الابتدائية مسرح الطفل لاعداد المدرس الذي سيعمل في مرحلة رياض الأطفال أو في المرحلة الابتدائية (١) .

ولاشك في أن الاهتمام بالمسرح المدرسي ومسرح الطفل لايقتصر على الأردن ، وانما يمتد الى دول عربية أخرى ، كدول الخليج العربية ـ الكويت والبحرين وغيرهما حيث تدعم أنشطة المسرح المدرسي لتصبح جزءا تربويا مهما في حياة الطالب المدرسية .

إن اهتمام الجهات الرسمية التربوية في بلادنا بالمسرح المدرسي نابع من تبنيها فلسفة التربية الحديثة في

---

(١) على سبيل المثال أقامت وزارة التربية والتعليم في الأردن مهرجانا لأنشطة المسرح المدرسي لطلبة مدارس المملكة في مدينة اربد يوم ٢٧/ ٥/ ٨٣ ، واستضافت فريقا مسرحيا مدرسيا من دولة قطر بتاريخ ٢٥/ ١ ـ ٦/ ٢/ ٨٥ حيث قدم الفريق مسرحية للأطفال ومسرح عرائس ، وقد كان الجمهور من طلبة الصفوف الابتدائية والاعدادية .

كون الأنشطة الفنية المدرسية ـ وعلى رأسها المسرح ـ تساعد في تنمية شخصية الطفل واعداده لفهم العالم من حوله . ولاتقل أهميتها في الكشف عن طاقات الطالب الزائدة عن مقررات المنهاج المدرسي .

ونظرا لأهمية المسرح التربوي ، فقد أوصى المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، في دورته الأولى المنعقدة عام ١٩٧٠م ، بانتهاج سياسة تربوية عربية تسهم في جعل المسرح التربوي يلعب دورا بارزا في العملية التربوية بحيث يصبح جزءا من حياة الطالب . ولتحقيق ذلك فقد أوصى المؤتمرون بانشاء مسرح بسيط في كل مدرسة ، وتزويد المكتبة المدرسية بكتب مسرحية ، وتكوين فرق مسرحية تقدم عروضا مسرحية في مواسم متعددة تحت اشراف مدرب خاص ، وتخصيص جوائز تشجيعية لهذه الفرق ، واجراء مسابقات بين الطلاب في التأليف المسرحي ، وتوظيف المناسبات القومية والتعليمية في المسرح التربوي ، كي يصبح المسرح التربوي دعامة رئيسة في العملية التعلمية والتعليمية (٢) .

لقد تبنت كثير من الدول ـ كبريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا وغيرها ـ سياسة تربوية تهدف الى ادخال المسرح في المدرسة ، وذلك بعد أن تأكدت بالتجربة والدراسة ، ونتيجة لما توصلت اليه الدراسات في علم النفس والتربية الحديثة ، من أهمية الدور الذي يقوم به المسرح في العملية التربوية ، فقامت منذ أوائل الخمسينيات تقريبا بادخال المسرح في المنهاج المدرسي ، واستعماله بوصفه مادة منهجية قائمة بذاتها لتنمية قدرات التلاميذ على التعبير عن أنفسهم ، وبوصفه وسيلة تربوية ايضاحية لتدريس بعض المناهج المدرسية الأخرى .

إن المسرح التربوي المدرسي في البلاد العربية لايزال مجرد نشاط تؤديه بعض المدارس بين الفينة والأخرى حسب توافر العناصر المهتمة بالمسرح ـ والتي تكون في الغالب من مدرسي اللغة العربية ـ وحسب توافر الامكانيات المادية وتشجيع ادارة المدرسة لأنشطة المسرح المدرسي . ويبدو أن الوقت قد حان لكي يأخذ المسرح المدرسي مكانته الصحيحة بين المناهج المدرسية الأخرى ـ تماما كما هو الحال في الدول المشار اليها سابقا . وهذه الاستنتاجات مبنية على انشاء مسارح الطفل في الأقطار العربية (كمسرح الطفل الأردني ، الذي مقره عمان ، مثلا) ، ودعم الجهات الرسمية له ، وتشجيع نشاط المسرح المدرسي ، واقامة المهرجانات المسرحية المدرسية ، وتبادل الزيارات مع الفرق المسرحية المدرسية العربية للاطلاع على تجارب هذه الأقطار والاستفادة المتبادلة من الخبرات في كل قطر منها ، أضف الى ذلك اهتمام بعض دارسي المسرح بالمسرح التربوي والعمل على ادخاله في مقررات بعض دوائر المسرح في الجامعات والمعاهد العربية ، مما يمكن الطالب من دراسة نظريات المسرح التربوي وسبل تطبيقها عمليا في المدارس .

وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالمسرح المدرسي على المستويين الرسمي والفردي ، فقد لمست أثناء اعدادي هذه الدراسة أن مفهوم المسرح التربوي لايزال غير واضح لدى الكثيرين من المربين ـ وخاصة القائمين على شؤون المسرح المدرسي ـ إذ غالبا ما يظن أنه لايختلف عن المسرح العادي في شيء من حيث الاعداد والاخراج والتدريب وما الى ذلك ، الا أن الممثلين هنا هم الطلاب ومكان العرض هو المدرسة .

---

(٢) محمد عريسات ، «دور المسرح في التربية» ، (المجلة الثقافية) عدد ٩ ـ ٨٥/ ٨٦ ص ٨٢ ـ ٨٩ .

إن سبب عدم وجود وضوح في الرؤية نابع من غياب المدرس المتخصص وقلة التجربة في هذا المضمار بالذات ، فأصبح المسرح المدرسي مجرد نشاط يؤديه الطلاب في أوقات فراغهم أو بعد ساعات الدوام المدرسي ، تحت إشراف معلم اللغة العربية أو غيره أحيانا ، ممن يجد في نفسه الميل الى مثل هذا النشاط ـ حتى وان لم تتوافر لديه الخبرة والمعرفة اللازمتان لذلك . وهذه المرحلة من التجربة المسرحية المدرسية طبيعية على أية حال ، وقد مرت بها الدول الأخرى ـ كبريطانيا ـ في بادىء الأمر ، حيث كانت مادة الدراما أو المسرح تقع تحت مظلة دائرة اللغة الانجليزية ، وحتى يومنا هذا لايزال كثير من المدارس البريطانية يقدم المسرح المدرسي من خلال دائرة اللغة الانكليزية .

إن الهدف من تقديم هذه الملحوظات حول تجربة المسرح التربوي في بريطانيا هو التنبيه الى أن استعمال المسرح التربوي لايقتصر على بلد دون آخر . والدليل على ذلك أننا نجد العديد من الدول تتبنى سياسات تربوية جادة لادخال المسرح في المنهاج المدرسي . فلابد إذن من دراسة المسرح التربوي بأشكاله المختلفة ، والوقوف على تجارب الأمم الأخرى في هذا المجال للاستفادة مما توصلت اليه من نتائج ، والعمل الجاد على تطوير المسرح التربوي في بلادنا من مجرد مسرح مدرسي هزيل يقوم به نفر قليل من المعلمين هنا وهناك الى تبني سياسة تربوية واضحة لاعداد برامج المسرح التربوي على أساس سليم ، وادخاله في المنهاج المدرسي ، ولايتأتى ذلك دون وجود المعلم المختص ، ودعم الجهات التربوية الرسمية له ماديا ومعنويا . إن تدريس المسرح التربوي في مدارسنا لايقتصر على خدمة العملية التربوية وحسب ، بل يتعداها إلى العمل على اعداد جمهور مستقبلي للمسرح العربي الذي طالما يشكو القائمون عليه من قلة الجمهور وعزوفهم عنه .

الدور التعليمي للمسرح

من المعروف أن ادخال الأنشطة الفنية ـ ومنها المسرح ـ الى مدارسنا حديث العهد ، وقد جاء نتيجة لتطوير وسائلنا التربوية ومناهجنا المدرسية في ضوء دراساتنا لنظريات التربية الحديثة وعلم النفس ـ تلك النظريات التي نادت بضرورة التعلم عن طريق المشاركة ، وأشارت الى أهمية تدريس الفنون في العملية التربوية . ولكن الدور التعليمي للمسرح من جهة ، واتصال المسرح الوثيق بالمدرسة من جهة أخرى ، ليسا جديدين على عالم المسرح والمدرسة . انما الجديد هو ادخال المسرح الى المدرسة بوصفه منهاجا تربويا قائما بذاته ، ووسيلة تربوية لتدريس المناهج الأخرى . وقد بدأ ذلك منذ مطلع هذا القرن ـ وخاصة في بريطانيا ـ ولكنه لايخفى على احد أن الدور التعليمي للمسرح قديم قدم المسرح نفسه ، فاذا ما استعرضنا تاريخ المسرح الغربي منذ أيام الإغريق حتى اليوم ، فانه يتبين لنا أن المسرح لم يكن وسيلة ترفيهية فقط ـ كما قد يظن البعض بل كان ـ ولايزال ـ وسيلة اتصال شعبية تقدم من خلالها معايشة لتجربة انسانية معينة فلقد كان المسرح الاغريقي ـ كمسرح صوفوكليس مثلا ـ مسرحا تعليميا أخلاقيا ذا علاقة وثيقة بمصير الانسان وشؤونه الحياتية . واستمر هذا الدور التعليمي الأخلاقي للمسرح عبر العصور ـ مرورا بالعصور الوسطى حيث استغل المسرح كوسيلة لتبسيط مفاهيم الديانة النصرانية للعامة من الناس . كما استغل كمنبر سياسي لنقل الفكر واحداث التغيير السياسي والاجتماعي لدى الجمهور وللتعبير عن الموقف السياسي الراهن . كذلك كان مسرح بسكاتور الألماني في القرن العشرين وبه تأثر بريخت في تكوين نظريته حول المسرح الملحمي . وقد استغلت بعض الحركات المسرحية في الولايات المتحدة المسرح كوسيلة اتصال تهدف الى نقد الوضع الاجتماعي

ونقد الموقف السياسي . كذلك أيضا كان مسرح ما سميّ بالجريدة الحية (The Living Newspaper) ومسرح (Federal Theatre Project) وكلاهما تأثر بمسرح بريخت السياسي .

وأما في مجال النقد الأدبي المسرحي ، فقد نبه النقاد والمنظرون المسرحيون منذ القدم الى الدور الأخلاقي للمسرح التعليمي . فهذا أرسطوطاليس الاغريقي يتحدث في كتابه (فن الشعر) عن دور المسرح (التراجيديا) في نفس المشاهد ، حيث يتمثل ذلك في احداث التغيير النفسي والأخلاقي لديه . واستمر النقد الارسطي ومفهومه للدراما ودورها التعليمي يؤثران على مدارس النقد الغربية ـ مرورا بالرومان وعصر النهضة ـ سدني (Sidney) الانكليزي ـ والقرن الثامن عشر ـ الانكليزيين درايدن (Dryden) ، وجونسون (Johnson)وحتى اليوم . وقد أجمع هؤلاء النقاد على أن للمسرح وظيفتين رئيستين : الأولى تعليمية والثانية ترفيهية ـ مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجانب الترفيهي وسيلة محببة لنقل المضمون التعليمي وتقريبه الى نفس المشاهد [٣] .

ولعل من المفيد هنا ـ زيادة في الايضاح ـ أن ننقل ما قاله مارون النقاش عن دور المسرح التعليمي الأخلاقي بقالب ترفيهي . لقد تحدث هذا الكاتب العربي الذي كان أول من كتب في المسرح العربي متأثرا بالمسرح الغربي في سياق حديثه عن مسرحيته « البخيل » (١٨٤٧م) قائلا : إن للمسرح وظيفة تعليمية الهدف منها نقل درس أخلاقي ضمن موقف درامي معين [٤] . لقد أدرك هذا الكاتب العربي بفطرته السليمة الدور التعليمي الأخلاقي للمسرح فقام بنقله الى اللغة العربية لتعم فائدته .

المسرح والمدرسة

ان التصاق المسرح بالمدرسة ليس بالجديد أيضا ، بل ان استعمال المسرح في المدرسة (في بريطانيا مثلا) قديم قدم المدرسة نفسها . فعلى سبيل المثال كانت الدراما في العصر الأليزابيثي تعد جزءا من المنهاج المدرسي ، وكانت تقتصر على تدريس النص الأدبي والاعتناء بالتمثيل . وظهرت نتيجة لذلك الفرق المسرحية المدرسية التي كانت تقدم عروضها للطلاب والجمهور العام [٥] . وقد استمر الاهتمام بالمسرح المدرسي في العصور اللاحقة ـ مرورا بعصر عودة الملكية (١٦٦٠) والقرن الثامن عشر . وبقي الأمر كذلك حتى أوائل هذا القرن . وكانت من أهداف المسرح المدرسي ـ بالاضافة الى دراسة النص المسرحي الأدبي وتعلم التمثيل والاخراج ـ مايلي :

(١) اكساب التلاميذ القدرة على اللفظ السليم ـ وخاصة عند تعلم اللغات .

(٢) اكسابهم القدرة على التكيف مع المواقف المختلفة والتعبير عن المشاعر والاحاسيس .

---

(٣) انظر ماكتبه سيدني Sidney في مقاله An Apology for Poetry وما كتبه درايدن Dryden في مقاله An Essay of Dramatic poesy وما كتب جونسون Johnson في مقاله The Preface to Shakespeare

(٤) وردت آراء النقاش هذه في سياق حديثه عن مسرحيته (البخيل) . انظر نقولا النقاش . ارزة لبنان . بيروت ، ١٨٦٩ . ص ١٤ ـ ١٧ .

(٥) Ken Robinson "Drama, Theatre and Social Reality," in Ken Robinson, ed., Exploring Theatre and Education (London: Heinemann, 1980), pp. 141-144.

John Allen, Drama in Schools: Its Theory and Practice (London: Heinemann, 1979), pp. 10-16.

(٣) تنمية الشخصية لدى التلميذ [٦] .

تجدد الاهتمام بالمسرح المدرسي في أوائل هذا القرن في بريطانيا ،ولمعت أسماء بعض المعلمين ممن نادوا باستعماله كوسيلة في العملية التربوية وفي تدريس المناهج المدرسية . فعلى سبيل المثال كان كولدويل كوك (Caldwell cook) البريطاني من أوائل الذين تحدثوا عن دور الدراما في التدريس لأنها تعطي الطالب فرصة للمشاركة ، وتزيد قدرته على التحصيل لارتكازها على عنصر اللعب ، ذلك الشيء المحبب لدى الجميع [٧] .

لقد استعمل كوك المسرح في تدريسه لشكسبير (William shakespeare) ، وأصبحت الدراما لديه تعني المعايشة والتجربة . أي انه استعمل المسرح كوسيلة تساعد الطلاب على استيعاب المادة المدرسية والاستمتاع بها . وقد صاحب هذا الاهتمام بدور المسرح التربوي ظهور بعض الجهات التي رأت في المسرح وسيلة علاجية لمشاكل النطق والكلام (Speech Therapy) ، واتخذ المسرح شكل التدريب (Training) ، الهدف منه تدريب الناس الذين يعانون من مشاكل حركية [٨] .

المسرح المدرسي

لقد كان المسرح المدرسي ولايزال الشكل المسرحي التربوي المعروف لدى معظم المدارس ـ سواء أكان في الغرب أم في بلادنا . واذا ما أضفنا اليه مسرح الطفل الذي أخذ مكانته المرموقة في مجتمعات اليوم ، فانه يصبح لدينا وسيلة مسرحية قوية من شأنها خلق التفاعل بين التربية والمسرح . ومع أن كثيرا من المدارس في بلادنا لايزال ينظر الى المسرح المدرسي ومسرح الطفل على أنهما مضيعة للوقت لامكان لهما في المدرسة ، الا أن الدراسات المتخصصة ورأي جمهور المربين في الغرب وفي بلادنا يؤكد أهمية المسرح في التربية وضرورة اتصاله بالمدرسة . ولم يعد الهدف من المسرح المدرسي تدريب الطلاب على التمثيل أو اعداد ممثلين محترفين ، بل ان له وظائف أهم في الحياة المدرسية كالتجديد في الحياة الثقافية للمدرسة ، واعطاء الطلاب المشاركين تجربة مفيدة ، وخلق حلقة وصل مهمة بين المدرسة والمجتمع المحيط بها ـ وخاصة اهتمام الآباء بنشاط الطلاب . لذا فانه ـ اذا أريد للمسرح المدرسي أن يحقق مثل هذه الأهداف ـ يجب أن لاينحصر في كونه نشاطا سنويا للمدرسة ينفذ في نهاية العام الدراسي ـ كما هو متبع الآن في كثير من المدارس ، لأن ذلك ينفصل عن النشاط الصفي وينحصر في مجموعة الطلاب المشاركين في التمثيل فقط ، ولكن يجب أن يصبح المسرح المدرسي أكثر شمولا بحيث يشتمل على أنشطة نابعة من العمل الصفي أو النشاط اللامنهجي . فبالاضافة الى المسرحية المدرسية السنوية يمكن تطوير أنشطة مسرحية أخرى عن بعض المشاريع الصفية تقوم بها جماعات مختلفة من الطلاب ، وتقديم عروض مسرحية نابعة من المنهاج مثلا ، كعرض مسرحية مدرسية تدرس في المنهاج أو مسرحة منهاج ما . ويمكن استضافة فرق مسرحية مدرسية من مدارس أخرى ، ونقل المسرحية المدرسية الى المدارس الأخرى أيضا (بعملية تبادل) . أما النص المسرحي فقد يكون مكتوبا (مسرحية) أو يتم تأليفه

(٦) Ken Robinson, "Drama, Theatre and Social Reality"' pp. 144-179.

(٧) Caldwell Cook, The Play Way (London: Heinemann, 1914).

(٨) Gavin M. Bolton, Drama As Education (London: Longman, 1984), pp. 1-21.

جماعيا - خاصة في حالة مسرحة المنهاج باشراك المعلم والتلاميذ - وربما باشراك مدرسين آخرين ممن لديهم الاهتمام بهذا النوع من النشاط .

ويوصي المختصون في المسرح المدرسي بمراعاة النقاط التالية عند الاعداد للمسرحية المدرسية :

(١) توزيع الأدوار على الطلاب الذين يجدون في أنفسهم القدرة على نقلها واتقان أدائها - أي أن يتم اختيار أفضل الطلاب بوساطة المقابلة وغيرها ، واختيار النص المسرحي الذي يتناسب مع البيئة المدرسية ، ومقدرة الطلاب على التمثيل . ويمكن في هذه الحالة اختيار مسرحية مكتوبة تتناسب والطاقات والمهارات المتوافرة لدى الطلاب أو أن يقوم المعلم والطلاب معا بتأليف النص المسرحي .

(٢) ومع أنه لابد من تحقيق مستوى رفيع للعرض المسرحي لافادة الجمهور والممثلين ، فانه يجب أن لايكون ذلك هو الهدف ، بل إن المهم تعزيز العلاقات الاجتماعية في المدرسة وايجاد الجو التربوي الذي يتحقق بالعمل المسرحي . أي أن الهدف من العرض ليس التمثيل والاخراج بقدر ماهو الغاية التربوية التي تنعكس فائدتها على المدرسة والطالب .

(٣) يجب أن يكون العرض ممتعا ومثيرا للمشاركين جميعا .

(٤) ليس الهدف من التأليف الجماعي للنص المسرحي تقليد كاتب مسرحي معين بقدر ما هو وسيلة تعبيرية قائمة بذاتها [٩] .

مسرح الطفل

بالاضافة الى المسرح المدرسي الذي نبت في المدرسة نفسها ، فقد ثبتت للجميع أهمية مسرح الطفل في تنمية مواهب الأطفال والتلاميذ في المراحل المدرسية الأولى - الروضة والابتدائية والاعدادية . ومن هنا جاءت فلسفة تدريس مسرح الطفل في مقررات التربية الابتدائية لتأهيل المعلم والمعلمة القادرين على التعامل مع الأطفال وتنمية قدراتهم ، ثم ان مسرح الطفل مسرح تربوي بحد ذاته . وقد أكد ذلك بيتر سليد (Peter slade) الذي يعد أول من وضع نظرية المسرح التربوي بعد معايشة طويلة أمضاها في خدمة مسرح الطفل . وقد ترعى مسرح الطفل وتشرف على شؤونه جهة مستقلة أو مؤسسة تربوية يقوم العاملون عليها باعداد برامج الأطفال التي تقدم اما في مدارسها أو في مكان آخر معين ينقل اليه الأطفال من المدارس . والهدف من تقديم عروض مسرح الطفل تعليمي وترفيهي .

لقد بدأ ينظر الى مسرح الطفل في بلدان عديدة - كبريطانيا - على أنه جزء متمم لحياة الطفولة السليمة . ولذا قامت الجهات الرسمية الحكومية وغيرها بالعناية به ودعمه ماديا ومعنويا . وزاد الاهتمام بمسرح الطفل نتيجة للدراسات التربوية الحديثة وعلم النفس التي تتعلق بعالم الطفل ، وتنادي بضرورة معاملته كإنسان صغير حسب سنه ، وعدم تطبيق عالم الكبار عليه . لقد أشارت بعض الدراسات التربوية الى أن الكبار كثيرا ما يسيئون تربية الناشئة ، ويحطمون عالمهم الصغير بجعلهم يعملون ما يريدون حسب مستوى فهمهم وادراكهم ، مع أن للصغار عالمهم البريء ، وحياتهم الخاصة الخالية من مشاكل العالم الكبير [١٠] . وكثيرا مايربك الكبار الصغار ويفسدون عليهم استمتاعهم بعالمهم الصغير .

---

(٩) Lynn McGregor et al, Learning Through Drama (London: Heinemann, 1977), pp. 154-156.

(١٠) John Holt, Why Children Fail (Penguin, 1977), p. 165.

لقيت مثل هذه الدراسات تجاوبا من الدول الغربية ـ كبريطانيا والولايات المتحدة وكندا ـ فأنشئت المسارح التي تعني بحاجة الطفل والشاب ، ودعمت البرامج المسرحية التربوية التي تهدف الى تنمية مواهب الطفل وصقل شخصيته . ففي بريطانيا أنشئت منظمة مسرح الطفل البريطاني(The British Children's Theatre Association : BCTA) عام ١٩٥٩م . وجاء في دستورها أن من أبرز أهدافها تربية الطفل من خلال الدراما والمسرح وتشجيع تذوق الأطفال وتقديرهم لفنون المسرح .

وفي الولايات المتحدة تفرع من منظمة المسرح الأمريكي (American Theatre Association) منظمة مسرح الطفل الأمريكي (Children's Theatre association of America (CTAA)) . وعملت هاتان المؤسستان على إدخال المسرح التربوي في المدرسة . وقد أصبح مسرح الطفل والمسرح التربوي يدرسان في كثير من جامعات هذه الدول وتمنح فيهما الدرجات العلمية العليا .

هذا ، وقد تبنت منظمة اليونسكو الدعوة الى الاهتمام بمسارح الأطفال والشباب ورعاية حاجات الشباب الخاصة ، وعقدت المؤتمرات الدولية تحت اشراف هذه المنظمة وتجدر الاشارة هنا الى أن بعض الأقطار العربية قد أولت مسرح الطفل اهتماما خاصا ، ودعمته بعد أن نال هذا النوع من المسرح ثقة القائمين على المؤسسات التربوية فعلى سبيل المثال أصبح مسرح الطفل الأردني مؤسسة تربوية بارزة في المملكة بحيث لم تعد نشاطاته تقتصر على أطفال العاصمة عمان ، بل تم نقله الى بعض مدارس المملكة لتعميم الفائدة .

المسرح والتربية

نستنتج مما سبق أن المسرح ليس بالجديد على المدرسة ، ولكن الجديد في الموضوع هو ذلك التفاعل الفريد من نوعه بين المسرح والتربية في سياق المدرسة بحيث أصبح المسرح وسيلة تربوية تسهم في تنمية قدرات التلميذ العقلية والاجتماعية وما الى ذلك . وهذا الدور الجديد للمسرح التربوي قد بدأ مع ظهور النظريات الجديدة في التربية الحديثة وعلم النفس ، تلك النظريات التي قلبت الدور التقليدي للمعلم والمدرسة . ولم يكن دور المسرح في التربية بمعزل عن التطورات التي حصلت في ميادين التربية وعلم النفس في هذا القرن . فلقد حاول الكثيرون من المدرسين وعلماء النفس تحديد دور المدرسة في تربية الطفل ، وطرحت أسئلة كثيرة تتعلق بتحديد مفهوم التربية ودورها ، وتحديد دور المدرسة في اعداد الطفل ليصبح إنسانا قادرا على المشاركة في صنع العالم من حوله . وقد تمخض الجدل الطويل عن تحديد مفهومين للتربية : الأول تقليدي ، والثاني تقدمي :

(أ) إن الدور التقليدي يرتكز على ايصال المعرفة (المنهاج المدرسي) الى الطالب ، ويتوقف دور المعلم على ايصال المعرفة ، وذلك عن طريق التلقين والقاء المحاضرات وعمل الامتحانات اللازمة للوقوف من خلالها على قوة حافظة الطالب وعلى مدى استيعابه وتمثله لما يحفظ ، فالطالب هنا كالإناء الفارغ الذي يقوم المعلم بملئه بالمعلومات ، وبعد اتمام عملية الملء هذه يتأكد من أن المعلومات موجودة فعلا في هذا الإناء . وواضح تماما أن بؤرة الاهتمام في العملية التربية هذه ليس الطالب بل النظام التربوي الذي يتبنى هذه الفلسفة التربوية (System-Centred) .

(ب) وقد ظهر في بداية هذا القرن تحول واضح في مفهوم التربية يناقض الطريقة التقليدية آنفة الذكر . لقد

رأى أتباع هذه الفلسفة التربوية أن الأساس في العملية التربوية هو الطالب ، لذا فلا بد من التركيز على فرديته كإنسان مستقل ، وخلق المناخ المناسب في المدرسة بحيث يوجد للطالب البيئة المناسبة للنمو الطبيعي واكتشاف الذات . فالطفل هنا كالبذرة يرعاها المدرس لتنمو نموا طبيعيا حتى تؤتي أكلها . لقد نادى أتباع هذه المدرسة بتغيير دور المدرسة بحيث تتحول من مجرد مكان يتعلم فيه الطفل القراءة والكتابة ويحفظ المعرفة بوساطة التلقين ، الى مكان يعيش فيه الطفل حياته الطبيعية حقا . لذا تطلب هذا التحول في دور المدرسة البحث عن طرق جديدة للتدريس ترتكز على الطفل نفسه ، فتقدم له المعلومة من خلال التجربة والنشاط والمشاركة ، كما تحول دور المعلم من مجرد ملقن الى دور مرشد (١١) .

لقد لخص جون ديوي الفرق بين هاتين الفلسفتين عندما قال إن مركز الجاذبية في النظام التربوي التقليدي يقع خارج الطفل - أي في المعلم والنظام والمنهاج التربوي - أما حسب نظام التربية التقدمية فإن الطفل هو أساس العملية التربوية ، ويجب أن ينظر اليه من خلال نشاطه (١٢) .

المشاركة أساس المسرح

لقد كانت التربية التقدمية من أهم العوامل التي مكنت الدراما من القيام بدور جديد في العملية التربوية في النصف الثاني من هذا القرن . فعلم النفس الحديث والنظريات التربوية الجديدة أولت النشاط المدرسي اهتماما كبيرا بوصفه وسيلة تربوية ايجابية وخاصة في المراحل الدراسية الأولى . لذا بدأ المربون بالاعتناء باللعب والتعلم من خلال المشاركة والتجربة . من هنا برز دور النشاط المدرسي وامكان التعلم بوساطته . فمن المعروف أن علماء النفس قد نادوا بأن مفتاح العملية التربوية يكمن في التجربة وحب الاستطلاع ، وكذلك في القوى الكامنة عند الطفل - وأفضل نشاط يشتمل على هذه العناصر مجتمعة هو اللعب .

إن مايربط نظريات التربية الحديثة والمسرح التربوي هو عنصر المشاركة ، ذلك العنصر الذي يرى المربون أنه عامل مهم في تنمية شخصية الطفل . والمشاركة في مفهوم المسرح التربوي ترتكز على عنصر اللعب . إن اللعب عند الطفل عملية تعلمية من شأنها تعميق تجارب الطفل الذاتية ، وتوسيع خياله ، واكسابه سلوكا اجتماعيا يساعده على العمل الاجتماعي وفهم الآخرين . فاذا كان هدف التربية كما يرى العالم فروبل (Froebel) هو مساعدة الطفل وارشاده كي يتمكن من التفكير بنفسه بدلا من جعله مجرد مستقبل للمعلومات ، فإن النشاط الذي يمارسه الطفل من خلال اللعب هو تعبير ذاتي مباشر يعمل على تنمية الطفل عقليا وجسميا وخلقيا (١٣) .

لقد نادى جمهرة علماء النفس ورجال التربية مثل ميلر (Miller) وبياجيه (Piaget) وغيرهما بضرورة استغلال عنصر اللعب في تنمية الطفل ، وخاصة أن اللعب شيء غريزي في الطفل وبالامكان تسخيره في خدمة العملية التربوية وذلك بوضع الأنشطة المدرسية

---

(١١) Gavin M. Bolton, Drama As Education, pp. 3-5.

(١٢) John Dewey, The School and Society (Chicago: University of Chicago Press, 1921), p. 35.

(١٣) W.N. Holmann, trans. The Education of Man by Frebel (New York: D. Appleton and Co., 1887), p. 55.

المختلفة والبرامج التي ترتكز على اللعب بشكل يحقق أهدافا تربوية مدروسة (١٤) .

لاحظ علماء النفس وعلماء التربية أن اللعب يبدأ عند الطفل بصورة نشاط فردي ذاتي . ولكن كلما كبر الطفل أصبح اللعب عنده نشاطا اجتماعيا يشاركه فيه الآخرون من أترابه في البيت أو المدرسة . أي أن اللعب يصبح عنده تجربة اجتماعية جماعية من شأنها تحقيق الاتصال الثقافي مع الآخرين . وقد لاحظ هؤلاء العلماء أن قيام الأطفال بلعبة جماعية ما يحتم عليهم احترام قواعد منظمة لهذه اللعبة ، والا أصبحت اللعبة فوضى وذهبت المتعة المرجوة منها .

لقد أشار الدارسون للمسرح التربوي إلى إمكان الاستفادة من هذه الخاصة الغريزية عند الطفل في أداء المسرح التربوي ، بحيث يكون المسرح التربوي في الصف امتدادا لعنصر اللعب عنده ، ولكن بشكل منظم مدروس ، الهدف منه تحقيق أهداف تربوية يضعها المدرس . من هنا جاء دور المسرح التربوي بوصفه وسيلة تعمل على تكيف النشاط المدرسي بشكل يضمن استغلال الطاقة الكامنة عند الطفل لتمكينه من المشاركة ، وبالتالي اكتشاف ذاته وتنمية خياله ومواهبه .

استفاد أنصار التربية التقدمية من هذه النظريات والمناقشات ورأوا أنه يمكن استغلال حاجة الطفل الى اللعب في العملية التربوية نفسها ، وذلك بتطوير طرق تدريس جديدة ترتكز على عنصر المشاركة والنشاط الصفي انطلاقا من مبدأ أن عمل الشيء أنفع بكثير من مجرد التحدث عنه أو الاستماع اليه . هذه الطريقة تعطي الطفل الفرصة كي يربط بين النشاط الذي يمارسه في المدرسة وبين مايتعلمه في المنهاج . وقد سبق أن حذر جون ديوي من خطورة فصل المعرفة عن المشاركة ، ودعا الى التعلم من خلال الأنشطة ، لأن من شأن ذلك رفع مستوى العملية التربوية (١٥) .

في مثل هذا المناخ التربوي والدعوات المتتالية الى التجديد في التربية وأساليب التدريس ظهر المسرح التربوي بمفهومه الجديد في كل من بريطانيا والولايات المتحدة وبعض الدول الأخرى . ففي بريطانيا نشر بيتر سليد (P. SLade)كتابه المعروف « دراما الطفل » (Child Drama) (١٩٥٤) بعد سنين طويلة أمضاها في العمل في مسرح الطفل ، ووضع فيه أسسا جديدة للمسرح التربوي ترتكز أساسا على عنصر اللعب ، وتهدف الى تنمية الطفل من الداخل . وطبق في كتابه تلك النظريات التي تحدث عنها علماء النفس والتربية الحديثة كما أشرت سابقا . وقد تبع سليد أنصاره الذين نشطوا في نشر طريقته في المدارس الانكليزية أمثال برايان واي (Brian way) الذي ناقش في كتابه (Development through Drama) الدراما بوصفها وسيلة تساعد على تنمية الطفل . لقد استفاد المعلمان من نظريات التربية المختلفة التي انبثقت عن

(١٤) من أهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع انظر :

Jean Piaget, Play, dreams and Imitation (New York: Routledge and Kegan Paul, 1962).

- - - - -, The Psychology of the Child (New York: Routledge and Kegan Paul, 1966).

Susanne Miller, The Pscyhology of Play (Pelican, 1968).

Jerome Bruner, ed., Play (Pelicon, 1968).

(١٥) John Dewey, Experience and Education (New York: Macmillan, 1938), p. 25.

أعمال مربين من أمثال ديوي وفروبل وبياجيه ، وبدأ خليط من نظريات هذين المعلمين يؤثر على العملية التربوية ، وأصبحت فكرة التعبير الذاتي (Self- Expression) تتدخل في روح المنهاج والدراما . لذا بدأ ينظر الى الدراما على أنها وسيلة مناسبة للتعبير عن الذات ، وأصبحت عبارات النمو الذاتي وتنمية الأحاسيس وايقاظ القدرات الكامنة هي الهدف من العملية التربوية [١٦] .

وأما في أمريكا فقد نشطت الدعوة الى تبني المسرح التربوي منذ الخمسينات وان اختلفت التسميات . فبينما يطلق سليد وغيره من الانكليز على المسرح التربوي تعبير (Drama- in- Education) ، فإن نظراءهم الأمريكان قد أطلقوا عليه تعبير (Creative Dramatics) . وقد نشطت بعض الدول الأوروبية وكندا وأستراليا في تبني المسرح التربوي الحديث في مسارحها ، فقد دلت دراسة تحت اشراف معهد المسرح العالمي (ITI) التابع لمنظمة اليونسكو على أن من بين سبع وعشرين دولة جمعت منها المعلومات حول استعمال المسرح في المدرسة أشارت ثماني عشرة دولة باستعمال المسرح في مدارسها .

تحديد مفهوم جديد للمسرح التربوي

إن المسرح المدرسي ومسرح الطفل وأي نشاط مسرحي آخر قد تقوم به المدرسة من وقت الى آخر - كاستضافة فرق مسرحية أخرى أو نقل الطلاب لمشاهدة عروض مسرحية أنشطة لامنهجية تدعم العملية التربوية ولكنها تعد من روافد المسرح التربوي الحديث .

فالمسرح التربوي بمفهومه الجديد وتدريسه في المدرسة شيء حديث العهد في المنهاج المدرسي ، وان فلسفته وتطبيقه لايزالان مدار جدل واسع النطاق . فالنظرة التقليدية الى المسرح ترى أن مكان الدراما في المدرسة ينحصر في تدريس أدب المسرح وربما تاريخه ونظرياته المختلفة ، وهذا يقع تحت مظلة اللغة الانكليزية . ولكن الاهتمام الجديد بالدراما قد غير هذه النظرة التقليدية فأصبحت الدراما التربوية تخصصا ذامدلول واسع تغوص جذوره في التربية . لذا أصبح مفهوم الدراما يعني استعمالها كعملية اجتماعية تستمد قوتها من قدرة الطالب على تمثيل الأدوار (Role-play) ووضع نفسه في حالات متخيلة معدة خصيصا كوسيلة للكشف عن الأفكار والتعبير عنها بوساطة الصوت والجسم . وأما أهداف مثل هذه المادة فتتلخص بالنقاط التالية :

أ - تنمية قدرات الطفل على التعبير الذاتي ،
ب - تنمية ادراكه لنفسه وللعالم من حوله ،
ج - تنمية ثقته بنفسه ،
د - تنمية أحاسيسه وخياله .

يلاحظ من كل ذلك أن هذه الجوانب كلها جوانب نفسية لحياة الطفل ، وهي كثيرا ماتغفل المنهاج المدرسي [١٧] .

إن أهم هدف للدراما التربوية هو تنمية الفهم والادراك لدى الطفل من أجل تمكينه من فهم نفسه وسلوكه والعالم من حوله . فمن خلال مشاركة الطالب في تمثيل الأدوار المتخيلة فإنه يستطيع فهم الحالة المطروحة بنفسه واكتشاف الحلول للمشاكل التي تثيرها الحالة ووضع الاقتراحات . أما الهدف الثانوي للمسرح التربوي فهو استعمال الدراما كوسيلة ايضاحية يمكن

(١٦) Ken Robinson, "Drama, Theatre and Social Reality," pp. 141-175.

(١٧) Lynn McGregor et al, Learning Through Drama, p. 4.

الاستفادة منها في تعميق فهم الطالب لقضية معينة تتعلق بالمنهاج ـ وخاصة ذلك الجانب الذي يتعلق منه بالمواضيع الانسانية والأدبية .

عند الحديث عن المسرح التربوي بمفهومه الحديث يواجه الباحث مشكلة إعطاء مفهوم دقيق للمسرح التربوي على ضوء الممارسات والنظريات الجديدة للموضوع ـ وخاصة أن أول مايتبادر الى الذهن عند الحديث عن المسرح التربوي ، المسرح المدرسي والتمثيل وما الى ذلك . والصعوبة في اعطاء تعريف دقيق للمسرح التربوي ناتجة عن تعدد الطرق والمدارس في هذا الموضوع ـ خاصة وأن المنظرين فيه أصبحوا كثرا ، ولكل منهم جماعته وطريقته ـ لابل إن مدرسي هذه المادة في المدارس الانكليزية مثلا لايتفقون على منهج معين أو مفهوم محدد ، فهم يتحدثون عن دور المسرح المدرسي بعبارات سبق أن أوجزتها ، ثم يعطونك وصفا عمليا للممارسات التي يتبعونها في تدريسهم للمادة . ثم إن أكثر الكتب الموضوعة في هذا الحقل الجديد اما أن تكون وصفية (وصفا لحالات تدريسية كأمثلة للاستفادة منها) أو تحليلية لنظرية المسرح التربوي .

وربما يكون من المفيد هنا أن أذكر الصفات الأساسية للمسرح التربوي كما عرفته منظمة مسرح الطفل الأمريكي ، فبعد مداولات دامت حوالي العامين كما تقول جيرالدين سيكس (Geraldine siks) ، توصلت هذه المنظمة الى تعريف عام شامل لمفهوم المسرح التربوي يشتمل على الأفكار التالية :

(١) المسرح التربوي شكل درامي ارتجالي لايهدف الى الاستعراض يؤديه الأطفال بارشاد من المعلم .

(٢) يقوم المشاركون باشراف من المعلم بتمثيل أدوار متخيلة من شأنها توسيع تفكيرهم وتجربتهم الانسانية .

(٣) هذا النوع من المسرح مقصور على الأطفال والشباب ، وقد تصلح العملية المسرحية نفسها لكل الأعمار (ومن هنا ظهر دورها العلاجي) .

(٤) المسرح المدرسي نشاط يقوم فيه المدرس بمساعدة الطلاب في الكشف عن المواقف والتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم من خلال التمثيل .

(٥) يقوم الطلاب بارتجال الحدث والحوار المناسب للقضية المطروحة أو التي يراد اكتشاف مدلولاتها ، وذلك باستعمال عناصر الدراما لاعطائها شكلا ومعنى .

(٦) الهدف الرئيس من المسرح التربوي تنمية الشخصية وتسهيل التعلم للمشاركين ، وليس الهدف منه اعداد ممثلين محترفين .

(٧) يمكن استعمال المسرح التربوي كوسيلةايضاحية في تدريس مادة الدراما أو أي فرع من فروع المعرفة .

(٨) يساعد عنصر المشاركة على تنمية قدرات التلاميذ اللغوية ، وعلى تنمية مهاراتهم في حل المشاكل والابداع ، مما يعطيهم صورة مرضية عن النفس ويقوي لديهم الوعي الاجتماعي والتعاطف مع الأخرين ، ويوضح لهم القيم والمواقف المختلفة .

(٩) وبما أن المسرح التربوي يرتكز على قدرة الطالب على التمثيل من أجل فهم العالم من حوله ، لذا فإن هذه العملية تتطلب منهم التفكير المنطقي والربط بين الأشياء[١٨] .

(١٨) Geraldine Siks, "Drama in Education — A Changing Scene," in Nellie McCaslin, ed., Children and Drama (New York: University Press of North America, 1985), p. 6.

نستخلص من ذلك أن المسرح التربوي أصبح يعني طريقة تربوية للتعليم تساعد الطالب على التعبير عن نفسه ، والكشف عن قضايا وعلاقات مختلفة بوساطة مشاركته في لعب دور مميز (مرتجل) تنمي لديه القدرة على فهم العالم من حوله . ولا يحتاج التلاميذ الى مهارات مسرحية أو دراسة لفنون المسرح من أجل المشاركة في الدرس المسرحي ، ولكن عليهم تحقيق المتطلبات التالية :

(١) تصديق الحدث أو الحالة المتخيلة التي سيقومون بأدائها .

(٢) على كل طالب تبني دور معين ومعايشة هذا الدور في خياله ووجدانه .

(٣) الاستمرار في اللعب والتعبير عن الحالات المرتجلة شفويا وحركيا .

(٤) التفاعل مع بقية المشاركين في لعب الحالة المتخيلة حتى النهاية .

أشكال المسرح التربوي

بالإضافة الى تباين نظريات المسرح التربوي وصعوبة اعطاء تعريف محدد لمفهوم المسرح التربوي بسبب طبيعته دائمة التغير ، فقد اختلفت أساليب هذا الموضوع وطرق تدريسه . إن معظم المؤلفات في هذا الحقل لاتعدو كونها غير وصف لمشاهد حصص مسرحية تطبيقية اتبع أصحابها أساليب شتى لتحقيقها . وهذا بالطبع يشكل صعوبة للمعلم ، وذلك عندما يتعين عليه أن يحدد الطريقة التي ينبغي له اتباعها اذ يتوجب عليه عندئذ دراسة كل ماكتب عن هذا الموضوع حتى يقرر بنفسه الطريقة المناسبة له ، وهذا يعني تعدد أساليب المسرح التربوي ، وأنه يجب دراسة كل نوع منه على حدة .

ولقد دلت الدراسات التي تناولت هذا الموضوع في المدارس البريطانية على أنه على الرغم من اختلاف الطرق الا أن هنالك عناصر مشتركة للمسرح التربوي . لابل إن اعطاء طرق محددة لتدريس هذه المادة سيؤدي الى « تجميد » العملية التربوية ، فالطريقة أو الأسلوب يعتمد بالدرجة الأولى على أهداف المدرس ، وعوامل أخرى كالصف وأعمار الطلاب والمكان المتاح والزمن وخلفية المدرس نفسه .

الارتجال أساس المسرح التربوي

لاحظ الباحث من خلال دراسته للمسرح التربوي ومشاهدته حصصه في بعض المدارس الانكليزية أن الصفة الرئيسة لحصص المسرح التربوي هي الارتجال (Acting-out) ، ويعني ذلك ترك الأطفال على سجيتهم ودفعهم في حالات متخيلة الى تمثيل أدوار مفترضة .

ليس الارتجال جديدا على المسرح ، فهو يستعمل في المسرح لاعداد الممثل وتدريبه من أجل السيطرة على أسلوبه وتغيير موقفه نحو الآخرين . ويساعد أيضا فيما يتعلق باكتشاف المعنى الضمني للنص المسرحي ، مما يساعد على تحليله . والارتجال أيضا وسيلة لخلق حالة معينة يكتشف بها الممثل نفسه . وهذه الحالة إما أن تكون مبنية على تجربة حقيقية عند الممثل - وهنا يساعد الارتجال على فهمها بشكل أفضل أو تكون حالة حقيقية ولكن الممثل لم يمر بها أو يعايشها ، وهذا يعني اكتشاف هذه الحالة وفهمها [١٩] .

لقد أصبح الارتجال العنصر الأساسي الذي يعتمد عليه المسرح التربوي ، فالهدف من الحصة المسرحية

(١٩) John O'Toole,Theatre in Education (London: Hodder and Stoughton, 1976), pp. 10-16.

اعداد تجربة متنوعة يعيشها الأطفال بحيث يصبحون هم أنفسهم موضوع العملية التعليمية . فبوساطة تمثيل الدور أو ارتجال حالة مايقوم المعلم بوضع الأطفال في حالة متخيلة يتمكن الأطفال بوساطتها من اكتشاف المواقف وفهم مشاعر الآخرين .

الارتجال شيء طبيعي عند الأطفال ، ففي أثناء لعبهم يمثلون أدوارا مختلفة متخيلة حسب قواعد اللعبة . ويمكن استعمال الارتجال في مسرحة أي موقف من الحياة التي يرى المعلم أن من شأنها تعميق تجربة الطفل ، وحل بعض المشاكل السلوكية التي قد يواجهها . وقد يساعد على فهم قضية اجتماعية أو أخلاقية يواجهها الطفل في المجتمع .

إن الاساس في الارتجال ـ كما تقول دوروثي هيثكوت (Dorothy Heathcote) هو ايمان الطفل بالدور الذي يؤديه . أي أنه تجب معايشة الدور الذي يلعبه الطفل ـ ومن الواضح أن هذا الأسلوب تمتد جذوره الى مدرسة المخرج الروسي ستانيسلافسكي (Stanislavsky) الذي اعتمده في اعداد الممثل [٢٠] .

معلم المسرح التربوي

المهم في انجاح عملية الارتجال هو التخطيط السليم للحصة المسرحية ، والا انقلبت في غيابه الى فوضى وضاعت الفائدة المرجوة منها ، وخاصة عندما يفقد المعلم السيطرة على الأمر . وثمة خطوات ثلاث يجب اتباعها عند التخطيط للحصة المسرحية :

(أ) يجب أن يحدد المدرس أهداف الحصة بشكل واضح ،

(ب) يجب توضيح الخطوط العامة للمدرس واطلاع الطلاب عليها ،

(ج) تجب اثارة الطلاب للمشاركة بحيث ينخرطون في النشاط دون اجبار . وهذا مهم جدا وخاصة في أول الأمر ، فقد يغلب الطلاب الحياء أو الضحك أو عدم التصديق ، لكنهم ينسجمون مع النشاط تدريجيا وينسون الواقع . ويجب على المعلم مراعاة توفير عنصر الاثارة حتى لايتطرق الملل الى نفوس الأطفال فيعزفوا عن الاستمرار ويفقدوا الاهتمام بالنشاط .

إن تحقيق الأهداف التربوية للمسرح التربوي يعتمد بالدرجة الأولى على المعلم ، فمهمته صعبة وحساسة إذ أنه يتحمل مسؤولية الحصة ، والعمل على تحقيق أهدافها ومتابعة المنهاج الذي يدرسه . ولايمكن تحقيق ذلك دون فهمه لسيكولوجية الأطفال ومعرفة الأمور التي تثيرهم وتهمهم ، واشراكهم في العملية المسرحية نفسها . ويتوقف عليه اختيار ما هو حسن من المواضيع ، فمعلم الدراما لايدرس الدراما بالمفهوم التقليدي ، بل عليه خلق حالات يستطيع الطالب أن يتعلم منها بنفسه بارشاد المعلم . لذا يمكن أن تحدد واجبات معلم الدراما بالنقاط التالية :

(١) خلق الحالة أو الحدث الذي يعطي الطالب فرصة التعبير عن الذات ويشركه في نفس الوقت في عملية تربوية ،

(٢) اختيار الموضوع الذي يهم الطالب ويدفعه الى المشاركة .

(٣) اختيار الأنشطة أو طرح الأوامر التي يستطيع الطلاب تنفيذها وتفيد في توسيع مداركهم .

(٢٠) Liz Johnson and Cecily O'Neil , ed., Dorothy Heathcote: Collected Writings on Education and Drama (London: Hutchinson, 1985), pp. 44-53.

(٤) تعميق تفكير الطالب وشحذ القدرة الابداعية لديه .

(٥) ملاحظة المواقف التي من شأنها تنمية التفكير الذهني عند الطالب وتجنب تلك التي تضر بالعملية التربوية .

(٦) تغذية المعرفة التي يكتسبها الطالب بأنشطة مسرحية أخرى وبتمارين المتابعة ،

(٧) تشجيع التفكير الذاتي والتقويم عند الطالب .

(٨) معرفة الطلاب وكسب ودهم وثقتهم ، فبدون هذه الثقة لن يجد المعلم التجاوب أو التعاون لديهم . ويجب الاستماع الى آرائهم واحترامها بغض النظر عن أعمارهم . إن الثقة المتبادلة بين المعلم والطالب والتعاون الناتج عن ذلك يؤديان الى عملية الاكتشاف .

(٩) يجب على المعلم أن يتحلى بالموضوعية ، وأن يقوم العملية المسرحية ، وأن يعرف مدى نجاحها . واذا ماكان هناك فشل ، فعليه تحديد الأسباب لتجنبها[٢١].

مثال توضيحي

يجب إعداد حصة المسرح التربوي بحيث تناسب أعمار الطلاب لأن مادة الدرس وطريقة أدائها تعتمدان بالدرجة الأولى على سن الطلاب والأهداف التي يضعها المدرس . ان من الأفضل أن يبدأ المدرس باختيار الموضوع الذي ينبع من معرفة الطلاب أنفسهم أو تجربتهم ، كأن يسألهم أسئلة من شأنها الكشف عن المادة التي تؤدي الى تحقيق أهداف الدرس . وربما يطرح المعلم في أثناء النقاش موضوعا معينا ، ويراقب مدى تجاوب الطلاب معه واستعدادهم لمناقشته وتمثيله ، ومن ثم فقد يكون الموضوع قصيرا بحيث لايشغل غير حصة واحدة ، وقد يأخذ شكل مشروع يتم تحقيقه على مراحل ـ وخاصة اذا ماتطلب دراسة وبحثا في المكتبة يقوم به الطلاب أنفسهم تحت اشراف المعلم . وغالبا ماتشكل مسرحة جزء من المنهاج مشروعا يتطلب عدة أسابيع لانجازه ـ وهذا أكثر مايكون في المدارس الثانوية . ولتوضيح ماسبق أسوق هنا مثالا يتعلق بمنهاج التاريخ في احدى المدارس الانكليزية التي تتراوح أعمار طلابها مابين ١٠ و ١١ سنة ، وهي مدرسة متوسطة .

عنوان الدرس : حريق لندن عام ١٦٦٦م :

يتعلق هذا الدرس بحريق لندن عام ١٦٦٦م ، ويهدف الى الكشف عما يكون قد حصل في أثناء الحريق . وضع المعلم أهداف الدرس على النحو التالي :

١ ـ إثارة اهتمام الطلاب بحادث تاريخي معين من أجل تشجيعهم على معرفة الكثير عنه ،

٢ ـ وضع التلاميذ في حالة معينة ـ تاريخية ـ توفر لهم فرصة تنمية اهتماماتهم ، وتساعد على تحسين التعبير اللغوي لديهم في موضوع معين ،

٣ ـ تعريف الطلاب بطرق (وأساليب) تأليف « قصة » مستمدة من وقائع التاريخ ،

٤ ـ زرع روح البحث العلمي لديهم .

بما أن هذا الموضوع يتطلب البحث في المكتبة عن المصادر والمراجع التاريخية ودراستها ، فإن المشروع ينفذ

(٢١) Cecily O'Neill and Alan Lambert, Drama Structures: A Practical Handbook for Teachers (London: Hutchinson, 1985), pp. 11-29.

على مراحل ، يتطلب انجازها غير حصة صفية . أولا ، قام مدرس المادة بتقسيم الصف الى مجموعات صغيرة ، وأخبر كل مجموعة على حدة أن حريقا قد شب في لندن عام ١٦٦٦م ، (لاحظ أهمية اعطاء التاريخ لأن الحادث قد وقع في الماضي ، في وقت يختلف كليا عن حاضرهم) . وقد أثير نقاش طويل حول هذا الموضوع ، وطرحت الأسئلة وقام المعلم باعطاء المجموعات المعلومات الضرورية . وفي الخطوة الثانية طلب من التلاميذ النظر في الكتب المتعلقة بالموضوع وصور الحريق والناس والشوارع . وبعد اجراء المطالعات اللازمة توصل التلاميذ الى الحقائق التالية :

أ ـ كانت معظم البيوت مصنوعة من الخشب متلاصقا بعضها ببعض في شوارع ضيقة .

ب ـ كان معظم الناس من الفقراء وقد ازدحموا في مساكن ضيقة .

ج ـ كانت وسائل النقل قليلة مما أعاقهم عن نقل أمتعتهم .

د ـ كان الناس يهربون الى النهر حيث الماء .

هـ ـ كان على الناس استعمال الأواني (دلاء) لنقل الماء من النهر لاطفاء الحريق ، اذ لم تكن هنالك اطفائيات .

وقد استعملت هذه المعلومات التي جمعها الأطفال كأساس للعمل المسرحي . وفي الخطوة التالية ، أخبر المعلم الطلاب أنهم من أهل لندن وأنهم في خطر من الحريق ، فما عليهم أن يفعلوا ؟ وقد استطاعت كل مجموعة تأليف قصة حول حريق لندن :

الحالة الأولى : تكشف عن وجود لص يسرق من كومة أمتعة ملقاة خارج فناء منزل . يقوم الناس بمطاردته فيهرب متجها نحو النهر تاركا الناس خلفه يصرخون عليه ويومئون بغضب . بعدها يعود الناس الى منازلهم لجمع أمتعتهم وانقاذها من الحريق الا أنهم يكتشفون أن النار قد حالت بينهم وبينها ، فيضطرون الى الهرب : بعضهم في الشوارع وبعضهم في النهر .

الحالة الثانية : تكشف عن سيدة ثرية تطلب من خادمتها حزم أمتعتها ومجوهراتها ووضعها على فرس هزيلة لاتحتمل الحمل الثقيل الذي وضع على ظهرها . وأخيرا يتدخل زوج السيدة ويقنعها بأن تترك أمتعتها وتحمل الطعام والملاحف فقط للحاجة اليها .

الحالة الثالثة : تكشف لنا عن مجموعة من الناس قد حزموا أمتعتهم وحملوها متجهين نحو النهر الذي يمثل مكان السلامة . ولكن في منتصف الطريق تكتشف احدى النساء أن طفلها مفقود ، فيبدأ كل واحد من المجموعة بالبحث عنه ، وأخيرا يجدونه نائما تحت أمتعة أحدهم ، فترتاح المرأة ويجتمع شمل المجموعة مرة أخرى فتحمل أمتعتها لتسلك طريق النجاة .

بعد أن انتهى التلاميذ من تأليف قصصهم هذه عن الحريق ، اجتمعوا معا لربط هذه القصص وتنسيقها معا لتكوين قصة واحدة متكاملة عن الحريق ـ وبالطبع كان المعلم يتدخل باقتراحاته وأسئلته البناءة ليساعد في عملية الدمج . ومن النقاط التي أثارها :

١ ـ أن يتفق التلاميذ على اتجاه النهر .

٢ ـ أن يتفقوا على هيئة معينة تميز الفقير من الغني .

٣ ـ أن يقرروا شكل المسرحية وتحديد مكان كل مجموعة .

٤ ـ امكان ادخال الموسيقا بوصفها مؤثرا صوتيا اذا اقتضت الضرورة .

وبعد هذا النقاش يقوم التلاميذ بارتجال القصة التي نسجوها حول الحريق ، ولا يتدخل المعلم الا اذا شعر

بحدوث تخلخل في العمل المسرحي ، وعندما يشعر بالحاجة الى تقديم اقتراح لربط جزئيات القصة (٢٢) .

إن مثل هذا التمرين يحقق فوائد عدة للعملية التربوية كتشجيع روح البحث العلمي والرجوع الى المراجع ، وتبادل الأراء ، وخلق التفاعل الاجتماعي ، والقدرة على تأليف القصة باستعمال الخيال ، وتعميق الفهم لحادث تاريخي ، وذلك بمعايشته فترة زمنية معينة يدرسها الطلاب في منهاج التاريخ المقرر .

نلاحظ مما سبق أن المسرح التربوي يتعلق بثلاث مناطق رئيسة :

الأولى : يقدم المسرح وسيلة « خيالية » يكتشف الطلاب من خلالها « الواقع » ، بمعنى أن الأساس في المسرح التربوي القبول بتمثيل الدور مما يمكنهم من كشف الواقع من حولهم .

الثانية : يستخدم المسرح التربوي بعض أساليب المسرح العادي : تأليف القصة أو الحدث ، والاتفاق على طريقة الأداء والحركة والتمثيل .

الثالثة : أن الدراما تعني التغيير . فعلى الرغم من أن الحصة المسرحية عمل خيالي ، الا أنه يجب أن يكون الهدف (هو) العالم الحقيقي . ويجب أن يكون للتجربة قيمة انسانية .

ولاتوجد قواعد محددة لأداء الدرس المسرحي ، بل إن لدى كل معلم الخيار في اختيار الموضوع وطريقة اعداده ومسرحته ، ولكن الطابع الغالب على الحصة المسرحية هو الارتجال الذي يمكن الطلاب من معايشة جو متخيل أو تاريخي . أما بالنسبة لاختيار الموضوع فانه قد يكون متخيلا ، مستمدا من القصص والأساطير ـ وخاصة في مدارس الأطفال ، أو قد يكون مأخوذا من الواقع ـ واقع الحياة والمشكلات التي يعيشها الطلاب ـ وخاصة في المدارس الثانوية ، وربما يرتكز على المناهج في المدرسة ـ كالتاريخ والأدب .

أسلوب آخر للمسرح التربوي :

المسرح التربوي ديناميكي الحركة يواكب المتغيرات في علم النفس والتربية ويتجاوب مع احتياجات المدارس والمؤسسات التربوية ومع تطور عالم الطفل لذا تسعى السلطات المشرفة عليه الى تحسينه ومتابعة برامجه في المدارس والمؤسسات التربوية المختلفة ، وتعقد له المؤتمرات والندوات . وتجري الدراسات الميدانية وغيرها لتقويم فائدته للعملية التربوية وتحسين طرق برمجته في المنهاج المدرسي . وقد اتبع المسرح التربوي طرقا شتى قد تختلف في الأسلوب ولكنها تتفق في الهدف والنتيجة ، ومن ابرز أشكال المسرح التربوي وأكثرها قبولا لدى الجهات التربوية في المملكة المتحدة بعد حصة المسرح التربوي في المدرسة ، مايسمى بـ (المسرح في التربية : Theatre in Education) الذي ظهر في منتصف الستينيات ، واستطاع أن ينتشر في انحاء بريطانيا ويتخذ مراكز له في المدن والتجمعات السكنية الكبيرة ليعد برامجه المسرحية التربوية للمدارس على اختلاف مستوياتها . ولست هنا بصدد التأريخ لهذه الحركة أو الحديث عنها باسهاب ، فان ذلك مدون في العديد من الدراسات التي تناولت ظروف انشاء هذا

(٢٢) ورد وصف هذا الدرس في :

Cynthia Davies, "Drama Across the Curriculum in a Middle School," in Drama Across the Curriculum (London: Educational Drama Association, n.d.), pp. 19-21.

المسرح وتركيبته وما الى ذلك (٢٣) . ولكنني أود أن أتحدث هنا عن هذا النوع من المسرح لأنني أرى أنه بالامكان تكوين فرق مسرح تربوي على غراره تتبع الجهات الرسمية المشرفة على التربية والتعليم في بلادنا .

يتضمن المسرح في التربية ـ كما يفهم من اسمه نفسه (Theatre in **Education**)عناصر المسرح والتربية والتعليم معا ، ذلك أنه يستعمل وسائل مسرحية لتقديم تجربة الهدف منها تربوي ، فبرنامج المسرح في التربية يحتوي على عناصر المسرح من جمهور ومكان عرض : ـ الجمهور هم الطلاب ، ومكان العرض عادة ردهة المدرسة ، وبعض المؤثرات الخارجية ، كالصوت والموسيقا والاضاءة والملابس . أما كيفية استعمال عناصر المسرح ومدى تعقيدها فان ذلك يعتمد على طريقةالبرنامج المسرحي نفسه .ولكن يجب أن لايفهم أن المسرح في التربية صورة أخرى للمسرح العادي ، بل انه يختلف اختلافا جهوريا من حيث الاعداد والهدف والمضمون .

لقد تميز هذا المسرح من غيره بطبيعة العمل الذي يتبعه والطريقة التي يسلكها لايصال المادة الى الطلاب ، لذا اتصف هذا المسرح بـ :

أ ـ أنه يعد برامج مسرحية توضع لتؤدي هدفا معينا ،

ب ـ أن فريق العاملين فيه هم من أشخاص تتوافر لديهم مهارات الاتصال وحسن الأداء والاستماع الى الطلبة ، وهي صفات يتصف بها المعلم والممثل . لذا يطلق على العامل في هذا الفريق اسم ممثل ـ معلم (actor-teacher) لأنه يؤدي وظيفة المعلم في دور الممثل :

ج ـ أنه غالبا ما يعد البرامج بحيث يسمح للطلاب بالمشاركة الفعلية في الأداء المسرحي ،

د ـ أن جمهوره هم من طلبة المدارس ، ولايزيد عدد هذا الجمهور على صف أو صفين ،

هـ ـ أن البرنامج يقدم في المدرسة ـ أي في ردهتها وليس في المسارح ـ ولكن عملية الاعداد تتم عادة خارج المدرسة ـ أي في مكان اقامة الفريق ،

و ـ أنه كغيره من أشكال المسرح التربوي ـ لايرتبط بأية قواعد أو مذاهب مسرحية ، ولايقتصر البرنامج على مادة دراسية معينة دون أخرى ، بل يمكن مسرحة المنهاج أو أية مادة تربوية من واقع الحياة ، أو خيالية ، بأية طريقة مناسبة تحقق الهدف وتناسب أعمار الطلاب الذين سيقدم اليهم البرنامج (٢٤) .

اعداد برامج المسرح في التربية (TIE)

بما أن فريق المسرح في التربية وجد من أجل خدمة العملية التربوية ، لذا فان على أعضاء الفريق أو بعضهم

---

(٢٣) من افضل الدراسات التي كتبت عن هذه الحركة المسرحية انظر :

John O' Toole, Theatre in Education.

Gavin M. Bolton, Towards a Theory of Drama inEducation**(London: Longman, 1979).**

Tony Jackson, ed., Learning Through Theatre **(Manchester: Manchester University Press, 1980).**

C. Redington, Can Theatre Teach? **(London: Pergamon, 1983).**

(٢٤) **John D'Toole,** Theatre in Education, **pp. 10-16.**

زيارة المدرسة التي سيقدم فيها البرنامج ـ وربما زيارة غير مدرسة ـ والتحدث مع المدير والمدرسين بشأن اعداد البرنامج ـ وعادة تأتي الاقتراحات بشأن مضمون البرنامج من المدرسة نفسها . بعد ذلك يكلف فريق من العاملين في المسرح في التربية ، وأحيانا ينضم اليهم بعض المدرسين المهتمين باختيار الموضوع ومناقشته وتحديد أهدافه ـ وغالبا مايستغرق الفريق وقتا ليس بالقليل يمضيه في البحث وجمع المادة العلمية من أجل اعداد البرنامج . وعند الانتهاء من جمع المادة ، يناقشها الفريق ويشترك في النقاش المدرس المعني وربما ممثل عن المدرسة أو الجهة الرسمية المعنية بالأمر . بعد ذلك تتم كتابة سيناريو البرنامج .

وعند اعداد برنامج المسرح في التربية يراعي الفريق الأمور التالية :

١ ـ يجب أن تكون مادة البرنامج وطريقة الأداء المسرحي متناسبتين مع أعمار الطلاب الذين سيعرض عليهم البرنامج . وهذا يتطلب من الفريق معرفة مستوى الجمهور الطلابي وأعمارهم سلفا .

٢ ـ على الفريق دراسة أهمية الموضوع الذي سيعرضه من الناحية التربوية وربطه بالمنهاج المدرسي ، وذلك قبل البدء بعملية الاعداد .

٣ ـ يجب دراسة فعالية الوسيلة المسرحية التي يستعملها الفريق في مسرحة المادة التربوية ، ومعرفة مدى تناسبها مع أعمار الطلاب . وهنا يقرر الفريق ما اذا كان من الضروري اعداد البرنامج بالشكل الذي يسمح للطلاب بالمشاركة فيه أو تقديمه دون مشاركتهم .

٤ ـ تقويم الجدوى التربوية للبرنامج ومعرفة مقدار الخدمة التي يوفرها البرنامج لأهداف المدرسة التربوية .

٥ ـ العمل على تقديم عرض متكامل من حيث الشكل والمضمون .

لابد من اجراء التدريبات اللازمة قبل العرض ، واذا كان البرنامج يتطلب مشاركة الطلاب فانه يتعين على بعض أعضاء الفريق القيام بزيارة المدرسة للعمل مع الطلاب في ورش مسرحية (Workshops) في أثناء ساعات النشاط المدرسي استعدادا لعرض البرنامج . واذا لم تكن مشاركة الطلاب ضرورية ، فان الفريق يقدم برنامجه في المدرسة دون سابق انذار . ويكون ذلك مفاجأة للطلاب . وقبل عملية العرض نفسها يقوم الفريق باعداد نشرات عن العرض تحتوي على تمارين متابعة وأسئلة وأنشطة مختلفة من شأنها تعزيز ما يتعلمه الطلاب من البرنامج . وأحيانا يقوم الفريق بزيارة ثانية للمدرسة بعد العرض بفترة زمنية للالتقاء بالطلاب لمناقشة البرنامج معهم [٢٥] .

وبما أن برامج المسرح في التربية موجهة الى المدرسة وتهدف الى تحسين أداء العملية التربوية ، فإن على المشرفين على الاعداد للبرنامج مراعاة مايلي :

١ ـ حيث إن الهدف من المسرح في التربية تنمية قدرات الطالب فإن على أعضاء الفريق متابعة نظريات التربية الحديثة وعلم النفس المتبعة في الأنظمة التربوية والعمل على تجسيدها في البرنامج المسرحي .

---

(٢٥) لا يسمح المجال بإعطاء مثال توضيحي على ذلك ولكن يوجد العديد من الأمثلة في بعض الكتب السالفة وخاصة :ـ

Can Theatre Teach?

٢ ـ العمل على تطوير وسائل الاتصال مع الطالب من أجل ايصال المادة اليه بأسلوب شائق ، يقبل عليه الطالب بحماس ويعطيه القدرة على الكشف عن قواه الذهنية والخيالية ، وعلى الثقة بالنفس والتعبير عن الذات .

٣ ـ العمل على خلق جو من شأنه اثارة اهتمام الطالب وشحذ خياله . فاذا كان جو البرنامج مملا ، فإن ذلك يسبب عزوف الطلاب عنه وعدم اهتمامهم به .

٤ ـ إن فريق المسرح في التربية لايغني عن المعلم ، بل انه وسيلة يلجأ اليها المعلم لتوضيح موضوع ما أو تعميق الفكر في مادة ما . فأحيانا يكون الموضوع المدرسي مملا للطلاب بحيث لايبدون تجاوبا أو استعدادا لفهمه ، عندها يلجأ المعلم الى الاستعانة بخبرات الفريق الذي يقوم بدوره بزيارة المدرسة والتحدث مع الطلاب في هذا الموضوع ، وربما باعداد برنامج مسرحي يعالج نفس الموضوع بمشاركة الطلاب . لقد دلت الدراسات التي أجريت في المملكة المتحدة على أن زيارة الفريق الى المدرسة تثير اهتمام الطلاب وتكسر جو الرتابة الممل ، فكثيرا ما يشاهد الطلاب يساعدون الفريق في انزال المعدات ، واعداد المكان ، والتحدث مع أعضاء الفريق الزائر .

٥ ـ يجب اعداد البرنامج بالطريقة التي تمكن الطالب من « معايشة » فقراته والتفكير فيها ، واعطاء الاقتراحات واثارة الأسئلة ـ ويجب أن تأتي الاقتراحات أو الحلول من الطالب نفسه .

٦ ـ بما أن البرنامج يعد خصيصا للمدارس ، فلابد من العمل على ايجاد جو من الألفة والثقة المتبادلة بين الطلاب وأعضاء الفريق المسرحي . ويمكن تحقيق ذلك بزيارة المدرسة والتحدث الى الطلاب قبل العرض واظهار المودة نحوهم . ان من شأن هذه الثقة تحقيق اهتمام الطلاب بالعرض والاقبال عليه برضا والمشاركة في فقراته اذا مادعت الحاجة .

٧ ـ بما أن مدة العرض قصيرة واحتكاك الفريق بالطلاب محدود ، فان واجبات المتابعة وتعزيز أهداف العرض التربوية تقع على كاهل المدرس [٣٦] .

الخلاصة

لقد تعددت استعمالات المسرح اليوم بحيث امتدت الى عالم الطب فأصبح المسرح يستعمل بوصفه وسيلة علاجية Drama Therapy في الطب النفسي والطب الاجتماعي وتصحيح النطق والكلام (Speech Therapy) وغيرها مما لامجال للحديث عنه هنا ، لكنني اقتصرت البحث على الكشف عن استعمالات المسرح المختلفة في مجال التربية والتعليم ، وبينت أن المسرح التربوي قد اتخذ طرقا وأشكالا مختلفة . ومع اختلاف أصحاب النظريات في المسرح التربوي وتباين أساليبهم في تحقيق الأهداف التربوية ، فقد دلت الدراسات حول المسرح التربوي على وجود عامل مشترك بين هؤلاء جميعا،فالجميع يتفقون على أن المسرح التربوي يساعد على صقل شخصية الطفل وتنمية قدراته على التعبير عن النفس في المواقف المختلفة التي يواجهها في الحياة ، ويمنحه الثقة بالنفس والتفكير السليم في العالم من حوله وفهمه فهما جديدا على ضوء التجربة التي يعيشها في أثناء التجربة المسرحية ، لأن هذا الموقف يحتم على الطالب التفكير واعطاء الحلول المناسبة . ثم إن عنصر المشاركة

(٣٦) Ken Robinson, "Evaluating TIE," in Learning Through Theatre: Essays and Casebook of Theatre in Education, Tony Jackson ed. (Manchester: Manchester University Press, 1980), p. 91.

يدفع الطالب الى التفكير في القضية المطروحة بنفسه فيكتشف السلوك الناتج عن هذا الموقف .

إن من بين أهداف المسرح التربوي احداث التغير في تفكير الطالب نحو الافضل ، فكثيراما يستغل المسرح التربوي في تقديم قضية يكون الطالب قد اتخذ منها موقفا سابقا . وربما يكون موقف الطالب مبنيا على أساس انطباعات ومؤثرات اجتماعية فرضت عليه من الخارج . فطرح مثل هذه القضايا على شكل مسرحي واعطاء الطالب فرصة المعايشة يمكن الطالب من الكشف عن حقيقة الأمر مما يساعده على تغيير موقفه تجاه كثير من مسلمات الحياة التي سبق له أن اعتنقها دون تفكير ذاتي . إن اشتراك الطالب في مسرحة مشكلة معينة ـ سواء أكانت اجتماعية أم منهجية ـ من شأنه أن يعمق فهمه لهذه المشكلة ، فيبدي رأيه فيها دون تأثيرات خارجية . ان هذا الدور الخطير للمسرح التربوي يحتم على القائمين عليه وعلى سلطات التربية الاعداد السليم للبرامج والدروس المسرحية بحيث تتلاءم مع أهداف التربية ومستوى الطلاب العلمي وتجربتهم في الحياة .

والمسرح التربوي أيضا ينمي الوعي الاجتماعي عند الطلاب . فمن خلال مشاركة الطالب في البرنامج المسرحي ، أوحتى مجرد مناقشته له والتعبير عن رأيه فيه يعطي الطالب الفرصة لمعايشة تجربة مع أترابه ، مما يوثق صلته معهم وينمي شخصيته الاجتماعية .

ان من واجب التربية الحديثة التركيز على المشاركة والنشاط التعاوني من قبل الطلاب بدلا من خلق جو المنافسة الفردية والأثرة بينهم ، فالحياة ليست منافسة بقدر ماهي تعاون . ولاشك في أنه من الضروري تحسين وضع الفرد عن طريق المنافسة ، ولكن يجب أيضا الاهتمام بالعمل المشترك في مجالات الحياة ، وتنمية الاحساس الجماعي بين الطلاب . إن ما يؤخذ على النظام التربوي التقليدي فشله في تنمية تلك المهارات التي تساعد الطالب على التعاون والعمل مع زملائه بروح الجماعة[٢٧] .

***

John D'Toole, Theatre in Education, pp. 13-55.

المراجع الأجنبية

Abrams, M.H. ed. **The Norton Anthology of English Literature.** vol. 1. New York: W.W. Norton and Co., Inc., 1979.

Allen, John. **Drama In Schools: Its Theory and Practice.** London: Heinemann, 1979.

Bolton, Gavin, M. **Drama As Education.** London: Longman, 1984.

- - - - - - -. **Towards a Theory of Drama in Education.** London: Longman, 1979.

Bruner, Jerome ed. **Play.** Pelican, 1968.

Cook, Caldwell. **The Play Way.** London: Heinemann, 1914.

Dewey, John. **Experience and Education.**New York: Macmillan, 1938.

- - - - - -. **The School and Society.** Chicago: University of Chicago Press, 1921.

Hodgson, John ed. **The Uses of Drama: Action As a Social and Educational Force.** London: Eyre Methuen, 1972.

Holf, John. **Why Children Fail.** Penguin, 1977.

Holmann, W.N. trans. **The Education of Man** by F. Froebel. New York: D. Appleton and Co., 1887.

Jackson, Tony ed. **Learning Through Theatre: Essays and Casebook of Theatre in Education.** Manchester: Manchester University Press, 1980.

Johnson, Liz and Cecily O'Neill ed. **Dorothy Heathcote: Collected Writings on Education and Drama.** London: Hutchinson, 1985.

Landy, Robert J. **Handbook of Educational Drama and Theatre.** Westport: Greenwood Pres, 1982.

McCaslin, Nellie ed. **Children and Drama.** New York: University Press of America, 1985.

McGregor, Lynn et al. **Learning Through Drama.** London: Heinemann, 1977.

McRae, John. **Using Drama in the Classroom.** Oxford: Pergamon, 1985.

Miller, Susanne. **The Psychology of Play.** Pelican, 1968.

Nunn, Percy. **Education, Its Data and First Principle.** London: Edward Arnold, 1920.

O'Neill, Cecily and Alan Lambert. **Drama Structures: A Practical Handbook for Teachers.** London: Hutchinson, 1985.

O'Toole, John. **Theatre in Education.** London: Hodder and Stoughton, 1976.

Piaget, Jean. **Play, Dreams and Imitation.** New York: Routledge and Kegan Paul, 1962.

- - - - - - - . **The Psychology of the Child.** New York: Routledge and Kegan Paul, 1966.

Redington, C. **Can Theatre Teach?** London: Pergamon, 1983.

Robinson, Ken ed. **Exploring Theatre and Education.** London: Heinemann, 1980.

Ross, M. **The Creative Arts.** London: Hutchinson, 1978.

Slade, Peter. **Child Drama.** London: University of London Press, 1954.

Stanley, Susan. **Drama Without Script.** London: Hodder and Stoughton, 1980.

Way, Brian. **Development Through Drama.** London: Longman, 1971.

Witkin, R. **The Intelligence of Feeling.** London: Heinemann, 1974.

Wootton, Margaret ed. **New Directions in Drama Teaching.** London: Heinemann, 1982.

المراجع العربية

١ - محمد خريسات . « دور المسرح في التربية » (المجلة الثقافية) عدد ٩ . ٨٥/٨٦ ص . ٨٢ - ٨٩ .

* * *

إفريقيا ومشكلة البحث عن هوية

أحمد أبو زيد

في أواخر عام ١٩٨٤ عقدت في « مدرسة لندن للدراسات الشرقية والافريقية » London School of Oriental and African Studies حلقة دراسية عن « العرافة في دلتا النيجر » وكان المتحدث في هذه الحلقة أحد الدارسين الأفارقة من قبيلة الإيجو Ijow التي تسكن في المنطقة . وقد عرض الباحث الموضوع ضمن إطار من الثقافة والنظم الاجتماعية التي تسود هناك ، وذلك حتى لا ينتزع الموضوع من سياقه الثقافي والاجتماعي العام ، كما أعطى بعض المعلومات الأساسية عن تلك القبيلة التي يصل تعدادها الى حوالي نصف مليون نسمة يكاد نشاطهم الاقتصادي يقتصر على صيد السمك من الأنهار والجداول والخيران حول دلتا النيجر ، وأوضح كيف ينظر الناس هناك الى مجاري المياه في شيء من الرهبة التي تصل الى حد التقديس ليس فقط للدور الاقتصادي الذي تلعبه في حياتهم ، ولكن أيضا لأنها هي مأوى أرواح الماء التي تسيطر على حياتهم وتتحكم في حظوظهم وأقدارهم وتقضي بما يصادفهم من خير أو شر ، ولذا يحرص الإيجو على التقرب الى أرواح الماء بالأضحيات والقرابين في مناسبات معينة حتى تشملهم برعايتها وتبعد عنهم الشر والأذى . ويشرف على هذه المراسيم والطقوس فئة من العرافين الذين يتمتعون بمكانة دينية واجتماعية عالية باعتبارهم الوسطاء بين مجتمع البشر ومجتمع الأرواح . وإذا كانت قبيلة الإيجو عاشت في مواطنها لعدة مئات من السنين دون أن يعكر صفوها شيء ، بحيث حققت كثيرا من النجاح والازدهار المادي فالفضل في ذلك يرجع الى التوافق بين (المجتمعين) تحت إشراف هؤلاء العرافين الذين يستطيعون التنبؤ مقدما بنوايا الأرواح ومقاصدها ومطالبها ، ويحددون للناس ما ينبغي عليهم أن يفعلوه في كل حالة حتى لا تقف الأرواح أمام رغباتهم وتحرمهم الرزق والعيش والحياة على السواء .

وهذه كلها معلومات معروفة وتمتليء بها وبأمثالها كتابات علماء الأنثربولوجيا الذين درسوا المجتمعات القبلية في افريقيا واهتموا بوجه خاص بدراسة الدين والسحر وما يتعلق بها من أفكار وأساطير عن الأرواح والشياطين وعوالم الغيب والقوى الاعجازية . ولقد كانت هذه الموضوعات تحظى دائما بإقبال الباحثين ليس فقط لطرافتها وغرابتها بالنسبة للقاريء الغربي ، وإنما أيضا ـ وهذا هو الأهم ـ لأنها تعطي صورة واضحة عن طريقة تفكير الانسان الافريقي ونظرته الى الحياة والكون وأسلوب تعامله مع الظواهر الطبيعية والكائنات المختلفة التي تعمر الكون . وقد درج علماء الأنثربولوجيا على احترام هذه الأنماط من التفكير التي تصدر عن منطق خاص قد يختلف عن منطق الرجل الأوروبي الحديث ولكنه منطق يقوم على أية حال على مباديء محددة تتلاءم مع البناء الاجتماعي وتتفق مع النسق الثقافي العام السائد في تلك المجتمعات الافريقية . ولذا كان من الغريب أن يتحدث ذلك الباحث الافريقي عن تلك الظواهر المتعلقة بالعرافة بشيء من الاستهجان وينهي حديثه بقوله :

« في منطقة تسود فيها عبادة الأفعي واستخارة إله الشجر مع كل الممارسات العديدة التي ترتبط بتلك العبادات ، كان لابد لأسلوب حياة الناس أن يتأثر بطريقة سلبية . ولذا فلم يكن غرضي من هذا الحديث الوصول الى نظرية جديدة عن العرافة بقدر ما كان هو البحث عن حلول للمشكلات الإنسانية » .

فكأن الباحث الافريقي يريد أن يقول إن غرضه من هذا الحديث هو عرض إحدى صور التخلف التي تقوم على اعتناق أفكار وأمور لا يعترف الأوروبيون بها ، وأنه يحاول العثور على أسباب تمسك تلك الشعوب التي تنتمي إليها قبيلته هو نفسه بهذه الحالة من التخلف التي يصفها بالسخف والبله ، وبالتالي كيف يتسنى للرجل الأوروبي أن يساعد هذه الشعوب والقبائل على الخلاص من هذه الحالة المتردية من التخلف والانحطاط[1] .

ورغم ما قد يبدو في هذا الموقف من غرابة ـ على الأقل في نظر علماء الأنثربولوجيا ـ فإنه يعبر الى حد كبير عن نظرة عدد كبير من المثقفين والدارسين الأفارقة في الخارج الى أنماط الحياة والقيم التقليدية في افريقيا ، ولقد تأثر هؤلاء الدارسون والمثقفون الأفارقة في ذلك بآراء وأفكار بعض علماء الغرب المتخصصين في الدراسات الافريقية والذين يدرسون النظم والثقافات الافريقية الوطنية من منطلق غربي ، ويخضعونها لأحكامهم التقويمية التي تستند الى المحكات والمعايير والمقاييس الغربية . ولقد كان ذلك هو النمط السائد في الدراسات الافريقية في القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، ثم أخذ ينحسر بسرعة وإن ظلت له بعض الرواسب والبقايا في كتابات عدد قليل من العلماء الذين ظلوا يعتبرون أوروبا وثقافتها هي النموذج أو المثال الذي تقاس إليه بقية النظم والثقافات ، وأنه يتعين عليهم أن يتعرفوا من خلال بحوثهم سبل الارتقاء بتلك المجتمعات والثقافات حتى تصل الى المستوى الأوروبي في كل المجالات بما في ذلك مجال القيم والتقاليد والأخلاق وأساليب التفكير .

ولقد لاحظ ماجي بيس (المرجع السابق ذكره) أن نسبة كبيرة من الذين حضروا هذه الندوة كانوا من الأفارقة وأنه لم يبد عليهم أي أثر للامتعاض أو الاعتراض على ما يقوله المحاضر بل كانوا على العكس

(1) A. Maja-Paca, "Africa Observed" : The Times Higher Education Supplement : 4. 1. 1986, P. 15.

من ذلك تماما يوافقونه في وجهة نظره « كما لو كان يسعدهم أن يروا مجتمعاتهم تتحدد في ضوء الأوضاع والقيم والمعايير الأوروبية » ، وأن يروا أنفسهم « في مرآة الثقافة الأوروبية » . وهذا الموقف ـ على حد تعبير ماجي بيس أيضا ـ هو في آخر الأمر امتداد واستمرار للاتجاهات الامبريالية القديمة وإن كانت تتخذ شكلا آخر أكثر خطورة لأن معظم الذين يعتنقون هذه الاتجاهات الآن هم من الأفارقة المثقفين وليسوا من الباحثين والعلماء الأجانب ، وإذا كان هناك قلة من علماء الغرب لا يزالون ينظرون الى افريقيا ونظمها وثقافاتها بتلك النظرة القديمة أو لايزالون يعتقدون أن رسالة الغرب تحتم عليه أن يأخذ بيد الشعوب الافريقية ويرسم لها ما يجب عليها أن تفعله ، ويحدد لها الطريقة المثلى التي ينبغي عليها أن تتصرف بمقتضاها وتسوس بها أمورها ، فإن المسئول عن ذلك هم في آخر الأمر ذلك اللفيف من الأفارقة المثقفين الذين تعلموا في جامعات الغرب بعد أن تلقوا تعليمهم العام في مدارس الارساليات التبشيرية في مواطنهم الأصلية في افريقيا ، والذين ارتضوا لأنفسهم بذلك استمرار هذه الاتجاهات التي تؤكد تفوق الغرب وتميزه ليس في المجالات المادية والعلمية والتكنولوجية فحسب ، بل أيضا في مجال القيم ، واعتنقوا ذلك النمط من أسلوب التفكير الغربي في نظرته الى افريقيا والافريقيين .

ولكن هناك موقفا آخر يقابله ويختلف عنه كل الاختلاف ويتمثل في الجهود التي تبذلها فئة كبيرة من الباحثين والدارسين والأدباء والفنانين الأفارقة لابراز شخصية افريقيا المستقلة المتميزة ، والاعتزاز بمقومات هذه الشخصية رغم الاعتراف في الوقت ذاته بتخلف الشعوب والقبائل الافريقية عن ركب الحضارة الغربية الحديثة . وتتخذ هذه الجهود عدة أشكال ومظاهر لعل أبسطها وأوضحها وأهمها في الوقت نفسه الاتجاه المتزايد نحو الاعتماد على اللغات الوطنية ـ أو اللغات الكبرى على الأقل ـ ليس فقط في الكلام اليومي العادي بل أيضا في الكتابات الأدبية والعلمية والفكرية بدلا من استخدام اللغات الأجنبية كما كان عليه الحال أيام الحكم الاستعماري . وظهر بذلك ـ وبخاصة بعد استقلال افريقيا في الستينيات ـ عدد من الأدباء والشعراء والروائيين والسياسيين والمفكرين الذين يستخدمون لغاتهم الوطنية في التعبير عن موضوعات افريقية خالصة يستوحونها من الحياة الافريقية ذاتها أو التراث الافريقي الأصيل . ويندرج هذا الاتجاه تحت حركة عامة تعرف باسم « الزنوجة » أو « الزنجية Negritude » ، وهي الكلمة التي صاغها في الأصل الشاعر المارتنيكي إيميه سيزير Aime Cesaire ، ثم انتقلت بعد ذلك من جزر المارتنيك الى افريقيا ووجدت استجابة سريعة لدى عدد من الشعراء والأدباء الأفارقة الذين قيض لبعضهم أن يتولى مناصب سياسية مرموقة أو أن يصبح من الزعماء السياسيين المشهورين مثل الشاعر السنغالي ليوبولد سنجور الذي أصبح رئيسا للجمهورية وإن كانت هذه الحركة المشايعة للتراث الافريقي والزنجي وللثقافة الافريقية والزنجية لم تمنع أصحابها من الكتابة بالفرنسية ، ولكن المهم هنا هو أنها كشفت عن عمق التراث الافريقي وتنوعه وثرائه . كذلك ظهر جيل كامل من الأنثربولوجيين الأفارقة الذين عكفوا ـ ولا يزالون ـ على دراسة ثقافاتهم ومجتمعاتهم القبلية من وجهة نظر افريقية خالصة . وهذه في الحقيقة جهود أقدم بكثير من حركة الزنوجة أو الزنجية بحيث نجد رجلا مثل الزعيم الكيني الشهير جومو كنياتا Jomo Kenyata الذي أصبح زعيما وقائدا لاستقلال كينيا ورئيسا لها يكتب في العشرينيات كتابه المهم « في مواجهة جبل كينيا Facing Mount Kenya » يسجل فيه كثيرا من تفاصيل وعناصر الحياة والنظم والثقافة التقليدية هناك .

وعلى أية حال فإن الكتابات العديدة التي حظيت بها القارة في السنوات الأخيرة لا تخرج في مجملها عن أحد هذين الاتجاهين الرئيسيين : الاتجاه المتأثر بالنظرة الغربية التي لا تخلو من التعالي والتي يمكن اعتبارها إحدى بقايا تفكير القرن التاسع عشر بكل ما يحمله من نزعات استعمارية وأفكار تطورية تعلي من شأن الغرب على بقية شعوب العالم وثقافاته ومجتمعاته وقيمه وأخلاقياته ، والاتجاه القومي الذي يعتز بالتاريخ الافريقي ويفخر بتراث القارة ويعلي من شأن الثقافة والتقاليد والقيم والسلوكيات والعلاقات الافريقية الأصيلة ، وهو اتجاه لا يخلو من نظرة رومانتيكية تخفي كثيرا من مرارة الماضي الافريقي الأليم . وهذا لا يمنع بغير شك من وجود كثير من الكتابات والدراسات (الموضوعية) التي تحاول التحرر من كلتا النزعتين عن طريق جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات وتفسيرها من موقف يحرص على التوفيق بين النظرة الذاتية ورأي الأهالي أنفسهم في ثقافتهم وتقاليدهم وقيمهم مع التمسك بقدر الامكان بمقتضيات العلم ومتطلباته ويتمثل ذلك على وجه الخصوص في كتابات علماء الأنثربولوجيا المعاصرين الذين قاموا بدراسات ميدانية متعمقة في بعض المجتمعات القبلية في افريقيا ، ويستوي في ذلك الأنثربولوجيون الأجانب والعلماء الوطنيون .

•••

من الأعمال الموسوعية الهامة التي ظهرت في السنوات الأخيرة حول افريقيا ذلك المشروع الضخم الذي اضطلعت به منذ بعض الوقت جامعة كمبردج لكتابة تاريخ القارة وأشرفت على نشره تحت عنوان : The Cambridge History of Africa ، والمجلدات الستة الأولى من هذا العمل الضخم لم تفلح في أن تصل بتاريخ القارة الى أبعد من عام ١٩٠٥ ، وهذا يعتبر في حد ذاته اعترافا بعمق التاريخ الافريقي ودليلا على عدم صحة الدعوى التي أطلقها اللورد داكري وتابعه فيها أحد كبار المؤرخين البريطانيين وهو الأستاذ هيو تريفور روبر Hugh Trevor - Roper من أنه لا يوجد لافريقيا تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة وأن كل ما هنالك هو « تاريخ الأوروبيين في افريقيا » .

وقد أثار ظهور هذه المجلدات الستة من الكتاب نوعين متكاملين من الجدل أو الصراع الفكري على حد تعبير جيوفري هويتكروفت Geoffrey Wheatcroft[2] ، الأول هو جدل سياسي بين اليسار واليمين حول وضع افريقيا السياسي في الوقت الحالي ، والثاني جدل أكاديمي بين المؤرخين البرجوازيين والمؤرخين الماركسيين حول ماضي القارة وتاريخها . فبعد أن توقفت عملية « التأريخ Historiography » الامبريالي وتدوين الأحداث التاريخية أيام الامبراطورية ، ومن وجهة نظر استعمارية بحتة تقوم على ادعاء مسئولية الرجل الأبيض إزاء القارة المظلمة وهي المسئولية التي أصبحت ـ في نظر الكثيرين من الكتاب الغربيين ـ تمثل عبئا ثقيلا على ضمير الغرب ، ظهرت « مدرسة » من المؤرخين الليبراليين الذين كانوا يؤمنون بأن من واجبهم كمؤرخين أن يعيدوا للقارة اعتبارها واحترامها لذاتها . وأن من حق افريقيا أن يكون لها ثقافة وتاريخ مستقلين ومتمايزين عن ثقافة الرجل الأبيض وتاريخه ، كما كانوا يؤمنون بأن دور المشتغلين بشئون افريقيا يجب أن يتعدى موقف الاكتفاء بدراسة مشكلة حق افريقيا في الاستقلال ومشكلة الاضطهاد الذي تعاني منه شعوب القارة ومسألة التمييز

(٢) Geoffrey Wheatcroft; "In Search of a Continent"; T. L. S., 14 Nov. 1986, pp. 1285-6.

العنصري وما إليها الى موقف أكبر وأهم وهو الوقوف الى جانب افريقيا والتشيع لها ، وفضح الادعاءات الظالمة التي يحملها أنصار « النظام القديم » أو الوضع القديم الذي يعبر عنه لورد داكري والأستاذ تريفور روبر عن عدم وجود تاريخ لافريقيا السوداء يستحق الدراسة ، وأنه قد يصبح لنا مثل هذا التاريخ في المستقبل البعيد أما الآن فلا وجود لهذا التاريخ ، وأنه إذا كان هناك ما يمكن تسميته تاريخا للقارة على سبيل التجاوز فهو تاريخ ضحل للغاية ، وأنه لا يوجد خارج نطاق تاريخ الأوروبيين في أفريقيا سوى الظلمة الدامسة ، ولا تصلح أن تكون موضوعا للتاريخ .

ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء الليبراليين الذين عارضوا موقف داكري وتريفور روبر ، ورفضوا تفسيراتها وجدوا أنفسهم هدفا للهجوم من مدرسة أخرى أكثر تمردا وثورة على تلك التفسيرات ، ولم يكن يكفيها الاشادة بالتراث الافريقي أو الاعتراف بتاريخ افريقي خالص ومتمايز عن تاريخ الغزاة والمستعمرين للقارة ، وإنما كانت تنادي بضرورة تحليل ذلك التاريخ والتراث من منظور افريقي بحت ، ومن أبعاد افريقية خالصة على ما سبق أن ذكرنا . وقد ظهر ذلك الاتجاه واضحا في الجزء الذي ظهر مؤخرا من كتاب تاريخ كيمبردج عن افريقيا ، والذى يغطى فترة ما بعد عام ١٩٤٠ . كذلك ظهرت هذه الدعوة ـ ربما بشكل أوضح وأكثر صراحة ـ في آخر مجلد من عمل موسوعي آخر لا يقل أهمية عن « تاريخ كيمبردج » وهو كتاب « تاريخ افريقيا العام General History of Africa » الذي أشرفت عليه منظمة اليونسكو ، ويغطي هذا المجلد الفترة بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٥٠ .

ومن الطبيعي أن يلقى هذا الاتجاه المتمرد كثيرا من النقد والمعارضة من بعض العلماء الأوربيين الذين يرون فيه خروجا على التقاليد الأكاديمية الرصينة في كتابة التاريخ ونوعا من إقحام الأساليب الخطابية السياسية في مجال علمي بحت لا يحتمل مثل هذه الغوغائية الافريقية التي تتخفى تحت ستار العلم . ويستدل هؤلاء النقاد على ذلك بأن المؤلفين الذين تولوا كتابة تاريخ هذه الفترة (١٨٨٠ ـ ١٩٥٠) ، وهي فترة الغزو والاستعمار الأوروبي لافريقيا في أجل مظاهرها ـ خصصوا الجانب الأكبر من ذلك المجلد ليس لدراسة عمليات الغزو وظاهرة الاستعمار بكل ما ترتب عليها من تقسيم للقارة وإخضاعها للحكم الاستعماري ، ولكن لدراسة حركات المقاومة الافريقية للمستعمرين الأوروبيين ، وعرضوا هذه الحركات بطريقة بعيدة عن روح العلم وعن النظرة الموضوعية التي يتحلى بها العلماء . وبطبيعة الحال فإن هذه الانتقادات (الأوروبية) تلقى بدورها من يرفضها ويعمل على تفنيدها . ولا يزال الجدل قائما[٣] .

وقد وجد هذا الجدل طريقه الى وسائل الاعلام بما في ذلك الاذاعة والتليفزيون وبخاصة في بريطانيا حيث أذيعت عدة برامج حول افريقيا والافريقيين ، ثم تحولت بعض هذه البرامج الى كتب تعكس وجهات نظر أصحابها ، ومن أهم هذه الكتب كتاب « قصة افريقيا The Story of Africa » الذي كان في الأصل سلسلة من الحلقات التليفزيونية قدمها بازل ديفيدسون Basil Davidson منذ أكثر من عامين ، وسلسلة أخرى من الحلقات ظهرت عام ١٩٨٤ بعنوان « الافريقيون The Africans » قدمها أحد علماء

(٣) انظر على سبيل المثال المراسلات والتعليقات التي ظهرت على صفحات الملحق الأدبي لجريدة التايمز في التواريخ التالية :
T. L. S.; 9 August 1985, 16 August 1985; 27 Sept. 1985.

السياسة الأفارقة وهو الدكتور علي المزروعي . الكتابان يعطيان فكرة واضحة عن بعض أوجه الاختلاف في النظرة الى مشكلات افريقيا وتاريخها وتراثها وأسلوب معالجة هذه المسائل والتعبير عن الرأي فيها .

وبازل ديفيدسون هو واحد من الكتاب البريطانيين الذين اشتهروا بمواقفهم المعارضة للاستعمار الأوروبي للقارة الافريقية والذين كرسوا كثيرا من الجهد والوقت للدعوة لدراسة وفهم الشعوب الافريقية وثقافاتها والوقوف الى جانبها في صراعها من أجل الحرية والاستقلال والحياة الكريمة . ويظهر ذلك في مجموعة الكتب التي أصدرها خلال أكثر من ثلاثين عاما حين أصدر كتابه عن جنوب افريقيا بعنوان « تقرير عن جنوب افريقيا Report on South Africa » (عام ١٩٥٢) ، وأحدثت حين صدوره ضجة كبرى في الأوساط العلمية والسياسية على السواء[4] . وتكشف أعمال ديفيدسون كلها عن محاولات صادقة لاستكشاف الطرق المتشعبة الوعرة التي تواجه القارة وبخاصة بعد الاستقلال والمزالق الخطرة التي تحف بهذه الطرق والتي قد تعطل انطلاق الشعوب الافريقية نحو التنمية والتقدم . ولم يكن ديفيدسون في مهاجمته للاستعمار الغربي لافريقيا يعطي أهمية لدراسة موضوعات معينة مثل تجارة الرقيق أو مساوىء أساليب الحكم الاستعماري بقدر ما كان يهتم بنقد وتفنيد مزاعم الأوروبيين ودعاواهم عن الرقي والاستعلاء السلالي والثقافي على الافريقيين ، ونزوعهم الى ازدراء كل ما هو افريقي والتجاوزات التي ترتبت على ذلك الاستعلاء والتي كان الأوروبيون يرتكبونها في حق القارة وشعوبها ، وذلك فضلا عن رفضه للرأي الخاطىء القائل بأنه ليس للافريقيين تاريخ أو ثقافة إلا في أدنى المستويات وأن نصيبهم من ذلك لا يرتفع كثيرا عن نصيب الحيوانات مما كان يدفع الأوروبيين الى معاملتهم كما لو كانوا حيوانات بالفعل على ما يقول هويتكروفت (المرجع السابق ذكره صفحة ١٢٨٥) . ومع ذلك فإن كتابات ديفيدسون تصدر في آخر الأمر عن منطلق أوروبي رغم كل ما يقال عن تحررها وليبراليتها ، وهي من هذه الناحية تختلف اختلافا كبيرا عن كتابات العلماء والمؤرخين الأفارقة الذين يدرسون نفس تلك الموضوعات من وجهة نظر افريقية ، والذين يمثلهم خير تمثيل علي المزروعي في كل كتاباته وبخاصة كتابه الأخير الذي سبقت الاشارة اليه وهو كتاب « الافريقيون » .

●●●

(٤) تقدم كتبه الأخرى التي تسير على النهج نفسه كتابه عن افريقيا بعنوان : The New West Africa

وقد صدر عام ١٩٥٣ ، وكذلك دراسته التاريخية التي تقع في جزأين صدرا عام ١٩٥٩ بعنوان : Old Africa Rediscovered

ودراسة تاريخية أخرى موجزة صدرت عام ١٩٦١ بعنوان الأم السوداء "Black Mother"

وقد أردفها بعد ذلك بدراسة أخرى عن ماضي افريقيا بعنوان : "The African Past"

وتلك كله الى جانب كتابه القصير « دليل الى تاريخ افريقيا » "Guid to African History"

ثم كتابه الذي أثار كثيراً من الجدل حين صدر عام ١٩٦٤ بعنوان : "Which Way Africa : The Search for a New Society"

وغير ذلك من الكتب والمقالات التي تعكس مدى فهمه وتعاطفه مع شعوب القارة السوداء .

علي المزروعي أستاذ افريقي من كينيا ولكنه تلقى تعليمه في جامعات الغرب ويشغل الآن منصب أستاذ علم السياسة في جامعة ميتشيجان ، وله كثير من الكتب والأبحاث في علم السياسة يتناول في معظمها الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في القارة الأم التي ينتسب إليها(*) . وبعض هذه الكتابات كان في الأصل سلسلة من الأحاديث ألقاها في الاذاعة البريطانية مثل كتاب :

The African Condition : The Reith Lectures 1979 أو سلسلة من الحلقات التليفزيونية مثل كتاب « الافريقيون » .

وهذا الكتاب الأخير « الافريقيون » كتاب عام ـ كما يبدو من عنوانه ـ يعرض فيه الكثير جدا من الموضوعات والمشكلات ومظاهر الحياة اليومية في القارة الافريقية ولكنه يعالجها كلها من وجهة نظر محددة تتضح من العنوان الفرعي للكتاب وهو « التراث الثلاثي A Triple Heritage » ، والمقصود بذلك هو التراث الافريقي الأصيل والتراث الاسلامي ثم وطأة الحضارة الأوروبية الحديثة على المجتمعات الافريقية وثقافاتها التقليدية .

وفي ضوء هذا « التراث الثلاثي » يعرض علي المزروعي عددا من المشكلات والقضايا الهامة التي يكثر الحديث حولها في مجال الدراسات الافريقية مثل شخصية افريقيا (الشخصية الافريقية الأصلية وما طرأ عليها من تغيرات نتيجة للتأثيرات السامية Semetic ، والمؤثرات الوافدة من الغرب) ومثل ما يطلق عليه اسم « الآلهة الجدد » ، ويعني بذلك الأديان التي وفدت الى افريقيا بعد الوثنية الأصلية مبينا ما أحرزه الاسلام من تقدم وانتشار ومدى تراجع المسيحية أمامه أو على الأقل عدم قدرتها على الصمود في وجه الدعوة الاسلامية وعجزها عن أن تحقق نجاحا يتناسب مع الجهود المضنية التي بذلها ـ ولا يزال يبذلها ـ المبشرون ورجال الارساليات المسيحية المختلفة . بل إنه يتكلم عن ذلك التراث الثلاثي في مجالات التكنولوجيا اعتبارا من عصر الرق حتى عصر الاستعمار الأوروبي وموقف الغرب من « الثورة الصناعية » في افريقيا ، وموقف افريقيا الوثنية ، وافريقيا الاسلامية من العصر النووي ، ومثل الصراع بين المجتمع والدولة ، وبين الحرب والسلام في افريقيا الوثنية ، وافريقيا الاسلامية ، وافريقيا العصر الحديث بعد خضوعها للحكم الاستعماري ، وكذلك في مجال الأساطير (الأساطير الافريقية القديمة ، ونظرة الاسلام إليها ، ثم ما يسميه بالأساطير الحديثة المرتبطة بالمدنية الغربية ، وعجز الانسان الافريقي أمامها وانبهاره بقوتها وجبروتها الذي يماثل انبهاره بالقوى الغيبية الاعجازية في أساطيره القديمة) وغير ذلك من الموضوعات .

ومعالجة هذه الموضوعات على هذا النحو يكشف لنا في وقت واحد عن الاستمرار والاتصال بين هذه الأنماط الثلاثة من التراث رغم كل ما بينها من تعارض وتنافر قد يصل في بعض الأحيان الى التناقض . وهذه مسألة يلمسها في الحياة اليومية ذاتها الانسان الغريب على الثقافة الافريقية والذي لا يعرف شيئا عن ذلك التراث الثلاثي الذي يتكلم عنه علي المزروعي ، والذي يوجد جنبا الى جنب دون أن يصل الى حد الاندماج الكامل أو

(*) من أهم هذه الكتابات وأكثرها شيوعاً الكتب التالية :

Towards a Pax Africana : A Study of Ideology and Ambition; Political Values and the Educated Class in Africa (1978); Africa's International Relations : The Diplomacy of Dependency and Change (1978); The Africans : A Reader (1986); World Culture and Black Experience.

بالاضافة الى عدد كبير جداً من المقالات في المجلات والدوريات التي تهتم بالشئون الافريقية .

الانصهار . ويبدو أن العقل الافريقي يستطيع أن يتقبل وجود هذه الأوضاع والمظاهر وأنماط السلوك المتناقضة ، ولا يكاد يرى فيها شيئا من الغرابة وذلك على عكس الزائر الغريب . فالسائح الأوروبي أو الأمريكي مثلا الذي ينزل في أحد الفنادق الكبرى الحديثة في افريقيا سوف يجد كل وسائل الراحة والرفاهية الحديثة هناك ، ولكنه سوف يلاحظ في الوقت ذاته أن جهازي الراديو والتليفزيون لا يعملان وكذلك الحال بالنسبة للتليفون ، وأن (توصيلة) الماء الساخن غير موجودة أصلا ، وإذا وجدت فإن أحدا لايكاد يهتم بتوصيلها وهكذا . ولا يعتبر المزروعي ذلك دليلا على التخلف أو الاهمال أو اللامبالاة بقدر ما يعتبره دليلا على التناقض الأساسي الذي تعاني منه القارة الافريقية في كل مجالات الحياة وأنماط السلوك الفردي والجماعي . فالتوجه نحو الغرب واقتباس أسلوب حياته هو مجرد (واجهة) تخفي وراءها حقائق افريقيا الواقعية . وهذه الحقائق هي موضوع الكتاب الذي كان في الأصل ـ كما ذكرنا ـ سلسلة من الحلقات التليفزيونية التي استغرقت تسعة أسابيع عرض فيها لثقافة القارة وتاريخها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة[٦] .

والبرنامج كله أشرفت عليه هيئة National Eudowent for the Humanities الأمريكية . وقد أسهمت بمبلغ ستمائة ألف دولار من التكاليف الكلية التي وصلت الى حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار . ولكن حين ظهر البرنامج في التليفزيون ثارت ثائرة الهيئة لأن البرنامج كثيرا ما كان ينزلق ـ حسب رأيها ـ الى نقد الغرب بأسلوب ساخر لاذع ، كما أنه لم يتوافر له القدر الكافي من الموضوعية والتوازن اللذين تهتم بهما تلك الهيئة ، ومن الأدلة على ذلك ـ كما تقول الهيئة أيضا ـ التعاطف الذي أبداه علي المزروعي مع العقيد معمر القذافي ، وقد وصل الأمر بالهيئة الى المطالبة برفع اسمها من المسلسل باعتبارها أحد المسهمين في تمويل ، كما رفضت بعد ذلك أن تسهم بأي مبلغ آخر اضافي لمواصلة البرنامج والتقدم به الى مراحل أبعد . وهذا مثال واحد لما أثارته هذه السلسلة من الحلقات ـ قبل أن تصبح كتابا ـ ثم زادت حدة الخلاف بعد ظهور الكتاب على اعتبار أنه يعكس وجهة نظر افريقية تختلف في كثير من الأحيان مع الآراء السائدة في الأوساط الغربية عن افريقيا والافريقيين .

وعلي المزروعي نفسه يعترف بأن أفكاره وآراءه لا تتفق بالضرورة مع الأفكار الأمريكية ، ولا تسير معها في نفس الخط ، وأنه ليس من المفروض أبدا أن تساير تلك الأفكار وتتطابق معها تماما ، كما أنه يقرر بصراحة ووضوح بأن معظم المشكلات التي تعاني منها افريقيا في الوقت الحالي يمكن ردها الى ما يسميه (التطفل) الغربي الذي كان يتخذ أحيانا شكل حركات التبشير والارساليات الدينية المسيحية ، وأحيانا أخرى شكل تجارة الرقيق ، وأحيانا ثالثة شكل الاستعمار الأوروبي الذي مزق القارة وقسمها الى دويلات عن طريق إقامة حدود (قومية) مصطنعة وتعسفية ، وأحيانا رابعة على شكل الرأسماليين الذين سرقوا ثروات افريقيا واستنزفوا مواردها الطبيعية . ولقد حملت هذه الأشكال من التطفل الى القارة من الفساد والخراب أكثر مما جلبته اليها من أسباب التطور والرقي والتنمية . ولذا فليس من الغريب أن يقابل الكتاب بكثير من الجفاء والنقد والسخرية على صفحات المجلات والدوريات في بريطانيا وأمريكا على السواء[٧] .

---

(٦) أود أن أذكر للسيدة الفاضلة الشيخة حصة صباح السالم الصباح أن وجهت نظري الى هذا الكتاب حين أرسلت الى نسخة منه أثناء عملي مستشاراً لتحرير مجلة عالم الفكر حتى أن يجد الكتاب طريقة الى القراء في شكل عرض للتعريف به وبصاحبه .

(٧) انظر في ذلك مثلاً : T. L. S.; op. cit. : Time Magazine, 13 Oct. 1986, P. 47.

ولكن رغم تشيع المزروعي لافريقيا واعتزازه (بافريقيته) فإنه يعترف بأن الانجاز الذي حققته افريقيا خلال تاريخها الطويل لا يتناسب بحال مع ضخامة (التراث الثلاثي) العميق المتنوع ، ويتساءل عن سبب ذلك القصور أو العجز ، كما يلاحظ مثلا عدم الاهتمام ببذل أية جهود صادقة حقيقية في مجال التوثيق العلمي والتاريخي مما أدى الى ضعف « التقليد العلمي » في القارة بأسرها ، كما أن اللغات الافريقية ذاتها لغات هزيلة وضامرة في الأغلب . والأكثر من ذلك هو أن افريقيا تفتقر بشكل فاضح الى كثير من العناصر الثقافية التي يعطيها الأوروبيون أهمية بالغة ويعتبرونها من أهم مقومات وعلامات الحضارة والمدنية مثل القلاع والحصون والكاتدرائيات والاتفاقيات والعقود والمواثيق المدونة المكتوبة ، وأن غياب هذه العناصر كان في نظره من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور نزعة الاستعلاء الأوروبي بكل ما ترتب عليها من تمييز عنصري واستعباد للأفارقة . ومع ذلك فإن هذا كله لا يقلل في شيء من افتتان علي المزروعي بافريقيا والافريقيين بحيث يقتبس للتدليل على مدى اعجابه بهم بعض أبيات الشاعر المارتنيكي ايمي سيزير التي تصدق على الأفارقة .

الذين لم يخترعوا البارود أو البوصلة
والذين لم يذللّوا الغاز أو الكهرباء
والذين لم يكتشفوا البخار أو الفضاء
إن زنوجتي ليست صخرة تصدم بصمتها صخب النهار
إن زنوجتي ليست نقطة ماء عطنة على عين الأرض الميتة
إن زنوجتي ليست برجا ، ولاهي كاتدرائية ترتفع نحو السماء
إنما هي تغوص عميقا في لحم الأرض الأحمر القاني (صفحة ٧٣) .

●●●

دراسة أي شعب أو أي مجموعة من الشعوب لا يمكن أن تقوم في فراغ وإنما يجب دراسة هذا الشعب أو تلك المجموعة من الشعوب ضمن إطار شامل من الظروف والأوضاع الايكولوجية والتاريخية والأنساق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تؤلف كلها وحدة متكاملة تكشف في آخر الأمر عن « روح » ذلك الشعب أو تلك المجموعة من الشعوب . ومن الطبيعي أن يضع أستاذ متمرس مثل علي المزروعي ذلك المبدأ نصب عينيه وهو يدرس « الافريقيون » موضوع كتابه ، ولذا يمهد لدراسته بمحاولة تبيين « موقع افريقيا » من العالم . ولكنه لا يقصد بذلك الموقع الجغرافي أو الفيزيقي البحت ، فهذا تصور فيه بساطة وسذاجة ، ولكنه يقصد في المحل الأول موقع افريقيا من الثقافات الثلاث الكبرى التي تؤلف التراث الافريقي العظيم . ولا يجد المزروعي ، رغم اسلامه واسلاميته ، أي غضاضة أو حرج في أن يزهو بالتراث الافريقي الوثني الأصيل ويتغنى به . فهو تراث لا يزال حيا وقائما وماثلا حتى الآن في معتقدات الناس وأساطيرهم ، كما ينعكس في كثير من تصرفاتهم ومظاهر سلوكهم ويحدد علاقاتهم اليومية بعضهم ببعض . والسطر الأول من مقدمة الكتاب يقول :

« الأسلاف الافريقيون غاضبون . والذين يؤمنون بهؤلاء الأسلاف وقدرتهم يرون الغضب ماثلا في كل ما يحيط بنا . أما الذين لا يؤمنون بالأسلاف فإنهم يطلقون اسما آخر على مظاهر

ذلك الغضب . وكما يقول إدموند بيرك Edmund Burke إن الذين لا ينظرون وراءهم على الاطلاق ليروا صنع الأسلاف لن يستطيعوا النظر أبداً أمامهم لتحقيق الخلود » (صفحة ١١) .

ولكن ما الدليل والشاهد والبرهان على لعنة هؤلاء الأسلاف وغضبهم ؟

أول دليل على ذلك هو أنه لا شيء في افريقيا يسير في الطريق الصحيح ، وأن الأمور ليست على ما يرام في كل المجالات والميادين ابتداء من داكار غربا حتى دار السلام في الشرق ، ومن مراكش في الشمال حتى مابوتو في الجنوب . فالنظم والمؤسسات تفسد وتتهاوى ، والأبنية الاجتماعية تصدأ وتبلى وتتصدع كما لو كان الأسلاف صبوا على الأحفاد لعنة الدمار والخراب . فسلط العسكر على الكتاب والمثقفين من أجل السيطرة على النظم والحكم ، وسلطوا الأحراش كي تزحف على الطرق الممهدة ، وحكموا على البشر بأن تتناقص غلة الأرض وتكثر الأفواه الجائعة وتزداد ، وقضوا على البيوت بأن (تتشبع) بماء الفيضانات بينما تتشقق التربة الزراعية من الجدب والجفاف وندرة الماء ، وحكموا على الناس بأن يترفع الأبناء عن أن تمسك أيديهم بالفأس لفلاحة أرض الآباء ، وأن يفضلوا على ذلك الرحلة والتجوال طلبا للعمل والرزق ، وأن يتقن الناس فنون الغش وأساليب الخداع والتدليس ، وأن يدس الرجل السم في ثمار الكولا التي يقدمها لصديق عمره ، وأن تتداعى الأشياء على ما يقول الروائي النيجيري الشهير شينوا آتشبي Chinua Achibe في روايته الأولى « الأشياء تتداعى Things Fall Apart » .

ولكن إذا كانت هذه هي لعنة الأجداد ، فما هي الجريمة ؟ وما هي خطيئة الأبناء ، والأحفاد ؟

الخطيئة الكبرى في نظر علي المزروعي هي ذلك الرباط القوي بين افريقيا والقرن العشرين ، وهو رباط يقوم على أسس خاطئة كما أن بنوده وشروطه فاسدة وغير صالحة لأنها تتطلب أن تدير افريقيا ظهرها للقرون السابقة والعصور الماضية من تاريخها الطويل ، وذلك في محاولة هزيلة جوفاء للعصرنة والتحديث دون اعتبار للاستمرار الثقافي . فهي إذن محاولة لسلخ افريقيا من (افريقيتها) ، وتجريدها من طابعها الافريقي وشخصيتها - الافريقية . وقد ترتب عليها ظهور التوتر والتمرد والعصيان الاجتماعي وكل التغيرات الاجتماعية السريعة المفاجئة التي عربدت في القارة كلها دون ضابط ، ولذا كان يجب في رأيه وقف ذلك التغير السريع ، أو على الأقل التحكم فيه وتوجيهه ، إذ ليس ثمة ما هو أخطر من التغيرات غير المحكومة وغير المقيدة وغير الموجهة . وإذا كان فرانكلين روزفلت قد ناشد الأمريكيين حين واجهت بلاده في الثلاثينيات الأزمة الاقتصادية التي أشاعت الخوف القاتل في نفوسهم أن يحاربوا الخوف وقال جملته الشهيرة : « إن الشيء الوحيد الذي يجب أن نخافه هو الخوف نفسه » ، فإن علي المزروعي يقول للأفارقة أبناء جلدته وهو يواجهون في الثمانينيات وباء التغير السريع في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية : « إن الشيء الرئيسي الذي يجب تغييره هو ميلنا نحن للتغيير » (صفحة ١١) .

فمنذ أن حصلت الدول الافريقية على استقلالها السياسي مرت بسلسلة طويلة من الانقلابات العسكرية والتغيرات الاقتصادية وعمليات الانسلاخ الثقافي عن (افريقيتها) والاتجاه - أو حتى الانحراف - نحو الغرب بخطا حثيثة . ولو قارنا ما حدث للافريقيين من تغيرات خلال جيل واحد فقط بما حدث لليهود مثلا خلال الألف سنة الأولى من الشتات لوجدنا أن التغيرات التي

طرأت على حياة الأفارقة وثقافتهم ونظمهم وقيمهم كانت أسرع وأكبر أثرا مما طرأ على حياة اليهود الذين أفلحوا في الاحتفاظ بشخصيتهم وذاتيتهم الثقافية ، بعكس الأفارقة الذين سارعوا الى الانسلاخ من الهوية أو الذاتية الافريقية الأصلية على الرغم من أنهم لم يتعرضوا لما تعرض له اليهود من شتات وتشتت . فعلى الأرض الافريقية تقوم حرب ثقافية طاحنة بين التقاليد الافريقية الأصيلة وبين القوى المدنية الغربية الحديثة . وأسلحة افريقيا في هذه الحرب الضروس هي العجز وعدم الكفاءة وسوء الادارة والفساد وتآكل البنية التحتية مما ينبيء بسوء المصير لو استمرت افريقيا في هذا الطريق ولم تحاول أولا التخلص من تأثير الغرب السيء واصلاح وسائلها وأساليبها ونظرتها الى الحياة مع الافادة من تراثها القديم الطويل . فالسؤال المهم هنا إذن هو : إذا ما كانت افريقيا سوف تفلح في استرداد شخصيتها أو تحاول على الأقل العمل على استرداد تلك الشخصية ومدى إمكان نجاحها في ذلك ، خاصة وأنه على الرغم من كل ما يقال عن اتساع نطاق التغييرات التي طرأت على المجتمع الافريقي ، فإن هذه التغييرات لم تطمس تماما ملامح القيم التقليدية المتوارثة . فلا تزال الفجوة واسعة بين الأبنية والنظم الاقتصادية والسياسية الحديثة المستوردة ، وبين القيم التقليدية أو تقاليد وأعراف الأجداد والأسلاف حسب التعبير الذي يستخدمه علي المزروعي . وصحيح أنه من الصعب أن ترجع افريقيا الآن الى عهدها السابق وأوضاعها القديمة السابقة على عصر الاستعمار ، ولكن هناك رغم ذلك فرصة للتراجع (الجزئي) ولإمكان إعادة العلاقات والروابط مع بعض تلك المعالم الأساسية القديمة ، ثم البدء من جديد في مرحلة التحديث والعصرنة تحت قوة الزخم الافريقي الأصلي . وصحيح أيضا أن أفارقة القرن العشرين يتعرضون لكثير من التأثيرات الثقافية المتباينة ، وأنهم يتأثرون بها أسرع مما حدث لليهود خلال الألف سنة الأولى من الشتات ، كما يذكر المزروعي في أكثر من مكان من كتابه ، ولكن الحرب بين الثقافات الأجنبية الوافدة ، والثقافة الافريقية الأصلية ، والثقافة الاسلامية التي تسود في كثير من ربوع افريقيا لما تنته بعد ، وإنما يبدو الأمر ـ على ما يقول المزروعي ـ كما لو كان الأسلاف استيقظوا أخيرا من سباتهم العميق وبعثوا من موتهم وبدأوا يقومون بهجوم مضاد لاسترجاع الطابع الافريقي الأصيل أو (الافريقية) الأصلية . وقد يكون لذلك بعض الآثار السيئة المؤسفة ولكنها مؤقته كما أن النتيجة قد تستحق في آخر الأمر الاعجاب والثناء .

وهناك على أية حال مبدآن أساسيان يؤثران بالضرورة في أي حركة للاصلاح قد تقدم عليها افريقيا الآن أو في المستقبل :ـ المبدأ الأول هو ضرورة النظر (الى الداخل) أي نحو الأسلاف أو نحو الماضي ، بينما يقضي المبدأ الثاني بضرورة النظر (الى الخارج) نحو الانسانية بمعناها الواسع .

ويتطلب المبدأ الأول في نظر علي المزروعي (صفحة ٢١) قدرا أكبر من البحث المنهجي المنظم للظروف والأوضاع الثقافية التي يمكن أن تؤثر في نجاح أي خطة أو مشروع في أي مجال من المجالات السياسية أو الاقتصادية ، وذلك فيما يسميه أحيانا بدراسات الجدوى التي يجب أن تأخذ في الاعتبار ـ وبقدر أكبر من العناية والجدية ـ العناصر الثقافية وأنماط القيم والتقاليد والمعتقدات الأصلية ، أو ما يشير إليه في أحيان أخرى بضروة استشارة الأسلاف والأجداد عن طريق فحص ودراسة العادات والأعراف والممارسات الافريقية المتأصلة . ولكن لما كان العالم كله قد أصبح قرية كبيرة واحدة ـ حسب تعبيره أيضا ـ فإن افريقيا لن تستطيع أبدا أن تقنع بالنظرة الداخلية نحو ماضيها وحده ، لأن التوافق أو الترابط مع القرن العشرين يفرض عليها

الاهتمام بعالم الجنس البشري ككل . ولذا فإن دراسة ما أصاب القارة من تدهور وتفكك وانحلال قد تكون فرصة لاعادة التوافق والتراضي مع الأسلاف من ناحية ، وإقامة علاقات جديدة على أسس سليمة مع عالم القرن العشرين من ناحية أخرى . ويكمن وراء هذا كله ذلك « التراث الثلاثي » الذي يتألف من القوى الافريقية الأصلية ، والقوى الاسلامية ، وقوى الغرب الحديث ، وهي القوى الثلاث التي يجب أن تندمج وتتفاعل معا رغم كل ما قد يكون بينها من تنافر ، ولقد كان قبول الاسلام والتوجه نحو الغرب جزءا من استجابة افريقيا لحتمية النظر الى الخارج نحو العالم الأكثر اتساعا ، ولكن أسلاف افريقيا يطلون برموسهم طوال الوقت لكي يؤكدوا أهمية بل حتمية النظر الى الداخل بحيث تتذكر افريقيا دائما ماضيها الخاص بها وتضعه نصب عينيها وهي تتقدم نحو المستقبل الجديد .

ولكن هذا كله لا يعطي إجابة شافية ومقنعة للسؤال الذي يضعه علي المزروعي في بداية الكتاب وهو : أين تقع افريقيا من العالم ؟

●●●

في محاولة ثانية للاجابة عن هذا السؤال يلخص علي المزروعي أبعاد فكرة التراث الثلاثي في عبارة موجزة بأن افريقيا ذاتها (اخترعت) الانسان ، بينما (اخترع) الساميون الأديان ، و (اخترع) الأوربيون العالم أو على الأصح فكرة العالم . وهذه الروافد الثلاثة تصب كلها في افريقيا ولكن بنسب ومقادير مختلفة .

فالدراسات الأركيولوجية والتاريخية تشير الى أن الموطن الأصلي للانسان هو شرق افريقيا ، وإن أعطوا للانسانية الأديان السماوية الثلاثة التي تقوم على فكرة التوحيد وهي اليهودية والمسيحية والاسلام ، بينما تولت أوروبا مهمة تطوير فكرة العالم في أعقاب رحلات الاستكشاف في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولكنها فرضت تصورها الخاص عن العالم وعن الكون على الشعوب الأخرى في مختلف القارات بما في ذلك افريقيا . وقد كان التأثير الأوروبي كبيرا جدا على تصور الافريقيين لأنفسهم كأفريقيين ، وعلى نظرتهم الى الكون ككل . وهو تأثير واضح في كثير جدا من المجالات . وليس أدل على ذلك من اتخاذ جرينتش في بريطانيا موقعا لتحديد متوسط الزمن mean time لضبط كل ساعات العالم - أو ساعات الجنس البشري بأكمله - واستجابة الساعات كلها لهذا الاختيار . أي أن موقعا صغيرا محددا في الجزر البريطانية هو الذي غير كل ساعات العالم ويتحكم فيها ويخضعها لسلطانه . وهذا مثال واحد عن مدى تأثير مجد بريطانيا الغابر على تصورنا للزمن العالمي (صفحة ٢٣) .

ولعل من أهم ما يميز العصر الذي نعيش الآن فيه هو أن صورة أي شعب عن نفسه تتأثر بالضرورة بالمكان أو الموقع الذي يربط هذا الشعب نفسه به ، سواء أكان هذا الموقع هو الاقليم أم القارة كلها التي يتصور ذلك الشعب أنه ينتمي إليها . فحتى الستينيات مثلا كانت السياسة الرسمية لحكومة الامبراطور هيلاسيلاسي تحرص على أن تؤكد أن إثيوبيا جزء من الشرق الأوسط أكثر منها جزءا من القارة الافريقية . ولكن الامبراطور هيلاسيلاسي نفسه اضطر الى أن يعيد النظر في تلك السياسة ويضع سياسة أخرى جديدة أصبح انتماء اثيوبيا بمقتضاها الى افريقيا بدلا من الشرق الأوسط ، وذلك بعد أن نالت الدول الافريقية الأخرى استقلالها ، وخشيت اثيوبيا أن تجد نفسها محاطة باتجاهات عبد الناصر (مصر) ، ونكروما (غانا) الراديكالية . أي أن سياسة عبد الناصر ومؤازرته للنزعة الافريقية ولحركات التحرر في شمال الصحراء وجنوبها دفعت الامبراطور الى تأكيد انتماء بلاده الى القارة الافريقية وأنها جزء منها . وهذه أمور معروفة ، ولكن الذي يستحق

النظر والتفكير فيه هو ما يذهب اليه المزروعي من أن التشابه الثقافي بين إثيوبيا وبقية مجتمعات القارة الافريقية ليس أشد قوة أو أكثر وضوحا من التشابه الثقافي بين شمال افريقيا والجزيرة العربية ، ومع ذلك فإن القرار (الأوروبي) بأن يعتبر البحر الأحمر هو الحد الشرقي لافريقيا أدى بشكل قاطع وحاسم الى منع الجزيرة العربية من أن تنتمي لافريقيا رغم كل ذلك التشابه الثقافي بينها وبين شمال القارة ، كما حكم على سكان الجزيرة العربية بأن ينظروا الى أنفسهم على أنهم جزء من غرب آسيا ، وليسوا جزءا من افريقيا على الأقل من الناحية الثقافية . فمنذ بضعة ملايين من السنين حدث صدع في القشرة الأرضية في سطح افريقيا وظهر ذلك الأخدود الذي يشغله البحر الأحمر ، وساعد ذلك الشريط المائي الضيق على تحديد شخصية الشعوب التي تعيش على جانبيه . وقد آن الأوان - في نظر المزروعي - لأن نخفف من طغيان البحر الأحمر واستبداده وتحكمه في تحديد الشخصية الثقافية لتلك الشعوب ، إن لم يكن في الاستطاعة القضاء تماما على ذلك الطغيان والاستبداد .

واستبداد البحر الأحمر أو طغيانه هو في نظر على المزروعي جزء من استبداد وطغيان التحيز الأوروبي في مجال الجغرافيا بوجه عام . فلقد حرص رسامو الخرائط الأوربيون على أن يحددوا موقع أوروبا ومكانها من خريطة العالم بحيث تأتي (فوق) - أي شمال - افريقيا وليس (تحتها) أو جنوبها . وهذا قرار تعسفي بحت بالنسبة للكون ككل . كما أن هؤلاء الرسامين أنفسهم هم الذين فرضوا أن تنتهي افريقيا من ناحية الشرق بالبحر الأحمر وليس بالخليج .

ومع ذلك ، ورغم هذه الاعتراضات والاشكالات التي يثيرها المزروعي حول هذا الموضوع فإنه لم يجد مناصا من أن يعترف في آخر الأمر موقع افريقيا هو بالضرورة غربي البحر الأحمر وشمال وجنوب الصحراء ، أي أنه يقبل التحديد المعترف به عالميا ، وإذا كان يرى في الوقت ذاته أن الحدود الحالية للقارة ليست فقط حدودا تعسفية وإنما هي حدود مصطنعة وضعها رسامو الخرائط الأوربيون في فترة سابقة كانت تتميز بالسيادة الأوروبية ، ثم يقول بلهجة مسرحية : « إنني لأغراض هذا الكتاب سوف أقبل البحر الأحمر على أنه أحد الحدود الافريقية . ولكنني أقبل ذلك مع الاحتفاظ لنفسي بحق الاعتراض » (صفحة ٣٨) .

وقد يكون عرب الجزيرة أنفسهم غير راغبين في أن ينتموا الى افريقيا بدلا من غرب آسيا ، كما قد يكونون غير حريصين على أن يدخلوا عضوا في منظمة الوحدة الافريقية . ولكن إذا كان الامبراطور هيلاسيلاسي حمل لواء عودة اثيوبيا الى أحضان افريقيا كما تمكن عبد الناصر من أن يعيد الطابع الافريقي لمصر فلن يكون ثمة ما يمنع من إعادة التفكير في هوية عرب شبه الجزيرة ، إذ قد تساعد إثارة هذا الموضوع على نطاق واسع على تقبل الفكرة ، وعلى وضع حدود جديدة تبين أين تنتهي افريقيا وتبدأ آسيا .

والجغرافيا على أية حال هي أم التاريخ .

وقد لعبت البيئة دورا هاما وفعالا في التجربة الافريقية . والمقصود بالبيئة هنا ذلك المزيج المكون من الملامح الجيوفيزيقية والموقع والمناخ ، وهي ثلاثة عناصر أساسية تتفاعل معا بصفة مستمرة ونتج عن تفاعلها خلال الزمن ثلاث مفارقات ايكولوجية هائلة : المفارقة الأولى هي أن افريقيا كانت دائما قارة الحياة الوفيرة المليئة الغنية ، والموت العاجل السريع ، والمفارقة الثانية هي أن افريقيا كانت الموطن الأول للانسان ، وأقل مناطق العالم صلاحية للسكنى والاقامة والتوطن ، والمفارقة الثالثة هي أن افريقيا كانت مهدا لواحدة - على الأقل - من الحضارات الانسانية الكبرى ، ومقبرة للثقافات الوافدة اليها من الخارج (صفحة ٤١) .

فأفريقيا هي ثانية أكبر قارات العالم ، اذ تبلغ مساحتها ١١,٧ مليون ميل مربع . ويرتبط اسم أفريقيا ببعض أسلاف الجنس البشري مثل انسان الزنج Zinjanthropus، والانسان الماهر الحاذق Homo habilis، والانسان المنتصب القامة Homo erectus. ومن بين هؤلاء الأسلاف الأوائل يمكن أن نعثر على (آدم وحواء) اللذين انحدر منهما الأفريقيون المحدثون . ولكن على الرغم من أن أفريقيا تعتبر في رأي كثير من العلماء الوطن الأصلي للجنس البشري بعامة ، فانها لم تكن قط المكان المثالي لتوالد الانسان وتكاثره وازدياده ، لأن وفرة الحياة فيها كان يلازمها طوال الوقت الموت المبكر السريع العاجل . وهذه المفارقة مسئولة الى حد كبير عن ظهور واحدة من أكبر الحضارات الانسانية التي تدور حول الموت وهي الحضارة المصرية القديمة التي تعتبر بكل المعايير من أكثر الحضارات تعقيداً ورقياً في تاريخ البشرية . ففكرة الموت هي الفكرة المحورية التي يقوم عليها بناء الأهرام . وقد تكون بعض الثقافات الأخرى قد شيدت أبنية وصروحاً وأضرحة وقبوراً شاهقة لتمجيد موتاها ؛ أما المصريون فانهم شيدوا الأهرام لتكون (مثوى) لموتاهم ، وهذا هو ما يشكل الفارق الجوهري بين الثقافة التي أنتجت تاج محل في الهند ، والثقافة التي أبدعت الأهرام في مصر . فتاج محل هو تحية إجلال وإكبار وحب وإعزاز ووفاء لزوجة متوفاة ، وقصيدة عشق نظمت أبياتها من الرخام ، أما الأهرام فانها الخلود بعينه مجسداً في الحجر . وثقافة الأهرام لم تكن تعترف بأي انقطاع أو انفصال جوهري بين الأحياء والموتى . . فالموت هو أشبه شيء بتغيير العنوان . وقد هدمت هذه الديانة المصرية القديمة على أيدي المسيحيين ؛ أي أن المسيحية والمسيحيين هم الذين حطموا في الحقيقة تلك الديانة قبل أن يأتي الاسلام الذي نجح على أية حال ليس فقط في أن يغير دين المصريين ويحولهم اليه ، ويقنعهم باعتناقه بل أن يغير أيضاً شخصيتهم ككل ، بحيث أصبح المصريون (عرباً) على الرغم من وجود من ينفي ذلك عنهم من بين المصريين أنفسهم .

وثمة حضارات أخرى كثيرة قامت منذ أقدم الأزمنة على ضفاف نهر النيل وغطت مساحات واسعة جداً من القارة ، وهي المناطق التي تشغلها الآن مصر والسودان وإثيوبيا ، كما كانت تتفاعل مع المجتمعات الأخرى المجاورة في أفريقيا وخارجها على السواء ، مما أدى الى ظهور حضارات البحر المتوسط . ولقد أسهمت بعض مناطق أفريقيا في تطوير الزراعة وتدجين بعض الحبوب والنباتات البرية . وكان لاتصال مصر وتفاعلها مع بلاد ما بين النهرين وبابل وأشور وفارس والنوبة وبلاد اليونان وروما أثر واضح في ذلك الانفجار الحضاري الهائل من الثقافات الكبرى في التاريخ الانساني . . ولا يزال كثير من العلماء حتى الآن يتساءلون عن مدى امكان قيام حضارات الافريقي مثلاً لو لم تكن قد سبقتها الى الوجود بالفعل الحضارة المصرية القديمة .

وقد تضافرت قوى الانسان الافريقي المبدعة مع الموقع والمناخ في ابتكار ذلك التنوع الهائل في أساليب وطرق المعيشة التي ظلت أفريقيا تتميز بها طوال تاريخها . فكان هناك في البداية أسلوب جمع الطعام الذي كان يتألف في العادة من الخضروات والفواكه البرية لكي يأتي من بعده ـ في بعض المناطق على الأقل ـ أسلوب الاغتذاء على الحيوان وما ارتبط بذلك من ظهور الجماعات التي تعيش على قنص الحيوانات الوحشية . ولا يزال هناك حتى الوقت الحالي في أفريقيا عدد من الشعوب التي تحتفظ بهذا النمط من الحياة الذي يقوم على الجمع والقنص مثل قبائل البامبوتي (أو الأقزام) في بعض غابات زائير ، والقبائل الخويزية أوجماعات البوشمن في صحراء كلهاري في جنوب القارة .

ومن المحتمل أن تكون ظاهرة الهوية أو الذاتية الجماعية التي نشأت في العصور القديمة قد بدأت مع ظهور هذه الأنماط الاقتصادية ، كما يحتمل أن يكون ذلك قد ارتبط بظهور حقوق الانتفاع بمساحات محدودة ومعينة من الأرض حتى تكون لكل جماعة الحق في ممارسة عمليات الجمع والقنص فيها وبذلك تكون قد توافرت الظروف الملائمة لقيام أسس التفاضل البشري ، وبالتالي الهوية الانسانية « الخاصة » . كذلك أدى القنص الى نشوء بعض التكنولوجيات البدائية البسيطة التي لعبت على أية حال دوراً هاماً في تعميق التفاوت والتفاضل بين الجماعات . وهناك فئة كبيرة ومتنوعة من أدوات القنص التي تتراوح من العصي الى الأحجار المستخدمة في صيد الطيور الى أشكال مختلفة من الهروات أو (العصي الطائرة) الى الحراب ذات الرؤوس المختلفة الأشكال ، والمصنوعة من العظام أو الصخور المشحوذة المسنونة أو بعض المعادن الى جانب القسي والسهام وغير ذلك من الأدوات التي تتطلب درجة معينة من الحذق والمهارة في الصنعة والاستخدام . وقد ارتبط بذلك كله قيام بعض الشعائر والطقوس والممارسات السحرية التي تتضمن نجاح رحلات الصيد والقنص ، كما أدت المهارة في صنع الأسلحة واستخدامها من ناحية ، والارتباط بمناطق وأماكن معينة من الأرض من ناحية أخرى إلى ظهور التفاوت الطبقي بشكل بسيط وساذج ، أو على الأصح ظهور ما يسميه علي المزروعي بالهوية أو الذاتية الطبقية والتفاوت العرقي والثقافي على السواء .

●●●

ومشكلة الهوية الافريقية هي في رأي علي المزروعي مشكلة معقدة الى أبعد حدود التعقيد ، ولا يمكن فهمها بعيداً عن السياق الثقافي الافريقي العام . واستقصاء التاريخ يتطلب منا الرجوع الى الأوضاع والظروف المكانية التي ارتبطت بها الأنشطة الاقتصادية ومارسها الافريقيون منذ أقدم عصور تاريخهم . وقد خضعت هذه الأنشطة التقليدية لبض التغيرات ولكنها ظلت قائمة طوال هذه القرون بل ولا تزال قائمة حتى الآن الى جانب العمليات والنظم الاقتصادية الحديثة المعقدة . فلقد اشتركت إفريقيا منذ البداية مع بقية أنحاء العالم في تطوير تلك العملية الهائلة التي أمكن بمقتضاها تدجين النباتات واستئناس الحيوانات البرية ، ووضعت بذلك أسس التمايز القوي بين الزراع والرعاة . فالزراع هم ذرية الأسلاف الذين قاموا بتدجين النباتات ، والرعاة هم أحفاد الأقوام الذين قاموا باستئناس الحيوانات . ولذا فان من المفارقات الغريبة أن تكون أكثر الثقافات تعرضاً للخطر هي ثقافة البدو الرعاة التي تتهددها الأوضاع والظروف الايكولوجية غير الملائمة وتيارات التحديث والعصرنة على السواء . وليس من شك في أن تأثير الجدب والجفاف أشد قسوة على الرعاة منه على الزراع وإن كانت الخسائر فادحة في كلا الحالين ولا يمكن التهوين منها . ولكن حين يعود المطر ترجع معه الحياة الى الأرض وينمو الزرع من جديد ، بينما عودة المطر لا يمكن أن تعيد الحياة مرة أخرى الى الحيوانات التي ماتت من العطش .

هذا التمييز الأساسي في الهوية الافريقية وفي أسلوب الحياة أدى الى ظهور أشكال أخرى من (الثنائيات) أو (الازدواجية) كما يقول المزروعي (صفحة ٧٨) . فكان هناك بعض مظاهر المجد والعظمة في التاريخ الافريقي كما تتمثل في تلك الأبنية والصروح الضخمة المشيدة من الحجارة أو من الطوب وفي قيام بعض الامبراطوريات والممالك الافريقية التي عرفت نظام الحكومة المركزية ، ولكن كان هناك الى جانب ذلك تلك الجماعات القبلية البسيطة المتخلفة الى أبعد حدود

البساطة والتخلف التكنولوجي . وقامت على أساس هذه الثنائية مدرستان فكريتان بين الافريقيين أنفسهم : المدرسة الأولى ارتبطت بذلك المجد أو تلك العظمة الرومانتيكية ، وعمدت الى التغني والزهو بانجازات المجتمعات الافريقية الأكثر تقدماً وتعقداً ، والتي قامت مثلاً ببناء الأهرام أو تشييد الأبنية والصروح في زمبابوي ، بينما لجأت المدرسة الأخرى الى التغني بمثالية التراث البدائي وفضائل ومميزات البساطة والحياة السهلة الهنيئة البعيدة عن التعقيدات التكنولوجية الحديثة . ولكن كلا النمطين من الحضارة الافريقية أصابه الضعف والوهن نتيجة لعدم الاهتمام بالتوثيق والتسجيل والتدوين . فقد أغفلت أفريقيا تدوين وتوثيق إنجازاتها الحضارية في مختلف المجالات وعبر العصور . وصحيح أن الذاكرة الافريقية (الخام) ذاكرة قوية للغاية بحيث أمكنها الاحتفاظ بكثير من ملامح الماضي حية في الأذهان ومتمثلة في الحاضر القائم الآن بالفعل ، ولكن هذا في حد ذاته يبين لنا مدى الحاجة الى تسجيل وتدوين لغات افريقيا وفلسفاتها وانجازاتها ، وتوثيق تاريخها الذي ينتقل عن طريق المشافهة من جيل لآخر قبل أن تضعف الذاكرة فيندثر تماماً ويمحي من الوجود . وباختصار ، فان الهوية الافريقية تتطلب الشعور والوعي بالذات وهذا الوعي يستلزم بدوره وجود تقاليد راسخة لتدوين وتوثيق الانجازات الافريقية في شتى المجالات .

وقد خضعت هذه الهوية التي ترتكز على أسس وركائز قوية من عناصر الشخصية القومية الأصلية لعوامل وتأثيرات خارجية أسهمت في اعادة تشكيلها وصياغتها . وأول هذه العوامل هي التأثيرات التي جلبتها الشعوب السامية الى القارة . واذا كانت المسيحية تعتبر ـ حسب ما يقول المزروعي ـ أكثر الأديان السماوية (نجاحاً) ، فان اللغة العربية هي أكثر اللغات السامية (نجاحاً) ، كما أن اليهود هم أكثر الشعوب السامية (نجاحاً) ، في العالم . وواضح أن معيار (النجاح) ـ كما يستخدم المزروعي الكلمة ـ يختلف من حالة لأخرى ، وأن الكلمة تستعمل هنا بطريقة غامضة وينقصها التحديد . ولكن الذي يهمنا هو أن المزروعي حين يتكلم عن التأثيرات السامية في الهوية الافريقية فانه يكاد يقصر حديثه على تأثير العرب والمسلمين مع بعض الاشارات الى المسيحية والى اليهود في مجالات معينة بالذات ، لان التأثير الثقافي المسيحي واليهودي أخذ في التراجع والنقصان بشكل عام ، كما أن التأثيرات الغربية القديمة التي كانت تتمثل في بعض التيارات الثقافية اليونانية والرومانية تأخذ الآن شكل التداخل الأوروبي والأمريكي في مجالات أخرى عديدة ومتنوعة . وربما تساور الباحث بعض الشكوك حول قدرة هذا التراث العربي الاسلامي على الصمود ـ وبخاصة في المجال السياسي ـ أمام تلك الهجمة الأوروبية الأمريكية الشرسة التي لا تخلو من بعض التأثيرات اليهودية القوية . ولكن الملاحظ حتى الآن هو أنه رغم كل الجهود التي يبذلها اليهود للتغلغل في حياة افريقيا والافريقيين عن طريق الاسهام في بعض مشروعات التنمية فان العرب لا يزالون يتمتعون بنفوذ أقوى بكثير من النفوذ اليهودي ، كما أن رصيدهم الثقافي اكبر وأغنى وأعمق ، وليس من السهل القضاء عليه أو حتى التهوين من اهميته ، وخاصة أنه يوجد حوالي مائة مليون مسلم في افريقيا جنوبي الصحراء ، وهم يمثلون رصيداً ثقافياً هائلاً يفتقر اليهود الى ما يماثله . ويجب الا ننسى أن اليهودية ديانة « أشد خصوصية » من الاسلام إن صح هذا التعبير ، ولذا فانها لا تستطيع منافسة الاسلام أو المسيحية في تشكيل روح افريقيا وصهرها ، كما أن اللغة العبرية لا يمكن أن تنافس اللغة العربية كعامل مؤثر في التجربة الثقافية الافريقية أو كمصدر يمكن أن تستمد منه

اللغات الافريقية الوطنية بعض مفرداتها كما هو بالنسبة للغة العربية. ويظهر هذا الاختلاف في عمق التأثير وقوته واضحاً حين نقارن حالات الزواج بين الأفارقة والعرب المسلمين بالزواج من اليهود. ولذا فان الدم السامي الذي اختلط بالدم الافريقي هو دم عربي في المحل الأول، وسوف يظل كذلك أبداً ليس فقط لأن اليهود أقل عدداً من العرب في افريقيا، ولكن أيضاً لأن الاندوجامية اليهودية والتنظيم القرابي عند اليهود يرفضان فكرة الزواج من الأغيار وذلك بعكس الحال في نظام القرابة العربي الاسلامي الذي لا يرى ضيراً في «الزواج الاغترابي» أو «الاكسوجامي»، ومع ذلك فيجب الا ننسى أن اليهود هم الآن جزء من الحضارة الغربية وانهم يلعبون دوراً هاماً في تشكيل الفكر الغربي كما يظهر ذلك بوضوح في تأثير كارل ماركس وفرويد واينشتاين، وأن تعاليم هؤلاء المفكرين والعلماء اليهود الغربيين وجدت طريقها الى أفريقيا، وأن الماركسية بالذات تعتبر من أهم العناصر التي توجه الفكر الافريقي في القرن العشرين.

والواقع أن تأثير الغرب في أفريقيا يتعدى دور الماركسية أو غيرها من الأيدلوجيات ويمتد الى حد التدخل في تحديد ملامح الهوية الافريقية بل والانتماء الافريقي ذاته ومكانة الافريقيين في العالم ونظرتهم الى أنفسهم والى القارة التي ينتسبون اليها، وهذه كلها أمور تدعو الى الاشفاق والسخرية. فالرجل الأبيض هو الذي رسم للانسان الافريقي صورته ونظرته الى نفسه في اطار القارة الافريقية، وهو الذي عمل على تشويه هذه الصورة نفسها خارج افريقيا فيما يسميه المزروعي - على سبيل المجاز - بالشتات الافريقي. ويصدق هذا على افريقيا السوداء بشكل خاص وان لم تسلم افريقيا العربية شمال الصحراء من هذا التأثير المزدوج المتناقض بحيث أصبح للافريقي بوجه عام نوعان من الشخصية أو الذاتية ترتكزان على نظرته الى نفسه وهو داخل قارته، ونظرته الى نفسه والى القارة الافريقية ذاتها وشعوبها وقبائلها وثقافتها وهو بعيد عنها في بلاد المهجر أو في (الشتات). وعلى هذا الأساس فان المزروعي يرى (صفحة ٩٩) أن أوروبا لم تخلق فقط «الشتات الافريقي» عن طريق (تصدير) ملايين العبيد الى نصف الكرة الغربي فحسب، بل إنها ساعدت أيضاً على (اختراع) افريقيا كما نعرفها عن طريق محاولات تشويه مقومات الهوية الافريقية وتغيير ملامحها المميزة بحيث أصبح الأفارقة الذين يعيشون في الخارج ينظرون الى أنفسهم والى ثقافتهم وقيمهم التقليدية من زاوية أوروبية وبعيون الغرب.

ولقد تضافرت على خلق الهوية الافريقية بهذا المعنى عدة عوامل تبدو لأول وهلة أنها تعمل في عكس ذلك الاتجاه. فقد كان هناك أولاً تلك السيطرة المطلقة التي كان يمارسها وسادها الخرائط الأوربيون في تناولهم للتاريخ الفكري والعلمي للعالم خلال القرون الثلاثة الأخيرة، وتصور الأوروبيين للكون ونظرتهم الى بقية أنحاء العالم على ما سبق أن ذكرنا. فأوروبا هي التي وضعت ورسمت وعينت حدود أفريقيا كما نعرفها الآن وإن لم تكن هي التي اخترعت اسم القارة. ولكن ذلك التحديد ساعد الشعوب والجماعات المختلفة التي تعيش داخل تلك الحدود التي رسمها الأوروبيون على أن ينظروا الى أنفسهم على أنهم يؤلفون وحدة جغرافية متمايزة لها ثقافتها العامة وإن كانت تتشعب منها ثقافات فرعية متنوعة لا تتعارض والشعور بالوحدة الشاملة الكلية. وكان هناك، ثانيا، عامل النزعة العرقية أو التفرقة العرقية أو التفرقة العنصرية والدور الذي لعبته في تاريخ العالم كله بما في ذلك أفريقيا. وقد ظهر أثر هذه النزعة واضحاً في معاملة الأوروبيين المهينة للسكان السود في القارة الافريقية، ولكن هذه المعاملة السيئة

ذاتها هي التي أدت الى تعاطف الأفارقة فيما بينهم ، والى نمو الشعور بأنهم إخوة في أفريقيا ، وكان هناك ، ثالثاً ، عنصر الاستعمار ذاته وما ترتب عليه من تعصب الافريقيين وتمسكهم بفكرة الانتماء الافريقي ، ثم كان هناك أخيراً وليس آخراً تلك « العملية الجدلية » التي تمثلت في تقسيم افريقيا الى دويلات مصطنعة تقوم بينها حدود غير طبيعية مع محاولات إيقاظ وتقوية النعرات السلالية ، وتكوين جماعات صفوة متميزة على أسس جديدة تختلف تماماً عن الأسس التقليدية المتوارثة التي تقوم عليها جماعات الصفوة القديمة ، ولكن هذه الحدود المتقاطعة للهويات المحلية ساعدت بدلاً من ذلك على تعميق الاحساس بالهوية الافريقية على مستوى الاقليم أو حتى على مستوى القارة الافريقية كلها . (صفحات ٩٩ ـ ١٠١) . وهذا معناه أن كل عامل من تلك العوامل الأربعة كان له تأثير عكسي وأنها كلها أسهمت بشكل أو بآخر في تقوية الشعور بالانتماء الى القارة وتبلور الهوية الثقافية الافريقية الشاملة .

والمهم من هذا كله هو أن تأثير الغرب على افريقيا كان يسير في اتجاهين متكاملين ، الاتجاه الأول هو إضفاء الطابع الافريقي الواضح المعالم على هوية شعوب القارة وحصرها في نطاقه ، والاتجاه الثاني هو إزالة أو مسخ ذلك الطابع الافريقي عن هوية الافريقيين الذين يتم (تصديرهم) من أرض الأجداد والأسلاف فيما يطلق عليه المزروعي اسم الشتات الافريقي . والمفارقة هنا هي أن أوروبا هي التي فتحت عيون الافريقيين بتصرفاتها ومواقفها على حقيقة أنهم (أفريقيون) بالمعنى الدقيق للكلمة . فقد أمكن إضفاء وتكثيف الصبغة الافريقية أو الطابع الافريقي على الافريقيين عن طريق رسم الخرائط بطريقة معينة ، ومن خلال النزعة الأوروبية العنصرية وتصنيف السلالات والشعوب والقبائل ووطأة الاستعمار والامبريالية المتعجرفة ثم تقسيم القارة وتمزيقها وما ترتب على ذلك كله من يقظة الوعي بضرورة البحث عن هوية متميزة ترتبط بقارة كاملة وتعلو وتسمو على عوامل التمزيق والتفتيت . وعلى ذلك فاذا كان يقال إن أوروبا هي التي قامت بأفرقة هوية سكان القارة ، فالواقع هو أن عملية الأفرقة تمت على الرغم من أوروبا وضد رغبتها . وان كان ذلك لا يمنع من القول إن الخدمة الكبرى التي قدمتها أوروبا للشعوب الافريقية ليست هي الحضارة الغربية التي تخضع الآن للحصار ، ولا هي المسيحية التي تقف الآن موقف الدفاع عن نفسها أمام الاسلام ، وانما هي تلك الذاتية أو الهوية (الافريقية) التي أصبحت أمراً واقعاً وحقيقة ملموسة رغم أن أوروبا لم تكن تهدف الى قيامها وظهورها على الأقل على هذا النحو من الوضوح والقوة والتماسك والاعتزاز والاعتداد الذي يكاد يقرب من العداء .

●●●

ولقد كان الدين يحتل دائماً في حياة افريقيا والافريقيين مكاناً بارزاً خلال كل تاريخهم المعروف ، أي أن معرفة افريقيا بالدين ـ بالمعنى الواسع للكلمة ـ كان أسبق من الناحية الزمنية على مجيء المسيحية والاسلام . فقد كان لافريقيا دائماً دياناتها وعباداتها ومعبوداتها ، وهي في مجملها أديان وعبادات تقوم على فكرة تعدد الآلهة من ناحية ، وعدم تمركز أي إله أو معبود منها في موضع أو مكان معين ومحدد بالذات ، وبذلك لم يكن الافريقيون يتصورون وجود أي من هذه المعبودات في السماء مثلاً على وجه التحديد أو يتصورونه على هيئة البشر مثلاً أو على أي هيئة أخرى ثابتة لا تتبدل أو تتغير وإنما كانوا يتصورونها ، أو يتصورون بعضها على الأقل ، ماهية قوة

العالم التي تدخل في كل شيء ، وتتغلغل في كل صور الحياة كقوة قائمة بذاتها ، وبذلك كان الكون كله وقوة الحياة كلها مظاهر لتلك الآلهة .

فالتصورات الافريقية الأصلية ـ أو البدائية كما يحب البعض تسميتها ووصفها ـ عن الدين والآلهة لم تكن تصورات بسيطة تماماً أو على تلك الدرجة من السذاجة التي تبدو عليه كتابات الرحالة والمبشرين قبل أن يعكف علماء الأنثربولوجيا على دراستها وتبيين ما بها من عمق وسمو وتجريد . وهذا موضوع معقد على أية حال . ولم يجد علي المزروعي نفسه أهلاً للخوض فيه بالتفصيل . ولكنه يلاحظ مع ذلك أنه على الرغم من كل الجهود التي بذلتها الارساليات والبعثات التبشيرية لنشر الدين المسيحي في افريقيا ـ وهي جهود هائلة وجبارة بكل المقاييس ، فان من بين سكان افريقيا السود الذين يقدر عددهم جنوبي الصحراء بحوالي مائة وثلاثين مليون نسمة لا يزيد عدد المسيحيين الكاثوليك عن ثلاثة عشر مليوناً ، وعدد المسيحيين البروتستانت عن أربعة ملايين ، بينما يصل عدد المسلمين الى ثمانية وعشرين مليوناً ، ولا يزال خمسة وثمانون مليون نسمة حتى الآن يتبعون دياناتهم الافريقية الوثنية ، وان كان بعضهم يعتبرون ـ من الناحية الاسمية فقط ـ مسلمين ومسيحيين . . وعلى أي حال فالمسلمون في أفريقيا ككل ، بما في ذلك ما يسميه المزروعي افريقيا العربية ، يمثلون حوالي ٤٠٪ من مجموع سكان القارة .

ولكن مع ذلك فقد عرفت افريقيا أقدم صور أو أشكال المسيحية كما تتمثل في الكنيسة القبطية في مصر وإثيوبيا ، كما أنها تعرف الآن أحدث صور أو أشكال المسيحية كما تتمثل في بعض الكنائس الافريقية الحديثة التي نشأت وقامت على أيدي بعض الأفارقة المسيحيين من أمثال كيمبانجو Kimbangu في زائير ، والقديسة بياتريس أو الكاهنة آليس لانشينا Lanshina في زامبيا . وهي كنائس تعترف بامكان تولي النساء مناصب الكهنوت . وبذلك تكون هذه الكنائس الافريقية سبقت الغرب المسيحي في هذه الحركات التجديدية التي تحاول (أفرقة) المسيحية بوجه عام . وقد لقي أصحاب هذه الكنائس كثيراً من صنوف التعذيب على أيدي المستعمرين (المسيحيين) بتحريض من رجال الارساليات (المسيحية) أنفسهم ، ولكنهم أفلحوا رغم ذلك في إقامة كنائس متميزة ، لها أتباعها من المسيحيين الأفارقة ، وتقوم بينها منافسة قوية (لاقتناص) مزيد من الأتباع (صفحة ١٥٧) .

وهذا لا يعني أن افريقيا كانت في أي فترة من فترات تاريخها الطويل أسيرة تماماً للدين وحده أو لما تتضمنه الأديان والعبادات الافريقية من سحر وأساطير . فقد كانت هناك دائماً بطبيعة الحال الحياة الدنيوية المحسوسة الملموسة بكل مشاكلها ومطالبها ، كما كان هناك أيضاً الجهود القوية التي تبذلها أفريقيا للحاق بركب المدنية الحديثة التي تقوم على العلم والتكنولوجيا .

والرأي السائد في هذا الصدد هو أن افريقيا تدين للغرب بتطورها ونموها (الصناعي) السريع ، ولكن علي المزروعي ينظر الى المسألة نظرة أخرى لا تخلو من طرافة ، اذ أنه يرى أن الغرب هو الذي يدين لافريقيا بالشيء الكثير ، وأن تأثير افريقيا في التصنيع الغربي خلال القرون الثلاثة الأخيرة كان أكبر بكثير جداً وأعمق من تأثير الغرب على التصنيع في افريقيا ، على الأقل لأن مصادر الثروة كان لها دخل في تغيير الغرب ، ويستوي في ذلك الثروة البشرية التي تتمثل في عمل وجهد (العبيد) الذين يعتبرهم المزروعي جزءاً من تكنولوجيا الانتاج في

الغرب ، أو الامبريالية التي حلت محل استعباد الرقيق ، أو المواد الخام التي قامت عليها الصناعة الغربية . ولكن في الوقت الذي كان العبيد الافريقيون يؤلفون جزءاً من تكنولوجيا الانتاج في الغرب كان تجار الرقيق الأوربيون يؤلفون جزءاً من تكنولوجيا الهدم والتخريب في افريقيا ذاتها . فلقد توافق قيام تجارة الرقيق وتجارة الأسلحة . وبينما أسهم العبيد الذين وصلوا الى أمريكا بأعداد كبيرة ومتزايدة في رفع معدلات الانتاج في الغرب ، أسهم السلاح الوافد الى أفريقيا من الغرب في اثارة الحروب والمنازعات بين الأفارقة لتحطيم بعضهم بعضاً . وإذا كان التطور التكنولوجي في الغرب قد عمل على التخلص من العبيد لارتفاع تكلفة نقلهم والاحتفاظ بهم وتشغيلهم ، فقد ظهر نوع جديد من الرق والاستعباد في شكل العمال المأجورين الذين يقيمون ويعيشون بالغرب من مراكز الصناعة ويأخذون أدنى الأجور ثم يتخلص أصحاب رؤوس الأموال والمصانع منهم حين تضعف قدرتهم على العمل نتيجة لاستنزاف قواهم وحيويتهم . والطريف في الأمر أن بريطانيا التي كانت أكبر دولة تعمل في مجال نقل وشحن العبيد في القرن التاسع عشر أصبحت هي الدولة التي ترفع شعار تحريم الرق بعد أن انقضت حاجتها اليهم ومنهم . ومع ذلك فان تحريم تجارة الرقيق لم يقض تماماً على اسهام افريقيا في تصنيع الغرب ، وإن كان ذلك الاسهام اتخذ شكلاً آخر كما ظهر تحت اسم آخر يتفق ومقتضيات العصر .

وهكذا نجد أنه خلال القرون الثلاثة الأخيرة الماضية كانت افريقيا تسهم اسهاماً فعالاً في بناء الحضارة الغربية في شكل العمل الافريقي والأرض الافريقية والمواد الخام الافريقية في وقت كان الغرب يعمل على تعطيل وتعويق جهود افريقيا لتطوير ثقافتها الصناعية . وقد ساعدت الاسهامات الافريقية على ظهور وقيام الصفوة التكنولوجية في العالم الغربي كله ، بينما ساعد تأثير الغرب السيء الهدام على ظهور وقيام الفئات الذليلة الخانعة المتخلفة تكنولوجياً في القارة الافريقية ، ولكن كيف يمكن رد هذا التباين الصارخ الى شيء من التوازن ؟

لا يكاد علي المزروعي يعطي لهذا السؤال اجابة شافية ومنطقية تقوم على أسس علمية سليمة ، وانما يعمد بدلاً من ذلك الى الأسلوب الخطابي الرنان الذي قد نجد له مثيلاً في بعض الكتابات الصحفية والسياسية العادية التي لا تكاد تخرج في مجملها عن ضرورة تحالف الأفارقة السود والسكان العرب الذين يؤلفون نسبة كبيرة من سكانها من ناحية مع الدول والشعوب العربية ـ أو من يسمون عرباً حسب تعبيره ـ من الناحية الأخرى والتعاون معاً من أجل اللحاق بركب الحضارة الحديثة وبأوروبا المتقدمة تكنولوجياً ، وأن ذلك التحالف يجب أن يتخذ شكل نوعين من التماسك هما التماسك الاستراتيجي في مواجهة الغرب والتماسك العضوي في علاقاتهم بعضهم ببعض . فالافريقيون والعرب يحتاجون باعتبارهم جزءاً من العالم الثالث الى تطوير الروابط والعلاقات التي تقوم بينهم حتى يمكنهم التعامل بطريقة أكثر فاعلية مع الدول الصناعية . ثم إن العالم الثالث ككل يحتاج في آخر الأمر الى استغلال إمكاناته المادية وقدراته وكفاءاته البشرية لما فيه صالحه الخاص .

وهذا كلام طيب ، ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ هذا ما لا يتعرض له علي المزروعي .

ولقد سبق لعلي المزروعي أن عالج كل هذه المشكلات من نفس الموقف وبنفس الكلمات والألفاظ

تقريباً في بعض كتاباته السابقة وبخاصة في كتابه القصير الممتع عن الوضع الافريقي أو الحالة الافريقية . وهذا الكتاب كان أيضاً سلسلة من المحاضرات التذكارية المعروفة باسم محاضرات ريث عام ١٩٧٩ ، وان كان يتناول تلك الموضوعات من منطلق سياسي ولذا يعطي للكتاب عنواناً فرعياً هو تشخيص سياسي[٨] . ويعترف المزروعي في مقدمة الكتاب (P. VIII) أنه كتب تلك المحاضرات بأسلوب يجمع بين الطريقة الرسمية والطريقة غير الرسمية وبين المعالجة العلمية والنقاش الجدلي ، ولذا فان الكتاب يخاطب في الحقيقة مختلف مستويات القراء الذين قد يكون لهم بعض الاهتمام بافريقيا وشعوبها ومشكلاتها وعلاقتها بالعالم الخارجي ، كما يمكن اعتباره بمثابة تمهيد أو (بروفة) لكتاب « الافريقيون » .

ونقطة الانطلاق في هذه المحاضرات هي أن افريقيا كانت دائماً تلعب دور حلقة الوصل بين القارات القديمة الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوروبا) ، بل إنها كثيراً ما كانت تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب لدرجة أنه في بعض الأحيان كان هناك شك حول اذا ما كانت تعتبر جزءاً من الشرق أو يمكن الحاقها بالغرب . وهذه « المنزلة المزدوجة » ـ حسب تعبير المزروعي ـ مسئولة الى حد كبير عن ذلك الغموض الذي كان يحيط بشخصية الجزء الشمالي من القارة (أي شمال افريقيا) وهويته بحيث انه كان يعتبر في وقت من الأوقات امتداداً لأوروبا كما حدث مثلاً أيام الامبراطورية الرومانية . بل إنه حتى في القرن السابع عشر ، وبالذات في عام ١٦٥٦ ـ كتب « الجغرافي الملكي » في فرنسا يصف افريقيا بأنها « جزيرة كبيرة جداً تؤلف القسم الثالث ـ أي الجزء الجنوبي ـ من قارتنا » . وليس ببعيد عن الأذهان على أية حال محاولات فرنسا لأن تجعل من الجزائر جزءاً من فرنسا وما أدت اليه هذه المشكلة من انقسام في الرأي العام الفرنسي في الخمسينيات ووصول ديجول الى الحكم عام ١٩٥٨ .

ولكن على الجانب الآخر كانت هناك علاقات ثقافية ودينية قوية تربط افريقيا بغرب آسيا من خلال الاسلام والعرب . وهذا هو ما يدفع علي المزروعي في هذه المحاضرات الى وصف الاسلام بأنه دين « أفرو أسيوي » في المحل الأول من حيث إن معظم الشعوب الاسلامية تعيش في آسيا وافريقيا بنفس المعنى الذي يعتبر به المسيحية ديناً « أفرو غربياً » لأن معظم الشعوب المسيحية تؤلف جزءاً من الغرب وجانباً من سكان افريقيا ، ولذا كانت افريقيا ـ من حيث تاريخ الدين ـ تحتل دائماً في رأي المزروعي مكاناً مركزياً في كل عمليات الجمع والتوفيق بين المسيحية والاسلام .

كذلك تتمتع افريقيا بكل المقومات التي تساعدها على القيام بدور فعال في سياسة العالم الثالث وهو العالم الذي يتألف من ثلاث قارات هي أمريكا اللاتينية الى الغرب ، وآسيا في الشرق ، وافريقيا في الوسط . ويربط بين أفريقيا وآسيا « تجربة الإذلال العنصري » على اعتبار أن شعوب القارتين لا ينتمون الى الجنس الأبيض ، بينما يربط بين افريقيا وأمريكا اللاتينية تجربة الاستقلال وذلك على اعتبار أن وضع أمريكا اللاتينية بالنسبة للولايات المتحدة يشبه الى حد كبير جداً وضع افريقيا من أوروبا الغربية . فكلتا القارتين كانت مجالاً للتغلغل والتوغل والتحكم من قبل قوى عاتية آتية من الشمال

---

(٨) ظهرت هذه المحاضرات في شكل كتاب بعنوان :

Ali A. Mazrui, The African Condition : A Political Diagnosis : The Reith Lectures 1979 : Heinema, London 1980.

وذلك الى جانب محاولات التجزيء والتقسيم والتفتيت ، وان لم تكن هذه العملية في أمريكا وصلت الى تلك الدرجة أو الى ذلك الحد الذي بلغته في افريقيا . ولكن المهم هو أن كلا من القارتين تنقسم الآن الى دول متنافسة ومتناحرة وأن بعض هذه الدول على درجة بالغة من صغر الحجم ، بالاضافة الى ذلك التشابه الواضح بينهما في توافر الثروات الطبيعية من المواد الخام ووفرة الامكانات الزراعية ووجود العنصر الأسود أو الزنجي مما جعل دولة مثل كوبا تدعو نفسها دولة أفرو لاتينية .

وليس ثمة ما يدعو الى الدخول في تفاصيل الموضوعات التي عالجها المزروعي في هذه المحاضرات الست التي يضمها الكتاب نظراً لتشابهها مع الموضوعات التي تناولها كتاب « الافريقيون » على ما ذكرنا . ولذا فقد يكفي أن نشير هنا الى أنه يحاول في هذه المحاضرات أن يحيط بأنماط الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في افريقيا من منظور سياسي باعتباره هو نفسه متخصصاً في العلوم السياسية ، وأن وسيلته الى ذلك هي مناقشة هذه الأمور من خلال ستة أنواع من المفارقات التي تميز الأوضاع العامة في تلك القارة .

فأما المفارقة الأولى فهي مفارقة الاقامة والسكنى من حيث ان افريقيا كانت هي الموطن الأول للجنس البشري ، ولكنها تعتبر في الوقت ذاته آخر مكان يصلح للاقامة على ما سبق أن ذكرنا حين تكلمنا عن (الافريقيون) . وتتراوح أسباب أزمة الاقامة في تاريخ افريقيا الحديثة بين خطورة الأمراض الاستوائية وصعوبة الاتصال والانتقال الى عدم الاستقرار السياسي في افريقيا السوداء الى التعقيدات القائمة في جنوب افريقيا حيث تسيطر الأقلية البيضاء على الأكثرية الغالبة من السكان السود الأصليين ، مما أدى الى هجرة عناصر متنوعة وعديدة من السكان اما خوفاً من بطش السود وغدرهم ، أو هرباً من استبداد البيض وقوانين التفرقة العنصرية . ويقول المزروعي في ذلك انه اذا كانت افريقيا هي موطن الانسان الأول أو « مكان ولادة آدم » فان جنة عدن تعاني الآن كثيراً من البؤس والبأس والأسى .

والمفارقة الثانية هي مفارقة الاذلال والمهانة . وقد تكون هناك شعوب وجماعات تعرضت للقسوة والوحشية والعنف أكثر مما تعرض الأفارقة ، ولكن الأغلب أنه لا توجد من بين هذه الشعوب من تعرض للاذلال والمهانة مثلما تعرض الافريقيون في تاريخهم الحديث . فلقد ذاق اليهود الكثير من آلام التعذيب أيام النازي كما تعرض سكان أمريكا الأصليون (الهنود الحمر) ، وأهالي استراليا الأصليون أيضاً لكثير من القسوة والوحشية التي كانت تهدف الى إبادتهم والقضاء عليهم كشعوب ، ولكن إذلال الأفريقيين وإهانتهم وإهدار انسانيتهم اتخذت أشكالاً أخرى لعل أهونها هو معاملتهم في بلادهم على أنهم مواطنون من الدرجة الثالثة بعد البيض والملونين ، وأشدها وقعاً على النفس وإهدارا للآدمية هو (اصطيادهم) مثلما تصطاد الحيوانات المتوحشة ، وبيعهم كرقيق وعبيد للعمل في مزارع البيض في أمريكا . وقد تكون النزعة العنصرية ـ كظاهرة اجتماعية ـ في سبيلها الآن الى الاختفاء . وإذا كانت النزعات القبلية قد اندثرت في أوروبا أولاً ، وانها سوف تختفي وتزول في وقت من الأوقات من افريقيا ، فان النزعة العنصرية تحتضر الآن وتتراجع في افريقيا وسوف يأتي اليوم الذي تختفي فيه من أوروبا أيضاً . أي ان افريقيا ستكون أسبق على أوروبا في اختفاء شكل من أشكال التفرقة البغيضة بين البشر . وصحيح أنه لن يأتي

أبداً اليوم الذي تزول فيه من كل أنحاء العالم كل صور وأشكال التمييز الطبقي والطائفي ، ولكن العالم سوف يشفى بغير شك من كل النزعات القبلية ومن أمراض العنصرية .

المفارقة الثالثة هي مفارقة اكتساب الثقافة أو استعادتها واستيعابها وتمثلها أو ما يسميه علي المزروعي باسم تصادم الثقافات . فمع أن المجتمعات الافريقية بعيدة بحكم تقاليدها وقيمها وأوضاعها ونظمها التقليدية أشد البعد عن الثقافة الغربية وعن العالم الغربي فانها تستعير كثيراً من عناصر الثقافة الغربية وتخضع لها بسرعة تستلفت النظر . ومن الملاحظ أن سيطرة الأفارقة الذين خضعوا للثقافة الغربية على شئون أفريقيا قد فاقت كل الحدود ، كما يلاحظ أيضاً أن المسيحية انتشرت في افريقيا بأسرع - إن لم تكن أوسع - مما انتشرت به في أي قارة أخرى ، كما أن استخدام اللغات الأوروبية كوسيلة للتواصل والتفاهم في كثير من شئون الحياة اليومية داخل أرض الوطن أكبر منه في آسيا مثلاً ، كما أن النظم التعليمية التي وضع الأوربيون أسسها لا تزال هي المتبعة على الرغم من أنها تعمل على زيادة وتعميق ذلك التأثير (التغريبي) الخطير بحيث أصبح الافريقيون الآن موزعين بين محاكاة الغرب والتمرد على الغرب .

وتتمثل **المفارقة الرابعة** في عملية التجزيء والتقسيم والتفتيت ، فافريقيا ليست هي أصغر القارات من الناحية الفيزيقية ، ولكنها تكاد تكون أشدها تفتتاً وأكثرها انقساماً الى دويلات من الناحية السياسية بحيث تضم عدداً من أصغر دول العالم من حيث السكان والثقل السياسي . وكثيراً ما يكون هذا التقسيم قائماً على أسس عرقية أو لغوية أو دينية أو ايديولوجية دون النظر لأية اعتبارات أخرى . ومن الغريب أن هذه القارة التي تضم أقل من خمسمائة مليون نسمة تنقسم الى أكثر من خمسين دولة . وليس من شك في أن هذا التفتيت هو أحد المعوقات التي تقف في وجه جهود التنمية والاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، كما أنه يساعد على خلق شعور عميق بعدم الأمان وعدم الاستقرار في القارة بوجه عام .

وتتعلق **المفارقة الخامسة** بمشكلة التخلف والتباطوء في التنمية . فافريقيا ليست أفقر مناطق العالم ، ومع ذلك فانها تعتبر أشد بقاع العالم تخلفاً وتأخراً في المجال التكنولوجي ، ربما باستثناء المنطقة القطبية الجنوبية . ويزيد من ذلك التخلف أن اقتصادياتها موجهة بشكل عام لخدمة الغرب وان كانت هناك بعض الجهود المخلصة التي تحاول تصحيح هذه الأوضاع والقضاء على تلك التبعية الاقتصادية .

وأما **المفارقة الأخيرة** فانها تتعلق بالموقع الجغرافي الذي تحتله القارة الافريقية بين قارات العالم ، وهو موقع مركزي من الناحية الفيزيقية ، ولكنها مع ذلك تعتبر قارة (هامشية) من حيث وزنها السياسي وقدراتها العسكرية ، ولا يكاد يأتي قبلها في ذلك سوى القارة المتجمدة أيضاً . وليس من شك في أن ضعف افريقيا العسكري بوجه خاص هو المسئول الأول عن سقوطها فريسة للاستعمار . ولكن هل ستظل يا ترى على هذا الوضع وخاصة أن العالم يحاول زيادة قدراته العسكرية بمختلف الطرق وشتى الأساليب والوسائل . واذا كان ذلك يفوق قدرات افريقيا ويتجاوز امكاناتها ، فهل تستطيع الافادة من موقعها الجغرافي المركزي المتميز فتحمل على عاتقها مسئولية العمل على اقرار السلام في العالم والتوفيق والتقريب بين القوى المتطاحنة ، بحيث يمكن الكلام حينذاك عن السلام الافريقي بنفس المعنى

ونفس القوة التي كان العالم يتحدث بها في وقت من الأوقات عن السلام البريطاني ؟

وهذا أيضاً سؤال آخر لم يحاول المزروعي الاجابة عنه .

●●●

وما أكثر الأسئلة التي يطرحها الباحثون والدارسون عن افريقيا وتراثها وثقافاتها وأسلوب تفكيرها ونظرتها الى نفسها والى الحياة والى الآخرين والى الكون دون أن يصلوا الى إجابات شافية . وربما يكون الأمر في حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث والى أن يشارك في ذلك أبناء افريقيا أنفسهم بقصد الوصول الى فهم أدق وأعمق ومن وجهة نظر افريقية خالصة لهذه المشكلات والقضايا ، وبذلك وحده سوف يمكن تحديد ملامح وأسس ومقومات هذه الهوية الافريقية التي يكثر الآن الكلام عنها .

* * *

السخرية في أدب المعري

عدنان عبيد العلي
أستاذ مساعد
كلية الآداب ـ جامعة البصرة

مقدمة

يحمل الناس في تكوينهم قدرا من الفكاهة ، والسخرية تتفاوت بتفاوت (فروقهم الفردية) كما تتفاوت بواعثها ، وغاياتها الجزئية ، مختلفة باختلاف الأشخاص ، والجماعات ، والبيئات ، فحين تتسع الانحرافات الفردية ، والاجتماعية ، وتتفشى مظاهر الفساد والقهر ، تبرز طائفة من الأدباء ، والمفكرين ، والمثقفين ، لتستخدم هذا اللون من القول ، والكتابة وسيلة للاصلاح ، والتقويم . فالانحراف والكبت يخلقان سخرية مريرة تقوم بفعل القصاص ، والعقاب ، كما تقوم بتخفيف أعباء الانفعال ، واستهلاك الكمية الفائضة من التوتر .

وهنا يجدر الانتباه ـ في جدوى ذلك القصاص والتقويم ـ إلى حقيقة إنسانية سلوكية مفادها أن من الناس من لا يرتدع خوفا من الأذى ، ولكنه يرتدع خوفا من أن يكون موضوعا للسخرية . لهذا كانت الأخيرة ضربا من (الالتزام) الأدبي فهي فن عقل يقوم على النشاط الابداعي .

المعري أديب ملتزم

سخّر المعري شعره وأدبه لغايات أخلاقية ، وفكرية حفلت بالوعظ ، وغلب عليها الطابع العقلي والمضمون الفلسفي . فلم يرسل نفسه فيه على سجيتها ، ولم يستسلم للطبع بل صنع أدبه صناعة استعمل فيه عقله على عواطفه ، كما استعمل في حياته العملية . ملتزما في أدبه مبدأ (الفن للفائدة) معتبرا غاية الأدب ، والشعر طلب الحقيقة ، والتهذيب ، وقد أعلن هذا في مقدمتي ديوانه (سقط الزند) و (اللزوميات) . ففي مقدمة الديوان الأول ـ التي كتبها متأخرة ـ قال : « لم أطرق مسامع

الرؤساء بالنشيد، ولا مدحت طلبا للثواب، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة، وامتحان السوس»[1] وقد وصل به (التزامه) في مرحلة عزلته إلى بغضه شعر هذه المرحلة قائلا: «مدحت فيه نفسي فأنا أكره سماعه»[2]. وفيه يقول تلميذه التبريزي: «رأيته يكره أن يقرأ عليه شعر صباه (سقط الزند) وكان يغير الكلمة إذا قرأته عليه ... ويحثني على الاشتغال بغيره من كتبه كلزوم ما لا يلزم».[3]

وفي مقدمة (اللزوميات) اعترف بضعف شعره فيه بسبب (التزامه) قائلا: «من سلك هذا الأسلوب فقد ضعف ما ينطق به من النظام (النظم) ... وروى عن الأصمعي كلام معناه أن الشعر باب من أبواب الباطل فإذا أريد به غير وجهه ضعف»[4] معلنا أن ديوانه هذا «توخي فيه صدق الكلمة، ونزهه عن الكذب»[5] ولم يكتف بهذا الالتزام الأخلاقي والفكري في شعره بل لقد خطط هذا الديوان قبل نظمه تخطيطا (شكليا) كما يفعل الشعراء التعليميون بادئا نظمه بالهمزة ومنتهيا بالياء، ومقيدا شعره بحرفين أو ثلاثة في الروي ملتزما بالمرفوع، فالمنصوب، فالمجرور، فالساكن، في كل روي معلنا هذا (التخطيط) و (التصنيع) في مقدمة الديوان.[6] وبهذا يكون أبو العلاء أول بل وآخر شاعر عربي ينظم على طريقة خاصة كهذه، ويطبقها منذ البدء على أبياته بيتا بيتا، متوجا هذا التخطيط بعنوان غريب للديوان، ومنطبق على منهجه، ومضامينه تمام الانطباق فكان هذا العنوان خير «تعبير عن الكلف التي يظهر أنها استعيرت للديوان من كتب المناطقة لتدل على ما فيه من نسب ومعادلات بين ألفاظه وقوافيه»[7] حتى ليمكن القول إنه لم يقل ـ معظم أدبه ـ من شعر أو نثر بل يعملها.

نقد النحاة واللغويين:

تناول أبو العلاء النحاة، واللغويين بساخر نقده، فقد أوعروا النحو، وعقدوا مسالكه، وأحالوه إلى طلاسم وألغاز بعد أن كان حلو المجتنى، يسير التناول يلبي حاجات النطق، فلم يكن فيه تخريج متكلف، أو قاعدة مصطنعة يوم كان على يد الدؤلي والخليل، ولكنه صار صعبا مطلوبا لذاته على يد الأخفش والكسائي والفراء وغيرهم. وصار له شيع وأحزاب تتناحر، وتتشاتم، وتقضي الوقت من غير طائل، فعقد لهم في رسالة الغفران مجالس ساخرة، وشغلهم بجمهرة من المسائل النحوية، والصرفية، واللغوية وجعلهم ـ في الفردوس ـ متحابين[8] بعد أن كانوا في (الدار العاجلة) متباغضين، وصاروا مصداقا لقوله تعالى: «ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين. لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين»[9]، فصدْرُ أحمد بن يحيى (ثعلب) هنالك قد غسل من الحقد على محمد بن يزيد (المبرد) فصارا يتصافيان، ويتوافيان. و (سيبويه) قد رحضت سويداء قلبه من الضّغن على (عليّ بن حمزة الكسائي)

(١) شروح سقط الزند ١/ ١٠.
(٢) السابق ١/ ٣.
(٣) نفسه ١/ ٣.
(٤) اللزوميات، ط مصر ١/ ٣٢.
(٥) السابق ١/ ١٩.
(٦) نفسه ١/ ١ وما بعدها.
(٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، ٣٩٩.
(٨) رسالة الغفران بتحقيق بنت الشاطئ، ١٦٩ ـ ١٧٩.
(٩) سورة الحجر: ٤٧ ـ ٤٨.

وأصحابه لما فعلوا به في مجلس البرامكة ، و (أبو عبيدة) صاقي السطوية لـ (عبد الملك بن قريب) أي الاصمعي .

وقد شَغَل النحاةُ بطلَ قصته (ابن القارح) بسفسطتهم حتى ضاع صك التوبة ، وجعل يلومهم على هذه الضجة . يقول بطله : « كنت قد رأيت في المحشر شيخا لنا كان يدرّس النحو في (الدار العاجلة) يعرف بـ (أبي علي الفارسي) وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأوّلتَ علينا ، وظلمتنا . فلما رآني أشار إليّ بيده فجئته فإذا عنده طبقة منهم (يزيد بن الحكم الكلابي) وهو يقول : ويحك أنشدت عني هذا البيت برفع الماء يعني قوله :

فليت كفافا كان شرُّك كلّه
وخيرك عنّي ما ارتوى (الماء) مرتوى

ولم أقل إلاّ (الماء) بالنصب . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله فقلت : يا قوم ؛ إن هذه أمور هينة فلا تعنتوا الشيخ فإنه يمت بكتابه في (القرآن) المعروف بـ (كتاب الحجة)[١٠] ، وأنه ما سفك لكم دماء ، ولا احتجن عنكم مالاً فتفرقوا عنه » .[١١]

ويعقد بين اللغويين - في جنته - حوارا[١٢] فينصرفون عمّا هم فيه من نعيم ليتجادلوا حول اسم بلال في الجنة ، فيقول أحدهم إن اسمها في العربية (بواسن) فيقول قائل : من ذكر هذا من أهل اللغة فيقول : قد ذكرها (ابن درستويه) الذي كان حاضرا هذه المجادلة (العائبة) فيقول له الخليل - في شك ساخر - من أين جئت بهذه الحرف ؟ فيقول ابن درستويه وجدته في كتب النضر بن شميل . فيقول الخليل : أَحقّ هذا يا نضر (فأنت عندنا الثقة !) فيقول النضر : قد التبس عليّ الأمر » .

فمعظم النحاة - عنده - أهل تزيد ومبالغة . لم يتورعوا من الاستشهاد بكلام طفل ، أو امرأة ليست بذات بال[١٣] ، وربما أنشد الكسائي - كما يقول - البيت والبيتين على غير سماع ، وورووا أن يعقوب بن السكيت صحف قول عدي ابن الرقاع[١٤] .

وبلغت سخريته بالنحاة أن جعلهم مشغولين ببطونهم بعد أن اطمأنوا لمكانهم في الجنة ، فأبو عبيدة اشتهى طاووسا مشويا من طواويس الجنة . وقد رآه طائرا يروق من رآه حسنا متمنيا أن يُشوى بالخل . فيكون كذلك في صحفة من الذهب . فإذا قضى منهم الوطر انضمت عظامه بعضها إلى بعض ثم تصير طاووسا كما بدأ فتقول الجماعة - جياع الدار العاجلة - سبحان من يحيي العظام وهي رميم ! كما جاء في الكتاب الكريم : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أوَلَمْ تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . . .[١٥] » ليبدأ بعد ذلك جدل (عابث) حول موضع (يطمئن) امنصوبه بـ (لام كي) أم يجوز غير ذلك كالجزم بـ (لام الأمر) ويكون مخرج الكلام مخرج الدعاء .[١٦]

وحين تمرّ إوزّة من فوقهم تشرئب أعناقهم فيشتهيها بعضهم مشوية أو (كردناجا) أي كبابا بالفارسية ، أو

(١٠) كتاب الحجة في القراءات لأبي على الفارسي .
(١١) رسالة الغفران ٢٥٤ - ٢٥٥
(١٢) السابق ٢٨٠ - ٢٨١ .
(١٣) نفسه ٢٣٨ .
(١٤) رسالة الصاهل بتحقيق بنت الشاطيء : ٣٠٤ .
(١٥) سورة البقرة : ٢٦٠ .
(١٦) رسالة الغفران ٢٨١ - ٢٨٢ .

معمولة بـ (سماق) أو بـ (لين وخل) فتكون على ما يريدون . وحين بلغوا ما تمنوه قال أبو عثمان المازني للأصمعي : يا أبا سعيد ما وزن إوزة ؟ فيقول الأصمعي : أإليّ تعرّض بهذا يا (فُصَّل)[17] ، وطالَ ما جئتَ مجلسي بالبصرة وأنت لا يرفع بك رأس[18] ، ويمضي جدل طويل بينهم ثم يقول الأصمعي للمازني : أليس أصحابك من أهل القياس يزعمون أنها (إفعلة) وبعد جدل حاد ، وشجار ، وصراخ يقول المازني : تأوُّلٌ من أصحابنا وادعاء ، لأن إوَزّة لم يثبت أن الهمزة فيها زائدة فيقول الأصمعي :

رَيَّشْتُ جرهم نبلا فرمى
جرهما منهن فوق وفرار[19]

تبعتهم مستفيدا ثم طعنت فيما قالوه معيدا . ما مثلك ومثلهم إلاّ كما قال الأول :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتد ساعده رماني[20]

وقد أشار الأستاذ إبراهيم مصطفى[21] إلى أن في رسالة الغفران من رأي سيبويه وكتابه ، والسيرافي وشرحه ، وأبي علي وكتبه ما يدل على رأي أبي العلاء في نحو البصرة خلاصته : أنه يرى أن نحاة البصرة بقياسهم قد قوّلوا العرب مالا يقولون ، وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون ، وأنه انصرف عن بغداد لم يتلق من أحد من أئمة النحو بها ، وقرأ كتبهم فضاق صدرا بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل ، والغلو في التعليل ، والمضي مع القياس مضيا يراه المعري منتهيا إلى أن يجيز في العربية ما ليس فيها . وتجلت سخريته بالنحاة في خلاص أهل الجنة في ضياع النحو ، لأنهم سيتكلمون بلغة الأصول النقية التي لم تصلها يد نحوي « وإنما افتقر الناس في الدار (الغرارة) إلى علم النحو واللغة لأن العربية الأولى أصابها تغيير » .[22] وبهذا يضع أبو العلاء أيدينا على فكره اللغوي القائم على العودة إلى الأصول الأصيلة الصافية .

وبسبب انشغال النحاة بـ (العبث) و (الجدل) فقد كانوا فقراء أدركتهم (حرفة الأدب) في العاجلة ، فقد قدم أبو عبيدة مع الأصمعي إلى البصرة طلبا للطعام ، ثم يوجه أنظار نحاة عصره متهكما ساخرا « من بغى أن يتكسب بهذا الفن فقد أودع شرابه في شن (قربة بالية)[23] » وذهب بعضهم لطلب (الامارة) كي يعيش . فسيبويه رغب في (ولاية المظالم) بشيراز ،[24] وأن أبا بكر بن السراج عمل كتابه (الموجز) لرجل بزاز ،[25] ولم ينْسَ في هذا الاتجاه أن يعرّض بأبي تمام من أنه هلك بالموصل وهو على البريد . ثم يختم كلامه بالقول : « وصاحب الأدب حليف التصريد » .[26]

وفي رسالة الملائكة (الصرفية) كان للسخرية فيها نصيب وافر من بعض الاشتقاقات المتكلفة ،

---

(17) من أسماء العقرب أو الصغير من ولدها ويوصف به الرجل اللئيم (هامش رسالة الغفران ، رقم 4 ص 283 .
(18) رسالة الغفران : 283 .
(19) البيت للأفوه الأودي من رائيته المشهورة (انظر هامش الغفران رقم 2 ص 281 وهامش 5 من ص 297) .
(20) رسالة الغفران : 284 .
(21) المهرجان الألفي 370 ، وانظر الغفران دراسة نقدية لبنت الشاطئ 216 ـ 217 .
(22) رسالة الملائكة 45 .
(23) رسالة الغفران 411 .
(24) السابق 411 ـ 412 .
(25) نفسه 425 .
(26) نفسه 412 ، والتصريد : قلة العطاء . (هامش الغفران) .

والتخريجات المصنوعة وبرغم تواضعه المسرف الذي تقرؤه في مقدمة الرسالة(٢٧) فإن الرسالة تحمل اعتدادا بالنفس ، وثقة عالية بمخزون المعرفة التي يمتلكها أبو العلاء لما أفاض فيه من تفنيد لآراء العلماء بعد استعراض لثقافته اللغوية . وتبدو هذه السخرية من انشغال النحاة بالهين الساذج ، وصرفهم حياتهم في بحث لغوي غير مهم . فهم في لحظات (الاحتضار) يتحاورون مع ملك الموت عن اشتقاق اسمه أو اسم الملك(٢٨) ، ولا يخفي ما في تلك المحاورة من سخرية بعقول الذين يفصلون في حديث الغيب مما لم يطلع عليه أحد .

وبعد عرضه للصراع بين النحاة في الاشتقاق العابث يردّ الملك ساخرا من أبي عبيدة النحوي الذي استشهد برأيه « وما أبو عبيدة وما هذه الأباطيل إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد وإلاّ فاخساً (تباعد) وراءك . فأقول أمهلني فيقول الملك : هيهات ليس الأمر إليّ إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، أم تراني أداري منكرا ونكيرا . فأقول : كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة أكثرها أعجمية مثل إسرافيل وجبريل وميكاييل فيقولان : هات حجتك وخل (الزخرف) عنك . فلا يزيدهما ذلك عليّ إلاّ غلظة ولو علمت أنهما يرغبان في مثل هذه (العلل) لأعددت لهما شيئا كثيرا من ذلك » .(٢٩)

وكان له اعتداد (ساخر) في رده على سيبويه في إحدى المسائل الصوفية في قوله من أن السماع من العرب لم يأت فيه نحو ما قال إلا أن يكون شاذا .(٣٠)

كما سخر من الفراء في أصل كلمة (لكن) بقوله : « وقد زعم الفراء أن أصلها لا كن وهذه دعوى لا تثبت . . . ويجوز أن يكون شاذا » .(٣١)

وبهذا يمكن القول إن أبا العلاء يعتقد أن السماع هو الأصل في المعرفة اللغوية .

فلم يثق بالنحو المتخم بالتكلف والاصطناع ، والتأويل فهتف في كتابه الأيك والغصون :

يا نحو يا نحو
حق لما كتب منك المحو
ما أنت وما الحاجة إليك
إنما يفتقر إلى تقوى الله
ما أشغلني إذا نودي بي عن أحكام النداء
ما ترخيم وضم
وكلام ضم وجمع
جر بالاضافة ونصب على الاغراء .(٣٢)

فلم ينتفع أحد بعد من نحوهم ولغتهم ، ولم يبكهم علمهم الذي ضيعوا العمر فيه :

تـولى سـيبـويـه وجـاش سـيب
مـن الأيـام فـاخـتـل الخـلـيـل
ويـونـس أوحـشـت مـنـه المغـاني
وغـيـر مـصـابـه الـنـبـأ الجـلـيـل
أتـت عـلى المـنـون فـما بـكـاهـم
مـن اللفـظ الـصحـيـح ولا العـلـيـل(٣٣)

وقد كوى النحاة بميسم لاذع من نقده فتخيل جدلهم ونقاشهم مثل هدير الجمل وصخبه . إذ أضاع

(٢٧) ص ٥ ـ ٦ .
(٢٨) رسالة الملائكة ٦ .
(٢٩) السابق ٨ .
(٣٠) نفسه : صفحة س .
(٣١) رسالة الملائكة ١٩٣ .
(٣٢) اوج التحري للبديعي ٤٥ ، وأنظر مجلة أديب العدد الخاص حزيران ١٩٤٤م .
(٣٣) اللزوميات ٢/ ١٨٦ ط مصر .

المتأخرون النحو النقي الأصيل الذي خلفه الأوائل « فلو عاش الدؤلي حتى يسمع كلام الفارسي في الحجة ما فهمه ـ فيما أحسب ـ إلا فهم الأمة هدير السنداب[34]

نقد الأدباء والرواة :

عني ابو العلاء بالرواية عناية بالغة . إذ أنها تمثل فكره النقدي التوثيقي ، والتزامه الأدبي . وقد جاء في نقده المنبث هنا وهناك ضروب من الرواية منها المجرد من النسبة ، أو المختلف في نسبتها[35] ، وهناك رواية مع الترجيح . ولكن دون إبداء سبب لهذا الترجيح[36] ، لعدم توفر المرجح . وهناك رواية تقترن بالترجيح ، والتعليل مع ذكر أسباب هذا الترجيح . وقد كان في ذلك كله ذا ذوق مرهف ، ودقة ، وسعة معرفة بأساليب العرب وأدبهم .[37]

وفي استقرائنا لنقده (الملتزم) نجد سخرية تقويمية لأدباء عصره : يقول فيه :

وما أدب الأقوام في كل بلدة
إلى المين إلاّ معشر أدباء[38]

بل لقد وجّه كلمة الأدب في أصل وضعها بأنها دعوة إلى الموت لا إلى الطعام :[39]

وكل أديب أي سيدعى إلى الردى
من الأدب لا أن الفتى متأدب[40]

فصناعتهم مذمومة تجلب الفقر ، برغم ما يبذله أصحابها من ذل ومهانة في بيعها في أسواق الملوك والأغنياء ، ويسخر أبو العلاء من بيع هذه الصناعة حين يضع هذا الحوار على لسان إبليس ، وأديب حلبي .

« يقول إبليس من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صناعتي الأدب أتقرب به إلى الملوك فيقول : بئس الصناعة إنها تهب رغفة من العيش لا يتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . . . »[41] وفي هذا الاتجاه يعرض لعطف الملوك (المُبْل) على أهل الأدب قائلا : « ولم يزل أهل الأدب يشكون الغِيَر في كل جيل ويغَصّون من العجائب بسجيل سجيل . وهو يعرف الحكاية أن مسلمة بن الوليد أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله . وقال إنهم أهل صناعة مجفوة . وأحسب أنهم والحرفة خلقا توأمين ، وانما يتجح بعضهم في ذات الزمين (تصغير الزمن) ثم لا يلبث أن تنزل قدمه ويظري بالقدر ادمه . . . ، وإذا كان الأدب على عهد بني أمية يقصد أهله بالجفوة فكيف يسلمون من بأس عند مملكة بني العباس ؟ وإذا أصابتهم المحن في عذان[42] الرشيد فكيف يطمع لهم بالحظ المشيد ؟ »[43] .

وليست تلك السخرية من أهل الأدب فحسب بل في

(٣٤) الفصول والغايات ـ للمعري بتحقيق محمود حسن زناتي ١٠٩ . والسنداب : الجمل الغليظ الشديد . (هامش الفصول)

(٣٥) أبو العلاء المعري ـ ناقدا ، لوليد محمود خالص : ٣٧ . وانظر أمثلة الرواية المجردة في رسالة الغفران : ٣٢٩ ، ٥٦٢ . ورسالة الصاهل ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ١٦٨ ، والفصول والغايات : ٨٣ ، ٨٩ ، ١٩٧ ، ٢٧٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ ، ورسالة الملائكة ١٠ ، ٩٧ ـ ٩٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

(٣٦) أبو العلاء المعري ناقدا : ٤٠ . وانظر أمثلة في رسالة الملائكة) ٩٨ والصاهل ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .

(٣٧) أبو العلاء المعري ناقدا : ٤٤ . وانظر أمثلة ذلك في رسالة الصاهل ٥٤٠ ـ ٥٤٣ ، ٥٣١ ، ورسالة الغفران ٢٠٤ ـ ٢٠٧ ، ٣١٤ ، وعبث الوليد ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ . وانظر في النحل والانتحال أبو العلاء المعري ناقدا ص ٦٠ وما بعدها وأمثلته في الصاهل ٤٥١ ـ ٤٥٦ ، ٥٥٢ ، ٣٧٦ ، ٥٠٣ ، ٥١٣ ، ٥٤٢ ، ٦٩٠ ، والفصول ٤٣٠ ـ ٤٣١ ، ٢٢١ ، ٤٦٩ ، ٢٨٤ ، ورسالة الغفران ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، ٢٩٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ورسالة الملائكة ٢٦٩ ـ ٢٧٠ .

(٣٨) اللزوميات ـ ط مصر ١/ ٣٥ .

(٣٩) أصل (أدب) بسكون الدال : الدعوة إلى الوليمة ومنه المأدبة والآدب : الداعي إلى الطعام . انظر لسان العرب ١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ وتاج العروس ١/ ١٤٤ وجمهرة اللغة ٣/ ٣٦٦ ، ٨١ والمصباح المنير ١/ ٦ مادة (أدب)

(٤٠) اللزوميات ـ ط مصر ١/ ٧٨ .

(٤١) رسالة الغفران ٣٠٩ .

(٤٢) عدانه أي أوله وأفضله (هامش رسالة الغفران رقم ٢ ص ٤١١) .

(٤٣) رسالة الغفران ٤١١ .

سخرية ضمنية من المجتمع والساسة الذين لم يقدروهم حق قدرهم . فالجهلاء يرفلون بحلل النعمة . في حين لا يجد الأدباء ما يسد رمقهم ، ولهذا صرخ في لزومياته صرخة (عبثية) استوت فيها كل الأشياء عنده فلم يعد هناك قيمة لكل ذي قيمة :

إنّا لما نحن فيه من عنت
فكلنا في تحيل ودلس
ما النحو ما الشعر والكلام وما
مرقش والمسيب بن علس
طالت عن ساهر دجنته
والصبح ناء فمن لنا بغلس[٤٤]

ويعقد للرواة في رسالة الغفران مجلسا طريفا للمناظرة ، ساخرا من عدم تثبتهم إذ ما تكاد رحلته إلى الجنة تبدأ حتى يقدم طريقته المختارة في الرواية والنقل . فحين يتمثل بطله ابن القارح بقول البكري (وهما بيتان من الشعر) « فيهتف هاتف : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ فيقول الشيخ : نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء فيرويه لهم عن أشياخ العرب حرشة الضباب[٤٥] في البلاد الكلدات[٤٦] ، وجناة الكمأة في مغاني البداة ، الذين لم يأكلوا شيراز الألبان[٤٧] ، ولم يجعلوا الثمر في الثبان ،[٤٨] أن هذا الشعر لميمون بن قيس . . . »[٤٩] .

ثم يعرض ـ بأسلوبه الخاص ـ موكبا من الشعراء يسألهم عما نسب إليهم من شعر فينكرون ويتهمون رواته . وينثني إلى أعشى قيس فيقول : (أي ابن القارح) يا أبا بصير أنشدنا قولك :

أمن قتلة بالأنقا
دار غير محلوله

فيقول أعشى قيس ما هذه مما صدر مني وإنك منذ اليوم لمولع بالمنحولات .

وجاء بأبينا آدم يسأله عما نسب إليه من شعر قائلا : يا أبانا قد روى لنا عنك شعر منه قولك :

نحن بنو الأرض وسكانها
منها خلقنا وإليها نعود

فيقول : إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكني لم أسمع به حتى الساعة فيقول : فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت فقد علمت أن النسيان متسرع إليك ، وحسبك شهيدا على ذلك الآية « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما »[٥٠] . فيقول آدم (ع) أبيتم إلّا عقوقا وأذية إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا في الجنة فلما هبطت إلى الأرض نُقل لساني إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت فلما ردني الله إلى الجنة عادت عليّ العربية فأي حين نظمت هذا

---

(٤٤) اللزوميات ط مصر ٢/ ٥٤ ـ ٥٥ .
(٤٥) حرشة الضباب : جمع حارش وهو صائد الضب ، والحرش : الخديعة
(٤٦) الكلدات : جمع كلدة وهي الأرض الغليظة .
(٤٧) الشيراز : اللبن الرائب المقطوع .
(٤٨) الثبان : واحد الثبن شيء كذيل القميص تعطفه وتثنيه فتجعل فيه ما شئت . معاني المفردات السابقة من هامش (٤٥ـ٤٨) من هامش رسالة الغفران ، ص١٧٧ .
(٤٩) رسالة الغفران ١٧٦ ـ ١٧٧ .
(٥٠) سورة طه / آية ١١٥ .

الشعر ؟ في العاجلة أم الآجلة ؟ والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار (الماكرة) ثم يسأل ابن القارح آدم (ع) عن شعر نسب إليه لمّا قتل قابيل هابيل :

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مُغْبرٌ قبيحُ

فيقول آدم (ع) : أعزز عليّ بكم معشر أبيني أنكم في الضلالة متهوكون ، آليت ما نطقت بهذا النظيم ولا نطق في عصري وإنما نظمه بعض (الفارغين) فلا حول ولا قوة إلاّ بالله ! كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك إلى الأرض [٥١] .

ومن هذا الموكب امرؤ القيس ، والعلوي البصري ، عضد الدولة وغيرهم [٥٢] .

ومن نقده الساخر للرواية دفاع النابغة عن نفسه حيال تخرصات المصحفين من الرواة والكاذبين من النقلة فيقول أبو العلاء على لسان بطله (ابن القارح) « لله درّك يا كوكب بني مرة ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة وكيف لي بـ (أبو عمرو : المازني والشيباني وأبي عبيدة وعبدالملك وغيرهم من النقلة لأسألهم كيف يروون وأنت شاهد لتعلم أني غير المتخرص ولا الولاّغ فلا يقر هذا القول في حلنة [٥٣] أبي امامة إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر من غير مشقة نالتهم ولا كافة في ذلك أصابتهم . فيسلمون بلطف ورفق فيقول (ابن القارح) من هذه الشخوص الفردوسية ؟ فيقولون نحن الرواة الذين شئت إحضارهم آنفا . . . [٥٤] » .

نقد الشعراء :

إن الفكر الأدبي الملتزم ، والنهج الأخلاقي الذي اطمأن إليه ابو العلاء ، وآمن به ، ودعا إليه هو الذي حدد مسار أدبه ، ومضامينه فآثر الصدق ، وربط الأدب بعجلة الأخلاق . فسخر من المديح قائلا : المديح في كل زمان ما رفع قدر مشئم ولا يمان [٥٥] ، ويتساءل « ما الذي أفاده رسول الله (ص) لما امتدحه كعب وحسان » [٥٦] ، ويسخر من شعر التكسب فيصفه على لسان الشاحج (البغل) « فإني كرهت أن أتصور بصور أهل النظم المتكسبين الذين لم يترك سؤال الناس في وجوههم قطرة من الحياء ، ولا طول الطمع في نفوسهم أنفة من قبيح الأفعال » [٥٧] لأن الآية - كما يقول - تشهد عليهم بالتخرص وقول الأباطيل [٥٨] : « الم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون [٥٩] » .

فالشعر عنده - « إذا جُعل مكسبا لم يترك للشاعر حسبا ، وإذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنسب » [٦٠] .

---

(٥١) رسالة الغفران ٣٦٠ .
(٥٢) السابق : ٣٢٢ ، ٤٤٩ . وانظر في نقده الرواية وسخريته من الاستشهاد غير الموثق ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ٢٩٧ ، ٣٣٤ ، ٣٥٢ - ٣٥٩ ، ٣٧٧ ، ٤٢٩ ، ٧٤٤ .
(٥٣) الحلنة : الاثنان ويفرد فيقال : حلنة بفتحتين ثون مفتوحة مشددة (هامش الغفران ٢ ، ص ٢٠٦) .
(٥٤) رسالة الغفران ٢٠٦ - ٢٠٧ .
(٥٥) الصاهل ١٧٨ .
(٥٦) السابق ١٧٩ .
(٥٧) نفسه ٢١٩ .
(٥٨) رسالة الغفران ٤١٤ .
(٥٩) سورة الشعراء / آية ٢٢٥ .
(٦٠) احكام صنعة الكلام للكلاعي ٣٨ .

وفي هذا الاتجاه زخرت اللزوميات بالسخرية اللاذعة من شعر التكسب :

تكسب الناس بالأجساد فامتهنوا
أرواحهم بالرزايا في الصناعات
وحاولوا الرزق بالأفواه فاجتهدوا
في جذب نفع بنظم أو سجاعات(٦١)
ومغرم بالمخازي طالب صلة
مغرى بتنفيق أشعار له كسد(٦٢)
يحق كساد الشعر في كل موطن
إذا نفقت هذي العروض الكواسد(٦٣)

وسواء - عند المعري - المديح ، والهجاء حين يسبغ المادح صفات ليست في الممدوح :

إذا أثنى عليّ المرء يوما
بخير ليس فيّ فذاك هاج(٦٤)
سيان عندي مادح متخرّص
في قوله وأخو الهجاء إذا ثلب(٦٥)

أما إذا أسبغ المادح على ممدوحه من مستحيل الصفات البشرية فإن الهجاء خير منه :

إذا كان التقارض من محال
فأحسن من تمادحنا التهاجي(٦٦)

وفي هذا الاتجاه يجمع المعري بطل قصته (الغفران) مع الشاعر الحطيئة فيصف هذا البطل الحطيئة بالصدق في هجوه نفسه (٦٧) ، لأن الهجاء عند الحطيئة يمثل الوجه الحقيقي لنفسه . ويذكره بممدوحه الزبرقان بن بدر فيقول الحطيئة : « انتفع بهجائي ولم ينتفع غيره بمديحي » (٦٨) .

أما الأخطل شاعر بني أمية فقد وسّده أبو العلاء دار اللهب فحاسبه حسابا عسيرا في خمرياته (٦٩) ، وجعل يذكره بأيام يزيد فيزفر زفرة يعجب لها الزبانية (٧٠) .

وحكم على أبي تمام - وفق منهجه الأخلاقي - فقال : « أمّا أبو تمام فما أمسك من الدين بزمام . . . فإن قذف في النار حبيب فما تغني المدح ولا التشبيب ، ولو أن القصائد لها علم . . . لأقامت عليه الممدودتان (٧١) اللتان في اول ديوانه مأتما . . . فناحتا عليه كابنتي (لبيد) ، وكأني بهما لو قضي ذلك لاجتمعت [إليها] الممدودات ، كما تجمع نساء معدودات فيجئن من كل أوب ، ويتواعدن المحفل على نوب . ولو فعل ذلك لبارتهن (البائيات) بمأتم أعظم رنينا ، وأشد في الحندس حنينا . . . (٧٢) ، وهكذا يمضي مستقصيا قوافي ديوانه لتقوم كل قافية بندب ، وسخر ، ولوم . ثم أشفق عليه من النار . (٧٣) .

(٦١) اللزوميات ، دار صادر ١/ ٢٢٧ .
(٦٢) اللزوميات ، دار صادر ١/ ٣٧٢ .
(٦٣) السابق ١/ ٢٢٩ .
(٦٤) نفسه ، ط مصر ١/ ٢٠٨ .
(٦٥) نفسه ١/ ١٤٢ .
(٦٦) نفسه ١/ ٢٠٨ .
(٦٧) رسالة الغفران ٣٠٧ - ٣٠٨ .
(٦٨) السابق ٣٠٨ .
(٦٩) رسالة الغفران ٣٤٥ .
(٧٠) السابق : ٣٤٧ .
(٧١) وهما قصيدتاه في المديح ، الأولى في خالد بن يزيد الشيباني ، والأخرى في مدح يحيى بن ثابت (هامش الغفران رقم ٦ ، ص ٤٨٤) .
(٧٢) رسالة الغفران ٤٨٣ وما بعدها .
(٧٣) السابق ٤٨٨ .

ولم يعف أدب الأندلسي من سخريته ، وتهكمه لولوع أهله بالمبالغة قائلا : « وكان لهم بالمغرب رجل (يعرف) بابن هانيء ، وكان من شعرائهم المجيدين فكان يغلو في مدح المعز غلوا عظيما »[٧٤] كما تعرض لشاعر أندلسي آخر له[٧٥] يعرف بـ (ابن القاضي » ، ومن هذا المنطلق الأخلاقي هاجم (مهنة الأدب) ، وقال عنها : إنها صناعة خاسرة مهينة ، وقد سمعنا منه في (جنته) أن النابغة الجعدي يعيّر الأعشى بمدح الملوك ويرى زوجته الخزانية قد وقفت في تخلية هذا النابح الذي يطوف الأحوية على العظام المتبذة . وسمعنا منه أن حميد بن ثور في جنة الغفران يشكو ما لقي في الدنيا من هذه الصناعة ، ولقد كان الرجل منّا يعمل فكره السنة والأشهر في الرجل قد آتاه الله الشرف والمال فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فعطاء زهيد »[٧٦] .

ثم رأينا ابن القارح ينصرف عن انتساخ آداب الجن ـ وكان قد همّ بذلك ـ ويقول : « لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل ، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم در بكي . . . »[٧٧]

وفي الغفران تجلّت سخريته من الشعر الشكلي ذي الجمجعة اللفظية القائمة على رنين الألفاظ ، ودونها في شعر وضعه على لسان (العفريت) أبي هدرش الخيتعور أحد بني الشيصبان وهما قصيدتان الأولى عشرون بيتا ومطلعها :

حطت من حطّ أوزاري ومزقها
عني فأصبح ذنبي اليوم مغفورا

وعدد أبيات الثانية تسعة وتسعون . ومطلعها :

مكة أقوت من بني الدردبيس
فما لجنّي بها من حسيس[٧٨]

وفي القصيدتين تتجلّ براعة أبي العلاء ودقة حسه ، وسلامة ذوقه على نحو رائع غير مألوف . فقد استطاع أن ينطق بلسان جنّي ، ويروي مغامرته ويقصّ غزواته في بني الإنسان فيخيل ـ عند قراءة القصيدة ـ أن هذا صوت عفريت حقا ، وأنه من شعر الجن صدقا بقافيته وألفاظه ، وجرسه ، ووقعه ، ومعانيه . وقد واتته مقدرته الشعرية دون أن يتعثر ، وأسعفته ثروته اللغوية فاختار ما شاء من ألفاظ ـ غريبة ذات رنين خاص كأنما جاء بها من قاموس الجن[٧٩] (يغبور ، الهيق ، الطنبوب ، عمورسا ، فرفورا ، الدردبيس ، ردبس ، طيس ، خيس ، عريسيس ، يعاليل ، نكيس ، الانقليس ، الخفيس . . .) .

ومن الملفت للنظر أن الشعراء الذين التقى بهم في الجحيم أكثر من الشعراء الذين التقى بهم في الجنة وهم في الوقت نفسه فطاحلهم . فقال على لسان طرفة : « وددت أني لم انطق مصراعا ودخلت الجنة مع الهمج والطغام »[٨٠] ، ويقول أوس بن حجر : « ولقد دخل الجنة من هو شرّ مني ولكن المغفرة أرزاق كأنها النشب في الدار العاجلة »[٨١] .

(٧٤) نفسه ٤٦١ .
(٧٥) نفسه ٤٦٢ .
(٧٦) رسالة الغفران ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٧٧) الغفران ، دراسة نقدية لبنت الشاطئ ، ٢٤١ ، وانظر النص في رسالة الغفران بتحقيق المؤلفة ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .
(٧٨) انظرها في رسالة الغفران ٢٩٤ وما بعدها .
(٧٩) الغفران ، دراسة نقدية لبنت الشاطئ ، ١٩٤ ـ ١٩٥ .
(٨٠) رسالة الغفران ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
(٨١) السابق ٣٤٢ .

وكانت سخريته لاذعة (مهينة) مع بطله ابن القارح الذي جعله يتوسل بالشعر لدخول الجنة قائلا على لسانه (٨٢) : « زينت لي النفس الكاذبة أن أنظم أبياتا في رضوان خازن الجنان عملتها في وزن :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان (٨٣)

ووسمتها برضوان ثم ضانكت الناس حتى وقفت منه بحيث يسمع ويرى فما حفل بي ، ولا أظنه أبه لما أقول . . . ثم عملت أبياتا في وزن :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا
وقطعوا من حبال الوصل أقرانا (٨٤)

ووسمتها برضوان ثم دنوت منه ففعلت كفعلي الأول . . . فلم أزل أتتبع الأوزان التي يمكن أن يوسم بها رضوان حتى أفنيتها ، وأنا لا أجد عنده معونة ، ولا ظننته فهم ما أقول ! وبعد أن يئس ابن القارح من استجابة رضوان صاح بأعلى صوته وقال له من بعض ما قال : قد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتها باسمك فقال : وما الأشعار؟ فإني لم أسمع بهذه الكلمة قط إلا الساعة ! فقلت الاشعار جمع شعر . والشعر كلام موزون تقبله الغريزه على شرائط . . . وكان أهل العاجلة يتقربون به إلى الملوك ، والسادات ولكن رضوان طرده فانصرف إلى خازن آخر يتوسل إليه بالشعر ولقي منه ما لقي من الأول .

وسخر من أدعياء الشعر ، والضعفة الذين قالوا فيه مفردا للرجز حديثا خاصا بل وجنة خاصة جمع فيها الرجاز واختار لهم مكانا متواضعا فيه (٨٥) من رجّاز العرب : الأغلب العجلي ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وعذافر بن أوس ، وأبو نخيلة ، وكل من غفر له من الرّجاز (٨٦) . فإذا عرض له رؤبة غاضبا مفاخرا قال له :

« لو سَبِك رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة » (٨٧) .

⁂

(٨٢) نفسه ٢٤٩ وما بعدها .

(٨٣) وهو لأمريء القيس وتتمة (ورسم عفت آياته منذ أزمان) هامش الغفران ٨ ص ٢٤٩ .

(٨٤) البيت لجرير ، وهو مطلع قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل (ديوانه ، ط الصاوي ، ٥٩٢) في هامش الغفران رقم ٦ ص ٢٥٠ .

(٨٥) رسالة الغفران ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

(٨٦) السابق ٣٧٣ ـ ٣٧٥ .

(٨٧) نفسه ٣٧٥ .

المصادر والمراجع

١ ـ أحكام صنعة الكلام ـ الكلاعي الإشبيلي الأندلسي ـ تحقيق محمد رضوان الداية ـ ط الجوي بيروت ـ ١٩٦٦ .
٢ ـ أوج التحري عن حيثية المعري : البديعي ـ تحقيق إبراهيم الكيلاني ـ ط الترقي ـ دمشق ١٩٤٤
٣ ـ تاج العروس ج١ ـ الزبيدي ـ دار ليبيا ـ بنغازي ـ بلا تاريخ
٤ ـ جمهرة اللغة ـ ج٣ ـ ابن دريد ـ ط مجلس دائرة المعارف العثمانية ط١ ـ الهند ـ ١٣٤٥هـ
٥ ـ رسالة الصاهل والشاحج ـ المعري ـ تحقيق د. عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف . مصر ٩٧٥
٦ ـ رسالة الغفران ـ المعري ـ تحقيق د. عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٦ ـ ١٩٧٧
٧ ـ رسالة الملائكة ـ المعري ـ تحقيق كامل كيلاني ـ المكتب التجاري ـ بيروت ـ بلا تاريخ
٨ ـ شروح سقط الزند ـ للتبريزي والبطليوسي والخوارزمي ـ تحقيق مصطفى السقا وجماعته ـ إشراف د. طه حسين ـ الدار القومية للطباعة والنشر ٩٦٤ ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٧م
٩ ـ عبث الوليد ـ المعري ـ تحقيق ناديا الدولة ـ الشركة المتحدة ـ بيروت ـ بلا تاريخ
١٠ ـ أبو العلاء المعري ناقداً ـ وليد محمود خالص ـ مؤسسة الرياضي للطباعة ـ دار الرشيد للنشر بغداد ـ ١٩٨٢م
١١ ـ الغفران دراسة نقدية ـ د. عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ـ ط٣ ـ مصر ١٩٦٨م .
١٢ ـ الفصول والغايات ـ المعري ـ تحقيق محمود حسن زناتي ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر ١٩٧٧م
١٣ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ ط٩ ـ مصر ١٩٧٦
١٤ ـ اللزوميات ـ المعري ـ ط الوطنية ـ مصر ـ ١٣٤٢هـ . واللزوميات ـ ط دار صادر بيروت ١٩٦١
١٥ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ـ ٩٥٥ و ٩٥٦
١٦ ـ مجلة أديب ـ عدد خاص ـ حزيران ١٩٤٤
١٧ ـ المصباح المنير ـ ج١ ـ الفيومي ـ ط الأميرية ـ ط٦ ـ القاهرة ـ ١٩٢٦م
١٨ ـ المهرجان الألفي ـ ط الترقي ـ دمشق ـ ١٩٤٥م

* * *

الرواية السوفيتية

تأليف : كاترينا كلارك

عرض وتحليل : مكارم الغمري

أستاذة بكلية الألسن

جامعة عين شمس

الرواية السوفيتية

مؤلفة كتاب « الرواية السوفيتية هى كاترينا كلارك الأستاذة بقسم اللغات السلافية وآدابها بجامعة أنديانا بالولايات المتحدة ، وقد صدر هذا الكتاب في طبعتين : الطبعة الأولى ظهرت في عام ١٩٨١ ، أما الطبعة الثانية فقد صدرت في عام ١٩٨٥ ، ويقع الكتاب في ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط ويتضمن مقدمة وأربعة أبواب مقسمة الى فصول وخاتمة ملحق بها قائمة بالمراجع التي تضمنتها أبواب الكتاب وفصوله .

يتطرق الكتاب لدراسة موضوع جد هام ألا وهو « الرواية السوفيتية » أى الرواية التي تمثل إنتاج القاعدة العريضة من الأدباء السوفيت الذين تنتمى كتاباتهم الى الحقبة السوفيتية من تاريخ روسيا والتي بدأت منذ عام ١٩١٧ .

وقد وفقت المؤلفة في اختيار موضوع الدراسة ، فالرواية السوفيتية هى بحق « مفتاح وثائقى لتاريخ الثقافة السوفيتي » ، فضلا عن ندرة الدراسات الغربية التي تناولت الأدب السوفيتي ، فرغم اهتمام الغرب بدراسة الأدب الروسى الكلاسيكى إلا أن الحقبة السوفيتية من تاريخ الأدب الروسى تظل معروفة بشكل لا يخلو من السطحية ولا يتسم بالنظرة المحايدة ، فالاهتمام ـ بالدرجة الأولى ـ يركز من جانب الباحثين على دراسة إنتاج الأدباء المنشقين الذين يمثلون قلة بالنسبة للأدباء السوفيت ، بالإضافة إلى ذلك فإن دراسات الأدب السوفيتي في الغرب ـ وكما تشير المؤلفة في صدر كتابها ـ لا تخلو من لهجة ساخرة يملؤها الشك .

ومرجع سخرية الغرب ـ كما تؤكد المؤلفة ـ يرتبط بالتصور غير المنصف لدى المثقفين في الغرب الذى يرى في الأدب السوفيتي نموذجا للأدب الموجه الذى يفتقد الى

الحرية في الإبداع وتعوزه الفنية الصافية مما انحدر بالأدب عن تراثه العظيم الذى عرفه العالم في روائع تولستوى ودستويفسكى وتشيكوف وغيرهم من مشاهير الأدب الروسى الكلاسيكى .

تحدد الباحثة المنهج الذى تتبعه في دراستها للرواية السوفيتية وهو منهج يجمع بين الدراسة النقدية والتاريخية للنص ، وهذا منهج موضوعى وواقعى ، إذ يتجنب المغالاة في الدراسة الشكلية للنص ويأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخى والاجتماعى للعمل الأدبى الذى يصعب بدونه - وخاصة في مجال الرواية السوفيتية - فهم تاريخ تطورها .

وتستهدف الدراسة التى يضمها الكتاب على العرض إعطاء صورة أو إحصاء عام ديناميكى لتطور الرواية في إطار من السياق العام للثقافة السوفيتية ، وتقديم تفسير للتاريخ الثقافى لاستخدامات الرواية التى تعد أهم فنون الأدب الروسى على الإطلاق .

ويسير العرض في الكتاب على النحو التالى :

الباب الأول : الواقعية الاشتراكية قبل عام ١٩٣٢

ويعتبر هذا الباب أهم الأبواب في الكتاب وذلك للموضوعات الهامة التى يتناولها في فصوله الثلاثة : مذهب الواقعية الاشتراكية ، والبطل الإيجابى ، وكلاسيكيات الواقعية الاشتراكية في العشرينيات .

ومن المنطقى أن يتصدر الحديث عن الواقعية الاشتراكية هذا الكتاب ، فقد تُوّج هذا المذهب الأدبى رسميا على عرش الأدب السوفيتى في بداية الثلاثينيات ، ومن ثم فالفهم الصحيح للواقعية الاشتراكية يساعد على النفاذ الى الكثير من رموز الأدب السوفيتى بشكل عام والرواية السوفيتية بشكل خاص .

وقد أثار هذا الاتجاه الأدبى السائد في الأدب السوفيتى جدلا في النقد فقد اختلفت الآراء حول تحديد مفهومه وسماته ، وقد أحسنت الباحثة صنعا حين جنبت القارىء الخوض في تحليل الآراء النظرية المختلفة التى تناولت التعريف بالواقعية الاشتراكية ، فهذه المجادلات النظرية كانت ستبعث لدى القارىء شعورا بالحيرة وعدم الوضوح ، أما النماذج الأدبية التى ينعكس فيها هذا المبدأ الأدبى فهى حقا خير معين لتفهم سماته .

وكما هو معروف صدر أول إعلان رسمى عن الواقعية الاشتراكية في عام ١٩٣٢ بعد تشكيل أول اتحاد رسمى للكتاب السوفيت ، ولم تتشكل نظرية الواقعية الاشتراكية للتو بعد الاعلان عن المصطلح ، ولكن أخذت الشخصيات الهامة في الأدب وعلى رأسها مكسيم جوركى ، تجتهد في شرح هذا المصطلح وتوضيحه في خطابات رسمية ، ومن خلال مؤتمرات اتحاد الكتاب . وقد واكب تأسيس اتحاد الكتاب في بداية الثلاثينيات حالة من الجيشان السياسى والاجتماعى في الاتحاد السوفيتى كان لها انعكاساتها في مجالات الحياة العقلية المختلفة التى أبرزها تجميع الأنشطة والجماعات الأدبية المختلفة لتصب جميعها في اتحاد الكتاب الذى رفع شعار الواقعية الاشتراكية . وكما تؤكد الباحثة ، لم تكن الواقعية الاشتراكية جديدة تماما وقت اعلانها ، فقد كانت لها بدايات في العشرينيات قبل أن تقنن في الثلاثينيات ، فقد كانت هناك في العشرينيات جماعات أدبية مختلفة تطلق على نفسها أسماء « الأدب الواقعى الاشتراكى » ، « والواقعية الاشتراكية » ، و « الرومانسية الثورية » ، « الراب »*. وقد عرّف

* « الراب » هى الحروف الأولى المختصرة للجمعية الروسية لكتاب البروليتاريين .

جدانوف الواقعية الاشتراكية على أنها « خليط من أحداث الواقع وأكثر الصور بطولية » . وقد شابه هذا التعريف ما كانت تدعو اليه جماعة « الراب » من الصدق في التصوير والبطولة والرومانسية والرؤية المستقبلية للواقع . وقد أجمع معظم النقاد السوفيت على اعتبار « التفاؤل » و « التزام الأدب » « وتلبية احتياجات الجماهير » من أكثر العلامات المميزة لأدب الواقعية الاشتراكية ، وكانت الرواية هي أكثر فن أدبي انعكست فيه سمات الواقعية الاشتراكية .

بعض عناصر رواية الواقعية الاشتراكية التي أبرزتها المؤلفة :

« الحبكة الرائدة » Master Plot

إن البحث في الرواية السوفيتية يتطلب العودة الى الروايات الملهمة أو « الحبكة الرائدة Master Plot كما تطلق عليها المؤلفة ، حيث ترى فيها نماذج « كهنوتية » « ألزم الكتاب على اتباعها » ، وهذه النماذج بمثابة « الضلوع القائمة » في أدب الواقعية الاشتراكية ، وسنحاول في البداية أن نوضح ما هي هذه النماذج ؟

في كل أدب توجد عادة مؤلفات تنال حظ الشهرة والتقدير ، وفي عام ١٩٣٢ وبعد تشكيل أول اتحاد كتّاب ، بدأ الحديث عن مذهب الواقعية الاشتراكية الذي اختير ليكون راية أمام الجميع وقد أبرزت في هذا الصدد بعض الروايات الهامة والشهيرة التي تتجاوب مكوناتها مع الاتجاه الأدبي الجديد ، والتي يمكن أن تكون قدوة أمام الأجيال الجديدة من الكتاب ، وكانت هذه الروايات هي « الأم » ، « وحياة كليم سامجين » لجوركي ، و « تشاباييف » لفورمانوف و « التيار الحديدي » لسيرافيموفيتش ، « والأسمنت » لجلادكوف ، « والدون الهادىء » لشولوخوف ، « ومسيرة الآلام » « وبطرس الأول » لإلكسى تولستوى ، « والحرس الشاب » لفادييف ، « وكيف سقينا الفولاذ » لاستروفسكى . ويقدم تاريخ الرواية السوفيتية منذ بدايته في عام ١٩١٧ أمثلة لروايات كتبت قبل التأسيس الرسمى للواقعية الاشتراكية في عام ١٩٣٢ ، وصارت بعد ذلك نماذج ملهمة أو « حبكة رائدة » على حد تعبير المؤلفة ، وقد ظهرت هذه الروايات بشكل طبيعى واستمدت بعض موضوعاتها من قصص السيرة الذاتية وذلك مثل رواية « تشاباييف » لفورمانوف (١٩٢٣) ، « وكيف سقينا الفولاذ » لاستروفسكى . إذن فالنماذج « الرائدة » هى في الحقيقة مؤلفات متميزة تتوارى أفكارها وقيمها مع الأفكار الرائدة ، ومن ثم تركز عليها الأضواء كقدوة « ملهمة » ، ولذلك فإنه من الصعب التصديق على أن المؤلفات الملهمة التى ساهمت في تطوير تقاليد أدب الواقعية الاشتراكية هي « حبكة رائدة » أحكم تدبيرها من أعلى وفرضت كطقوس على الأدب .

وتؤكد المؤلفة على أنه من الصعب الحكم على الرواية السوفيتية دون الرجوع الى هذه النماذج ، فهى تعتقد بأن الكتاب قد دفعوا بشكل ما للسير على هدى هذه النماذج واتباع الكثير من رموزها ومحاكاة شخصياتها وحتى أحداثها وشكل بنيانها .

ولكن هل يعنى هذا « الاهتداء » افتقاد الرواية السوفيتية للتميز والابداع ؟

تؤكد المؤلفة على حقيقة تنوع الرواية السوفيتية وعلى طابعها الابداعى ذلك لأن الرواية السوفيتية رغم أنها تكتب ـ في بعض أشكالها ـ على هدى الرواية « القدوة » إلا أن ذلك لم يحل دون التطور الابداعى لتقاليد الواقعية الاشتراكية . وخير مثال على ذلك رواية شولوخوف الرائعة « الدون الهادىء » التى نال عليها جائزة نوبل

للأدب ، ويرجع الفضل لهذا التنوع والتمايز في الرواية السوفيتية الى القدرة الابداعية والموهبة الفردية للأدباء السوفيت ، بالاضافة الى ذلك فالعناصر المكونة للرواية نابعة من الأدب نفسه ، كما أنها تضرب بجذورها في تقاليد الرواية الروسية الراديكالية للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

« التلقائية والوعي »
« Spontaneity/Consciousness »

تعتبر فكرة ديالكتيك التلقائية والوعي حقيقة ـ كما تشير المؤلفة ـ نواة ودعامة في متن الرواية السوفيتية . وتستند هذه الفكرة إلى إمكانية إحراز التقدم التاريخي من خلال بلوغ درجة عالية من الارتقاء بالوعي وذلك من خلال ديالكتيك التلقائية والوعي ، بمعنى أنه إذا أمكن التحكم في الجانب « التلقائي » في الانسان بغية الوصول به الى أعلى درجة من الوعي فسيمكن حينئذ بلوغ التغيرات المطلوبة في المجتمع من خلال توجيه هذا الوعي نحو الأهداف ، وقد جسد الأدب هذه الفكرة خلال صورة « البطل الإيجابي » الذي يعبر عن أعلى درجة من درجات الوعي .

البطل الإيجابي « The Positive Hero »

ويعتبر البطل الايجابي ـ حقيقة ـ « حجر الأساس » في الرواية السوفيتية ، فهذا البطل الذي قد يبدو عادة إنسانا عاديا (عامل ـ فلاح ـ جندي ـ موظف) يمثل رمزا للمثل والقيم ، ويعتبر بمثابة القدوة الملهمة التي توضح « ما يجب أن يكون » . إن البطل الإيجابي هو عادة نموذج يحتذى به ونبراس على الطريق .

أثارت صورة البطل الايجابي في الرواية السوفيتية استياء الغرب ـ كما تقول المؤلفة ، فقد شاهدوا فيه « المذنب الرئيسي » في الرواية نظرا لما يتسم به من مثالية وكمال يقتربان به من صور « القديسين » على حد تعبير المؤلفة التي تمضي فتقرر أن صورة البطل الإيجابي في الرواية السوفيتية ليست بجديدة ، بل هي تكملة للبطل الإيجابي الذي ظهر في أدب القرن التاسع عشر والذي لعب دورا هاما في التقاليد العظيمة للأدب الروسي الكلاسيكي ، فقد أوضح هذا البطل نماذج للتصرف قد يمكن بأمثلتها الوصول إلى حلول لمشاكل روسيا الاجتماعية ، وقد ساعد هذا النموذج على اجتذاب اهتمام الناس الى القضايا الاجتماعية فاتجه الى تصويره الكثير من كتّاب القرن التاسع عشر ، وكان في مقدمتهم دستويفسكي وتورجنيف وتشرنيشفسكي الذي قدم في روايته « ما العمل » (١٨٦٣) نموذجا صادقا لهذا البطل . وفي هذا الصدد تؤكد المؤلفة على حقيقة تأثير الرواية الراديكالية للقرن التاسع عشر على الرواية السوفيتية ، وهو تأثير بيّن مسّ رموز الرواية وعناصرها .

حوار الأزمنة في الرواية السوفيتية

تميل الرواية السوفيتية الى إلغاء الحدود بين الأزمنة وحذف المسافة التي لا جسر لها بين الماضي الملحمي والحاضر التاريخي والحلم المستقبل . ويُحكم الروائي بناء عمله بشكل لا يسمح بالتعارض بين الماضي والحاضر والمستقبل . شاهد الغرب في هذه السمة التي تتميز بها الرواية السوفيتية نوعا من أنواع « الفصام النفسي » فقد أخذ النقاد على الرواية السوفيتية هذه الانتقالات الفجائية بين الأزمنة ، فهم يريدون أن تكون الرواية ذات بعد زمني واحد إما أن تصف الحاضر أو الماضي أو المستقبل . وتؤكد المؤلفة على أن تقاطع الأزمنة في الرواية السوفيتية لا يبدو غريبا أمام من يدركون قيمها الفكرية ، فهناك بعد قيمي يخضع للماضي الملحمي

الذي يتناول أحداثا تاريخية هامة مثل ثورة ١٩١٧ والحرب الأهلية وبعض لحظات من التاريخ إبان حكم ستالين ، وقد أصبحت هذه الأحداث بمثابة الوقت العظيم المقدس الذى يمنح الحاضر هالة من التبجيل ، كما أن وصف المستقبل والحلم بزمن سوف تكون الحياة فيه أروع من الواقع ينبع من تحديد جدانوف للواقعية الاشتراكية على أنها « خليط من أحداث الواقع وأكثر الصور بطولية » . إن الزمن الحاضر في الرواية السوفيتية يتحدد معناه خلال علاقته بالماضى الملحمى وبالمستقبل الأسطورة ، ومن ثم فالتنقلات الزمنية في الرواية السوفيتية - كما تؤكد المؤلفة - يمكن أن تشاهد « كموازٍ لما يحدث في الديالوج الأفلاطونى الذى يتحرك من الديالكتيك العقلى الى الأسطورة الوهم » .

رواية « الأم » لجوركى

تنتقل الباحثة الى تحليل رواية « الأم » التى ابرزت كأول نموذج للواقعية الاشتراكية . وكما هو معروف تناولت أحداث رواية « الأم » وقائع حقيقية حدثت بالفعل في الفولجا في أحد أعياد أول مايو (عيد العمال) .

وقد اعتبرت « الأم » نموذجا لأدب الواقعية الاشتراكية ، لما تضمنته هذه الرواية من سمات مميزة لهذا الفن ، فقد قدمت الرواية عرضا لديالكتيك التلقائية والوعى من خلال الشخصيات الرئيسية وخاصة شخصية « الأم » التى تجسد ملامح البطل الايجابى في أبهى صوره . تؤكد المؤلفة على الطابع الرمزى لشخصيات « الأم » الذى تبرزه كأحد سمات التكنيك الروائى بها ، أما السمة الثانية فتراها المؤلفة في مجموعة الصفات التى يستخدمها جوركى في وصف الأبطال التى تعبر عن نوعية خاصة من الصفات الأخلاقية التى أضفت على الشخصيات طابعا مثاليا وجعلت من الرواية مستودعا لسلسلة من الروايات المشابهة .

تتطرق المؤلفة في تحليل رواية « الأم » الى نقطة هامة ، ألا وهى ارتباطها بالتراث الكلاسيكى للقرن التاسع عشر ، فقد كانت « الأم » حقيقة بمثابة « المعبر الذى مرت خلاله العبارات الخاصة بالراديكاليين الروس الى التعبيرات المحددة للبلاشفة » فقد انعكست في « الأم » الاصطلاحات المميزة للرواية الثورية في القرن التاسع عشر وأيضا فكرة البطل المضحى بالنفس أى « البطل الإيجابى » الذى نجد الكثير من أمثاله في الرواية الراديكالية وخاصة عند تورجينيف .

الواقعية الاشتراكية في العشرينيات

تستهل المؤلفة الحديث عن أدب العشرينيات بإعطاء صورة عامة للظروف التاريخية المتاخمة لهذه الفترة . وكما هو معروف ، نشبت الحرب الأهلية في أعقاب ثورة ١٩١٧ ، وكان النظام الجديد يواجه مرحلة حاسمة ووقتا صعبا حرجا ، وقد كان لصعوبة الوقت واختلاطه السبب في تعقد التيار الأدبى في العشرينيات ، فقد تعددت الجماعات الأدبية واشتدت المعارك بينها وخاصة من جانب الجماعة الأدبية المسماه « بالراب » . وقد جاء رد فعل الكتاب على الثورة متباينا ، فبينما أيدها البعض ورحب بها ، شاهد البعض الآخر فيها أحداثا مفجعة وقابلها بالرفض ، وقد كان ازدهار الجماعات الأدبية في العشرينيات السبب في خلق أدب متنوع النسمت به هذه الفترة بالذات ، وذلك بالمقارنة بالفترات الأدبية التالية لها . ومع ذلك فرغم تنوع انتاج هذه الفترة إلا أنه - وكما تشير المؤلفة - « كان هناك الكثير من الشىء العام المشترك في أدب هذه الفترة » . وتبرز المؤلفة روايتى

« الأسمنت » لجلادكوف و « تشابايف » لفورمانوف بصفتهما من أهم مؤلفات العشرينيات .

رواية « الأسمنت » لجلادكوف

تتوقف المؤلفة بالتحليل عند رواية « الأسمنت » للأديب السوفيتي جلادكوف ، فهذه الرواية تعد من أهم الأعمال الأدبية التي تنتمي الى فترة العشرينيات . ترجع المؤلفة أهمية رواية « الأسمنت » إلى الدور الهام الذي لعبته هذه الرواية بالنسبة للفترات الأدبية التالية وخاصة بالنسبة لفترتي الثلاثينيات والأربعينيات حين أصبحت هذه الرواية بمثابة القدوة الملهمة أمام الأدباء الذين اتجهوا في أعمالهم الى وصف مرحلة البناء والانتاج ، غير أن أهمية هذه الرواية ترتبط - بالدرجة الأولى - بقدرتها الفائقة على التعبير عن معطيات ومتطلبات الفترة التاريخية التي ظهرت فيها ، فرواية « الأسمنت » تقدم نموذجا للرواية المعبرة عن ظروف فترة العشرينيات وما تضمنته هذه المرحلة من مشاكل اجتماعية وأخلاقية ، وقد تمكن جلادكوف في هذه الرواية من التعبير عن درامية الفترة التاريخية التي يتناولها في روايته وعن عنف الصراع بين القديم والحديث في تلك المرحلة .

ترى المؤلفة في رواية « الأسمنت » نموذجا لرواية الواقعية الاشتراكية في مراحلها « غير المتطورة » ، فهي في رأيها « جنين لم يكتمل النمو » . فقد انعكس في هذه الرواية ديالكتيك القوى الأدبية وما فوق الأدبية . والواقع أن هذه السمة التي تخلعها المؤلفة على رواية « الأسمنت » تكاد تكون مميزة لمعظم روايات الواقعية الاشتراكية التي ظهرت في العشرينيات ، ذلك لأن الواقعية الاشتراكية في تلك الفترة لم تكن قد أسست نظريا بعد ، ولم تكن سماتها قد تحددت تماما أمام الأدباء .

ديالكتيك « التلقائية والوعي » في العشرينيات

مع نهاية عام ١٩١٩ تغير ميزان القوى في ديالكتيك « التلقائية والوعي » لصالح « الوعي » بعد أن كان في صالح التلقائية في فترة الحرب الأهلية . وقد انعكس هذا التغير في أبطال روايات العشرينيات الذين ظهروا يتحلون بالوعي ، وذلك كما في رواية سيرافيموفيتش « التيار الحديدي » (١٩٢٤) ، وروايتي ليبيدينسكي « الأسبوع » (١٩٢٢) ، « والكوميسار » (١٩٢٥) ، ورواية فورمانوف « تشابايف » (١٩٢٣) ، وروايات فادييف « ضد التيار » (١٩٢٣) ، « الطوفان » (١٩٢٤) ، « الانكسار » (١٩٢٧) .

وقد صارت ثلاث روايات من بين هذه الروايات قدوة ملهمة « حبكة رائدة » ونموذجا للرواية التي تعكس انتصار « الوعي » على « التلقائية » وهذه الروايات هي : « تشابايف » لفورمانوف « التيار الحديدي » لسيرافيموفيتش ، « والانكسار » لفادييف .

رواية « تشابايف » لفورمانوف

تتوقف المؤلفة بالتحليل عند رواية « تشابايف » لفورمانوف التي تعد بحق من أبرز روايات العشرينيات وأكثرها عمقا في التحليل النفسي والاجتماعي للشخصيات . جسد فورمانوف خلال البطل الرئيسي (تشابايف) فكرة تغلب الوعي على التلقائية ، وقد انعكست بوضوح هذه الفكرة خلال خطوط المضمون وأحداث الرواية .

تعرضت المؤلفة لبعض السمات العامة المشتركة بين هذه الرواية وكلاسيكيات الواقعية الاشتراكية المتأخرة فأشارت الى افتقار الرواية لأسلوب السرد كما هو متبع في

الروايات المتأخرة ، ولكن يوجد في رواية « تشابايف » راو واع جدا ، وهذا الشكل يعتبر نادرا في الأدب السوفيتي المتأخر . وتخلص الباحثة في تحليل رواية « تشابايف » الى الاشارة الى « تشابك العناصر الأدبية وما فوق الأدبية » في النسيج الروائي بها .

الباب الثاني : الثقافة الستالينية العالية

تتناول المؤلفة في فصول هذا الباب تحليل أهم اتجاهات الرواية السوفيتية إبان فترة حكم ستالين التي امتدت منذ عام ١٩٢٧ وحتى عام ١٩٥٣ .

يبدأ هذا الباب بمقدمة تتناول فيها المؤلفة الظروف التاريخية المصاحبة لهذه الفترة التي أعقبت المرحلة الأولى من خطة البناء التي جاءت في أعقاب الحرب الأهلية .

تنطلق الباحثة في تحليل موضوعات الرواية في تلك الحقبة استنادا إلى المفاهيم والأفكار الرائدة آنذاك التي لعبت دورا في تشكيل موضوعات الرواية ، فتؤكد على الحضور النافذ لموضوع « الآلة » في الرواية في فترة ستالين .

ومع نهاية الحرب الأهلية الأولى في روسيا في عام ١٩٢٠ ، اتجهت الدولة الجديدة بكل اهتماماتها لبناء اقتصاد جديد ، ورفع القادة شعار « الكهرباء » كطريق إلى الحياة الجديدة وكنهاية « للظلام » ، ورمزت الكهرباء إلى التقدم التكنولوجي وإلى المجتمع الذي يقوم على دعامة من العلم الحديث ، وأصبحت « الصناعة » و « الآلة » رموزا مرادفة للتقدم ، وافتتن قسم كبير من المجتمع السوفيتي باليوتوبيا الصناعية ، وتما الاعتقاد بأن الصناعة المتقدمة وعصر الآلة سوف يكون في مقدورهما القضاء على كل الأمراض الاجتماعية المزمنة : الهوة بين المثقفين والأميين ، وبين المدينة والقرية ، وبين الأغنياء والفقراء .

وانقسم المثقفون في مشاعرهم تجاه الآلة ، القسم الأكبر كان يشجع الهيام بالآلة ، والقسم الآخر تكون لديه خوف إزاء زحف الآلة والتكنولوجيا ، وقد انعكس هذا الخوف ـ بشكل خاص ـ في إنتاج أدباء التيارات التجديدية والشكلية التي ترعرعت قبل الثورة واستمرت لسنوات بعدها .

ورغم أن المجتمع السوفيتي قد استمر في إعطاء التصنيع والآلة مكانة هامة ـ وقد فعل ذلك حتى يومنا هذا ـ إلا أن رمز الآلة لم يستطع أن يصمد لمدة طويلة ، إذ لم تستطع « الآلة » أن تحيط بالتغير وبالتطور التاريخي وأن تؤسس الشرعية ، وأن تعبر عن مفاتيح الفكر السائدة ، ومن ثم فإن الهيام « بالآلة » لم يصمد طويلا في الأدب ، وأخذ عالم « الطبيعة » يزيح من أمامه عالم « الآلة » ، وبدت الطبيعة هي الملاذ من العالم الحضري ، فكثرت عدد الروايات التي تتغنى بمدح الطبيعة وتصور أبطالها كمغامرين في عالم الطبيعة . وحتى في الروايات التي كان يتناول فيها موضوع الرواية وصف المصنع ، فإن الكاتب كان لا يعدم الوسيلة لاستحضار « الطبيعة » إلى عالم « الآلة » ، فقد أصبحت هذه « الطبيعة » منبعا استعاريا غنيا بالنسبة للكتاب .

الإنسان والطبيعة

تبرز المؤلفة موضوع المواجهة بين الإنسان والطبيعة على أنه أحد أهم الموضوعات التي تطرقت إليها رواية الثلاثينيات .

رمز صراع الإنسان مع الطبيعة (الإنسان السوفيتي والجليد) إلى معنى من معاني صمود الإنسان ضد القوى التي تعترض طريقه فيتغلب عليها بالإرادة والتصميم . اتخذت دراما صراع الإنسان ضد الطبيعة رمزا « للقتال » ضد الأعداء الداخليين والخارجيين ، فكان الكتاب يلجأون إلى التعبير عن هذا « القتال » خلال

تنوع الصراع مع الطبيعة ، وقد ظهر هذا الاتجاه بوضوح في كلاسيكيات الرواية في الثلاثينيات التي تناولت أحداثا تاريخية مثل رواية استروفسكي « كيف سقينا الفولاذ » . تؤكد المؤلفة على المكانة المتميزة التي شغلتها الطبيعة في رواية الثلاثينيات ، حين كان هناك إدراكان للطبيعة : الطبيعة كحديقة للتآلف ، والطبيعة كساحة للصراع مع القوى الأولية .

« العائلة الكبرى » في الرواية السوفيتية

ويبرز موضوع « الحرب » - حقيقة وكما تؤكد المؤلفة - كأحد أهم الموضوعات التي تناولتها الرواية السوفيتية في الثلاثينيات ، وقد ارتبط الموضوع بالأحداث التاريخية الهامة التي خاضتها روسيا في العقدين الأولين من هذا القرن (الحرب الروسية اليابانية ، الحرب العالمية الأولى ، ثورة ١٩٠٥ ، ثورة ١٩١٧ ، الحرب الأهلية) ، وقد أسهم العزف على وتر الدفاع عن الوطن إزاء المخاطر على بلورة عملية الالتحام الشعبية وتأسيس فكرة المجتمع « كعائلة » كبرى يجب أن يتضافر فيها « الأبناء » ضد الصعاب ، وذلك تحت زعامة « الآباء » . وأصبح الوداد مع « العائلة » الأم يجُبّ الوداد مع العائلة الحقيقية القائمة على رابطة الدم ، فإذا تطلب الأمر الاختيار بين العائلتين فإن الاختيار يحسم لصالح « العائلة » الكبرى وتنبذ رابطة الدم من أجلها .

وقد تجسدت فكرة « العائلة الكبرى » (الآباء والأبناء) قبل منتصف الثلاثينيات في رواية استروفسكي الرائعة « كيف سقينا الفولاذ » وهي الرواية التي ترى بها المؤلفة خير تجسيد لملامح محددة من الثقافة الستالينية . فالرواية تتغنى بمدح الحرب الأهلية ومعاني النضال والبطولة وإرادة البلاشفة ، ولكن - وفوق كل شيء - تمد الرواية بقصة « حياة بطولية كاملة يمكن أن توظف كمثال للآخرين » ، وهذه الرواية تعد مثالا واضحا للاتجاه لصنع « الأبناء » ممن هم أقل في القامة السياسية ، وقد أصبح بطل رواية « كيف سقينا الفولاذ » (كورتشاجين) نموذجا للشخصية التي يجب أن يحتذى بها الناس . ونشير في هذا الصدد إلى أن فكرة « العائلة الكبرى » التي تبرزها المؤلفة كانت ترتبط في تلك الفترة بمفهوم آخر هام ، ألا وهو ضرورة إخضاع الفردي للعام كضرورة لإتمام مرحلة البناء التي أعقبت الحرب الأهلية .

تخلص الباحثة في تقييمها لفترة الثلاثينيات التي تقدمها في إطار ما أسمته بالثقافة الستالينية . إلى أنه في تلك الفترة كان هناك نسقان للواقع : عادي وفوق العادي ، وبالمقابلة نسقان للكائنات الحية والزمان والمكان . وتظهر قيمة الواقع العادي خلال تصويره لبعض أشكال الواقع الأعلى وجوهر المثال ، وحينئذ تصبح المعالم بين الرواية والحقيقة غير واضحة ، ومع ذلك فقد اتسم الأدب بالمقاومة بين « الأدبي وما فوق الأدبي » ، فكان هناك رد فعل مضاد ضد « الرواية الصناعية » ، وقد تطرق الأدب للدروس الموضوعية بهدف إبراز قيمة العمل الجماعي ، ونادى النقاد بأدب عن الناس يتناول « النمطي في الواقع » .

الفلكلور في أدب الثلاثينات

يشغل الفلكلور - حقيقة وكما تشير المؤلفة - مكانة هامة في أدب الثلاثينيات ، لعب الأديب مكسيم جوركي دورا كبيرا في إحياء الاهتمام بالفلكلور خاصة بعد عودته من الخارج في عام ١٩٣٢ ، فقد نادى جوركي بأدب يتخذ نماذج لأبطاله من الفلكلور . وقد نتج عن هذه الدعوة الاهتمام بجمع تراث الفلكلور وظهور عناصر الفلكلور في قصص السيرة الذاتية للزعماء

زواج الأدباء بين الفلكلور وبين الواقعية الاشتراكية ، وأصبح الأبطال أوسع من الحياة ، وأصبحت مآثرهم أكثر أسطورية ، وأصبحت لغة النص أكثر استعارية .

غير أن التوجه إلى الفلكلور من أجل إضفاء الشعبية والانتشار على الأدب لم يكن جديدا ، فقد كان هذا التقليد أحد ملامح الأدب الشعبي في القرن التاسع عشر . إلا أن وظيفة الفلكلور بالنسبة لأدب الثلاثينيات هي وظيفة مغايرة ، فقد كانت تتسق هذه الوظيفة مع المسئوليات التي طرحها الأدب الجديد ، فإلى جانب الوظيفة الجمالية أسهمت عناصر الفلكلور في تقريب مادة « الحقيقة » والمادة « الروائية » وساعدت على الإمداد بكلمات وسيطة لتوصيل الإدراك الجديد بالواقع .

بالإضافة إلى ذلك فقد لعبت عناصر الفلكلور دورا آخر هاما ، فقد حثّت على نبذ كل ما هو دنيوي وعابر ، وقد كانت هذه الدعوة بمثابة مذهب ديني جديد للخلاص وإعادة الميلاد ، وكان هذا المذهب في حاجة إلى لغة جديدة ، وقد وجدت هذه اللغة في الفلكلور الذي لعب دور الوسيط لإبلاغ هذا المذهب .

ـ الباب الثالث : تحليل لرواية سوفيتية تقليدية

تؤكد المؤلفة على الحرية النسبية التي أصبح يتمتع بها الأدباء بعد العالمية الثانية ، صحيح أن الادباء مازالوا وثيقي الصلة بنموذج الرواية « القدوة » ، إلا أنه كان هناك حيز متاح للحركة أمام الموهبة الإبداعية للكتّاب وأمام القدرة الخلاقة لهم . ولذا يستطيع المرء أن يجد حدا للأعمال الأدبية التي حافظت على صفاء الفن الروائي ، ومثال على ذلك رواية ألكسندر فاديف الشهيرة « الحرس الفتى » وهي الرواية التي ترى فيها المؤلفة « أحد أروع نماذج الواقعية الاشتراكية من منظور نوعيتها الأدبية » . وقد اعتبرت هذه الرواية رواية رائدة بالنسبة لأدب الأربعينيات ، وحصلت على جائزة أدبية من الدرجة الأولى في عام ١٩٤٦ .

وكما هو معروف ، تناولت رواية « الحرس الفتى » أحداثا واقعية مستمدة من قصة المقاومة الشعبية في منطقة كراسنادور في روسيا وقت احتلالها بالقوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية . وتوضح الرواية قصة التعذيب والمعاناة التي عاشها أعضاء إحدى جماعات المقاومة التي كانت تستعد لهجوم ضد الألمان واكتشف أمرها في آخر لحظة ، وقد منح أبطال المقاومة لقب البطولة عرفانا لاستبسالهم في التضحية بالنفس .

« الموت » و « الحب » و « النذالة » في الرواية الستالينية

تعد فكرة الفداء بالنفس من الرموز الهامة في الرواية في فترة حكم ستالين . إن « الموت » هو التضحية السامية ، التي يقدمها الشهيد من أجل الوطن والمواطنين ، وقد نبعت أهمية التضحية و « الموت » في سبيل حياة الآخرين من مضمون الأحداث التاريخية الجسام التي واجهت مصير روسيا منذ مطلع هذا القرن وحتى الحرب العالمية الثانية ، فقد ارتبطت هذه الأحداث بالدرجة الأولى بالتضحيات الإنسانية وهذه اللحظات التاريخية المصيرية تتوارى في الإدراك السوفيتي مع لحظات أخرى عظيمة مرتقبة في المستقبل . ومن ثم أصبح « الموت » قيمة رائدة في الأدب السوفيتي . وقد ورث الأدب السوفيتي هذه القيمة عن تراثه الكلاسيكي العظيم في القرن التاسع عشر ، فقد كانت نغمة « شهيد الواقع » ، و « شهيد التاريخ » من النغمات المميزة في

الأدب والنقد الروسي ، وكثيرا ما كانت تنتهي حياة البطل في رواية القرن التاسع عشر بالموت في المنفى أو السجن أو بالالتهاب الرئوي ، وكلها نهايات تؤكد على فكرة البطل الشهيد ، وقد نقل البلاشفة هذه القيمة الخاصة بالحكمة الراديكالية إلى فكرهم ، وظهرت هذه القيمة في رواية « الأم » ، وتباعا في مؤلفات الأدب السوفيتي واقترنت بالسير الذاتية للزعماء في التجربة السوفيتية ولعبت دورا رئيسيا في روايات الثلاثينيات والأربعينيات .

تؤكد المؤلفة على المكانة الخاصة التي تشغلها « التضحية » في الثقافة الستالينية حيث ترتبط « التضحية » بفكرة إضفاء الشرعية على الزعامة وعلى أحداث الواقع . أما « الحب » في رواية الثلاثينيات والأربعينيات فهو يشغل مكانة « هامشية » ، وهو لا يعتبر « قيمة » في حد ذاتها بالنسبة للأبطال ، فهو قد لا يعدو كونه وسيلة تساعد البطل على بلوغ الهدف أو « الوعي » ، ويتخذ الحب في الرواية الستالينية شكلا روحيا خالصا ، فالفتاة بالنسبة للبطل هي رفيقته الروحية وشريكة أفكاره .

أما « النذالة » أو « الدناءة » فتجد تجسيدا لها في صور الشخصيات السلبية التي تظهر في الرواية كأعداء للوطن يجب أن يقهروا ، وأن يطهر الوطن من شرورهم . إن مثل هذه الشخصيات هي تجسيد للطفيليين الذين يهددون كيان « العائلة » ، ومن ثم فإن شجاعة الأبطال تتجلى في القدرة على إقصاء هؤلاء الطفيليين والقضاء على تهديدهم .

الباب الرابع : الرواية السوفيتية منذ الحرب العالمية الثانية

تورد الباحثة في بداية هذا الباب وصفا عاما للظروف التاريخية والمناخ الأدبي لهذه الفترة ، فتشير إلى أن الروس قد خرجوا من الحرب منتصرين ، لكن تكلفة النصر كانت باهظة ، فقد خربت الحرب الكثير من منشآتهم ومصانعهم وأنهكت اقتصادهم ، وفوق كل شيء ضحوا بعشرين مليون نفس . .

شهدت الأربعينيات بداية الحرب الباردة والعودة إلى الصرامة . وقد كان الوقت صعبا بالنسبة للمثقفين ، وهذه الفترة تمتد في السنوات (١٩٤٤ - ١٩٥٣) ، تعد مرحلة أولى فيها وصف « بدوبان الجليد » . ثم تأتي الفترة الثانية بعد الحرب التي تطلق عليها المؤلفة فترة خروشوف وتمتد في السنوات (١٩٥٣ - ١٩٦٤) . عرف عن هذه الفترة تميزها بالمناخ الديموقراطي بالمقارنة بمرحلة ستالين ، فقد قضت هذه الفترة على الكثير من تجاوزات ستالين السياسية ، وأفرجت عن كثير من المعتقلين السياسيين ، وكفلت حرية أكبر للكتاب والمثقفين . وقد بدت هذه التغييرات « درامية للغاية » . أما الفترة الثالثة - حسب تأريخ المؤلفة - فتمتد من عام ١٩٦٥ وحتى يومنا هذا ، وهي فترة ما بعد خروشوف .

تشير المؤلفة إلى وجود وحدة بين الفترات الثلاث المذكورة من جهة الموضوعات المطروحة في الأدب والتي كان من أهمها : كيف يعيش الفرد ؟ ما هو الصدق الفني ؟ من هو المثقف الحقيقي الممثل لكل فترة من الفترات الثلاث ؟

احتفظت بعض الموضوعات الخاصة بفترة الثلاثينيات بمكانة في الأربعينيات وذلك مثل موضوع « الآباء والأبناء » ، وبعض عناصر عصر « الآلة » . وقد لقبت الأربعينيات في بعض التواريخ الأدبية باسم فترة جدانوف نسبة إلى المتحدث الرسمي لشئون الثقافة الذي أكد في هذه الفترة على ضرورة الحفاظ على أسس الواقعية الاشتراكية والحرص على « نقائها » والاهتداء

بروايايتها الرائدة مثل رواية « الأسمنت » لجلادكوف ، و « كيف سقينا الفولاذ » لاستروفسكي .

ومع نهاية فترة الأربعينيات تغيرت بعض رموز الثقافة نظرا لتغير اهتمامات هذه المرحلة التاريخية فقد دخلت روسيا في هذه الحقبة في سباق مع الغرب في مجال الفضاء والمخترعات العلمية ، وقد انعكست هذه الاهتمامات على الأدب فظهرت رموز جديدة ترتبط بمعاني الثقافة ، العلم ، الفكر ، الفن ، التكنولوجيا ، واهتم الأدباء برسم صور الأبطال الجدد من العلماء والمخترعين والمبدعين ، وبات مسرح الأحداث في الأعمال الأدبية يأخذ مكانه في المعاهد العلمية ومراكز الأبحاث بدلا من المصانع والمزارع التعاونية ، كما ظهر في ثلاثية كافيرين « الكتاب المفتوح » (١٩٤٩ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٦) وأيضا رواية تريفونوف « الطلبة » (١٩٥٠) وغيرها من الأعمال التي تناولت وصف حياة العلميين .

وبات واضحا أن هناك تغيرا واضحا في القيم في السنوات التي أعقبت الحرب ، فقد عمقت تجربة الحرب من ثقة الناس بالنفس واعتقادهم بأن تجربة الحرب المريرة كان لها تأثير إيجابي على تقوية صلابة الإنسان وقدرته على الصمود ، وقد استحوذ هذا الشعور ليس فقط على الجنود الذين عركوا الحرب في الميدان بل أيضا على الزوجات اللاتي قاسين العمل في الجبهة الداخلية ، ومرارة الوحدة ورحيل الزوج إلى المعركة ، ومن أبرز أمثلة الرواية التي انعكس بها هذا الاتجاه رواية الأديب بومينوف « شجرة البتولا البيضاء » (١٩٤٧) .

الرواية في عهد خروشوف :

تميزت الرواية منذ عام ١٩٥٣ وبعد موت ستالين بالتنوع في الموضوع والنزعة الليبرالية التي تتضح من خلال الخط النقدي الواضح لهذه الروايات وظهور أبطال « غير مقتنعين » ، فقد سقط بطل الثلاثينيات الملجم بالمثالية في الرزائل والمعاصي في أدب الخمسينيات ، وكان ذلك انعكاسا للدعوة التي ترددت في الأدب بضرورة تصوير « الحقيقة » .

شهد أدب الخمسينيات اهتماما كبيرا بالإنسان الصغير وبتصوير العالم الداخلي لهذا الإنسان ، وبرز على السطح موضوع الحدود بين الفردي والعام ، بين احتياجات الدولة وخصوصيات الفرد . ومن أمثلة الرواية ذات الاتجاه الراديكالي تتوقف المؤلفة عند رواية الأديب ريدينتسف « ليس بالخبز وحده » (١٩٥٦) ، وهي الرواية التي تناولت وصف معاناة أحد المخترعين الذي يقابل اختراعه الجديد بالجحود والنكران ، مما يدفعه إلى التصدي للدفاع عن اختراعه ، فيخوض صراعا من أجل تأكيد حقوق هذا الاختراع ، لكنه يهزم ويزج به في السجن . وترى المؤلفة أن شخصية البطل المخترع تعيد إلى الأذهان صور الأبطال الشهداء في الرواية الراديكالية للقرن التاسع عشر وهم الأبطال الذين كانت تنتهي حياتهم بالسجن أو بالنفي .

شهدت فترة نهاية الخمسينيات رد فعل مشابه لذلك الذي حدث في الثلاثينيات حين تمرد الأدب على رموز « الآلة » وواجهها « بالحديقة » ، فقد ترددت في فترة نهاية الخمسينيات الدعوة إلى العودة إلى « الحديقة » وإلى « العاصفة » الرومانسية . وقد تجاوب الأدب مع متغيرات الواقع الجديد فانعكست به نفحات التغييرات الجديدة خاصة بعد أن أطلق الاتحاد السوفيتي سفينة الفضاء سبوتنيك في عام ١٩٥٧ ، فمنذ ذلك الحين أصبحت موضوعات الفضاء في الأدب موثيقة تدعو إلى الفخار القومي وأصبحت علوات السماء ونجومها نغمات دارجة في الأعمال الأدبية .

ومنذ عام ١٩٥٦ فقد موضوع « العائلة الكبرى حيويته » خاصة بعد فضح مساوىء رب العائلة الكبير ستالين وبعد أن أشيحت تصرفاته . واستبدل الموقع معه موضوع « رواية الشباب » التي ظهرت لأول مرة في عام ١٩٥٦ وهي الروايات التي بلورت من جديد خلال أبطالها فكرة (التلقائية والوعي) . إن بطل رواية « الشباب » هو عادة شاب في سن المراهقة ما ليث أن أنهى فترة الدراسة في المدرسة وهو يهجر مدينته (عادة موسكو أو لينتجراد) ، ويسافر في رحلة مع أصدقائه إلى أحد معسكرات الكشافة أو العمل الموجودة بعيدا جدا في مدن صغيرة نائية في الضواحي حيث تبدو الحياة أكثر نقاء ، وحيث تتاح له فرصة المشاركة في عملية « البناء والإنتاج » في هذه المدن . وبعد أن يخوض التجربة يقرر البقاء هناك ، ويهجر مدينته الكبيرة . إن رحلة البطل من التلقائية إلى الوعي تنجز خلال الرحلة من المدينة « الزائفة » إلى الواقع « الحقيقي » الذي يستقر به . ومن الأمثلة الناصعة لهذا النوع من الروايات اكسينوف « تذكرة الى النجوم » (١٩٦١) ، وأيضا رواية الأديب كوزنيشوف « بقية الأسطورة » (١٩٥٧) .

هل فقد الفردوس ؟

تعرض المؤلفة في هذا الفصل من الباب الرابع لأهم الموضوعات الرائدة في النثر السوفيتي وخاصة الرواية في فترة الستينات والسبعينات .

مع الستينيات المبكرة بدا للجميع أن هناك « نثرا جديدا » يشق طريقه في الحياة الأدبية في الاتحاد السوفيتي ، وذلك من خلال أعمال بيتوف واكسينوف أبرز ممثلي الموجة الجديدة .

كان أعضاء هذه الموجة الجديدة يتطلعون الى أن « تلحق روسيا بمن سبقوها » في الغرب ، وقد قوبل هذا « النثر الجديد » بشيء من التحفظ من قبل الناشرين ، وكان رد الفعل هذا يرتبط بالتحفظ العام تجاه « التجريب » .

وإلى جانب تيار « النثر الجديد » كان هناك أيضا الكتاب التقليديون أمثال شوشكين وجنكيز ايتماتوف ممن كانت تحظى أعمالهم بانتشار واسع .

في عام ١٩٦٤ نُحِّيَ خروشوف ، وتربط المؤلفة بهذا الحدث « نهاية الليبرالية الثقافية » . وفي الوقت الذي بدأ فيه المثقفون الروس الاتجاه إلى إثراء وتطوير تقاليدهم الذاتية ، في ذلك الوقت بدا العالم الأدبي مقسما أكثر مما كان في وقت خروشوف . وقد كان التغير في المناخ الاجتماعي والسياسي السبب في لجوء عدد من الكتاب والمثقفين الى الخارج ، والى النشر الذاتي غير المعلن (سام ايزدات) (تام ايزدات) . قدم هؤلاء المثقفون في أعمالهم التي كانت تتخذ أحيانا شكل المقال نقدا للمجتمع يستمد في بعض الأحيان مادته من حياة المعتقلين والمعارضين ، وكانت بعض هذه الأعمال تجريبية الطابع ولكنها جميعا كانت تشابه تيار الأعمال السائدة من جهة طابعها الإرشادي .

إتسمت أعمال الغالبية من الكتاب السوفيت ـ سواء من هاجروا خارج الوطن أو نشروا خلال قنوات غير رسمية ـ بنبذ الغرب ، وبالدفاع عن القيم الروسية الحقة ، كما تلونت هذه الأعمال « بالنغمة العادية للسامية » .

ورغم ما يبدو من تنوع في الأدب السوفيتي خلال الخمس عشرة سنة الماضية ، إلا أنه كان مايزال يشتمل على بعض السمات العامة المشابهة لتلك التي كانت سائدة في الفترة الأدبية إبان حكم ستالين خاصة فيها

يخص الرموز العامة (الأسة / الحديقة) ، (الآباء / الأبناء) .

تتطور الرواية السوفيتية الجديدة في مناخ يسمح لها بالتحرر من القيود المحكمة لتقاليد الواقعية الاشتراكية . ويمكن الاشارة الى بعض الموضوعات المتغيرة في الرواية في الخمس عشرة سنة الماضية مثل موضوع المدينة والقرية ، ومشاكل الحياة المعاصرة ، والموضوعات المرتبطة بأحداث الحرب العالمية الثانية ، والتقييم الناقد للحقبة التاريخية من حكم ستالين وخاصة فيما يخص تجربة التعاونيات التي هوجمت بشكل خاص في رواية الأديب بيلوف « في العشية » ١٩٦٧ .

غير أن مهاجمي ستالين قد قوبلوا بتيار جديد هو « الستالينيون الجدد » ، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن عهد ستالين الذي شاهدوا فيه زمنا للفخار القومي وخاصة فيما يتعلق بأحداث الحرب العالمية الثانية . ومن أبرز أمثلة الرواية التي تمثل هذا الاتجاه رواية شاكوفسكي « الحصار » (١٩٦٨) ، وهي الرواية التي تناولت وصف حصار لينينجراد إبان الحرب العالمية الثانية الذي استمر أكثر من تسعمائة يوم .

ويمكن ملاحظة اتجاه الرواية الحديثة الى الاهتمام بالموضوعات المتعلقة بالأسرة ومشاكلها كما في رواية ف . سيمين « سبعة في منزل » (١٩٦٥) ، ورواية ي . تريفونوف « المبادلة » (١٩٦٩) . وأيضا الاتجاه إلى الفنية والولع بالموضوعات النفسية والاجتماعية والأخلاقية التي تعالج مشاكل الفرد في علاقاته بالآخرين ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك رواية ي . تريفونوف « منزل على الجسر » (١٩٦٧) ، ورواية ڤالنتين راسبوتين « عش وتذكر » (١٩٧٤) ، وهي الرواية التي حازت على تقدير أدبي كبير ، وتناولت مشكلة أخلاقية هامة ألا وهي مشكلة الجندي الهارب من المعركة وانعكاس هذا التصرف على حياته وحياة عائلته . وتتميز هذه الرواية عن روايات الستالينيين « والستالينيين الجدد » بالقدرة على النفاذ إلى « الحياة الداخلية للشخصيات » وثراء الديالوج ودراميته .

شاب الكثير من الكتابات الحديثة شعور ما بأن الوطن لم يتمكن من بلوغ العصر الذهبي المنشود « الفردوس المفقود » كما انه يبدو أنه من الصعب الوصول إليه فيما لو أعيد ترتيب الحاضر وإصلاحه ، أو أرسل الناس « بعيدا عن موسكو » إلى مكان مايزال يحتفظ بالنقاء والقيم الثورية الحقة . فموسكو حقيقة راسخة وهي مازالت الأكثر شعبية والأكثر انتشارا . ومن ثم بدأ الكتاب يقترحون رحلة بعيدة عن « موسكو » لا في المكان بل في الزمان ، وقد كانت بداية هذه الرحلات في الأدب في عام ١٩٥٧ حين خرج مؤلف الأديب سولوخين « قرية فلاديمير الصغرى » الذي يصور رحلة إلى أعماق تاريخ روسيا التقليدية ، حيث القرى الصغيرة والنجوع ، والغابات ، والكنائس .

إن رواية الستينيات والسبعينيات تقدم طيفا من الحنين إلى الماضي : فقد كان « الستالينيون الجدد » يريدون بعثا لذلك العثر « البطولي » لزمن ستالين ، حين كان الرجال رجالا ، و« الأوامر أوامر » ، وحين كان هناك احترام متبادل ، وكان البعض يريد بعثا للعشرينيات بينما البعض الآخر يتطلع الى نماذج القرنين التاسع عشر والثامن عشر وهكذا .

وفي السنوات الأخيرة عاد الكثير من الكتّاب أمثال الأديب سوخولين للتطلع لإحياء الزمن المبكر الذي قدمته روسيا الخلوية في « روايات الشباب » التي تتحدث عن إمكان التغيير في مكان ما « بعيدا عن موسكو » حيث حقيقة الكمال ، ولذا أصبحت القرية بالنسبة للأدباء تجسيدا لمعاني الشرف والكدّ والأصالة

لكل ماهو روسي حق . وقد امتزج تصوير القرية في السنوات الأخيرة ببعض الموتيفات الدينية ، وبروح النقد ، وفي بعض الكتابات غير العلمية بالبكاء على « الفردوس المفقود » ، وذلك كما ظهر في رواية مكسيموف « أيام الخلق السبعة » (١٩٧١) . وقد عاد من جديد الى الأدب موضوع « العائلة » الذي كان سائدا في ظل الثقافة الستالينية ، لكن الاهتمام هنا يوجه إلى العائلة « الصغرى » القائمة على رابطة الدم حيث يبحث الأديب عن الكمال في الروابط الأسرية .

وتعكس الرواية الجديدة سمة التقدير للماضي الذي يظهر من خلال التأكيد على التراث وعلى الهوية القومية للكتّاب ، ومن أجل تصوير الماضي يخرج الكتّاب على الضلوع القائمة للزمان والمكان في الرواية التقليدية ويستلهمون عناصر الفلكلور التقليدي والخيال العلمي ، مما جعل سمة الازدواجية في الزمان والمكان إحدى العلامات المميزة للمؤلفات الجديدة ، وخير تجسيد لهذه السمة رواية الأديب جينكيز ايتماتوف « ويطول اليوم أكثر من دهر » .

الخاتمـــة :

وتؤكد المؤلفة في خاتمة كتابها على المكانة الهامة التي يشغلها مذهب الواقعية الاشتراكية بالنسبة للأدب السوفيتي طوال الخمسين سنة الماضية ، فقد لبى هذا المذهب الأدبي احتياجات التطور الأدبي في العهد السوفيتي وليست « الواقعية الاشتراكية » بمذهب فُرض بشكل غير طبيعي على الأدب ، فهو بطبيعة النظم الأدبية لايمكن أن يفرض بشكل آلي على الأدب ، فضلا عن أن الكثير من السمات الهامة المكونة له هي امتداد لتقاليد الأدب الروسي الكلاسيكي في القرن التاسع عشر فصورة « البطل الايجابي » حجر الأساس في الرواية السوفيتية هي صورة قديمة موجودة في الكثير من روايات القرن التاسع عشر ، كما أن الحل الطوباري للمشاكل هو إحدى علامات رواية القرن التاسع عشر ، وقد صار سمة من سمات الرواية السوفيتية . وورث أدب الواقعية الاشتراكية عن الأدب الروسى الكلاسيكي الاهتمام بالموضوعات التي تصور الانسان البسيط الكادح ، كما ورث عنه الاحترام الروسى التقليدى للانسان العادي الذي تلمسه بشكل خاص في روايات تولستوي ومعظم اعمال ادباء القرن التاسع عشر . وحتى الحنين الى الطبيعة الذي يبدو للبعض « مفتعلا » هو في الحقيقة حنين قديم ميّز عواطف المثقفين الروس الراديكاليين ، وكذلك فكرة البطل الشهيد التي نقابلها في النثر السوفيتي هي في جوهرها نغمة قديمة ومميزة للأدب الروسي الكلاسيكي .

بالاضافة الى ذلك فليس بجديد أن يكون الأدب السوفيتي أدبا ارشاديا يرتبط بالأفكار السائدة ، فقد استمد الأدب الروسي الكلاسيكي قوته وخلوده من الارتباط « بالفكر » الذي يعبر عن مشاكل الواقع وآماله . فالعلاقة بين الأدب والعوامل غير الأدبية هي حقيقة - كما تشير المؤلفة - علاقة معقدة ، فمن جهة يعتبر الأدب اتجاها مستقلا له تقاليده ، ومن جهة اخرى لا يمكن أن يكون الأدب حرا تماما من العوامل غير الأدبية للثقافة الخاصة به ، فالأدب يتفاعل مع الظروف والعوامل المختلفة الخاصة بثقافته وبيئته ثم يكيف التأثير الناتج من هذا التفاعل كي يتوافق مع تقاليده الخاصة . تؤكد المؤلفة على أن موضوعات الأدب السوفيتي في الفترة الستالينية التي تتوازى مع الستالينية كاتجاه ثقافي لا تعني أن هذه الموضوعات « قد صممت في حجرات المؤتمرات لتصب في الأوعية الأدبية ولكن على العكس فالكثير من أساليب الخبرة الستالينية قد اشتقت من

نماذج أدبية ، فضلا عن أن « الحياة » ـ كما يشير أوسكار وايلد ـ « تشابه الفن » .

وتنطلق المؤلفة في تقييم طريق تطور الواقعية الاشتراكية من فكرة احتواء التاريخ الأدبي لمنتخب ثابت من العناصر وعملية طرد مستمرة لعناصر أخرى ، ولذا نجد الواقعية الاشتراكية تحتفظ بالعناصر التي تتوازى مع أفكارها الرائدة وتطرد الأخرى غير الضرورية ، وعليه فالواقعية الاشتراكية التي كانت قد بدأت تتشكل بداياتها في عام ١٩٢٠ كانت تُطوع عناصر من مختلف الاتجاهات الأدبية بما في ذلك الرمزية نفسها . لكنها كانت تلجأ الى ذلك مادامت هذه العناصر تتوائم مع الاحتياجات المحدّدة للفترة الأدبية .

لقد لعبت الواقعية الاشتراكية دورا مركزيا في الحياة الثقافية السوفيتية ، دورا ينبع من قوة أشكالها الرمزية التي تحيط بالقوى الرئيسية في الثقافة ، ومن ثم « فتاريخ الواقعية الاشتراكية ليس تاريخا للأدب السوفيتي فحسب ، بل هو عنصر منظم في كل التاريخ الروسي الحديث .

ما بعد الخاتمة :

تتناول المؤلفة في هذا الجزء الاشارة السريعة الى بعض ملامح التغير في الأدب السوفيتي في السنوات من ١٩٧٩ ـ ١٩٨٥ ، فتؤكد على الاتجاه الى إعادة تقييم أدب الستينيات والسبعينيات الذي يظهر في شيء من التحرر من خطوط الواقعية الاشتراكية ، وفي ظهور بعض الموضوعات الجديدة المرتبطة بعلاقة الشرق والغرب ، وبروز بعض النزعات القومية المعبر عنها في إنتاج أدباء القوقاز والبلطيق وآسيا الوسطى ، وأيضا في ازدهار عناصر الفلكلور . وفي السنوات الأخيرة يشار الى الأديب الكولومبي جابرييل جارسيا مركيز(*) كنموذج للكاتب القدوة .

مما سبق يتضح أن كتاب « الرواية السوفيتية » لمؤلفته الأمريكية كاترينا كلارك هو مرجع هام لدراسة الملامح المميزة للنثر السوفيتي خلال أهم فنونه : الرواية السوفيتية .

وتعكس هذه الدراسة نظرة غربية أكثر اعتدالا ، فقد أكدت المؤلفة على أن « الترانيم » الشكلية للواقعية الاشتراكية قد أثبتت تماسكا عبر الزمن لأنها كانت تقبض على أكثر الموضوعات توهجا ، وعلى المعتقدات الخاصة بالثقافة كلها ، فضلا عن كونها إمتدادا جديدا « لترانيم » الأدب الكلاسيكي في القرن التاسع عشر ، ولكن من خلال لغة جديدة ورؤية جديدة .

ونود أن نشير في هذا الصدد الى أن فترة الثلاثينيات بالذات قد تميزت بإدارة الأدب وتوجيهه ، وذلك نظرا للظروف الخاصة بهذه الفترة ، فالاتحاد السوفيتي يدين بوجوده ككيان حالي لفترة الثلاثينيات حين كانت تتم معجزة بناء قاعدة صناعية متطورة في زمن قصير جدا ، ومن اجل بناء هذه القاعدة كان ينبغي أن يعمل كل فرد بالطاقة العظمى التي يقدرها بعض الاقتصاديين بأنها عشرة أمثال الطاقة العادية . وماكان من الممكن الاعتماد فقط على الامكانيات المادية المحدودة من أجل تفجير هذه الطاقة العظمى ، بل كان لابد أيضا من أدوات روحية ومعنوية لتوليد القناعات الذاتية لدى المواطنين . وهنا يجيء دور الأدب والرواية ، ومن هنا

(*) الأديب الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز حصل على جائزة نوبل للآداب على روايته « التي يمتزج فيها الخيال بالواقع » ، وقد ترجمت بعض مؤلفاته الى العربية ومن أهمها روايته الشهيرة « مائة عام من العزلة التي صدرت عن الهيئة المصرية للكتاب في عام ١٩٨٣ ضمن سلسلة « الإبداع العالمي » .

وظف الأدب - وفي مقدمته الرواية - توظيفا محكما لخدمة الأهداف القومية التي نُظِرَ إليها على انها مسألة حياة أو موت . هذا وقد قدمت المؤلفة تأريخا وتحليلا لمراحل تطور الرواية السوفيتية في اطار من سياق الواقع وأفكاره الرائدة ، وقسمت الفترات التاريخية الأدبية انطلاقا من معيار تغير القيادات السياسية وهو معيار لا يعبر تماما عن ديناميكية الفترات الأدبية وجوهرها . وكان الأحرى التأريخ لمراحل التطور الأدبي تبعا لكل فترة مع مراعاة الأحداث التاريخية الهامة التي تشكل علامة بارزة : فالفترة الممتدة من الحرب الأهلية حتى نهاية العشرينيات لها سماتها الهامة . وكان من الطبيعي ان ينعكس مناخ الحرية في هذه الفترة في مجال الأدب حيث ازدهرت وتفاعلت وتجادلت تيارات مختلفة . ثم تجيء الفترة الثانية وهي فترة الثلاثينيات حيث أخضع الأدب لوظيفة تفجير الطاقات الروحية للإنسان لانجاز الخطتين الخمسية الأولى والثانية ، أما الفترة الثالثة فهي فترة الأربعينيات وهي الفترة التي شهدت الحرب العالمية الثانية وكانت لهذه الفترة سماتها المميزة . الخ .

لم تكشف المؤلفة عن كل أبعاد تطور الجماعات الأدبية في العشرينيات والثلاثينيات ، وخاصة في العشرينيات التي تميزت بثراء التيار الأدبي وتعقده وتوتره البادى ، كما أنها أغفلت الحديث عن طريق تطور الرواية التاريخية التي ازدهرت بشكل خاص في فترة الثلاثينيات مثل رواية « بطرس الأول » لألكس تولستوي ، وأيضا الرواية الملحمية مثل رواية « مسيرة الآلام » التي كتبها أيضا ألكس تولستوي .

* * *

تأملات في الجريمة

تأليف : جايمس ولسن

عرض وتحليل الدكتور محمود الذوادي

عالم اجتماع - جامعة لورنسيان - مقاطعة أنتاريو - كندا

المقدمة : الكتاب ومؤلفه :

جـايمس ولسـن James Wilson هـو مؤلف هـذا الكتاب . وهو أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد الأمريكية المشهورة عالميا . وبالتالي فهو ليس ذا اختصاص أكاديمي في علم الاجرام . ولكن مشاركاته العديدة في البحوث واللجان حول ظاهرة الجريمة والوقاية منها في المجتمع الأمريكي منذ الستينيات أكسبته تجارب وأفكارا ضمّنها كتاب « تأملات في تجارب الجريمة Thinking About Crime » .

ولا ينبغي أن يفهم من عنوان هذا الكتاب أنه عبارة عن تأملات فلسفية بحتة حول الجريمة . صحيح أن المؤلف طالما تتهمه بعض الأوساط الأمريكية الثقافية بأنه ذو نزعة محافظة وأنه يميل الى سياسة التشدد والصرامة في تعامله خاصة مع من يسميه بصنف المجرمين الخطرين . وصحيح أيضا أنه يرجع ، من ناحية ، كثيرا من ازدياد ظاهرة الجريمة في المجتمع الأمريكي الحديث الى ضعف وتدهور أخلاقيات انضباط الأجيال الأمريكية منذ مطلع حقبة القرن وانتشار عقلية التعبير عن الذات Self Expression منذ الخمسينيات من ناحية أخرى . فعلى مستوى أول ربما يبدو ولسن وكأنه الواعظ المتأمل في الجريمة لا العالم صاحب التجربة في اللجان والمناقشات والقراءات الواسعة حول ظاهرة الجريمة . أما على مستوى ثان فالمؤلف يناقش مواضيع فصول الكتاب مستندا على معطيات غزيرة للبحوث العلمية المتوافرة في علم الجريمة حول كل قضية تطرق إليها . فمادة الكتاب دسمة من حيث المحتوى ومستوى التحاليل والمناقشات والتساؤلات التي يطرحها صاحب الكتاب . فالكتاب مرجع مهم لفهم العوامل المؤثرة في ظاهرة الجريمة بالمجتمع الأمريكي الحديث . وهو في الوقت نفسه مصدر معرفي ثري بالمعطيات التي يمكن أن تستفيد منها المجتمعات الأخرى بما فيها المجتمعات العربية لا في

فهمها لبعض جذور الجريمة فحسب ، وإنما أيضا في التبصّر بأسباب نجاح أو فشل سياسات مقاومة تفشي ظاهرتي الانحراف والجريمة .

وللاستفادة الكبرى من معلومات وتحاليل هذا الكتاب حاولنا تلخيص الأفكار الرئيسة كلّ على حدة للفصول الاثني عشر . أما الفصل الثالث عشر فلم نر ضرورة في إنجاز محتواه لورود كثير من السياسات المقترحة لضبط الجريمة في الفصول السابقة .

الفصل الأول : الجريمة وسط الرفاهية : تناقض الستينيات

إن محور هذا الفصل يدور حول علاقة ظاهرة الجريمة في المجتمع الأمريكي بازدهار هذا الأخير اقتصاديا على الخصوص في الستينيات . وتبدو هذه العلاقة غريبة بالنسبة لوجهة النظر القائلة يومئذ بأن القضاء على الفقر ورفع مستوى التعليم وتحسين أوضاع السكن هي عوامل تؤدي بالتأكيد الى انخفاض نسبة الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي . وقد ساد هذا الاعتقاد خاصة بين المثقفين الليبراليين في عهد كلّ من الرئيس كندي وجونسون . إلاّ أن إحصائيات الجريمة بالولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات كانت تناقض ذلك الاعتقاد . ومن هنا جاء عنوان هذا الفصل : Crime Amidst Plenty: The Paradox Of The Sixties فنسب الجريمة لم تزدد قليلا فحسب ، وإنما بلغت نسبا عالية لم يعرفها المجتمع الأمريكي منذ ١٩٣٠ . فبعض الجرائم كان ارتفاع نسبها أكبر ما عرفه القرن العشرون كله (ص ١٤) . فجرائم القتل ازدادت من $\frac{٦,٩}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٣٦ الى $\frac{٩,٤}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٧٢ ، وجرائم السرقة ارتفعت من $\frac{٥٩,٤}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٤٦ الى $\frac{١٣١}{١٠٠,٠٠٠}$ في ١٩٦٨ . أما استعمال المخدرات فيشير المؤلف الى ازدياده عشرة أضعاف بين ١٩٥٠ و ١٩٦٤ في كل من مدينة نيويورك وأطلنطا وبوسطن . كما أن معضلة البطالة قد تفاقمت بين الشباب الزنجي (١٦-١٩ سنة) بحيث كانت نسبتها خمس مرات أكثر من نسبة بطالة الكهول في ١٩٦٨ . وهناك من يذهب الى إرجاع هذا الوضع المتردي بالمجتمع الأمريكي في الستينيات الى عامل تزايد الولادات Baby Boom بعد الحرب العالمية الثانية ، الذي أدى الى بطالة أكثر بين الشباب وتعاطي الهروين وتدهور وضعية العائلات . فالزيادة السكانية هذه بلغت في أوائل الستينيات ٢,٦ (مليونا) . ويتطلب هذا في نظر نرمن رايدر Norman Ryder عملية تنشئة اجتماعية جبارة لا عهد للمجتمع الأمريكي بها من قبل (ص ٢٣) . لكن يرى ولسن أن عامل صغر السن لا يمكن أن يفسر لوحده كل المسائل الاجتماعية التي عرفها المجتمع الأمريكي في فترة الستينيات . فهناك عوامل أخرى لابد من أخذها بعين الاعتبار في فهم ازدياد ظاهرة الجريمة مثل عامل وسائل الاعلام وتزايد تنقل الناس وضعف قوة ردع المحاكم والشرطة . وينهي المؤلف فصله هذا بتأكيده على أن سنة ١٩٦٣ يمكن اعتبارها البداية الحاسمة لتدهور وتداع خطيرين بالنسبة لظاهرتي الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي (ص ١٥) .

الفصل الثاني : الجريمة والجيرة

يعطي المؤلف أهمية كبرى هنا الى مفهوم الجيرة (Community, Neighborhood) في عملية ضبط الجريمة . فعلماء الاجتماع طالما وصفوا الجيرة بأنها ذلك

المحيط الذى يتسم برابطة تضامن قوية بين أفراده . فطريقة لباس الشخص وطبيعة كلامه (صوت مرتفع أو هادىء) واللون الذى يدهن به منزله ، والحريات التى يعطيها لأولاده في الجيرة كلها مؤشرات تدل لا على طريقة تفكير الشخص الخاصة فقط ، وإنما تعكس أيضا تأثره بما يعتبره جيرانه سلوكا سويا (ص ٢٩) . وهكذا فظاهرة تفشى الجريمة في الجيرة هي الى حد كبير نتيجة ضعف أواصر التضامن فيها . في هذا الجو الاجتماعي يصبح الأفراد لا يهتمون إلا بما ينفعهم شخصيا (ص ٢٦) . ويرى ولسن أنه بتدهور وحدة الجيرة في المجتمع الأمريكي منذ ١٩٦٠ أصبحت الجريمة والعنف من أهم مشاكل ومشاغل المبحوثين الذين قامت بدراستهم بحوث عديدة .

وفي هذا الصدد يعرض صاحب الكتاب الى ثلاث مجموعات وبيئاتها التى تعيش بها . هذه المجموعات هي : (١) المهاجرون و (٢) السكان البيض الفقراء ، و (٣) السكان السود . فلكل مجموعة مشاكلها التى لا تساعد على خلق مناخ يعزز التضامن الاجتماعى عندها . ففئة المهاجرين طالما تشكو من عدم سماكة جدران شققهم التى لا تحميهم من شغب الآخرين Walls are too thin to ensure-privacy (ص ٣٤) . أما الصنف الثاني فيسود فيه الخوف من العنف والاستلاب خاصة بين كبار السن منهم الذين لا يستطيعون مغادرة المركز القديم للجيرة Old Central City neighborhood لأسباب مالية وغير مالية .

أما السود الأمريكيون فقد أصبحوا في نظر المؤلف أكثر عزلة في العشرين سنة الأخيرة (ص ٣٥) . فأغلبيتهم مازالت تقطن داخل قلب المدينة . وليس هناك إلا أقلية من الطبقة الوسطى السوداء التى استطاعت تحاشي البقاء مع الأغلبية السوداء . فعدم توافر التجانس بين السود (مجرمين وغير مجرمين ، مدمنين وغير مدمنين ، طبقة وسطى وأخرى سفلى) وضع العراقيل أمامهم للمحافظة والدفاع على فكرة الجيرة .

وفي ضوء هذا التدهور لوسائل الضبط الاجتماعى غير الرسمية Communal Social Controls لا يرى صاحب الكتاب ـ كعدد متزايد من علماء الاجرام ـ أملا كبيرا في تعويض الوسائل الرسمية (كالشرطة مثلا) للوسائل غير الرسمية في ضبط الانحراف والجريمة . ومن ثم فالتنظيمات الحكومية الرسمية تصبح عاجزة الى حد كبير عن نشر الأمن والاطمئنان في المجتمعات التى تغلب فيها الوسائل الرسمية في تنظيم علاقات الناس ومجرى الحياة العامة في المجتمع (ص ٣٨) .

الفصل الثالث : تأملات في الجريمة

يتطرق ولسن هنا الى الزاد المعرفي الذى جمعه ويجمعه علماء الاجرام وباحثو العلوم الاجتماعية الأخرون حول ظاهرتي الانحراف والجريمة . ففي رأى المؤلف أن وجهة نظر العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع ، علم الاقتصاد . . . .) القائلة بأن ظاهرتي الانحراف والجريمة تعود أساسا الى عوامل الفقر والتميز العنصرى وغيرها من عوامل الحرمان Other Privations (ص ٤١) لا تؤيدها معطيات واقع المجتمع الأمريكي المعاصر . فنسبة الجريمة ازدادت في المجتمع الأمريكي بدل أن تنخفض في فترة ١٩٦٣ ـ ١٩٧٠ التى تحسن فيها تحسنا ملحوظا كل من مستوى دخل الفرد الأمريكي ومرافق المدرسة والمسكن لكل الفئات الاجتماعية الأمريكية تقريبا . فأشهر الكتب الأمريكية الأكادمية في علم الاجرام لا يبدو أنها تتفق مع الرأى الذى يربط بين الجريمة والظروف المادية للمجتمع (ص ٤٢) . وأشهر هذه الكتب المرجعية جميعا كتابان : (١) مبادىء علم

الاجرام Principles of Criminology لكل من إدْوِنْ سادرلند Edwin Sutherland ودنلد كراسيّ Donald Cressy و (٢) جنوح الأحداث والفرصة : Delinquency and Opportunity لرتشارد كلاورد Richard Cloward ، ولويد أهلن Lloyd Ohlin . فالمقولة الرئيسة للكتاب الأول هي كالتالي « السلوك الاجرامي هو حصيلة العمليات الاجتماعية نفسها التي يتأثر بها أي سلوك اجتماعي آخر » (ص ٤٣) « Criminal behavior results From the same processes as other social behavior » .

ومن ثم فعمل من يهتم بفهم ظاهرة الجريمة أو الانحراف عمل ذو مستويين : (١) تبيان كيف تتأثر الجريمة بعامل البناء الاجتماعي Social Structure والعمليات الاجتماعية Social Processes ، أي كيف تتأثر الجريمة بالطبقة الاجتماعية وبالجيرة وبالكثافة السكانية . . . و (٢) تفسير كيف أن الأفراد يتم جذبهم الى ميدان الجريمة (عن طريق التقليد الاجتماعي ، عن طريق الاختلاط التفاضلي Differential Association ، عن طريق تكوين الاتجاه Attitude Formation) . ومن منطلق منظورهما السوسيولجي يشن سادرلند وكراسي هجوما شرسا على النظريات غير السوسيولجية التي اهتمت بدراسة ظاهرة الجريمة مثل النظرية الكلاسكية ذات الطبيعة السيكولجية لكل من بنتهام وبكاريا Bentham و Beccaria .

إن رفضهما للنظريات السيكولجية يرجع في الأساس الى اعتقادهما في « فرض السببية الطبيعية » The Hypthesis of natural causation ، يقول هذا الفرض بأن النظريات غير السيكولجية ترى أن الجريمة ظاهرة تفرزها الى حد كبير عوامل تتعدى قدرة الفرد الشخصية .

فنظرية سادرلند وكراسي كغيرهما من النظريات السوسيولجية هي من نوع النظريات التي تبحث عن أسباب الجريمة Theories of the causes of crime في المجتمع . وهما لا يدعيان أن نظرية الاختلاط التفاضلي Differential Association ذات مصداقية لا تشوبها شائبة . وفي النهاية فنظريتهما لا تختلف عن نظريات سوسيولجية أخرى تعتبر معادية لها . فكلها تنظر الى « أن السلوك الاجرامي سلوك يتعلمه الشخص أثناء احتكاك ودي intimate interaction مع الآخرين الذين يحترم رأيهم . وهكذا تضع عملية التعلم هذه الفرد في صراع قيميّ Value Conflict مع بقية المجتمع الكبير . وهكذا فمنطلقات هذه النظرية لا ترى في الفقر ولا في التمييز العنصري (ندرة الجريمة بين اليابانيين الأمريكيين رغم تعرضهم للتمييز العنصري) أسبابا رئيسة لظاهرة الجريمة .

فنظريات جنوح الأحداث السوسيولوجية الأمريكية المشهورة في الستينيات نظريات لا ترجع أساسا ظاهرة جنوح الأحداث الى عاملي الفقر والتمييز العنصري . فنظرية عالم الاجتماع ألبرت كوهن Albert Cohen ترى أن جنوح أحداث الطبقة الاجتماعية السفلى ذو طبيعة غير نفعية Non-Utilitarian ، أي أن أعمال التكسير والتحطيم Vandalism الشائعة بين جانحي هذه الطبقة ما هي إلا تعبير عدائي ضد قيم الطبقة الوسطى المادية النفعية . فجنوح أحداث هذه الطبقة يهدف إذن الى التسلية Delinquenxy for fun لا للكسب المادي (ص ٤٤) .

وتأتي نظرية ولتر ملر Walter Miller لتضيف عدم اهتمامها بتأثير العوامل الاقتصادية كسبب رئيسي للانحراف والجريمة . فجنوح الأحداث وفقا لهذه النظرية ما هو إلا انعكاس للقيم الثقافية نفسها للطبقة

السفل مثل الرجولة masculinity ، والخشونة Roughness ، وحب الأشياء المثيرة Love of excitement ، وحب الاستقلالية Personal autonomy . فهذه القيم طالما تؤدي بشباب (وبعض الشابات) الطبقة السفلى للدخول في صراع مع قيم وقوانين الطبقة الوسطى الأمريكية .

هاتان النظريتان وغيرهما من النظريات السوسيولوجية الأمريكية لفترة الستينيات ترى أن الجماعات المنحرفين والمجرمين تتأثر كثيرا بالمجموعات الأولية مثل العائلة والأصدقاء . ورغم أن البحوث الميدانية لم تؤيد أيا من هذه النظريات . إلا أن هذه الأخيرة قد أسهمت في نظر ولسن بملاحظاتها الهامة حول ظاهرتي الانحراف والجريمة (ص ٤٥) . لكن هذه النظريات لا تصلح أن تكون أساسا لاتخاذ سياسة عملية اجتماعية بخصوص الجريمة . ومن ثم فالمشكل هنا يتمثل في خلط تحليل أسباب الجريمة بتحليل السياسية العملية لمقاومتها .

فمحاولة التعرف على أسباب الجريمة طالما تبحث عما يسميه علماء الاجتماع بالمتغيرات المستقلة Independent variables . أي تلك العوامل التي ليس لها في حد ذاتها من سبب . أما ما دعاه المؤلف بالأسباب المطلقة Ultimate causes ، فمن غير المنتظر أن تكون هذه الأخيرة موضوعا للسياسات العملية حول الجريمة . فالأسباب المطلقة لا يمكن تغييرها . فلقد أثبت علماء الاجرام بما لا يقبل الشك أن الرجال يرتكبون نسب جرائم أكبر من النساء ، وأن الشباب يرتكبون هم الآخرون جرائم أكثر (من أنواع خاصة) من الأشخاص الأكبر سنا . فعلى المستوى النظري فتلك ملاحظات قيمة .

لكن على المستوى العملي فإنها ذات نفع قليل بالنسبة للمهتمين بالوقاية من الجريمة . إذ أنه لا يمكن تغيير الرجال الى نساء ، ولا تحويل الشباب الى كهول دون المرور بمراحل ما قبل الكهولة (ص ٤٦) . ويعتقد ولسن بناء على تجربته الشخصية ـ كعضو مستشار في عدة لجان أمريكية ومنها لجنة دراسة الجريمة ـ أن هناك قلة فقط من أصحاب الاختصاص في العلوم الاجتماعية الذين يميزون ـ عند غموض الأمور ـ بين ما يعرفونه كعلماء وبين ما يعتقدونه كمواطنين عاديين . وفي رأى صاحب الكتاب فإن علماء العلوم الاجتماعية لم يقضوا وقتا كافيا في مناقشة العلاقة بين المعرفة العلمية والاعتقاد . ومن هنا ، ففشل حلول الجريمة التي نادى بها علماء الاجرام والاجتماع تعود في الأساس الى كونها حلولا ذات أرضية أيديولوجية لا علمية . ويعترف المؤلف أنه اكتشف بعد فوات الأوان أن علماء الاجرام وكل علماء الاجتماع تقريبا هم جزء من تقليد فكري Intellectual tradition ، لا يملكون مناعة ذاتية تحميهم من مطبة التسرع في تحويل آرائهم الى سياسة . إذ أن محور اهتمامات هذا التقليد الفكري تنحصر في تلك الملامح الاجتماعية التي هي الى حد كبير خارج مجال كل من السياسة العملية والعلم نفسه (ص ٦٥) . ونقد ولسن للعلوم الاجتماعية في دورها الهزيل في فهم ظاهرة الجريمة لم يعد أمرا جديدا في رأى كاتب هذه المراجعة . فأزمة هذه العلوم أصبحت في الحقيقة أزمة عامة لا تقتصر على عجزها في مدّنا بفهم نيّر بالنسبة لقضايا الانحراف والجريمة بل تتعداه الى قضايا أخرى رئيسة مثل قضايا التنمية والتخلف . ومن ثم جاءت دعوة الكثيرين الى الاستغناء عن المعرفة التي جمعتها هذه العلوم أو المحافظة عليها شريطة تأسيسها على أرضية جديدة من حيث تصور الانسان والمجتمع ، ومفاهيم البحوث والنظريات الاجتماعية .

الفصل الرابع : الشرطة والجريمة

يناقش المؤلف في هذا الفصل الاستراتيجيات الشرطية الأمريكية ومدى تأثيرها على نسب الجريمة بالمجتمع الأمريكي . فمن أنواع الشرطة التي درسها الباحثون في هذا الصدد هي : (١) شرطة المشاة Foot Patrolmen و (٢) الشرطة العاملة المكثفة العدد More Cops on the Beat (ص ٦٤) . وهي تجارب شرطية تم اختيارها على الخصوص في مدينة نيويورك .

وتفيد نتائج هذه الممارسات أن الشرطة المتنقلة Police Patrol يمكن أن تخفض من نسب جرائم الشارع (أو الجرائم الخارجية على العموم) بطريقة ملموسة على الأقل في المدى القصير . لكن بشيرولسن الى إن تجارب مدينة نيويورك لهذا النوع من الشرطة في المناطق التي يمر بها القطار النفقي Subway ، لا ينبغي تعميم نتائجها الايجابية الى الجرائم التي يشهدها الشارع العام . ولقد قامت في هذا المضمار مؤسسة شرطية The Police Foundation لتقييم مدى نجاعة الأساليب الشرطية للحماية من الجريمة . وكان أول تقييم في مدينة كنساس Kansas لما يسمى بالشرطة الوقائية المتنقلة Preventive Patrol . وتقوم هذه الشرطة بمراقبة الجريمة مشيا على الأقدام أو ركوبا للسيارة . ويعتقد أن الشرطة الدائبة التنقل وبالتالي ذات الحضور المتحرك سوف تردع من تحدثه نفسه بالاجرام أو الانحراف (ص ٦٦) . وقد صنف المؤلف الشرطة الوقائية الى ثلاثة أنواع : (١) الشرطة الوقائية Control beats و (٢) الشرطة الاستفزازية Provocative Patrol و (٣) الشرطة الاستجابية Reactive Patrol . فالصنف الأول يقوم بالوقاية من الجريمة بالطريقة العادية ، أي يتجول في سيارة واحدة في الشوارع عندما يكون غير مشغول بأمور أخرى مثل الرد على المكالمات الهاتفية . أما النمط الثاني فهو شرطة متجولة تكثف من مستوى تجوالها الوقائي بحيث تمر مرتين أو ثلاث مرات بالشوارع أكثر من الشرطة المتجولة العادية . أما النوع الثالث فله مناطق محددة يقوم فيها بعمله الوقائي ضد الجريمة . وعند إنهاء ذلك يغادرها للتجوال خارجها . ولما قام الباحث جورج كيلنج George Killing بتقييم هذه الممارسات الشرطية بعد سنة من تطبيقها ، وجد أن ليس هناك فرق جدير بالذكر بين هذه الأنواع الوقائية الثلاثة من الشرطة ، وذلك من حيث نسبة الجريمة ومستوى خوف المواطن منها ، ومدى رضاء هذا الأخير بعمل الشرطة (ص ٦٧) .

ولم تنقطع المحاولات والتجارب في هذا الميدان . ويتمثل البعض منها فيما يدعى بنموذج « الهجوم على الجريمة Crime attack model » الذي يستند على مبدأ أن أحسن استعمال لقوى الشرطة المتجولة هو في جعلها أكثر قربا ليس من المواطن وإنما من المنحرف المعروف Known offender ، أو للمكان حيث يحتمل أكثر وقوع الجريمة ، ومن ثم يمكن إلقاء القبض على المجرم حال وقوع الجريمة ، أو على الأقل منعه من إتمام الجناية . وعندما قيم نموذج « الهجوم على الجريمة » من حيث استراتيجيات عمله (مثل ارتداء الزى المدني) ، لم تكن نتائجه واضحة بخصوص التخفيف من نسبة الجريمة (ص ٧٩) .

ويذكر المؤلف في النهاية ما أطلق عليه بأسلوب خدمة الشرطة للمجتمع المحلي Community Service Approach . وهي طريقة تهدف الى بناء ثقة بين الشرطة والمواطنين ، وبالتالي الى تعاون أكثر بين الطرفين ومن ثم الى انخفاض الجريمة . لكن التقارب بين الاثنين قد يجعل الشرطة غير قادرة أحيانا أن تقنع المجرمين أو الشهود الأبرياء بأنهم فعلا أفراد شرطة . ومثل هذا التعاون بين الشرطة والمواطنين قد يرفع من

معنويات الشرطة أو يحسن صورتها دون أن يحدث أى انخفاض في نسب الجريمة . ومنه يمكن القول بأن محاولة الشرطة التعرف والقرب من المواطنين قد لا تؤثر ايجابيا على نسب الجريمة كما رأينا في نموذج التجوال الوقائي . ويخلص ولسن الى القول « إن فهمنا في المرحلة الحالية لعمل الشرطة يجعل من الصعب استنتاج أية خلاصة عامة حول مقدرة الشرطة في الوقاية من الجريمة » (ص ٧٣) .

الفصل الخامس : النوافذ المهشمة : الشرطة وسلامة الجيرة

يقارن ولسن هنا بين دور الشرطة في ضبط السلوك الاجرامى / الانحرافي من جهة ودور الجيرة في ذلك من ناحية أخرى . فالبحوث حول دور الشرطة في التخفيف من نسب الجريمة تفيد ـ كما رأينا ـ أن الشرطة المتجولة ليس لها أثر يذكر على انخفاض الجريمة . ويرى المؤلف أن وجود الشرطة يخدع المواطنين بإعطائهم الانطباع بأنهم أكثر أمنا (ص ٧٦) . ومن ثم يناقش صاحب الكتاب مفهوم المجتمع المحلي المنحل Disordered Community وعلاقته بانتشار ظاهرة الجريمة . فعلماء النفس الاجتماعيون Social Psychologists والشرطة متفقون على المبدأ التالي : « إذا هشمت نافذة » ما في عمارة ما وتركت بدون إصلاح فإن ما تبقى من نوافذ العمارة سوف يلقى المصير نفسه في القريب العاجل If a window in a building is broken and is left unrepaired, all the rest of the windows will soon be broken (P. 78) . فالنافذة المهشمة هي رمز في حد ذاتها على أن ليس هناك من يهتم بسلامة الجيرة . وفي هذه الحالة فإن تكسير نوافذ أخرى لا يكلف شيئا ، وقد يصبح ضربا من المزاح لبعض الناس . ويعتقد ولسن أنه في هذا النمط من الجيرة غير المتضامنة ينتشر التخريب vandalism ، وروح عدم التدخل Don't get involved فيما يجرى فيها . كما أن ظواهر الاجرام مثل تفشي المخدرات ، وسرقة السيارات وتهشيمها ، وانتشار ظاهرة البغاء تزداد في مثل هذه الجيرة . وهروبا من جو عدم الأمن في هذا المحيط الاجتماعي يغادر كبار السن خاصة الى أماكن أخرى بحثا عن أحياء أخرى أكثر طمأنينة . فتظهر في مثل هذا المحيط المخيف أنماط سلوكية جديدة تجعل الناس يتحاشون بعضهم البعض . وهكذا تضعف وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية (ص ٨٠) ، وهو عكس ما كان يتصف به المجتمع المحلي القديم الذى كان له وسائله الخاصة في السيطرة على الجريمة داخل حدوده .

Earlier Crime Waves had a Kind of built in self - Correcting mechanism: the determination of a neighborhood or Community to reassert control over its turf .

ويتضح مما سبق أن المؤلف ـ كغيره من الباحثين ـ يرى أن الدور الأساسي للشرطة للحفاظ على النظام والأمن يتمثل في تعزيز وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية . ومن الصعب أن تصبح الشرطة البديل لذلك مهما كانت جهودها (ص ٨٣) . ويرحب ولسن بظهور حركات شعبية (تمسك بيدها قوانين حفظ أمنها) بالمجتمع الأمريكي قد يصل عددها الى ٣٥٠ حركة . ومن أشهرها حركة حراس الجيرة Cummunity Watchmen ، وحركة الملائكة المراقبون Guardian Angels . لكن المعلومات مازالت قليلة بخصوص مدى نجاح هذه التنظيمات الشعبية (ص ٨٧) في التخفيف من حدة ظاهرة الجريمة بالمجتمع الأمريكي .

إن كاتب هذه المراجعة يرى في فشل الوسائل الرسمية لضبط الجريمة والانحراف بالمجتمع الأمريكي

درسا لمجتمعات العالم العربي والعالم الثالث . فهناك اتجاه عام في هذه المجتمعات النامية الى تعصير القوى الشرطية لحفظ الأمن العام والوقاية من الجريمة . أي أن هناك جهودا متزايدة لاستعمال الوسائل الرسمية لضبط ظاهرة الجريمة والانحراف ، وذلك رغم أن فاعلية الوسائل غير الرسمية قد أثبتت البحوث تفوقها في محاربة ظاهرتي الانحراف والجريمة . ومن هنا نعتقد أنه ينبغي على هذه المجتمعات أن تنشط وتقوى من وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية عندها .

الفصل السادس : الشرطة وعلاقتها بالجيرة

يشير المؤلف أن عوائق عدم نجاح عمل الشرطة في المجتمع الأمريكي تعود الى حد كبير الى طبيعة علاقتها بالجيرة حيث تمارس عملها . ففي الستينيات طالما وصفت هذه العلاقة بأنها كانت السبب الرئيسي لانتفاضات السكان السود . فمن جهة أطلق السود الأمريكيون عبارات جيش الاحتلال ARMY OF OCCUPATION والخنازير على الشرطة . ومن جهة ثانية استعملت الشرطة عبارات « المشاغبون » risters و « الفوضويون » lawless على المواطنين السود . (ص ٩٢) ، وعندما أجريت بحوث حول العلاقة بين الطرفين تبين أن ثلث المستجوبين السود كانوا ينتقدون بشدة شرطة المدينة . ويعنى هذا أن الأغلبية السوداء لا تعادى الشرطة ، وتدل البحوث نفسها أن العداء بين الشباب (الأبيض أو الأسود ، الغني أو الفقير . . . . .) والشرطة ظاهرة منتشرة . لكن تفيد البحوث في النهاية بأن السود هم أكثر الفئات انتقادا للشرطة (ص ٩٤) . ويرى ولسن أن نظرة الشرطة للمواطنين السود تغلب عليها السلبية ، ويرجع ذلك الى كون اتصال الشرطة بالمواطن الأمريكي الأسود الفقير يفوق اتصالها ببقية فئات المجتمع الأمريكي . فالشرطة طالما تتدخل في الخصومات العائلية Family quarrels في المناطق الفقيرة ، بينما تكون مثل هذه الخصومات في الأحياء ذات الرفاهية إما ذات طبيعة غير تهديدية أو أنها تبقى مستترة عن الرأى العام (ص ٩٦) . وأجمعت الشرطة السوداء والبيضاء على السواء بأن المجموعات الأكثر شغبا يمكن ترتيبها كالتالي : (١) الأغلبية السوداء most Negroes (٢) أغلبية الكهول الشباب most young adults و (٣) أغلبية المراهقين most adopescents . ويرجع صاحب الكتاب انبتار العلاقة بين السود والشرطة الى عامل اللون وظروف الحياة في محيط السود .

ويبدو أن الكراهية بين الجانبين تعود الى الواقع الاجتماعي السائد بينهما ، وليس الى صفات أو اتجاهات شخصية عند الطرفين . وتتمثل بعض ملامح الوضع الاجتماعي هذا في تناقض توقعات المواطنين مع توقعات الشرطة . ففي جريمة سرقة الممتلكات (كالتلفزيون مثلا) يود المواطن من جهة استرجاع بضاعته ، بينما يرى الشرطي من جهة أخرى صعوبة امكانية ذلك (ص ١٠٠) . فالمواطن يتمنى أن تقوم الشرطة بالبحث السريع والصارم بينما تجد الشرطة نفسها لا تملك القدرة التي تسمح لها بالقيام بمثل ذلك البحث لعدم توافر الوقت والامكانات .

وليس هناك في الحقيقة من عامل يثير العواطف ويقسم الآراء في المجتمع والجيرة أكثر من عامل لجوء الشرطة الى قتل المواطنين The Use of deadly Force أحيانا .

فتدل الاحصائيات أن نسبة المقتولين بهذه الطريقة تتراوح بين ٣ و ٤٪ . وللتخفيف من حوادث القتل التي تقوم بها الشرطة يرى صاحب الكتاب ضرورة اتخاذ سياسات صارمة بخصوص شروط إطلاق النار على

المواطنين . ومن ثم يدعو ولسن الى تقييم السياسات الحالية . فكل أقسام الشرطة تعترف بحق الشرطي في اطلاق النار على أي شخص اذا كان ذلك للدفاع عن نفسه in self-defense أو عن الآخرين . وصعوبة أخذ قرار حاسم وواضح في هذا الميدان ترجع الى سببين :

(١) أي المعايير يجب استعمالها للتيقّن بأن حياة الشرطي أو المواطن (المتفرج bystander) في خطر ؟

(٢) أينبغي أن يسمح للشرطي أن يطلق النار على المتهم الفارّ ؟ هل ينبغي التمييز بين الكهل والشباب أو بين الشخص الذي ارتكب (أو يريد أن يرتكب) جريمة عنف Violent Crime ، أو الشخص الذي اقترف (أو هو في طريقه الى اقتراف) جريمة لم يستعمل فيها العنف ؟ (ص ١٠٤) . ويرى المؤلف الحاجة الى تدريب الشرطة لتصبح أكثر كفاءة في أداء عملها . فمن طريق استعمال التدريب التأهيل Sensitivity training مثلا يعتقد صاحب الكتاب أنه يمكن تعليم الشرطة موقف حل المشاكل بالتعاون مع المواطنين (ص ١٠٦) coperative problem solving بدل محاولة فرض التفوق عليهم والمحافظة على الاستقلالية الذاتية . ويخلص المؤلف الى تعداد بعض البدائل الأكثر ايجابية :

- أهمية تعاون الشهود مع الشرطة وذلك بإدلائهم بشهاداتهم في المحاكم .

- اختيار الشرطي الكفء الذي يستطيع ان ينمي حاسة المنافسة والثقة بالنفس . وهكـذا يمكن ان يتصرف في ظـروف الصراع والضغط بمرونة وبموضوعية .

- تكوين شرطة تستطيع التحكم في ظروف الصراعات والضغوط على تصرفاتها وتصرفات الآخرين وفقا للقوانين (ص ١١٣) .

- أفضل طريقة للتقليل من نسب الجريمة تتمثل في وجود سبل غير شرطية لمقاومة جرائم الشارع . وعليه فالحياة العائلية الحسنة ووجود الفرص الاقتصادية للشغل والحكم السريع للمحاكم والسجن الأكثر نجاعة . كل ذلك سوف يقلل من نسب الجريمة . ومن ثم تنقص الأعباء على الشرطة من جهة ، وتقل التوترات بين المواطنين والشرطة من جهة أخرى (ص ١١٤) .

ونتفق بهذا الصدد مع ولسن في أهمية علاقة الشرطة بالمواطنين بالنسبة لظاهرة الجريمة بالمجتمع . وفي الوطن العربي لا تكاد توجد دراسات علمية معروفة تتطرق الى هذه العلاقة الحيوية بين الشرطي والمواطن في السيطرة على الجريمة ، وذلك رغم تزايد نسب الجريمة في كل المجتمعات العربية بدون استثناء .

الفصل السابع : العقوبات والفرص

بينما يعتقد الانسان العادي أن استعمال العقوبة في المجتمع يؤدي الى انخفاض نسبة الجريمة فيه ، نجد علماء الاقتصاد والاجتماع مختلفين في ذلك فالأولون يتفقون مع المواطن العادي . أما علماء الاجتماع فيرون أن هذا الاعتقاد خاطىء من الأساس : « فالجريمة ، في نظرهم ، لاتزداد بمجرد معرفة الناس أنهم لايعاقبون على ارتكابها ، ولاتنخفض بسبب اتخاذ المجتمع سياسة متشددة مع المتحرفين والمجرمين » (ص ١١٧) . ورغم هذا التباين في وجهة النظر فان ذلك يعني أن آثار الترهيب (الردع) Deterrence منعدمة تماما بخصوص التخفيف من ظاهرة الجريمة في المجتمع . اذ أن الادعاء بأن سياسات الترهيب ليس لها أي أثر على ظاهرة الجريمة ادعاء يتناقض مع أبسط واقع الحياة اليومي . فدراسات

العلوم الاجتماعية (لعلماء الاجرام والاجتماع والاقتصاد . .) بهذا الشأن تفيد ان الترهيب ينقص من ظاهرة الجريمة في المجتمع . وأفضل الدراسات بهذا الصدد هي دراسة ألفريد بلومستاين Alfred Blumstein ، ودنيال ناجان Daniel Nagin لقد درس الباحثان العلاقة بين هروب الأمريكيين من الانخراط في الجندية Draftevasionوالعقوبات المنصوص عليها لذلك . فاستنتجا بأن للترهيب أثرا رادعا (ص ١٢٣) . وتوصلت دراسات أخرى الى النتائج نفسها رغم استعمالها لمناهج مختلفة .

واذا كان الترهيب (وهو ثمن الجريمة Costs of crime)ذا تأثير ايجابي في ضبط الجريمة ، فهناك من يرى أن الحل الأساسي لظاهرة الجريمة يتمثل في توفير فرص الشغل Job Creation للمواطنين . اذ أن ذلك يشجع الفرد على العمل ، وبالتالي قطف منافع السلوك السوى The benifit of non'- Crime ، لكن علاقة تأثير البطالة على نسبة الجريمة ليس من السهل قياس العوامل المؤثرة فيها . وتعتبر دراسة هارڤي برانر Harvey Brenner أشهر الدراسات في هذا الصدد . فصاحب الدراسة يدعي أنه وجد أن نسبة ازدياد البطالة بين ١٩٤٠ و ١٩٧٣ قد أدت الى ازدياد نسبة القتل Homocide . ولكن الباحث تحاشي ذكر وتحليل العوامل الأخرى ذات التأثير المحتمل على نسبة جريمة القتل مثل درجة يقينية Certainty ، أو شدة (Severity) عقوبة القتل ، وهي عوامل وجدها باحثون آخرون ذات تأثير مهم على جريمة القتل (ص ١٢٥) .

ويسوق ولسن بعد ذلك أمثلة من مشاريع أمريكية كان هدفها التعرف على علاقة التشغيل بظاهرة الجريمة . من هذه المشاريع مشروع The Manpower Demonstration Rescareh Corporation وهو برنامج يهدف الى مساعدة مايسمى بأصحاب المشاكل الدائمة في حقل التشغيل بحيث يتم دمجهم في اعمال حقيقية في المجتمع المدني ، ويقع تدريبهم بطريقة مباشرة على العمل بينما يتقاضون رواتب على ذلك (ص ١٤٠) . وتبين بعد سنة ونصف من دخولهم هذا البرنامج أن الأشخاص ذوي السوابق السجنية Ex - Convicts ، والمنعزلين عن المجتمع Drop outsلم يصبحوا أكثر استعدادا للشغل من هؤلاء الذين لم يشاركوا في هذا البرنامج . ودلت الدراسات أن الشباب وذوي التجارب الاجرامية المحدودة ، ومن لهم ماض في الأدمان يتأثرون ايجابيات بمثل هذا البرنامج . لكن هذه الفئات ليست هي التي ترتكب معظم الجرائم التي تزعجنا . ومن ثم يرى صاحب الكتاب أن مسألة الاصلاح ليست عملية بسيطة يؤدي فيها ـ بالضرورة ـ توفير الشغل الى انخفاض الجريمة . فطالما تتدخل عوامل أخرى تجعل الوضع معقدا بالنسبة للطرفين : مختصي برامج الاصلاح والمجرمين والمنحرفين المراد اصلاحهم . ويخلص المؤلف الى القول ، باعتقاد أن أحكم السبل لاصلاح المجتمع هو المحاولة في زيادة كل من منافع السلوك السوى benifits of noncrime ، وثمن الجريمة Costs of crimeفي الوقت نفسه (ص ١٤٣) .

فمثل هذه المعادلة لضبط الجريمة تعكس منظورا ماديا لاتكاد تتدخل فيه قيم ومعايير التنشئة الاجتماعية غير المادية . وهو موقف يختلف الى حد كبير مع رأي المؤلف في آخر هذا الكتاب ـ كما سنرى ـ حيث يرى أن تنشئة الأجيال الأمريكية على ضبط النفس قبل ١٩٢٥ كان عاملا حساسا في انخفاض نسب الجريمة بالمجتمع الأمريكي .

الفصل الثامن : السجن

يؤكد ولسن على أهمية المحافظةعلى المؤسسة السجنيةPrison كوسيلة لضبط الجريمة للحالات الثلاث التالية :

(١) الأفراد المعيدون للجريمة Recidivists . وهم يمثلون حسب الاحصائيات حوالي ثلثي كل المساجين بالسجون الأمريكية .

(٢) المنحرفون الذين لايؤدي سجنهم الى تشجيع آخرين لممارسة انحرافاتهم . فسجن السارق مثلا لاينتج عنه بالضرورة استقطاب شخص آخر لتعويضه في جريمة السرقة . فظاهرة التعويض هذه طالما تحدث مايسمى بالجريمة المنظمة Organized Crime على أسس تجارية مثل جرائم المخدرات والبغاء (ص ١٤٦) .

(٣) أن لايصبح السجن مدرسة يتصلب فيها عود اجرام السجين . وليس هناك من أدلة مقنعة بأن هذا مايقع فعلا للسجين بالمؤسسة السجنية كما يدعي البعض . فالبحوث حول دور السجن بخصوص التخفيف من ظاهرة الجريمة تفيد أن النتائج ايجابية على العموم وخاصة اذا تم سجن المنحرفين الأكثر خطرا (ص ١٥١) . لقد توصل جرينوود Greenwood ورفاقه في دراسة Rand الى حصر بعض الصفات التي تجعل من المنحرف شخصا يميل الى ارتكاب عدد مرتفع من المخالفات فحصروا مايلي : (١) شخص كثيرا مايكون قد تمت ادانته في ارتكاب جريمة قبل بلوغه سن ١٦ . (٢) أو يستعمل المخدرات المحظورة قانونيا في أثناء المراهقة (٣) أو قد مارس عملا بنسبة أقل ٥٠٪ من وقته في السنتين السابقتين (٤) أو قد أدين من قبل بسبب ارتكابه الجناية نفسها (٥) أو قد سجن اكثر من ٥٠٪ مدة العامين السابقين .

ونظرا لاشكالية التعرف بطريقة قاطعة على أخطر المنحرفين ، ينادي ولسن بالحكم بمدد سجن قصيرة بالنسبة للمنحرفين الأقل ضررا على المجتمع . ويعتقد أن ضرورة القيام بعملية انتقاد المنحرفين الذين يلزم سجنهم عملية مهمة بالنسبة لضبط الجريمة . وينهي صاحب الكتاب هذا القسم من كتاب بالتشكيك في مدى أهمية حجة معارضي السجون على أساس أن هذه الأخيرة تزداد اكتظاظا كل يوم ويرى أن السؤال الأكثر أهمية هو : أي المنحرفين ينبغي سجنهم ، وأي نوع من السجون أكثر ملاءمة لطبيعة جريمتهم ، وأي مدة سجن ينبغي أن يقضوها ؟ ويحذر المؤلف من مغبة التبني الأعمى للمبدأ القائل : « أفضل طريقة لضبط الجريمة تتمثل دائما في اصدار أطول مدة سجن على الجاني » (ص ١٦١)

الفصل التاسع : عملية الاصلاح

ينطلق المؤلف في تقييمه لتجارب اصلاح المنحرفين من التقرير المشهور للباحث روبرت مارتنسن Robert Martinson وفريقه . وتستند نتائج هذا التقرير على أكثر من ٢٠٠ مشروع اصلاح وقع تطبيقها بالمجتمع الأمريكي على المنحرفين على اختلاف أنواعهم . وتفيد خلاصة هذا التقرير بأن وسائل الاصلاح مهما كان نوعها لايبدو أنها تؤثر ايجابيا (اصلاحيا) على معالجة المنحرف . بل ان بعض التجارب الاصلاحية مثل العلاجات النفسية Psycho the rapies . قد زادت من نسبة العودة الى الجريمة Increased recidivism . يشير ولسن بأن الذي يميز تقرير مرتنسن ليس النتائج التي توصل اليها بخصوص فشل طرق الاصلاح المتعددة ، وانما الذي يميزه عن غيره من التقارير هو شموليته الفريدة (ص ١٦٢) . ومن ثم يتضح أنه لا التجربة السجنية ولامهارة المختص النفساني يمكن لهما تغيير شخصية الفرد المجرم . وهكذا فبنهاية ١٩٧٠ كان هناك اجماع من طرف العلماء والسياسيين على السواء على أن وسائل الاصلاح غير مجدية على العموم بحيث تسمح للمسؤولين باتخاذ سياسات واضحة بخصوص ضبط الجريمة في المجتمع (ص ١٦٣) .

والخلاصة من تقرير مرتنسن وغيره من الباحثين لاتعني أن ليس هناك أي برنامج اصلاحي فعال ، وانما تعني أنه لايوجد على الاطلاق أثبت أن هناك شيئا ما ذافاعلية اصلاحية .

The Conclusion that Marhinson was right does not mean that he or anyone else has proved that "nothing works" only that nobody has proved that something works (P. 167).

وبسبب كل ذلك بدأ التساؤل في المجتمع عن أهداف السجن ، وتصاعدت دعوة البعض الى تشديد عوامل الردع في نظام العدالة الجنائي . ورغم الفشل الذريع - كما رأينا - لتجارب الاصلاح ظل بعض الباحثين يحاولون تحديد سمات المنحرفين ذوي القابلية الكبرى للاصلاح . وتوصل أحدهم الى حصر الصفات التالية التي تجعل من الشخص أكثر استعدادا للتأثر بالعلاجات النفسية . ويرمز بالانجليزية لهذه الصفات باختصار YAVIN أي (شاب young قلق Anxius ، سهل الكلام Verbal ، وذكي Intelligent ، وعصابي neurotic) .

وينهي ولسن هذا القسم من الكتاب ببحوث تفيد أن الشباب المنحرفين اللذين تعرضوا الى مراقبة أشد في أثناء عملية اصلاحهم قد انخفضت نسبة عودتهم الى الجريمة recidivism أكثر من هؤلاء اللذين تعرضوا الى برامج علاجية نفسية (١٧٢) . وهذا يتماشى مع نتائج دراسةCox Murrayوفي مدينة شيكاجو التي تقول ان مايسمى بأسلوب الاستراتيجية المتسامحة مثل المراقبة المحدودة للمجرم في المجتمع المحليCommunityفشلت في احداث أي تغيير مرغوب فيه في شخصية المجرم سواء سمينا هذه التغييرات ردعا أو اصلاحا . ومنه يرى المؤلف مع بعض الباحثين الآخرين أن تشديد وسائل مراقبة المجرم في المؤسسات أو المجتمع المحلي يمكن أن تؤدي الى تغييرات أفضل أو على الأقل فانها لن تؤدي الى حدوث جنوح الأحداث الأسوأ . وفي رأي صاحب الكتاب فانه صعب أن يجد المرء حجة لاتجعله يتبع هذا النمط من السياسة الوقائية من الجريمة(١٧٧) . أي أن اتخاذ سياسة صارمة في التعامل مع المجرم أثبتت جدواها الاصلاحي أكثر من سياسات الاصلاح المتساهلة في التعامل مع المنحرف . ومثل هذا الاتجاه هو نكسة فعلا وخاصة لنظريات العلوم الاجتماعية والانسانية التي جعلت مبدأ التعاطف مع المنحرف هو الأساس في عملية الاصلاح وارجاعه سالما الى المجتمع .

الفصل العاشر : عقوبة الاعدام

يبدأ صاحب الكتاب هذا الفصل بالاشارة الى أن الأمور اليقينية المتعلقة بتأثير عقوبة الاعدام على ظاهرة الجريمة يمكن حصرها في شيئين اثنين :

(١) عقوبة الاعدام تضع حدا لارتكاب الجريمة لدى الذين ينفذ فيهم الحكم .

(٢) عقوبة الاعدام ليس لها أي أثر اصلاحي على الذين يتم اعدامهم .

أما التأثيرات الأخرى المحتملة لعقوبة الاعدام على نسبة الجريمة في المجتمع فهي غير واضحة Everything else is uncertain (ص ١٧٨) . فنحن لانعرف ما اذا كان لتطبيق عقوبة الاعدام - كما مورست بالمجتمع الأمريكي - من أثر رادع على الجناة القتلة . وليس لنا علم أيضا فيما اذا كان لهذه العقوبة أثر رادع أكبر من بعض العقوبات الأخرى مثل عقوبات السجن الطويلة . ولاندري ما اذا كان هناك تمييز عنصري في تطبيق عقوبة الاعدام بالمجتمع الأمريكي . ويعترف ولسن أننا لانملك الحقائق الكاملة بخصوص مدى وطبيعة تأثير عقوبة الاعدام .

وفي رأيه أنه من غير المحتمل أن تتضح هذه الحقائق كاملة (ص ١٨١) . وفيما يتعلق بالتعرف على العامل الردعي لعقوبة الاعدام يذكر المؤلف أول دراسة بهذا الصدد وهي دراسة ترستن سلن Thorsten Sellin الذي لايؤيد هو نفسه عقوبة الاعدام . ومن النتائج التي توصل اليها هو ودونالد كامبيون Donald Campion أن **نسبة الشرطة الذين قتلوا في الولايات الأمريكية حيث تطبق عقوبة الاعدام لاتختلف عن نسبة من قتلوا من الشرطة في الولايات الأمريكية حيث تستعمل هذه العقوبة** . ولقد انتقدت هذه الدراسات بسبب ضعفها المنهجي وتعريفها لمعنى عقوبة الاعدام (ص ١٨٢) . وأحسن الدراسات لمعرفة تأثير عقوبة الاعدام هي مايسمى بالدراسات الطويلة المدى Longitudinal Studies . ويسوق المؤلف دراسة اسحاق اهرليش Isaac Ehrlich التي حاولت اكتشاف التأثير السنوي في اختلاف عدد الأشخاص المنفذ فيهم حكم الاعدام بالمجتمع الأمريكي بين ١٩٣٣ - ١٩٦٩ على نسبة جريمة القتل . وتقول هذه الدراسة ان اعدام شخص اضافي سنويا أدى الى انخفاض سبع أو ثماني جرائم قتل في العام .

وذهب كل من ولبن Wolpin واهرليش الى أن مجرد ادانة القاتل له تأثير هام على القتلة المحتملين (ص ١٨٥) .

يتطرق المؤلف في نهاية هذا الفصل الى مناقشة عامل التمييز العنصري Discrimination وعلاقته بتطبيق عقوبة الاعدام بالمجتمع الأمريكي فبحوث العالمين مارفن وولف جانجMarvin Wolfgangوأنتني امرستردام Anthony Amersterdamوجدت أن اعدام السود المرتكبين لجريمة الاغتصاب كان سبع مرات اكثر من اعدام البيض في الولايات الجنوبية الأمريكية . أما أهم دراسة في هذا المضمار فهي دراسة جاري كلارك Gary Kleckالتي أوضحت أن أخطر قصور في دراسات التميز العنصري وعلاقته بعقوبة الاعدام يتمثل في عدم أخذ الباحثين بعين الاعتبار للملف السابق للمنحرف وعدم أعطاء أهمية الى خطوررة الجناية المرتكبة التي أدت بالجاني الى عقوبة الاعدام . ويرى ولسن أن القضاة طالما يتأثرون في أحكامهم على الجناة بالظروف الخاصة للمجرم . ومع ذلك فان الاحصائيات التي تقدمها بعض الدراسات لاتدل دلالة نهائية على غياب عامل التميز العنصري . ويختم صاحب الكتاب هذا الفصل « اذا كنا (نحن الأمريكيين) نعتبر عقوبة الاعدام موضوعا حيويا فعلينا أن ننظر اليها كقضية عدالة لاكقضية منفعة Utility ينبغي علينا أن نناقش ما اذا كانت عقوبة الاعدام أمرا مشروعا لجرائم بغيضة . وثقافتنا الأمريكية لاتجعلنا مرتاحين بطرح مثل هذه الحجج . وبتوحدنا هذا نحرم أنفسنا بطريقة غير مباشرة من مناقشة مسائل فلسفية خطيرة ، بينما نتباهى بمقدرتنا في ميدان المعرفة العلمية (ص ١٩٤) .

ومن المناسب أن تذكر هنا بعض الأسباب التي ساعدت في رأينا على الغاء عقوبة الاعدام في بعض المجتمعات الغربية المتقدمة . يمكن التطرق الى ثلاثة أسباب رئيسة :

(١)الاعدام لاينقص من الجريمة . وبالتالي يقول المعارضون لعقوبة الاعدام بأن ليس هناك فائدة ايجابية وقائية يجنيها المجتمع من تطبيق هذه العقوبة . فالحجة هنا حجة مبنية على المنفعية كما أشار ولسن أعلاه .

(٢) عقوبة الاعدام عملية بربرية لا انسانية لكونها تنتزع من الجاني حياته (وهي اعزشيء عند الانسان) التي يستحيل ارجاعها له بعد ذلك . هذا الموقف موقف وجيه على المستوى النظري لكنه متحيز على مستوى

الواقع . فكيف يجوز الدفاع عن حق الجاني في الحياة دون اعطاء المجني عليه هذا الحق نفسه ؟

فعدم معاملة الطرفين (الجاني والمجني عليه) بعدالة مطلقة تنقص من ناحية انسانية الضحية التي فقدت الحياة وتزيد من ناحية أخرى في انسانية الجاني الذي يتمتع بالحياة ، وأي معنى يبقى لمفهوم العدالة كمثل انساني أعلى اذا لم يطبق بشأن أغلى شيء (الحياة) للانسان من جهة ، وأخطر شيء له (سلبه حق الحياة) من جهة أخرى ؟ . ومن ثم فليس هناك مايبرر هذا الموقف المتحيز على أسس أخلاقية Ethical انسانية . ولعل الذي يعطي شيئا من الشرعية لهذا التحيز في هذه المجتمعات هو طرح قضية عقوبة الاعدام على أساس النظرة النفعية السابقة الذكر وعلى أساس أن قيم تلك المجتمعات تعير احتراما أكبر للكائن الحي (الجاني) . وبذلك تفصح مثل هذه القيم على طبيعتها المادية لا الانسانية .

(٣) شاع الاعتقاد في بعض المجتمعات الغربية الحديثة بأنه يمكن اصلاح المنحرفين بكل أنواعهم بمافيهم الجناة القتلة . وقد استند هذا الاعتقاد الى حد كبير على آراء ونظريات العلوم الاجتماعية المعاصرة . وبفشل سياسات الاصلاح وتزايد نسب الجرائم بما فيها جرائم قتل اطفال أبرياء بعد التمتع بهم جنسيا في هذه المجتمعات ، نادت بعض الفئات الرسمية والشعبية في كندا مثلا في صيف ١٩٨٥ باعادة عقوبة الاعدام .

وعندما يقارن المرء بين موقف بعض التشريعات الوضعية الحديثة كما رأينا وموقف الشرائع السماوية من عقوبة الاعدام يجد أن الاختلاف بينهما يتمثل أساسا في مفهومهما للعدالة . فالديانات كافة حريصة كل الحرص أن يعاقب الجاني المتعمد بمثل جنايته لا أكثر ولا أقل . ومن ثم جاء مبدأ السن بالسن والعين بالعين والنفس بالنفس . أي اعطاء المجني عليه أو أهله حق ممارسة العدالة كاملة من الجاني .

فموقف الاسلام المتمثل في « ولاتقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق يوحي بأن عقوبة الاعدام ماهي الا جزء من المفهوم السماوي الكبير للعدالة بين بني آدم .

الفصل الحادي عشر : مخدر الهروين Heroin

يعتقد المؤلف أن كثيرا من الاعتقادات السائدة حول مخدر الهروين لاتستند في الحقيقة على أرضية متينة . من هذه الاعتقادات الخاطئة اعتبار البعض أن استعمال مخدر الميثدون يمكن أن يكون بديلا للهروين ، وأن سماح المجتمع بتعاطي الهروين يؤدي الى انخفاض ملموس في جريمة النهب Predatory Crime ، وأن تشديد القوانين لمستعملي الهروين ينتج عنه ارتفاع مهول في ثمن هذا المخدر (ص ١٩٥) .

وللفئات الأمريكية المختلفة مواقف متعددة ازاء الهروين ، فالبعض يعتبر سجن مدمن الهروين عقابا . ويرى آخرون أن تعويض الهروين بالميثدون هو علاج طبيعي مناسب . وهناك فئة ثالثة تعتقد أنه من واجب المجتمع الأمريكي حق التدخل في ايقاف مضار مخدر الهروين .

ولابد من التذكير في هذا المجال أن هناك أكثر من صنف لمستعملي الهروين . فالبعض يجربه مرة واحدة ولايعود اليه البتة لأنه وجده غير ذي جاذبية . أما الفئة الثانية فهي قادرة على التخلي عنه رغم أنها وجدت في استعماله نكهة لذيذة . وأخيرا هناك عدد كبير من الأفراد الذين تنطبق عليهم فعلا صفة الادمان . ويردف ولسن أننا لانعرف بدقة عدد كل صنف من هذه الأنواع الثلاثة . ولكن تزايد المستعملين للهروين لم تؤكده منذ ١٩٦٠ شهادات الشرطة ومراقبي تجارة المخدرات فقط

والما تثبته أيضا عدد الوفيات الناتجة عن تعاطي الهروين (ص ١٩٨) .

يعرض صاحب الكتاب الى اربع نظريات لتفسير ظاهرة تعاطي الهروين بالمجتمع الأمريكي :

(١) ازدياد الدخل الفردي في فترة الازدهار في الستينيات .

(٢) تكاثر حركات الشباب المنادية بممارسة الحرية الشخصية على كل المستويات .

(٣) كانت حرب فيتنام فرصة مناسبة للجنود الأمريكيين للحصول على الهروين ، وذلك للتخفيف من حياة الملل والخوف وتدني المعنويات .

(٤) استمرار انهيار التركيبة الاجتماعية وخاصة للعائلات السوداء ذات الدخل المنخفض . وأدى هذه الوضع في نظر المؤلف الى بروز ظاهرة الشلل Street Peer groupsكحل للفرد الذي تشكو بيئته من التضامن الاجتماعي (١٩٨) .

أما علاقة تعاطي الهروين بظاهرة الجريمة فصاحب الكتاب يقول اننا لانعرف الكثير عن هذه العلاقة (ص ٢٠٤) . فالذي نعرفه الى حدما في هذا الميدان هو أن معظم جرائم مدمني الهروين تتمثل أساسا في جرائم بيع المخدرات والسرقة robbery والسطو قصد السرقة Burglary .

ويعتقد ولسن أن المناقشات التي دارت وتدور بالمجتمع الأمريكي بشأن الترخيص ببيع الهروين أن ليس هناك من يرغب في السماح ببيعها في الصيدليات أو غيرها ولايوجد من يدعو الى اعطاء الطبيب حق كتابة وصفة الهروين (ص ٢٠٧) . ولايرى صاحب الكتاب أن ترخيص بيع الهروين سوف يقلل من انتشارها بالمجتمع الأمريكي . وينادي المؤلف بتدخل السلطات الحكومية الأمريكية في قضية الهروين اذ أن ارتفاع نسبة الوفيات من هذا المخدر قد زادت كما رأينا (ص ٢١٨)

ويقترح رفع ثمن الهروين كوسيلة للتخفيض من ظاهرة تعاطيه . (ص ٢٢٠) .

الفصل الثاني عشر : الجريمة والثقافة الأمريكية

قد يكون من المفيد ـ في رأي المؤلف لفهم وتفسير ظاهرة الجريمة بالمجتمع الأمريكي أن نعكس تساؤلنا ، فبدلا من أن نبحث عن أسباب ازدياد نسبة الجريمة كما رأينا ، علينا أن نوجه تساؤلنا كالتالي : لماذا تنخفض أو تستقر نسب الجريمة في المجتمع ؟

ففي ١٧٨٧ حين اجتمع مايسمى بمزارعي الدستور The Farmers of the constitution في مدينة فيلادلفيا Philadelphia لم تكن قضية الجريمة مسألة مهمة بالنسبة للأمريكيين . وأفضل احصائيات الجريمة تفيد أن نسبة الجريمة استقرت بعد ازديادها بالمجتمع الأمريكي بين ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ . ويبدو أن مدينة نيويورك بدأ يدب فيها شعور الخوف من الجريمة ، وذلك بعد ١٨٣٠ عندما شرع البناء الاجتماعي للمدن الأمريكية في التغير .

فما يدعى بالمجتمعات الصغيرة Communities كان لها الأثر الكبير في ضبط سلوك الأفراد والجماعات في فترة ما قبل الثورة الأمريكية ، وذلك عن طريق صرامة المعايير الأخلاقية والإدانات الشعبية Public humiliations ، وانتشار ممارسة الواجبات المتبادلة .

وبالإضافة إلى هذه الملامح الاجتماعية الضابطة للانحراف والجريمة يذكر ولسن عوامل أخرى ساعدت على انخفاض نسبة الجريمة بالمجتمع الأمريكي قبل القرن العشرين :

(١) انخفاض نسبة الولادات بين ١٨٠٠ ، ١٩٠٠

(٢) التصنيع لم يؤد ، كما هو شائع ، في هذه الفترة بالذات إلى ضعف العلاقات الاجتماعية بل إلى تقويتها ، وذلك ـ حسب رأي ولسن ـ لما في نظام المدرسة والمعمل من ضبط للسلوك (ص ٢٢٧) .

(٣) في هذه المرحلة يشير المؤرخ إلياس N. Elias إلى انتشار عملية التحضر Civilizing Process ، وبالتالي إلى الإقلاع عن ممارسة العنف .

(٤) تأثير القيم الفيكتورية Victorian Values على السلوك في كل من بريطانيا وأمريكا مع مجيء التصنيع .

(٥) شهدت العقود الأولى للقرن التاسع عشر حركات دينية عرفت باليقظة الثانية الكبرى The Second Great Awakening أدت إلى تجمع الناس في جمعيات تطوعية Voluntary associations

(٦) أما ما يسمى بحركة الاعتدال Temperance Movement ، فقد كان لهذا في نظر صاحب الكتاب تأثير كبير على عملية الضبط الاجتماعي لظاهرتي الانحراف والجريمة . فتحت تأثير هذه الحركة قامت ولاية ماين Maine الأمريكية بتحريم صناعة المشروبات الكحولية . وفي ظرف أربع سنوات لحقت بها ولايات نيويورك وكنتكت وماستشوستس بولاية ماين . وأدى ذلك في نظر المؤلف الى خلق شخصية أمريكية ذات قدرة أكبر على الانضباط . ومن ثم جاء انخفاض الجريمة .

The inner life was organized around the need for self control, the delay of personal gratification, and the management of social relations on the . basis of social restraint (234)

ولكن بمجيء ١٩٢٠ انتهت فترة الضبط الذاتي والاجتماعي ، ودخل المجتمع الأمريكي فيما سماه صاحب الكتاب بمرحلة انتصار مبدأ التعبير عن الذات The Triumph of Self - Expression التي أرجعها إلى العوامل التالية :

(١) تعاطي المثقفين وسكان المراكز الحضرية للكحوليات في الأماكن العامة لاعتبارهم ذلك علامة على التحضر .

(٢) انتشار النظريات النفسية لفرويد Freud ابتداء من سنة ١٩٢٠ بين بعض الفئات الاجتماعية المؤثرة . وهي نظريات - كما هو معروف - ترى في ضبط الغرائز الإنسانية أمرا غير مقدور عليه . .

(٣) كما ساهمت في موجة التحرر الجنسي دراسات عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مرجريت ميد Margaret Mead لقبائل الصاميين Somoan Tribes حيث وجدت أن سعادة هذه القبائل مرتبطة بممارسات للحرية الجنسية (٢٣٥) .

(٤) أصبح الاهتمام في المجتمع الأمريكي بتربية الأطفال يتمثل في تنمية الشخصية Personality Development وليس في تكوين خلقه Character ، وهكذا وقع التحول في رأي ولسن من موقف ضبط الغرائز والنوازع إلى موقف إعطاء الأولوية إلى التعبير عن الذات . ويعترف المؤلف في النهاية بأن هذه العوامل لا يمكن أن تفسر كل شيء عن ظاهرتي الجريمة والانحراف في المجتمع الأمريكي الحديث . فعوامل التمييز العنصري وعنف البرامج التلفازية ، مثلا ، لابد أن تكون لها تأثير على تفشي ظاهرة الجريمة في هذا المجتمع (ص ٢٤٠) .

(١) قصور كتاب « تأملات في الجريمة » .

إن كتاب « تأملات » في الجريمة هو - كما رأينا - وصف وثائقي وإحصائي لواقع الجريمة بالمجتمع الأمريكي الحديث . كما أنه تقييم لفشل سياسات إصلاح المجرمين (أو المنحرفين) من ناحية وعجز العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة على تكوين نظريات موثوق بروحها العلمية تسهل ترجمتها إلى سياسات اجتماعية فعالة توقف أو تقلل من نسبة ازدياد الجريمة من ناحية أخرى .

إن أكثر ما يشكو منه كتاب ولسن في رأينا هو عدم طرحه لإشكالية الجريمة من خلال تصور فكري متناسق وواضح المعالم لا يسمح بالتعامل مع معطيات الجريمة الأمريكية المتعددة الوجوه فحسب ، بل يساعد في النهاية على تأسيس أطر معرفية سميكة تدفع بحركة البحث العلمي في عالم الجريمة إلى التقدم بخطا ثابتة .

ومحاولة منا لتوسيع النقاش في إشكالية ظاهرة الجريمة قررنا إنهاء هذه المواجهة « بتأملات في التأملات » نجمع فيها آراءنا الخاصة وبين بعض التيارات الفكرية الحديثة التي تعالج مسألة الجريمة والقضايا المرتبطة بها من قريب أو بعيد . وأملنا أن يسهم ذلك في فهم أكبر ، وتفسير أحسن لحيثيات الجريمة في المجتمع الإنساني الحديث على الخصوص .

(٢) ملاحظات أساسية لفهم طبيعة الجريمة

(أ) نعتقد أن أي طرح ناضج يهدف إلى فهم الجريمة كظاهرة اجتماعية يتحتم عليه الانطلاق من الأوليات . إن الفرد والمجتمع هما بدون منازع الأساسان الأولان لهذه الظاهرة . فالأول هو الذي يمكن أن ينحرف أو يجرم ، والثاني هو الإطار الذي يرتكب فيه الانحراف أو الجناية ، ففي غياب الحياة الجماعية ذات القوانين والعادات والأعراف يصعب الحديث عن الجريمة والانحراف . فبالتأكيد أن حي بن يقظان أو ربنسون كروزو لم يكن يشغله معنى الانحراف أو الجريمة كما شغل المجتمعات الإنسانية على مر العصور . فالجريمة والانحراف هما إذن حصيلة تفاعل بين هذين الزوجين (الفرد والمجتمع) .

(ب) بالنسبة لحجم الجريمة/ الانحراف بالمجتمع يمكن القول إن هناك علاقة مباشرة بين توافر درجة عالية من التضامن الاجتماعي من جهة ، وقلة الانحراف / الإجرام من جهة ثانية . فالمجتمع الذي تتعاون فيه بطريقة مثلى كل بنياته الاجتماعية وقيمه ومعاييره الثقافية ، وقطاعاته الاقتصادية وفئاته العرقية والدينية الخ . . . للعمل لصالح الجميع هو مجتمع ـ حسب تعريفنا له هنا ـ يتمتع بأعلى درجة للتضامن الاجتماعي . في مثل هذا الترابط الاجتماعي فإن طاعة أفراد المجتمع والتزامهم بما تحدده وسائل الضبط الاجتماعي فيه تصبح ممارسة شائعة بين الأغلبية الساحقة للمجتمع ، وبعبارة أخرى فإن الانحراف / الإجرام هو ظاهرة نادرة في مجتمع ذي بنيان مرصوص (تضامن وترابط اجتماعيين سميكين) يشد بعضه بعضا .

(ت) إن قوة التضامن الاجتماعي مهما كانت عالية ليست كافية للقضاء نهائيا على الانحراف / الإجرام في المجتمع . إذ لا يعرف التاريخ الإنساني مجتمعا اختفت فيه كلية ظاهرة الانحراف / الجريمة . وعليه فقوة التضامن الاجتماعي هي شرط ضروري للتخفيف من نسبة الانحراف / الجريمة ، ولكنها شرط غير كاف لاستئصال الانحراف / الجريمة تماما من الساحة الاجتماعية .

(ث) إذا كان التضامن الاجتماعي الأمثل لا يمحو الانحراف / الجريمة بصفة مطلقة ، فهذا يعني أن سلوك الشخص لا يتأثر بالعوامل الاجتماعية (عوامل التضامن الاجتماعي) وحدها ، وإنما هو يتأثر أيضا بالعوامل النفسية والبيولجية التي تشكل طبيعة بنية شخصيته كفرد . وبالتعبير الحديث للعلوم الاجتماعية يمكن القول بأن الفرد (ممثلا في شخصيته) هو متغير مستقل Independant Variable إلى حد غير قليل من حيث تأثيره على ظهور الانحراف / الجريمة بالمجتمع . وباختصار فإن مقادير الفرد لا تتحكم فيها بتعسف مقاليد وسائل الضبط الاجتماعي ، إذ أن الفرد أثبت أن

له قدرة على التأثير على المجتمع واتخاذ حتى موقف المعارض منه . ومن ثم فالفرد يؤثر في المجتمع ويتأثر به .

(ج) يتقلص حجم نسبة الجريمة بالمجتمع بوجود درجة عالية من ربط التضامن الاجتماعي فيه ، والعكس صحيح . ومن ثم فأزمة انتشار ظاهرة الجريمة بالمجتمعات الحديثة الصناعية على الخصوص هي مؤشر واضح على تردي حال التضامن الاجتماعي بها وبالتالي عجز وسائل الضبط الاجتماعي فيها على ربط الفرد ربطا وثيقا وملتزما بمجتمعه .

(ح) هذا لا يعني أن قوى التضامن الاجتماعي هي قوى قاهرة للفرد تجعل منه ريشة في مهب الرياح . فالفرد يبقى دوما ذا إمكانية في التأثير حتى على العوامل الاجتماعية القاهرة . فإن هو نشأ في محيط اجتماعي إجرامي فإن الفرد يختار في النهاية نوع الانحراف / الاجرام الذي يستجيب أكثر لحاجاته الشخصية . إن إمكاناته الفردية قد تقوده إلى ترك الانحراف / الإجرام رغم توافر فرصة في بيئته الاجتماعية . إن انسحاب الجانح الحديث The retreating delinquent الذي تحدث عنه الباحثان الاجتماعيان الأمريكيان أهلن وكلاورد Ohlin and Cloward في دراستهما [1] حول جنوح الأحداث مصداق لذلك .

(خ) الانحراف / الإجرام هو إذن حصيلة لجدلية دائمة بين الفرد والمجتمع . فالباحثون في ظاهرة الإجرام / الانحراف والمنظرون فيهما لا يمكن - في رأينا - أن تُكَلَّلُ جهودهم بالنجاح الواعد طالما ركزوا اهتمامهم على أحد الطرفين (الفرد أو المجتمع) وأهملوا الطرف الآخر .

(٣) الانحراف / الإجرام ومأزق العلوم الاجتماعية

إن العلوم الاجتماعية الغربية (علم الإجرام ، علم الاجتماع ، علم النفس . . .) تواجه اليوم مأزقا غير هيِّن بخصوص الفهم والتفسير والتحكم في ظاهرة الانحراف / الإجرام المستشرية في المجتمعات الغربية الحديثة . إن التحدي الذي يجابه هذه العلوم بهذا الشأن يشبه إلى حد كبير التحدي الضخم الذي تعاني منه اليوم العلوم البيولجية والطبية إزاء وباء مرض فقدان المناعة المعروف « بإيدز Aids » ففي كلتا الحالتين فإن العلماء المختصين يجدون أنفسهم في حيرة وضيق . ومن هنا بدأت تظهر حركة نقدية داخل العلوم الاجتماعية ذاتها ربما تتسع رقعتها قبل نهاية هذا القرن لتشمل معظم العلوم الاجتماعية والإنسانية ، ومن ثم انتظار ظهور معالم جديدة لابستيمولجية هذه العلوم وتأسيس مناظير ونظريات بديلة عن تلك التي تسود منذ نهاية القرن الماضي . فجايمس ولسن ينتقد بشدة في الفصل الثالث من كتابه مختصيِّ العلوم الاجتماعية المعاصرين بسبب عدم استنادهم في كثير مما يكتبون ويقولون ويستنتجون على أسس علمية موثوق بها فيتهمهم بأنهم طالما يبنون فرضياتهم ونظرياتهم على مجرد تصورات عقائدية (أيديولوجية) بعيدة كل البعد عن الروح الملتزمة بالأخلاق والأمانة العلمية . ولعل في طليعة المآخذ التي يوجهها البعض من علماء العلوم الاجتماعية إلى معارفهم اليوم هي التزام العلوم الاجتماعية البالغ فيه بقوانين الحتمية الاجتماعية Social determinism التي لا تعطي أهمية تذكر إلى دور الفرد النشط داخل الهياكل والتركيبات الاجتماعية . أي أنها لا تنظر بطريقة جدية إلى أن الحياة الاجتماعية هي نتيجة لجدلية بين الفرد والمجتمع .

---

(١) Cloward, R. and Ohlin, L., Delinquency and opportunity, New York (1960) The Free Press.

(٤) ضرورة تحرر العلوم الاجتماعية من الحتمية المتصلبة

إن القارئ لكتاب « الجانحون الأحداث لماذا Delinquants Pourquoi »[٢] يجد فيه هجوما عنيفا على الأسس الابستيمولوجية للعلوم الاجتماعية وفي مقدمتها علم الإجرام وعلم الاجتماع اللذان طالما شغلتهما دراسة ظاهرتي جنوح الأحداث والجريمة . يركز عالم الإجرام الكندي هذا نقده للعلوم الاجتماعية لكون هذه الأخيرة تستعمل حتمية اجتماعية متشددة تسقط من حسابها وتفسيراتها للظواهر الاجتماعية دور الفرد كفرد ـ ذي استعدادات وامكانات شخصية ـ في التأثير في وجهة سلوكه الخاص من ناحية وتشكيل مجرى الأحداث الجماعية من ناحية أخرى . وسعيا للخروج من مخانق الحتمية الاجتماعية المتصلبة لاذ موريس كوسون إلى استعمال منظور التحليل الاستراتيجي L'analyse Strategique[٣] لدراسة ظاهرة جنوح الأحداث في المجتمعات الغربية الحديثة . يعتبر هذا المنظور السلوك الانساني (سويا أو منحرفا) كنتيجة لتفاعل بين مؤثرات فردية (شخصية) واجتماعية . وبعبارة المؤلف نفسه فالإنسان ليس هو بالحيوان (حتمية قاهرة) ولا هو بالملاك (الحرية المطلقة من مغريات الحياة) ، وانما هو إنسان : أي خليط من الاثنين . إن موقف كوسون يدعو في الحقيقة إلى أن علمية العلوم الاجتماعية تتوقف على مدى التزامها من ناحية بالتحرر من عراقيل الحتمية الاجتماعية الجامدة وفتح مجال التعاون خاصة بين فروع هذه العلوم مثل علم النفس الذي يهتم بالفرد ، وفروع العلوم الاجتماعية الأخرى التي تعتني بدراسة المجتمع ونظمه الاجتماعية مثل علم الاجتماع وعلم السياسة .

وهذا ما يعكسه العمل المشترك لكل من جايمس ولسن وعالم النفس رتشارد هارستاين في محاولتهما لالقاء الضوء على ظاهرة الجريمة في كتابهما « الجريمة والطبيعة البشرية Crime and Human Nature »[٤] . فالباحثان يعتقدان اعتقادا جازما أن في تكامل استعمال فروع المعرفة الحديثة إثراء لفهم الظاهرة المدروسة . وانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ يوجهان الدعوة إلى جميع الأكاديميين ذوي الاختصاصات المتكاملة ان يكثروا من التعاون بينهم في البحوث العلمية :

"We hope to convince our colleagues, as we have convinced ourselves, that these academic perspectives can enrich one another" P. 15

(٥) عينات من الماضي والحاضر للحتمية الاجتماعية

من الملاحظ أن علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد المحدثين والقدماء مثل ابن خلدون يرجعون تفسير السلوك الإنساني إلى عوامل وأسباب اجتماعية شبه قاهرة . ففي تقديرهم يتحتم إذن الاستعانة بطبيعة النظام الاجتماعي بمستوياته المتعددة لفهم منطقية ذلك السلوك . فالحتمية الاجتماعية هي في النهاية المؤثرة في تصرفات الأفراد والجماعات . فصاحب المقدمة يفسر ازدياد وتنوع ملامح الانحراف/ الإجرام بالنمط الاجتماعي الذي تتصف به البيئة الحضرية في زمانه . إن العلامة ابن خلدون يؤمن بالحتمية الاجتماعية لما لحياة الثراء والترف من علاقة مباشرة بينها وبين انتشار السلوك الانحرافي / الإجرامي في المحيط الحضري . فتكسد الأسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف ، وهذه مفسدات في المدينة على

(٢) Cusson, M., Delinquants Pourquoi ? Montreal (1981) Hurtubise HMH : 70 Ibid.
انظر المراجعة الكاملة لهذا الكتاب من طرف كاتب هذه السطور بمجلة الفيصل .
(٣) المرجع السابق ص ٦١ ـ ٧٣ .
(٤) Wilson, J. and Herrnstein, R., Crime and Human Nature : New York (1985) Simon & Schuster, Inc. (1985).

العموم في الأسواق والعمران والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من ألوانها . فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه (بالوسائل الشرعية وغير الشرعية بالتعبير الحديث) ، وتنصرف النفس إلى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له (الإجرام المهني Professional - Criminality) ، فتجدهم أجرئاء على الكذب والمقامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات . ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه ، والمجاهرة به وبدواعيه ، واطراح الحشمة في الخوض فيه بين الأقارب وذوي المحارم الذين تقتضي البداوة الحياء منهم في الإقذاع بذلك . وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته ، وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار ، كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودون في كل دولة (*) .

أما عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم Durkheim فهو أكثر علماء الاجتماع الغربيين الأوائل مناداة بالحتمية الاجتماعية المتصلبة . إنه ألغى تماما أهمية دور العوامل النفسية في التأثير على سلوك الفرد . فلا مكان عنده لعلم النفسي في تفسير السلوك البشري . إن المجتمع ومؤثراته الاجتماعية هي المرجع الموثوق به لتفسير الظواهر الاجتماعية والفردية على السواء . إن دراسته المشهورة حول ظاهرة الانتحار Le Suicide (٦) لا تترك مجالا لأي تفسير نفساني لهذه الظاهرة .

إن الانتحار بأصنافه الثلاثة (بوازع الانفرادية eqoiste ، أو من أجل الآخرين altruiste أو بسبب التصدع الاجتماعي / الثقافي anomique) يعود إلى أسباب اجتماعية بحتة : أنواع الانتحار الثلاثة هذه تجد تفسيرها فيما سماه دوركايم L' integration sociale أو الالتحام الاجتماعي . فالشخص يدفع بحياته الى المخاطر (حتى الموت) من أجل الجماعة ، وذلك عندما تكون درجة تضامنه الاجتماعي عالية . وهو قد ينهي حياته بنفسه إذا كان لا يشده ولا يربطه أي رباط بالآخرين . وهو قد ينتحر بسبب تصدع الروابط الاجتماعية / الثقافية (تتوفى مثلا زوجه فجأة أو حدوث تغير في القيم والمعايير الثقافية) بصورة مباغتة وسريعة . ومن هنا توصل دور كايم إلى أهم مفهوم سوسيولجي عرف به في علم الاجتماع المعاصر : ألا وهو مفهوم الأنومي Anomie .

إن حالة الأنومي هي أساسا وضع اجتماعي ثقافي متصدع / مرتبك / متوتر يجعل الفرد في حلٍّ من الالتزام بأي معايير اجتماعية ثقافية تقريبا . والعلاقة بين هذه اللامعيارية وتزايد ظاهرات الانحراف / الإجرام علاقة وثيقة في نظره .

ونظرا للتأثير الضخم لدور كايم على علماء الاجتماع المحدثين فإن الحتمية الاجتماعية المتشددة تطبع الكثير مما كتب ونشر في علم الاجتماع في الغرب على الخصوص . والحتمية الاجتماعية أصبحت تقترن - منذ كتب عالم الاجتماع الفرنسي هذا كتابه : قواعد المناهج السوسيولجية (٧) بالعلمية في ميدان الدراسات الاجتماعية . إن الحتمية الاجتماعية الدوركايمية ليست متصلبة فقط وإنما هي أيضا حتمية آلية (ميكانكية) لا تبوىء الفرد أي دور . انه يتلقى كل شيء من المجتمع دون أن يرد على المجتمع ولو بالقليل . إنه يتأثر بالمجتمع

(*) عبد الرحمن بن خلدون المقدمة : بيروت - دار القلم ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧٤ .
(٦) Durkheim, E., Le Suicide, Paris (1960) PUF.
(٧) Durkheim, Les regles de la methode sociologique; Paris (1981) PUF.

ولا يؤثر أبدا فيه . إنه أمام قوى المجتمع مثل الريشة في مهب الرياح . فالتفاعل بين المجتمع والفرد عند دور كايم هو تفاعل ذو اتجاه واحد : من المجتمع الى الفرد . وتلك هي قيمة الحتمية الاجتماعية المتصلبة الميكانيكية .

وكمثال آخر على انتشار الحتمية الاجتماعية المتصلبة في العلوم الاجتماعية يمكن ذكر ميدان دراسة التغير الاجتماعي في المجتمعات المعاصرة . فالنظريات التي تتحدث عن التنمية أو عن التحديث أو عن التصنيع هي نظريات متأثرة في عمقها بمباديء الحتمية الاجتماعية الميكانيكية . وهذا ما يطرحه الكتاب الهام لريمون بودون Raymond Boudon بعنوان « مكان للفوضى »[(٨)] . إن هذا العالم الاجتماعي الفرنسي يؤكد أن نظريات العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد على الخصوص) في التغير الاجتماعي هي نظريات فاشلة في محاولتها لتفسير ظاهرة التغير الاجتماعي بمنظور الحتمية الاجتماعية المتصلبة . ويرجع ذلك في نظر بودون إلى التعميمات السهلة التي تجازف بها مثل تلك النظريات في تفسيرها للتغير الاجتماعي في مجتمعات ذات حضارات وظروف مختلفة .

فبودون ينتقد بهذا الشأن خاصة عالم الاجتماع الفرنسي Durkheim والفيلسوف الاجتماعي كارل ماركس Karl Marx إذ أنهما لا يعطيان أي أهمية تذكر لدوافع الفرد الداخلية التي تلعب حتما دورا في تشكيل سلوك الفرد . أما منظور عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber ، فهو منظور أرحب وأوسع بسبب اعتماده على فهم دوافع صاحب السلوك والوضع المحيط به في الوقت نفسه ، لقد أطلق بودون على منظور فيبر اسم الفردية المنهجية L'individualisme methodologique ، فهذا الأخير يرى أن من يريد فهم السلوك الفردي ينبغي أن يبحث عن المعنى الذي يعطيه الشخص لسلوكه في وضع اجتماعي معين ، وأن يتحاشى تجزئة L'atomisme السلوك الإنساني . وعلى هذا الأساس عرف علم اجتماع ماكس فيبر بالتركيز على فهم الدوافع الداخلية للفرد في أي محاولة ناضجة لتحديد أسباب سلوكه .

إن تأثير الحتمية الاجتماعية التي ينتقد بعض مظاهرها كل من بودون وفيبر نجدها واضحة المعالم في كتاب « تأملات في الجريمة » لجيمس ولسن . فمنظور هذا الأخير في هذا الكتاب يمكن وصفه بأنه منظور اجتماعي ثقافي الطبيعة . أي أن المؤلف أرجع زيادة رقعة اتساع ظاهرتي الانحراف والجريمة بالمجتمع الأمريكي خاصة منذ الستينيات - إلى عوامل اجتماعية ثقافية أحدثت تغييرا جذريا في طبيعة بنية المجتمع الأمريكي الحديث .

فمن بين العوامل الاجتماعية يمكن ذكر ضعف الأواصر الاجتماعية بين الجيران خاصة إذا كانوا ينتمون إلى مجموعات غير متجانسة مثل كبار السن والسود والمهاجرين الجدد . أما العوامل الثقافية فهي تتمثل أساسا في القيم والعادات والمعايير الاجتماعية الجديدة التي اكتسحت المجتمع الأمريكي الحديث مثل ما سمّاه ولسن بقيمة التعبير عن الذات Self - expression

(٦) قصور الحتمية الاجتماعية عن تفسير الظواهر الاجتماعية الخاصة

إن تأثر سلوك الفرد بالمؤثرات الاجتماعية بمعناها الواسع هو في رأينا مسلمة من المسلمات . وكذلك الشأن بالنسبة لتأثر سلوك الفرد بمؤثرات ودوافع شخصية هذا الأخير . فسلوك الإنسان هو إذن حصيلة لهذين المستويين من التأثيرات . ومن ثم فنحن لا نقبل موقف الحتمية الاجتماعية المتصلبة التي تلغي تماما تأثير العوامل الفردية على سلوك الشخص . فملف تاريخ

(٨) Boudon, R., La Place du desordre : Critique des theories du changement social, paris (1984) PUF.

المجتمعات الانسانية يدل على أن الفرد (الرسول ، الثوري ، المصلح ......) طالما جابه أو ثار على الأنظمة الاجتماعية السائدة ، وبالتالي فالفرد بعقائده وأفكاره وجرأته طالما كان مصدرا للتغيرات الاجتماعية داخل مجتمعه وخارجه . إن مثل هذه الأمثلة تشير بوضوح إلى مدى قدرة الإنسان كفرد على الوقوف ضد حتمية الأنظمة الاجتماعية من ناحية ، وكفاءته على إحداث التحولات الاجتماعية الضخمة من ناحية أخرى . وعلى مستوى آخر يمكن القول إن الفرد يظل متفاعلا (متأثرا ومؤثرا) مع مجتمعه ، وإن كان ذلك على درجة دنيا لا تكاد تحدد ملامحها .

أما بالنسبة لمدى تأثير المجتمع على سلوك الفرد فلذلك أيضا جانبان : (أ) تأثير كامل وذلك عندما يكون ولاء الفرد ولاء تاما للنظام الاجتماعي الثقافي للمجتمع . (ب) تأثير ضعيف وذلك عندما يكون النظام الاجتماعي الثقافي متدهورا : أي عندما يشكو من حالة تصدع اجتماعي ثقافي (آنومي Anomie) خطير . وهذا ما يتصف به وضع المجتمع الأمريكي الراهن . فتضخم نسبة الانحراف / الاجرام بالساحة الأمريكية الحديثة يعود أساسا إلى الحتمية الاجتماعية الأنومية التي بدأت تنتشر معالمها في هذا المجتمع . وهذا يعني أن انهيار قواعد وضوابط السلوك هي مصدر الانحراف / الاجرام وليست الطبيعة البشرية . فإذا كانت حالة تصدع بنيات التضامن والترابط الاجتماعيين (حالة آنومي) ترجع إلى حد كبير إلى عوامل التصنيع والتحديث التي عاشها ويعيشها المجتمع الأمريكي منذ مطلع هذا القرن على الخصوص ، فإن مجموعة من علماء الاجتماع الأمريكيين قد أضافوا في دراسة جديدة مفهوم الفردية Individualism (٩) كعامل أساسي لفهم عمق تصدع التضامن الاجتماعي بالمجتمع الأمريكي الحديث ككل . فالباحثون يستنتجون من دراستهم هذه أن الفردية أصبحت المحرك الرئيسي للانسان الأمريكي الحديث . إن شعور الفرد بأنه وحدة مستقلة يحتل أولوية في وعي المواطن الأمريكي اليوم .

إن الفرد هو سيد نفسه وبالتالي فهو يمارس استقلالية كاملة في قراراته التافهة والخطيرة . إن الشعور الحاد بأهمية الفردية ليس مسألة نظرية طوباوية في المجتمع الأمريكي ، وإنما هو واقع اجتماعي حددت له أطر وبنيات وإجراءات وشعارات تمس الجوانب الصغيرة والكبيرة من الحياة الأمريكية الحديثة . فالعائلة الأمريكية كنواة اجتماعية تأثرت في بنيتها بمبدأ الفردية . العائلة الأمريكية الممتدة لم يعد لها وجود يذكر . أي أنها لم تعد واقعا اجتماعيا مقبولا ، وذلك منذ زمن طويل . إن ريح مد الفردية بدأ يؤثر حتى في بنية العائلة النووية الصغيرة المكونة من الزوجين والأولاد . فلقد شهد المجتمع الأمريكي منذ الستينيات على الخصوص زيادة في نسبة العائلات النووية بدون أولاد .

كما أن ظاهرة زيادة العائلات أحادية الزوج (الأم على العموم) هي في تضخم حسب الاحصائيات السنوية . وهي كلها مؤشرات تفيد أن الفردية تزداد قوة بمرور الزمن في المجتمعات الغربية الصناعية عامة .

أما ملامح الفردية على مستويات أقل أهمية فيمكن ذكر ظاهرة التقبيل كمثال على ذلك . التقبيل بالمجتمع الأمريكي والكندي هو ظاهرة عمودية . أي أن التقبيل مقبول « اجتماعيا » بين الذكر والأنثى فقط . وهو رمز على تسرب آثار الفردية والعزلة حتى في التعبير عن العواطف والمشاعر العفوية .

أما المجتمعات التي لم تبوىء الفردية تلك المكانة فإن

(٩) Bellah, Rand Others : HABITS OF The HEART : Individualism and Commitment in American life : New York (1986) Harper and Row.

الثقيل ما زال ظاهرة أفقية : أي مقبولا اجتماعيا بين الذكر والذكر ، وبين الأنثى والأنثى ، وبين هؤلاء والأطفال ، وبين الاطفال أنفسهم ، وطبعا بين الذكر والأنثى . فالثقيل هنا هو أداة اتصال لا أداة اعتزال .

ان أصحاب هذه الدراسة يرون أن تصلب عود الفردية الشرسة بالمجتمع الامريكي أدى إلى تدهور وتلاشي ما أطلقوا عليه بالايكولوجيا الاجتماعية Social Ecology . فبينما نتج عن عملية التصنيع تلوث بيئي للمحيط الطبيعي الذي أصبحت سلامته مهددة ، فإن الفردية المتصلبة بالمجتمع الامريكي قد أدت هي الاخرى في نظر هؤلاء الباحثين ـ إلى تهشيم أسس البيئة الاجتماعية ـ وفي ذلك نسف لما تبقى من تضامن البناء الاجتماعي للمجتمع الأمريكي الذي تضرر قبل ذلك من عوامل التصنيع والتحديث .

وهكذا فأسباب ظاهرة الأنومي الكبرى بهذا المجتمع لم تعد تقتصر اليوم على مؤثرات حركات التصنيع والتغير الاجتماعي المقترن بها ، كما تحدث عنها دور كايم في أوروبا على الخصوص ، وإنما تساهم اليوم في المجتمع الأمريكي الحالي بنمط شخصية حديثة تمثل الفردية والعزلة والاستقلالية عن الآخرين كقيمة ثقافية مركزية لا استغناء للفرد الحديث عنها .

فالانحراف / الاجرام بعيد أن يتقلص حجمه في محيط اجتماعي أصبحت فيه الفردية ـ لا القيم والمعايير الجماعية ـ هي الموجه الرئيسي لسلوك الفرد . إذ أن تلك القيم والمعايير الجماعية لا ينتظر منها أن تهدي أو تسيطر على سلوك الفرد . والحال أنها تشكو من حالة الأنومي . فالفرد الأمريكي مقود إذن للانحراف / الاجرام تحت ضغط عاملين : (١) الأنومي الاجتماعية الثقافية ، (٢) تصلب عود الفردية في شخصية الفرد الامريكي . فوسائل الضبط الاجتماعي على المستوى الجماعي والفردي قد تلقت ضربة حاسمة من الأساس ، إنها وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الانحراف / الاجرام يزداد في غياب هذه الوسائل ، وأن محاولة السيطرة على الانحراف والجريمة بالوسائل الرسمية (الشرطة وغيرها . .) لم تكلل بالنجاح عموما . إن دراسة «الضبط الاجتماعي للجريمة»[١٠] لعالم الإجرام الكندي موريس كوسون Maurice Cusson تؤيد ما أشرنا إليه . فانهيار أسس الضبط الاجتماعي الأولية تضع بالتأكيد المجتمع في حلقة مفرغة بخصوص التغلب على ظاهرتي الانحراف والجريمة . ومما يضاعف من ذلك إفلاس طرق إصلاح المنحرفين / المجرمين كما بينا من قبل . فلكل هذه الاعتبارات يمكن القول بأن الذي يفسر ظاهرة الانحراف / الإجرام المتضخمة والمتزايدة في مجتمع ما هو العوامل الاجتماعية . وتتلخص هذه الأخيرة في ضعف وسائل التضامن الاجتماعي وبالتالي عدم قدرة وسائل الضبط الاجتماعي غير الرسمية على ردع الفرد عن الانسياق في تيار الانحراف/ الإجرام ومن هنا فازدياد الانحراف/ الاجرام في المجتمع الامريكي الحديث هو حصيلة ظروف اجتماعية بالتأكيد . فالحتمية الاجتماعية هو إذن إطار صالح لتفسير ما يسمى في العلوم الاجتماعية بالظاهرات الكبرى الماكروسكوبية Macroscopic Phenomena مثل ظاهرة الانحراف / الإجرام في المجتمع الأمريكي الحديث . فليس هناك إذن ما يؤخذ عن ابن خلدون ودور كايم وولسن في ارجاع بعض الظاهرات المتسعة الانتشار بالمجتمع الى عوامل اجتماعية . إن الذي يعاب عليهم هو اعتقاد

(١٠) Cusson, M. Le Controle Social du crime, Paris (1983) PUF.
انظر مراجعة هذا الكتاب لكاتب هذه السطور بمجلة الفيصل عدد ٨٣ + ٨٤ .

بعضهم خاصة دور كايم في الحتمية الاجتماعية المتصلبة التي تؤمن بأن الفرد لا حول له ولا قوة أمام الواقع الاجتماعي . وكما رأينا فإن الفرد هو أكثر من أن يكون ريشة في مهب الرياح . وهذا ما تعجز عن تفسيره تفسيرا علميا الحتمية الاجتماعية المتشددة ذات الرؤية الميكانكية لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسلوكية . وبعبارة أخرى فإن الحتمية الاجتماعية تفسر العام وتعجز عن إعطاء براهين لتفسير الخاص من الظواهر الاجتماعية والنظريات والتفسيرات العلمية الموثوق برؤيتها هي تلك التي تستطيع أن تعلل وتفسر النمط الخاص والنمط العام من الظاهرات والتصرفات التي يفرزها المجتمع الانساني . لذلك فإن المنظور الذي يأخذ بعين الاعتبار طرفي الجدلية الاجتماعية (الفرد والمجتمع) هو بالتأكيد أكثر واقعية بالنسبة للتحليل الاجتماعي للظاهرات السلوكية والاجتماعية ، كما أشرنا في مطلع هذه التأملات .

(٧) إشكالية عقوبة الإعدام

ليس بالعجيب أن يثير اليوم واقع الانحراف / الجريمة - كما ورد في كتاب تأملات في الجريمة - كثيرا من القلق والحيرة والغضب وحتى اليأس بين مواطني كل من المجتمع الأمريكي والكندي . فاستمرار ارتفاع نسبة الانحراف / الإجرام بما فيه الازدياد الهائل لجرائم العنف بكل أنواعها خاصة ما يسمى بظاهرة القتل الجماعي Serial Murder [١١] من جهة ، وفشل مناهج إصلاح المنحرفين / المجرمين من جهة أخرى ، أدى بهذين المجتمعين إلى إعادة النظر في قضية عقوبة الإعدام . فمن مؤشرات ذلك بكندا اليوم وجود أغلبية كندية تؤيد إعادة استعمال عقوبة الإعدام التي ألغي العمل بها منذ عام ١٩٧٦ . وكاستجابة لهذا الاتجاه الشعبي الكاسح لصالح إعادة عقوبة الإعدام ، فإن البرلمان الكندي شرع في مناقشة مشروع إعادة هذه الأخيرة مع بداية شهر مايو ١٩٨٧ . واستنادا على تكهنات استطلاعات الرأي العام الحالية ، فإن تصويت الأحزاب الثلاثة في البرلمان سوف يكون إلى صالح إعادة تطبيق عقوبة الإعدام في المجتمع الكندي .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فإن عددا من ولاياتها يطبق فعلا عقوبة الإعدام باستعمال طرق مختلفة لذلك مثل الكرسي الكهربائي Electric Chair أو الحقنة القاتلة deadly injection ، وقد نددت في أبريل ١٩٨٧ منظمة العفو الدولية بسياسة تطبيق عقوبة الإعدام في المجتمع الأمريكي الحديث ، وذلك لأن نسبة الأقليات (الأمريكيون السود أو المنحدرون من أصل أمريكي لاتيني) التي تنفذ فيها هذه العقوبة تفوق نسبة الأمريكيين البيض الذين يتعرضون لعقوبة الاعدام . ومن ثم فالمنظمة تتهم الجهاز القضائي الامريكي باتباع ممارسة سياسة التمييز العنصري . ويرجع الناهضون لعقوبة الإعدام في كل من الولايات المتحدة وكندا أن يكون الرجوع إلى عقوبة الإعدام مرتبطا إلى حد كبير بالخط السياسي المحافظ لقيادتي البلدين المتمثلين في الحزب الجمهوري بالمجتمع الأمريكي والحزب المحافظ التقدمي بكندا برئاسة كل من الرئيس ريجان ورئيس الوزراء ملروني .

وعند تفحص موقف المعارضين لعقوبة الإعدام نجد أن موقفهم لا يتسم بالموضوعية والمنطقية إذ أن حججهم هي أساسا حجج عقائدية (أيديولوجية) . فمنهم من يرفضها على أسس عقائدية دينية مثل رجال الكنيسة ، إذ أن الدين المسيحي في رأيهم لا يقبل عقوبة الإعدام تحت أية ظروف . وهناك فريق ثان يعارض عقوبة الإعدام على أساس أخلاقي . فالمجتمع المتحضر لا ينبغي أن يسمح بممارسة عقوبة الإعدام . إن مثل ذلك

(١١) يطلق هذا على الجاني الذي يقتل عدة أشخاص في أوقات مختلفة من جهة ، ولكن بالطريقة نفسها من ناحية أخرى .

التصرف يمثل معاملة العنف بالعنف . وهو بالتالي سلوك ثاري لا يمكن للدولة المتحضرة أن تقوم به . وهناك مجموعة ثالثة ، أغلبيتها تنتسب إلى المختصين في العلوم الاجتماعية ، سبب معارضتها لعقوبة الإعدام هو قولهم بأن ليس هناك برهان جازم يثبت أن استعمال عقوبة الإعدام يؤدي فعلا إلى إرتكاب أقل للجرائم الخطيرة على الخصوص . إن حجة الإحصائيات هذه ليست مقنعة هي الأخرى . فنتائج البحوث في هذا الصدد متضاربة ومتناقضة . فبعض هذه البحوث يدعي من ناحية أن عقوبة الإعدام ذات مفعول رادع بالنسبة لمرتكبي الجرائم الخطيرة . وهناك بحوث تفيد بأن المسألة هي عكس ذلك . وبذلك تكفهر رؤية المواطن وتستولي عليه الحيرة والضياع عندما يستمع إلى الجانبين . وبذلك يزداد الالتباس حول حكمة تطبيق عقوبة الإعدام .

وسط هذا الغموض الفكري جنح المعارضون لعقوبة الإعدام إلى قراءات غير دقيقة للنصوص الدينية التي نادت بتطبيق سياسة السن بالسن والعين بالعين . . . بخصوص الجرائم التي يقترفها أشخاص ضد الآخرين . فهم يؤولون مبدأ السن بالسن والعين بالعين على أنه موقف مشحون بنزعة ثأرية . وهذا التأويل فيه في رأينا - كثير من الأيديولوجية التي توجب علينا التوقف عندها . فالقرآن ذكر أن الشرائع السماوية السابقة - خاصة شريعة بني إسرائيل أمرت بتطبيق مبدأ السن بالسن . . . لا بمعنى الأخذ بالثأر البغيض من الجاني وإنما بمعنى القصاص ، أي العدالة والمساواة بين المجني عليه (الضحية) والجاني ، إذا كان هذا الأخير متعمدا بالغا وسليم العقل في نظر الشريعة الإسلامية . فدعوة الاسلام إلى مبدأ القصاص من الجاني الذي تتوافر فيه تلك الشروط هي دعوة تستند إلى أهمية مبدأ العدالة والمساواة المطلقتين بين بني البشر في كل الأحوال وفي طليعتها حق الجميع بالتمتع بالحياة ، أقدس شيء يتحتم الدفاع عنه من طرف الفرد والجماعة . ومما يفضح سوء فهم معنى سياسة العين بالعين عند المعارضين لعقوبة الإعدام أن القرآن يدعو المجني عليه أو أهله (في حالة وفاته) إلى العفو عن الجاني باعتباره أفضل من المطالبة بالقصاص لذوي النفوس الكبيرة الندية بروح العفو والتسامح . فالتصور الإسلامي في التعامل مع الجناية هو تصور جدلي . فمن ناحية ضمن الحقوق الكاملة للضحية . أي أن المجني عليه له الحق في الاقتصاص من الجاني . ومن ناحية ثانية ، فالضحية (أو أهله) يمكن لهم أن يعفوا عن الجاني . فالحق في الاقتصاص هو قانون شرعي لتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع على أساس التساوي أولا وقبل كل شيء ، إذ أنه يصعب تصور استقرار المجتمع البشري في المدى القصير أو الطويل دون نضج وعي المواطن بمبدأ المساواة بين أفراد المجتمع على كل المستويات ، وفي طليعتها الشعور بالمساواة بين النفس والنفس وبين الإصبع والإصبع . . . وبين كل الناس بغض النظر عن لون بشرتهم أو طبقتهم الاجتماعية أو مستواهم الثقافي . فالرؤية الإسلامية تنظر إلى المساواة بين الناس ككل . فهي لا تساوي بينهم في واجب الصوم والصلاة ، وتميز بينهم في حق الحياة والعدالة الاجتماعية . فمبدأ التساوي بين بني آدم مبدأ مطلق في المجتمع الاسلامي الحق . فحق المجني عليه في الاقتصاص هو ملمح من ملامح المساواة بمحتواها الإسلامي . فالقصاص هو إذن حق موضوعي لتحاشي جر المجتمع إلى حالة من الفوضى نتيجة لعدم ممارسة مبدأ المساواة حتى في أخذ حق الحياة من الجناة الذين قتلوا آخرين بتعمد في ظروف سن الرشد وسلامة العقل .

لكن الإسلام لم يتعامل مع الجناية بالقصاص من الجاني كحق موضوعي للضحية فحسب ، بل تعامل مع

الجناية على مستوى عاطفي أيضا . فدعا الضحية أو أهله إلى ممارسة العفو والتسامح إزاء الجاني الذي يستحق التعاطف والعفو . إن مثل هذا السلوك من طرف المجنى عليه سوف يعزز من روابط التضامن بين الجاني والضحية . فالمعادلة الإسلامية لعقوبة الجاني تعتمد إذن على توعية المواطن بأهمية المساواة الموضوعية بينه وبين بقية أفراد المجتمع ، وهي في الوقت نفسه تترك الباب مفتوحا للضحية التي يمكن أن تسامح وتعفو عن الجاني حسب الظروف . وهو موقف يكاد يتناقض تماما مع موقف بعض التشاريع الحديثة الغربية التي تعطي أهمية كبرى للجاني من ناحية وتهمش مكانة وحق الضحية من ناحية ، وتهمش مكانة وحق الضحية من ناحية أخرى .

وكما رأينا في كتاب « تأملات في الجريمة » فإن ولسن يميل إلى سياسة القصاص أي أن عقوبة الإعدام مثلا ، يجب أن تبنى على مبدأ العدالة لا على مبدأ المنفعة التي يستند عليه معارضو عقوبة الاعدام . فهؤلاء يقولون إنه لا ينبغي تطبيق هذه العقوبة إذا لم تثبت أنها عقوبة رادعة للآخرين . فتطبيقها في نظرهم لا يأتي بمنفعة للمجتمع .

(٨) معضلة الجريمة وإصلاح الجناة :

ومهما كان لأيديولوجية الأحزاب السياسية من تأثير على قضية عقوبة الإعدام ، فإن الوضع على جبهة السيطرة على وباء الانحراف والجريمة في هذين المجتمعين لا يبشر بخير . فالبحوث العلمية التي يقوم بها المختصون في العلوم الاجتماعية من علماء إجرام واجتماع ونفس واقتصاد تتفق على شيئين في هذا المضمار :

(١) ازدياد نسبة الانحراف والجريمة سنويا . فمجلة U. S News and World Report الأمريكية (مايو ١٨ /١٩٨٧ ص ٣٠) تشير إلى أن نسبة ازدياد الجريمة بالمجتمع الأمريكي كانت ١/١٢ مقارنة بإحصائيات السنة الماضية .

(٢) فشل برامج إصلاح المنحرفين والمجرمين على العموم . وهما نتيجتان تجد تفاصيلهما في الفصل الأول والفصل التاسع لكتاب « تأملات في الجريمة » لجيمس ولسن ، وفي الحقيقة لا تقتصر فقط هذه الاستنتاجات على ما ورد في كتاب ولسن . فعالم الإجرام الكندي موريس كوسون توصل هو الآخر الى نتائج مشابهة . ففي كتابه « الضبط الاجتماعي للجريمة »[١٢] خلص المؤلف - بعد تحليل ودراسة مكتب عن العلاج النفساني La psychotherapie ومدى تأثيره على إصلاح المنحرف / المجرم - إلى القول بأن تأثير هذا العلاج يساوي صفرا : L'effet zero ، ويعني هذا المفهوم أن استعمال العلاجات النفسية مع المنحرف / المجرم سواء داخل السجن أو خارجه لا يبدو أنها ذات فائدة إيجابية بالنسبة لإصلاحه واستيعابه من جديد في المجتمع كمواطن يعمل مع المجتمع لا ضده . وعلى أساس هذين المظهرين للانحراف / الإجرام في المجتمع الأمريكي والمجتمع الكندي اليوم يمكن فهم أسباب عروض القلق والحيرة واليأس التي تسود كثيرا من أفراد هذين المجتمعين . فالعالم المتخصص في قضايا الانحراف / الإجرام ، والسياسي صانع القرار ، والمواطن العادي ، كلهم يكادون يجمعون على التالي : أن استمرار ارتفاع نسبة الانحراف / الجريمة من ناحية وقصور سياسات الإصلاح على العموم من ناحية اخرى ، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى الشعور بأن الجميع يدورون في حلقة مفرغة لا يرجى منها إلا زيادة أكبر من أصناف الانحراف / الإجرام . وهذا يهدد بالتأكيد سلامة المجتمع على المدى الطويل .

(١٢) انظر هامش ١٠ أعلاه ، ص ٣١ - ٩٠ .